

مِفْتَاحُ دَارِ السَّعَادَةِ

ومشور ولاية العلم والإرادة

للعلامة الإمام شيخ الإسلام علم العلماء الأعلام

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي المشتهر

بابن قيم الجوزية المتوفى

سنة ٧٥١ هجرية

قال صاحب كشف الظنون (مفتاح دار السعادة) للشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية الدمشقي المتوفى سنة ٧٥١ كتاب كبير الحجم . فيه فوائد مرسله يقتبس من مجموعها معرفة العلم وفضله ومعرفة إثبات الصانع ومعرفة قدر الشريعة ومعرفة النبوة ومعرفة الرد على المنجمين ومعرفة الطيرة والقال والزجر ومعرفة أصول نافلة جامعة مما تكمل به النفوس البشرية إلى غير ذلك من الفوائد

الجزء الأول

يطلب من

دار الكتب العلمية

سكوت لبنان

لَسْمُ اللَّهِ الْحَكِيمِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا ، وأوضح لهم طرق الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا ، واتخذهم عبداً له فأقروا له بالعبودية ولم يتخذوا من دونه وكيفا ، وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه لما رضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا . والحمد لله الذي أقام في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا . واختص هذه الأمة بأنه لا تزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا ، يدعون من ضل إلى الهدى ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه الموقى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قبيلا ، فكف من قتل لا بليس قد أحيوه ، ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ، ومن مبتدع في دين الله بشبه الحق قد رموه ، جهاداً في الله وابتغاء مرضاته ، وبيانا لحججه على العالمين وبيانه ، وطباً للزاني لديه ونيل رضوانه وجناته . فحاربوا في الله من خرج عن دينه القويم وصرطه المستقيم ، الذين عقدوا ألوية البدعة واطلعوا أعنة الفتنة وخالفوا الكتاب واختلفوا في الكتاب واتفقوا على مفارقة الكتاب وتبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا ، أحمدوه وهو المحمود على كل ما قدره وفضاه . وأستعينه استعانة من يعلم أنه لا رب له غيره ولا إله له سواه . واستهديه سبل الذين أنعم عليهم من اختاره لقبول الحق وارتضاه ، واشكره والشكر كفيلا بالمزيد من عطاياه . واستغفره من الذنوب التي تحول بين القلب وهداه . وأعوذ بالله من شر نفسي وسيئات عملي استعاذة عبد فار إلى ربه بذنوبه وخطاياها ، واعتصم به من الأهواء المرديه والبدع المضلة فما حاب من أصبح به معتصما وبجماه نزيبا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين ، وأتحمّلها عن الجاحدين ، وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين . وأشهد أن الحلال ما حله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية لا ريب فيها وإن الله يبعث من في القبور ، وأشهد أن محمداً عبده المصطفى ونبيه المرتضى ورسوله الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ، أرسله رحمة للعالمين . وبحجة للسالكين وحجة على العباد أجمعين . أرسله على حين فترة من الرسل فهدي به إلى أقوم الطرق . وأوضح السبل وافترض على العباد ضاعته . وتعظيمه وتوقيره وتبجيله . والقيام بحقوقه وسد إليه جميع الطرق

فلم يفتح لأحد إلا من طريقه ؛ فشرح له صدره ورفع له ذكره وعلم به من الجهالة وبصر به من العمى ، وأرشد به من النقي ، وفتح به أعيناً عمياً ، وأذناً صماً وقلوباً غلفاً ، فلم يزل صلى الله عليه وسلم قائماً بأمر الله لا يرد عنه راد ، داعياً إلى الله لا يصد عنه صاد ، إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها وتألقت القلوب بعد شتاتها وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار ، وبلغ دينه ما بلغ الليل والنهار ، فلما أكل الله به الدين ، وأتم به النعمة على عباده المؤمنين ، استأنثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى من كرامته ، والمحل الأرفع الأسنى من أعلى جناته ، ففارق الأمة وقد تركها على المحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا من كان من الهالكين ، فصلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين ، صلاة دائمة بدوام السموات والأرضين مقيمة عليهم أبداً لا تروم انتقالاً عنهم ولا تحويلاً .

(أما بعد) فإن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فكان إهابه منها عين كاله ليعود إليها على أحسن أحواله فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغومها وهومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة فإن الضد يظهر حسنه الضد ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها وأيضاً فإنه سبحانه أراد أمرهم ونهيمهم وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فاهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي . وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه نغلى بينهم وبين أعدائه وامتنحهم بهم فلما آثروه وبنلوا نفوسهم وأموالهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون ذلك أصلاً فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة والحب فيه والبغض فيه وموالاته أوليائه ومعاداة أعدائه عنده من أفضل الدرجات ولم يكن يتال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه من إهابه إلى الأرض وجعل معيشته ومعيشة أولاده فيها . وأيضاً فإنه سبحانه له الأسماء الحسنى فمن أسمائه الغفور الرحيم الغفو الحليم الخافض الرفع المعز المذل المحي المميت الوارث الصبور ولا بد من ظهور آثار هذه الأسماء . . . فاقضت حكمته سبحانه أن ينزل آدم وذريته داراً يظهر عليهم فيها أثر أسمائه الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفض من يشاء ويرفع من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء وينتقم ممن يشاء ويعطي ويمنع وييسر إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته . وأيضاً فإنه سبحانه الملك الحق المبين والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويهين ويكرم ويعز ويذل فاقضى ملكه سبحانه أن أنزل آدم وذريته داراً تجرى عليهم فيها أحكام الملك ثم يتفهم إلى

دار يتم عليهم فيها ذلك وأيضاً فإنه سبحانه أنزلهم إلى دار يكون إيمانهم فيها بالغيب والإيمان بالغيب هو الإيمان النافع وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا بإيمانها في الدنيا فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب واللذة والكرامة الحاصلة بذلك لا تحصل بدونها بل كان الحاصل لهم في دار النعيم لذة وكرامة غير هذه ثم وأيضاً فإن الله سبحانه خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض والأرض فيها الطيب والخثيث والسهل والحزن والسكريم والثلثم فعمل سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخثيث من صلبه ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره وجعل الخثيث أهل دار الشقاء دار الخبثاء ، قال الله تعالى (ليميز الله الخثيث من الطيب ويجعل الخثيث بعضه على بعض فيركه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون) فلما علم سبحانه أن في ذريته من ليس بأهل لمجاورته أنزلهم داراً استخرج منها أولئك وألحقهم بالدار التي هم لها أهل حكمة بالغة ومشيتة نافذة ذلك تقدير العزيز العليم وأيضاً فإنه سبحانه لما قال للملائكة (إنى جعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أجابهم بقوله (إنى أعلم ما لا تعلمون) ثم أظهر سبحانه عليه إيمانه ولما لئكت بما جعله في الأرض من خواص خلقه ورسله وأنبياؤه وأوليائه ومن يتقرب إليه ويبذل نفسه في محبته ومرضاته مع مجاهدة شهوته وهواه فيترك محبوباته تقرباً إلى الله ويترك شهواته ابتغاء مرضاتى ويبذل دمه ونفسه في محبتي وأخصه بعلم لا تعلمونه يسبح بحمدي آناه الليل وأطراف النهار ويبعدني مع معارضات الهوى والشهوة والنفس والعدو إذ تعبدوني أتم من غير معارض يعارضكم ولا شهوة تعتربكم ولا عدو أسطه عليكم بل عبادتكم لي بمنزلة النفس لأحدهم . وأيضاً فإني أريد أن أظهر ما خفي عليكم من شأن عدوي ومحاربتة لي وتكبره عن أمرى وسعيه في خلاف مرضاتى وهذا وهذا كانا كامينين مستترين في أبي البشر وأبي الجن فأنزلهم داراً أظهر فيها ما كان الله سبحانه منفرداً به لا يعلمه سواه وظهرت حكمته وتم أمره وبدأ للملائكة من عليه ما لم يكونوا يعلمون . وأيضاً فإنه سبحانه لما كان يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقا تلون في سبيله صفاً ويحب التوايين ويحب المتطهرين ويحب الشاكرين وكانت محبة أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من محبته فكان أنزلهم إلى الأرض من أعظم النعم عليهم (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يتخذ من آدم ذرية يواليهم ويؤدمهم ويحبهم ويحبونه فحبتهم له هي غاية كالمهم ونهاية شرفهم

ولم يمكن تحقيق هذه المرتبة السنية إلا بما افترضناه واتباع أمره وترك إرادات النفس وشهواتها التي يكرها محبوبهم فأزلم داراً لهم فيها ونهاهم فقاموا بأمره ونهيه فقالوا درجة محبتهم له فأناهم درجة حبه إياهم وهذا من تمام حكته وكال رحمة وهو البر الرحيم ، وأيضاً فإنه سبحانه لما خلق خلقه أطواراً وأصنافاً وسبق في حكمه تفضيله آدم وبنيه على كثير من مخلوقاته جعل عبوديته أفضل درجاتهم أعنى العبودية الإختيارية التي يأتون بها طوعاً واختياراً لا كرها واضطراً ، وقد ثبت أن الله سبحانه أرسل جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره بين أن يكون ملكاً نبياً أو عبداً نبياً فنظر إلى جبريل كالمستشير له فأشار إليه أن تواضع فقال بل أن أكون عبداً نبياً فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته في مقام الإسماء ومقام الدعوة ومقام التحدى فقال في مقام الإسماء (سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً) ولم يقل رسوله ولا نبيه إشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه وقال في مقام الدعوة (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا) وقال في مقام التحدى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وفي الصحيحين في حديث الشفاعة وتراجع الأنبياء فيها وقول المسيح صلى الله عليه وسلم اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فدل ذلك على أنه نال ذلك المقام الأعظم بكمال عبوديته لله وكال مغفرة الله له وإذا كانت العبودية عند الله بهذه المنزلة اقتضت حكته أن أسكن آدم وذريته داراً يتألون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه بمحابه وترك ما لوقاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم / وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يعرف عباده الذين أنعم عليهم تمام نعمته عليهم وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكراً وأعظم التذاذاً بما أعطاهم من النعميم فأرغم سبحانه فعله بأعدائه وما أعد لهم من العذاب وأنواع الآلام وأشدهم تخليصهم من ذلك وتخصيصهم بأعلى أنواع النعيم ليزداد سرورهم وتكمل غيبتهم ويعظم فرحهم وتم لذتهم وكان ذلك من إتمام الإتمام عليهم ومحبتهم ولم يكن بد في ذلك من إزهاجهم إلى الأرض وامتحانهم واختبارهم وتوفيق من شاء منهم رحمة منه وفضلاً وخذلان من شاء منهم حكمة منه وعدلاً وهو العلم الحكيم ولا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه ومحبوبه الذي هو أحب الأشياء إليه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سروراً وعظمت لذته وكلت نعمته / وأيضاً فإنه سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته وهي الغاية منهم قال تعالى (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ومعنوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم والبقاء إنما يحصل في دار المحنة والإبتلاء وأما دار البقاء فدار لذة ونعيم لا دار ابتلاء وامتحان وتكليف .

وأيضاً فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعى الشهوة والفتنة وداعى العقل والعلم فإنه سبحانه خلق فيه العقل والشهوة ونصبهما داعيين بمقتضياتهما ليرتد مراده ويظهر لعباده عزته في حكمته وجبروته ورحمته وبره ولطفه في سلطانه وملكوته فاتقضت حكمته ورحمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرفه مايجبى عواقب إجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذراً فيها وأشد هروباً وهذا كحال رجل سائر على طريق قد كنت الأعداء في جنباته وخلفه وأمامه وهو لا يشعر فإذا أصيب منها مرة بمصيبة استعد في سيره وأخذ أهبة عدوه وأعد له ما يدفعه ولولا أنه ذاق ألم اغارة عدوه عليه وتبنيته له لما سمحت نفسه بالاستعداد والحذر وأخذ العدة فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبته .. فان قيل كان من الممكن أن لا يسلط عليهم العدو .. قيل قد تقدم أنه سبحانه خلق آدم وذريته على بنية و تركيب مستلزم لمخالطتهم لعدوهم وابتلائهم به ولو شاء لخلقهم كالملائكة الذين هم عقول بلا شهوات فلم يكن لعدوهم طريق إليهم ولكن لو خلقوا هكذا لكانوا خلقاً آخر غير بني آدم فان بنى آدم قد ركبوا على العقل والشهوة .. وأيضاً فإنه لما كانت محبة الله وحده هي غاية كمال العبد وسعادته التي لا كمال له ولا سعادة بدونها أصلاً وكانت المحبة الصادقة إنما تتحقق بإيثار المحبوب على غيره من محبوبات النفوس واحتمال أعظم المشاق في طاعته ومرضاته فهذا تتحقق المحبة ويعلم ثبوتها في القلب اقتضت حكمته سبحانه إخراجهم إلى هذه الدار المحفوفة بالشهوات ومحاب النفوس التي بإيثار الحق عليها والإعراض عنها يتحقق حبهم له وإيثارهم إياه على غيره ولذلك يتحمل المشاق الشديدة وركوب الأخطار واحتمال الملامة والصبر على دواعى الغى والضلال ومجاهدتها بقوى سلطان المحبة وثبت شجرتها في القلب وتطعم ثمرتها على الجوارح فان المحبة الثابتة اللازمة على كثرة الموانع والعوارض والصوارف هي المحبة الحقيقية النافعة وأما المحبة المشروطة بالعافية والنعيم واللذة وحصول مراد المحب من محبوبه فليست محبة صادقة ولا ثابت لها عند المعارضات والموانع فان المعلق على الشرط عدم عند عدمه ومن ذلك لأمر ولى عند انقضائه وفرق بين من يعبد الله على السراء والرخاء والعافية فقط وبين من يعبد على السراء والضراء والشدة والرخاء والعافية والبلاء . وأيضاً فان الله سبحانه له الحمد المطلق الكامل الذى لانهاية بعده وكان ظهور الأسباب التي يحمدها عليها من مقتضى كونه محموداً وهي من لوازم حده تعالى وهي نوعان فضل وعدل إذ هو سبحانه المحمود على هذا وعلى هذا فلا بد من ظهور أسباب العدل واقتضائها لمسمياتها ليرتب عليها كمال الحمد الذى هو أهله فسبحاً أنه سبحانه محمود على إحسانه وبره وفضله وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه وعقابه إذ يصدر ذلك كله عن عزته وحكمته ولهذا نبه سبحانه على هذا كثيراً كما في سورة الشعراء حيث يذكر في آخر كل قصة من قصص الرسل وأهمهم (إن في ذلك لآية

وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك لهو العزيز الرحيم) فأخبر سبحانه أن ذلك صادر عن عزته المتضمنة بكل قدرته وحكمته المتضمنة كمال علمه ووضع الأشياء مواضعها اللاتقة بها ما وضع نعمته ونجائه لرسله ولا تباغهم ونعمته وإهلاكه لأعدائهم إلا في محلها اللائق بها الكمال عزته وحكمته ولهذا قال سبحانه عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة والشقاوة ومصير كل منهم إلى ديارهم التي لا يلبق بهم غيرها ولا تقتضى حكمته سواها (وقضى بينهم بالحق وقيل اخذ الله رب العالمين) وأيضاً فإنه سبحانه اقتضت حكمته وحده أن فاوت بين عباده أعظم تفاوت وابتغى ليشكره منهم من ظهرت عليه نعمته وفضله ويعرف أنه قد حوى بالأنعام وخص دون غيره بالاكرام ولو تساوا جميعهم في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ولم يبذل شكرها إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله ومن أقوى أسباب الشكر وأعظمها استخراجها له من العبد أن يرى غيره في ضد حاله الذي هو عليها من الكمال والفلاح . وفي الأثر المشهور ان الله سبحانه لما أرى آدم ذريته وتفاوت مراتبهم قال يارب هلا سويت بين عبادك قال إني أحب أن أشكر فاقضت محبته سبحانه لأن يشكر خلق الأسباب التي يكون شكر الشاكرين عندها أعظم وأكمل وهذا هو عين الحكمة الصادرة عن صفة الحمد وأيضاً فإنه سبحانه لأشياء أحب إليه من العبد من تدلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره وتضرعه إليه . ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الأسباب في دار النعيم المطابق والعافية الكاملة يتمتع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين . وأيضاً فإنه سبحانه له الخلق والأمر والامر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنة دار تكليف تجري عليهم فيها أحكام التكليف ولوازمها وإنما هي دار نعيم ولذة واقتضت حكمته سبحانه استخراج آدم وذريته إلى دار تجري عليهم فيها أحكام دينه وأمره ليظهر فيهم مقتضى الأمر ولوازمه فان الله سبحانه كما أن أفعاله وخلقته من لوازم كمال أسمائه الحسنى وصفاته العلى فكذلك أمره وشرعه وما يترتب عليه من الثواب والعقاب وند أرشد سبحانه إلى هذا المعنى في غير موضع من كتابه فقال تعالى (لا يحسب الإنسان أن يترك سدى) أى مهملاً معطلا لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب وهذا يدل على أن هذا مناف الكمال حكمته وان ربوبيته وعزته وحكمته تأبى ذلك ولهذا أخرج الكلام مخرج الإنكار على من زعم ذلك وهو يدل على أن حسنه مستقر في الفطر والعقول وقبح تركه سداً معطلاً أيضاً مستقر في الفطر فكيف ينسب إلى الرب ما يقبحه مستقر في فطرته وعقولكم وقال تعالى (أحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) نزه نفسه سبحانه عن هذا الحسيان الباطل المضاد لموجب أسمائه وصفاته وأنه لا يلبق بجلاله نسبته إليه ونظائر هذا في القرآن كثيرة . وأيضاً فإنه سبحانه يحب من عباده

أمورا يتوقف حصولها منهم على حصول الأسباب المقتضية لها ولا تحصل إلا في دار الابتلاء والامتحان فانه سبحانه يحب الصابرين ويحب الشاكرين ويحب الذين يقا تلون في سبيله صفا ويحب التواين ويحب المطهرين ولا ريب أن حصول هذه المحبوبات بدون أسبابها تمتع كاستمتاع حصول الملزوم بدون لازمه والله سبحانه أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من الفاقد لراحته التي عليها طعامه وشرابه في أرض دوية مهلكة إذا وجدها كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال لله أشد فرحا بتوبة عبده المؤمن من رجل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليوت فاستيقظ وعنده راحلته عليها زاد وطعامه وشرابه فآله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحتة وسيأتي إن شاء الله الكلام على هذا الحديث وذكر سر هذا الفرع بتوبة العبد والمقصود أن هذا الفرع المذكور إنما يكون بعد التوبة من الذنب فالتوبة بالذنب لا زمان لهذا الفرع ولا يوجد الملزوم بدون لازمه وإذا كان هذا الفرع المذكور إنما يحصل بالتوبة المستلزمة للذنب فحصوله في دار النعيم التي لا ذنب فيها ولا مخالفة تمتع ولما كان هذا الفرع أحب إلى الرب سبحانه من عدمه اقتضت محبته له خلق الأسباب المقتضية إليه ليرتب عليها المسبب الذي هو محبوب له وهو أيضا فان الله سبحانه جعل الجنة دار جزاء وثواب وقسم منازلها بين أهلها على قدر أعمالهم وعلى هذا خلقها سبحانه لما له في ذلك من الحكمة التي اقتضتها أسماءه وصفاته فان الجنة درجات بعضها فوق بعض وبين الدرجتين كما بين السماء والأرض كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال ان الجنة مائة درجة بين كل درجتين كما بين السماء والأرض وحكمة الرب سبحانه مقتضية لهارة هذه الدرجات كلها وإنما تعمر ويقع التفاوت فيها بحسب الأعمال كما قال غير واحد من السلف ينجون من النار بعفو الله ومغفرته ويدخلون الجنة بفضلته ونعمته ومغفرته ويتقاسمون المنازل بأعمالهم . وعلى هذا حمل غير واحد ماجاء من إثبات دخول الجنة بالأعمال كقوله تعالى (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون) وقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) . قالوا وأما نفي دخولها بالأعمال كما في قوله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة أحد بعمله قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا فالمراد به نفي أصل الدخول . وأحسن من هذا أن يقال الباء المقتضية للدخول غير الباء التي نفي معها الدخول فالمقتضية هي باء السببية الدالة على أن الأعمال سبب للدخول مقتضية له كإقتضاء سائر الأسباب لمسيباتها والباء التي نفي بها الدخول هي باء المعاوضة والمقابلة التي في نحو قولهم اشتريت هذا بهذا فأخبر النبي ﷺ أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد وأنه لولا تغمده الله سبحانه لعبده برحمته لما أدخله الجنة فليس عمل العبد وان تنهى

موجباً بمجرد دخول الجنة ولا عوضاً لها فإن أعماله وإن وقعت منه على الوجه الذى يجب
الله ويرضاه ففى لا تقاوم نعمة الله التى أنعم بها عليه فى دار الدنيا ولا تعادها بل لو حاسبه
لو وقعت أعماله كلها فى مقابلة السير من نعمه وتبقى بقية النعم مقتضية لشكرها فلو عذبه فى هذه
الحالة لعذبه وهو غير ظالم له ولو رحمه لمكانت رحمته خيراً له من عمله كما فى السنن من حديث
فريد بن ثابت وحذيفة وغيرهما مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ان الله لو عذب أهل
سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم لمكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم
والمقصود أن حكمته سبحانه اقتضت خلق الجنة درجات بعضها فوق بعض وعمارها بآدم
وذريته وإزالمهم فيها بحسب أعمالهم ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة ، وأيضاً
فانه سبحانه خلق آدم وذريته ليستخلفهم فى الأرض كما أخبر سبحانه فى كتابه بقوله (انى
جعل فى الأرض خليفة) وقوله (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) وقال (ويستخلفكم
فى الأرض) فأراد سبحانه أن يتقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريته جنة الخلد
وعلم سبحانه بسابق عمله أنه لضعفه وقصور نظره قد يختار العاجل الحسيس على الآجل
النفيس فان النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة وهذا من لوازم كونه خلق من عجل
وكونه خلق عجولاً فلم سبحانه ما فى طبيعته من الضعف والخور . فاقترضت حكمته أن أدخله
الجنة ليعرف النعيم الذى أعد له عياناً فيكون إليه أشوق وعليه أحرص وله أشد طلباً فان
حبة الثى . وطلبه والشوق اليه من لوازم تصوره فن بأشر طيب شىء ولذته وتدوق به لم يكبد
بصبر عنه وهذا لأن النفس ذواقة تواقفة فاذا ذوقت نأقت ، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة
الإيمان وخالطت بشاشته قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئاً أبداً . وفى الصحيح من
حديث أبى هريرة رضى الله عنه المرفوع أن الله عز وجل يسأل الملائكة فيقول ما يسألنى
عبادى فيقولون يسألونك الجنة فيقول وهل رأوها فيقولون لا يارب فيقول كيف لو رأوها
فيقولون لو رأوها لمكانوا أشد لها طلباً فاقترضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه اياها ثم
فص على بنيه قصته فصاروا كأنهم مشاهدون لها حاضرون مع أبيهم فاستجاب من خلق
لها وخلقت له وسارع اليها فلم يئنه عنها العاجلة بل يهد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو فيراها
وطنه الأول فهو دائم الحنين إلى وطنه ولا يقر له قرار حتى يرى نفسه فيه كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل فى الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأول منزل

ولى من أبيات تلم بهذا المعنى :

وحى على جنات عمدين فانها منازلك الأول وفيها الخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

فسر هذه الوجوه أنه سبحانه وتعالى سبق في حكمه وحكمته أن الغايات المطلوبة لا تتال إلا بأسبابها التي جعلها الله أسباباً مفضية إليها ومن تلك الغايات أعلى أنواع النعيم وأفضلها وأجلها فلا تتال إلا بأسباب نصبها مفضية إليها وإذا كانت الغايات التي هي دون ذلك لا تتال إلا بأسبابها مع ضعفها وانقطاعها كتحصيل المأكل والمشروب والملبوس والولد والمال والجاه في الدنيا فكيف يتوهم حصول أعلى الغايات وأشرف المقامات بلا سبب يفضي إليه ولم يكن تحصيل تلك الأسباب إلا في دار المجاهدة والحريث فكان اسكان آدم وذريته هذه الدار التي ينالون فيها الأسباب الموصلة إلى أعلى المقامات من إتمام انعامه عليهم وسرها أيضاً أنه سبحانه جعل الرسالة والنبوة والخلة والتكليم والولاية والعبودية من أشرف مقامات خلقه ونهايات كمالهم فأنزلهم داراً أخرج منهم الأنبياء وبعث فيها الرسل واتخذ منهم من اتخذ خليلاً وكلم موسى تكليماً واتخذ منهم أولياء وشهداء وعبيداً وخاصة يحبهم ويحبونه وكان إنزالهم إلى الأرض من تمام الانعام والاحسان ، وأيضاً أنه أظهر لخلقته من آثار أسمائه وجريان أحكامها عليهم ما اقتضته حكمته ورحمته وعلوه . وسرها أيضاً أنه تعرف إلى خلقه بأفعاله وأسمائه وصفاته وما أحدثه في أوليائه وأعدائه من كرامته وانعامه على الأولياء وإمهاته واشقائه للاعداد ومن اجابته دعواتهم وقضائه حوائجهم وتفريج كرباتهم وكشف بلائهم وتصريفهم تحت أقداره كيف يشاء وتقليبهم في أنواع الخير والشر فكان في ذلك أعظم دليل لهم على أنه ربهم ومليكمهم . وأنه الله الذي لا إله إلا هو وأنه العليم الحكيم السميع البصير وأنه الإله الحق وكل ماسواه باطل فظاهرت أدلة ربوبيته وتوحيده في الأرض وتنوعت وقامت من كل جانب فعرفه الموقفون من عباده وأقروا بتوحيده إيماناً واذعاناً وجحده المخذولون على خليقته وأشركوا به ظلاماً وكفراً فأهلك من هلك عن بينة وحي من حي بينة والله سميع عليم . ومن تأمل آياته المشهودة والمسموعة في الأرض ورأى آثارها . علم تمام حكمته في اسكان آدم وذريته في هذه الدار إلى أجل معلوم فآله سبحانه إنما خلق الجنة لآدم وذريته وجعل الملائكة فيها خدماً لهم . ولكن اقتضت حكمته أن خلق لهم داراً يتزودون منها إلى الدار التي خلقت لهم وأنهم لا يتناولونها إلا بالزاد كما قال تعالى في هذه الدار (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس ان ربكم لروؤف رحيم) فهذا شأن الانتقال في الدنيا من بلد إلى بلد فكيف الانتقال من الدنيا إلى دار القرار . وقال تعالى (وتزودوا فان خير الزاد التقوى) فباع المغبونون

منازلهم منها بأجس الحظ وأنقص الثمن وباع الموقفون نفوسهم وأموالهم من الله وجعلوها
ثمناً للجنة فربحت تجارتهم ونالوا الفوز العظيم . قال الله تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين
أنفسهم واموالهم بأن لهم الجنة) فهو سبحانه ما أخرج آدم منها إلا وهو يريد أن يعيده
اليها أكمل اعادة كما قيل على لسان القدر يا آدم لا تجزع من قولي لك اخرج منها فلك خلقتها
فاني أنا الغني عنها وعن كل شيء . وأنا الجواد الكريم وأنا لا أمتنع فيها فاني أطعم ولا
أطعم وأنا الغني الحميد ولكن انزل إلى دار البذر فاذا بذرت فاستوى الزرع على سوقه
وصار حصيداً حينئذ فتعال فاستوفه أحوج ما أنت اليه الحبة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف
إلى أضعاف كثيرة فاني أعلم بمصلحتك منك وأنا العلي الحكيم (فان قيل ماذا كرمتموه من
هذه الوجوه وأمثالها إنما يتم إذا قيل إن الجنة التي أسكنها آدم وأهبط منها جنة الخلد
التي أعدت للمتقين والمؤمنين يوم القيامة وحينئذ يظهر سر اهباطه واخراجه منها) ولكن
قد قالت طائفة منهم أبو مسلم ومنذر بن سعيد البلوطي وغيرهما انها إنما كانت جنة في الأرض
في موضع عال منها لا أنها جنة المأوى التي أعدها الله لعباده المؤمنين يوم القيامة . وذكر
منذر بن سعيد هذا القول في تفسيره عن جماعة فقال وأما قوله لآدم اسكن أنت وزوجك
الجنة فقالت طائفة أسكن الله تعالى آدم صلى الله عليه وسلم جنة الخلد التي يدخلها المؤمنون يوم القيامة
وقال آخرون هي جنة غيرها جعلها الله له وأسكنه اياها ليست جنة الخلد قال وهذا قول
تكثير الدلائل الشاهدة له والموجبة للقول به لأن الجنة التي تدخل بعد القيامة هي من حيز الآخرة
وفي اليوم الآخر تدخل ولم يأت بعد وقد وصفها الله تعالى لنا في كتابه بصفاتنا ومحال أن يصف
الله شيئاً بصفة ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها به والقول بهذا دافع لما أخبر الله
به قالوا وجدنا الله تبارك وتعالى وصف الجنة التي أعدت للمتقين بعد قيام القيامة بدار المقامة ولم
يقم آدم فيها ووصفها بأنها جنة الخلد ولم يخلد آدم فيها ووصفها بأنها دار جزاء ولم يقل
أنها دار ابتلاء وقد ابتلى آدم فيها بالمعصية والفتنة ووصفها بأنها ليس فيها حزن وأن الداخلين
اليها يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن وقد حزن فيها آدم ووجدناه سماها دار
السلام ولم يسلم فيها آدم من الآفات التي تكون في الدنيا وسماها دار القرار ولم يستقر
فيها آدم وقال فيمن يدخلها وما هم منها بمخرجين وقد أخرج منها آدم بمعصيته وقال لا يسهم
فيها نصب وقد ند آدم فيها هاربا فارا عند أصابته المعصية وطلق يخصف ورق الجنة على
نفسه وهذا النصب بعينه الذي نفاه الله عنها وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا تأثيم وقد أثم
فيها آدم وأسمع فيها ما هو أكبر من اللغو وهو أنه أمر فيها بمعصية ربه وأخبر أنه لا يسمع
فيها لغو ولا كذب وقد أسمعها فيها ابليس السكذب وغيره وقاسمه عليه أيضا بعد أن اسمه

اياه . وقد شرب آدم من شراها الذي سماه في كتابه شراها طهورا أى مطهرا من جميع الآفات المذمومة وآدم لم يطهر من تلك الآفات . وسماها الله تعالى مقعد صدق وقد كذب ابليس فيها آدم ومقعد الصدق لا كذب فيه وعليون لم يكن فيه استحالة قط ولا تبديل ولا يكون بأجماع المصلين والجنة في أعلى عليين والله تعالى انما قال انى جاعل فى الأرض خليفة ولم يقل انى جاعله فى جنة المأوى فقالت الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء والملائكة اتقى الله من أن تقول ما لا تعلم وهم القائلون لا علم لنا إلا ما علمتنا . وفى هذا دلالة على أن الله قد كان أعلمهم أن بنى آدم سيفسدون فى الأرض والا فكيف كانوا يقولون ما لا يعلمون والله تعالى يقول وقوله الحق (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) والملائكة لا تقول ولا تعمل إلا بما تؤمر به لا غير . قال الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) والله تعالى أخبرنا أن ابليس قال لآدم (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فان كان قد أسكن الله الجنة الخلد والملك الذى لا يبلى فكيف لم يرد عليه نصيحته ويكذبه فى قوله فيقول وكيف تدلنى على شىء أنا فيه قد أعطيته واخترته بل كيف لم يحث التراب فى وجهه ويسبه لأن ابليس لأن كان يكون بهذا الكلام مغويا له انما كان يكون زاريا عليه لأنه انما وعده على معصية ربه بما كان فيه لا زائدا عليه . ومثل هذا لا يخاطب به إلا الجانين الذين لا يعقلون لأن العوض الذى وعده به بمعصية ربه قد كان أحرزه وهو الخلد والملك الذى لا يبلى ولم يخبر الله آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ولو كان فيها من الخالدين لما ركن إلى قول ابليس ولا قبل نصيحته وانكته لما كان فى غير دار خلود غيره بما أطمعه فيه من الخلد فقبل منه ولو أخبر الله آدم أنه فى دار الخلد ثم شك فى خبر ربه لسماه كافرا ولما سماه عاصيا لأن من شك فى خبر الله فهو كافر ومن فعل غير ما أمره الله به وهو معتقد للتصديق بخبر ربه فهو عاص . وانما سمي الله آدم عاصيا ولم يسمه كافرا . قالوا فان كان آدم أسكن جنة الخلد وهى دار القدس التى لا يدخلها إلا طاهر مقدس فكيف توصل اليها ابليس الرجس النجس الملعون المذموم المدحور حتى فتن فيها آدم وابليس فاسق قد فسق عن أمر ربه وليست جنة الخلد دار الفاسقين ولا يدخلها فاسق البتة انما هى دار المتقين وابليس غير تقي فبعد أن قيل له (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) انفسح له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السخط والابعاد له بالعتو والاستكبار هذا مضاد لقوله تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فان كانت مخاطبته آدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليس تسكيرا فليس تعقل العرب التى أنزل القرآن بلسانها ما التكبى . واعلم من ضعفت رويته وقصر بحثه أن يقول

ان ابليس لم يصل اليها ولكن وسوسته وصلت . فهذا قول يشبه قائله ويشاكل معتقده
وقول الله تعالى حكم بيننا وبينه وقوله تعالى وقاسمهما يرد ما قال لأن المقاسمة ليست وسوسة
والكنها مخاطبة ومشافهة ولا تكون إلا من اثنين شاهدين غير غائبين ولا أحدهما وما
يدل على أن وسوسته كانت مخاطبة قول الله تعالى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل
أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) فأخبر أنه قال له ودل ذلك على أنه انما وسوس
إليه مخاطبة لا أنه أوقع ذلك في نفسه بلا مقابلة فمن ادعى على الظاهر تأويلا ولم يقم عليه
دليلا لم يجب قبول قوله وعلى أن الوسوسة قد تكون كلاما مسموعا أو صوتا قال رؤبة :

• وسوس يدعو مخلصا رب الفلق •

وقال الأعشى :

تسمع للحلى وسواسا إذا انصرفت • كما استعان بريح عشرق زجل
قالوا في قول ابليس لهما ما نها كما ربكنا عن هذه الشجرة دليل على مشاهدته لهما وللشجرة
• ولما كان آدم خارجا من الجنة وغير ساكن فيها قال الله (ألم أنهما عن تلك الشجرة)
ولم يقل عن هذه الشجرة كما قال له ابليس لأن آدم لم يكن حينئذ في الجنة ولا مشاهداً
للشجرة مع قوله عز وجل (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) فقد أخبر
سبحانه خبرا محكما غير مشتبه أنه لا يصعد إليه إلا كلم طيب وعمل صالح وهذا مما قدمنا
ذكره أنه لا يبلغ المقدس المطهر إلا مقدس مطهر طيب ومعاذ الله أن تكون وسوسة ابليس
مقدسة أو طاهرة أو خسيرا بل هي شر كلها وظلمة وخبث ورجس تعالى الله عن ذلك علواً
كبيرا وكما أن أعمال الكافرين لا تلج القدس الطاهر ولا تصل إليه لأنها خبيثة غير طيبة
كذلك لا تصل ولم تصل وسوسة ابليس ولا ولجت القدس قال تعالى (كلا ان كتاب الفجار
لنفي سجين) • وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان آدم نام في جنته وجنة الخلد لا نوم
فيها باجماع من المسلمين لأن النوم وفاة وقد نطق به القرآن والوفاة تقلب حال ودار السلام
مسئلة من تقلب الأحوال والثائم ميت أو كلميت قالوا وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم
أنه قال لأم حارثة لما قالت له يا رسول الله ان حارثة قتل معك فان كان ضار إلى الجنة
صبرت واحتسبت وان كان صار إلى ما سوى ذلك رأيت ما أفعل فقال لها رسول الله صلى
الله عليه وسلم أو جنة واحدة هي انما هي جنان كثيرة فأخبر صلى الله عليه وسلم ان الله جنات
كثيرة فلعل آدم أسكنه الله جنة من جناته ليست هي جنة الخلد قالوا وقد جاء في بعض
الأخبار ان جنة آدم كانت بأرض الهند قالوا وهذا وان كان لا يصححه رواية الأخبار
ونقلة الآثار فالذي قبله الأبواب ويشهد له ظاهر الكتاب أن جنة آدم ليست جنة الخلد

ولا دار البقاء وكيف يجوز أن يكون الله أسكن آدم جنة الخلد ليكون فيها من الخالدين وهو قائل للملائكة انى جعل فى الارض خليفة وكيف أخبر الملائكة أنه يريد أن يجعل فى الارض خليفة ثم يسكنه دار الخلود ودار الخلود لا يدخلها إلا من يخلد فيها كما سميت بدار الخلود فقد سماها الله بالاسماء التى تقدم ذكرنا لها تسمية مطلقة لا خصوص فيها فاذا قيل للجنة دار الخلد لم يجوز أن ينقص مسمى هذا الاسم بحال فهذا بعض ما احتج به القائلون بهذا المذهب وعلى هذا فاسكان آدم وذريته فى هذه الجنة لا ينافى كونهم فى دار الابتلاء والامتحان وحيث كانت تلك الوجوه والفوائد التى ذكرتموها ممكنة الحصول فى الجنة (فالجواب) أن يقال هذا فيه قولان للناس ونحن نذكر القولين واحتجاج الفريقين ونبين ثبوت الوجوه التى ذكرناها وأمثالها على كلا القولين ونذكر أولاً قول من قال انها جنة الخلد التى وعدّها الله للمتقين وما احتجوا به وما نقضوا به حجج من قال انها غيرها ثم تتبعها مقالة الآخرين وما احتجوا به وما أجابوا به عن حجج منازعيهم من غير انتصاب لنصرة أحد القولين وابطال الآخر إذ ليس غرضنا ذلك وإنما الغرض ذكر بعض الحكم والمصالح المقتضية لاجراء آدم من الجنة واسكانه فى الارض فى دار الابتلاء والامتحان وكان الغرض بذلك الرد على من زعم أن حكمة الله سبحانه تأبى ادخال آدم الجنة وتعريضه للذنب الذى أخرج منها به وأنه أى فائدة فى ذلك والرد على أن من أبطل أن يكون له فى ذلك حكمة وإنما هو صادر عن محض المشيئة التى لا حكمة وراءها ولما كان المقصود حاصل على كل تقدير سواء كانت جنة الخلد أو غيرها بيننا الكلام على التقديرين ورأينا أن الرد على هؤلاء بدبوس السلاق (١) لا يحصل غرضاً ولا يزيل مرضاً فسلكتنا هذا السبيل ليكون قولهم مردوداً على كل قول من أقوال الأمة وبالله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة الا بالله فنقول أما ما ذكرتموه من كون الجنة التى أهبط منها آدم ليست جنة الخلد وإنما هى جنة غيرها فهذا مما قد اختلف فيه الناس والاشهر عند الخاصة والعامة الذى لا يحظر بقلوبهم سواء أنها جنة الخلد التى أعدت للمتقين وقد نص غير واحد من السلف على ذلك واحتج من نصر هذا بما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى مالك الاشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة وأبو مالك عن ربهى بن حراش عن حذيفة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الله عز وجل الناس حتى يزلف لهم الجنة فبأتون آدم عليه السلام فيقولون يا أبانا استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم من الجنة الا خطيئة أتيكم آدم وذكر الحديث قالوا فهذا يدل على أن الجنة التى أخرج منها آدم هى بعينها التى يطلب منه

(١) - هكذا فى الأصول ويظهر أن يكون كنى به عن اللسان اه

أن يستفتحها لهم قالوا ويدل عليه أن الله سبحانه (قال يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة) إلى قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) عقيب قوله اهبطوا فدل على أنهم لم يكونوا أولاً في الأرض وأيضاً فإنه سبحانه وصف الجنة التي أسكنها آدم بصفات لا تسكون في الجنة الدنيوية فقال تعالى (إن لك إلا جموع فيها ولا تعرى وأنت لا تظلم فيها ولا تضحق) وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً ولو كان الرجل في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له الجوع والظما والتعري والضحق للشمس وأيضاً فإنها لو كانت الجنة في الدنيا لعم آدم كذب ابليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية وأن ملكها يبلى وأيضاً فإن قصة آدم في البقرة ظاهرة جداً في أن الجنة التي أخرج منها فوق السماء فإنه سبحانه قال (واذ قلنا لللائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقتلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلها الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقتلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) . فهذا اهباط آدم وحواء وابليس من الجنة ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقيل أنه خطاب لهم وللحبة وهذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للحبة في شيء من قصة آدم وابليس . وقيل خطاب لآدم وحواء وأتى فيه بلفظ الجمع كقوله تعالى (وكنا لحكمهم شاهدين) . وقيل لآدم وحواء . وذريتهما . وهذه الأقوال ضعيفة غير الأولى لأنها بين قول لا دليل عليه وبين ما يدل ظاهر الخطاب على خلافه ثبت أن ابليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين من الجنة . ثم قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الاهباط الثاني لا بد أن يكون غير الأول وهو اهباطه من السماء إلى الأرض وحيثئذ فتكون الجنة التي اهبطوا منها أولاً فوق السماء وهي جنة الخلد وقد ذهب طائفة منهم الرغزباني إلى أن قوله اهبطوا منها جميعاً خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستباحتها ذريتهما . قال والدليل عليه قوله تعالى (قال اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى) وقال ويدل على ذلك قوله (فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أو أهلكناهم النار هم فيها خالدون) وما هو إلا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادى والتباغض وتفضيل بعضهم لبعض . وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية فإن العداوة التي ذكرها الله إنما هي بين آدم وابليس وذريتهما كما قال تعالى (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً) . وأما

آدم وزوجه فان الله سبحانه أخبر في كتابه أنه خلقها منه ليسكن اليها وقال سبحانه (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة) فهو سبحانه جعل المودة بين الرجل وزوجه وجعل العداوة بين آدم وابليلس وذرياتهما ويدل عليه أيضا عود الضمير اليهم بلفظ الجمع . وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وابليلس في قولهم فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما فهؤلاء ثلاثة آدم وحواء وابليلس فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرة لطريق الكلام ولا يعود على جميع المذكور مع أنه وجه الكلام . فان قيل فما تصنعون بقوله في سورة طه : (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو) وهذا خطاب لآدم وحواء . وقد أخبر بعداوة بعضهم بعضا قيل اما أن يكون الضمير في قوله اهبطا راجعا إلى آدم وزوجه أو يكون راجعا إلى آدم وابليلس ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له وعلى الثاني فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالاهباط وهما آدم وابليلس وعلى الأول تكون الآية قد اشتملت على أمرين . أحدهما أمره لآدم وزوجه بالهبوط . والثاني جعله العداوة بين آدم وزوجه وابليلس ولا بد أن يكون أبليلس داخل في حكم هذه العداوة قطعا كما قال تعالى إن هذا عدو لك ولزوجك ، وقال لذريته إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها العداوة على ضمير الجمع دون التثنية . واما ذكر الاهباط فتارة يأتي بلفظ ضمير الجمع وتارة بلفظ التثنية وتارة يأتي بلفظ الافراد لابيلس وحده . كقوله تعالى في سورة الاعراف (قال ما منعك أن لاتسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) فهذا الاهباط لابيلس وحده والضمير في قوله منها قيل أنه عائد إلى الجنة وقيل عائد إلى السماء وحيث أتى بصيغة الجمع كان لآدم وزوجه وابليلس إذ مدار القصة عليهم وحيث أتى بلفظ التثنية فاما ان يكون لآدم وزوجه إذ هما اللذان باشرا الاكل من الشجرة واقدمتا على المعصية . واما ان يكون لآدم وابليلس إذ هما ابوا الثقلين فذكر حالهما وما آل اليه أمرهما ليكون عظة وعبرة لأولادهما والقولان محكيان في ذلك وحيث أتى بلفظ الافراد فهو لابيلس وحده . وأيضا فالذي يوضح أن الضمير في قوله اهبطا منها جميعا لآدم وابليلس ان الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجته فقال (وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتبا ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا) وهذا يدل على أن المخاطب بالاهباط هو آدم ومن زين له المعصية ودخلت الزوجة تبعا وهذا لأن المقصود اخبار الله تعالى لعباده المكلفين من الجن والإنس بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ومخالفة الأمر لتلايقنتوا بهما في ذلك فذكر أبو الثقلين أبلغ في حصول هذا المعنى من ذكر أبوي الإنس فقط وقد أخبر سبحانه عن الزوجة أنها أكلت مع آدم وأخبر أنه اهبطه

وأخرجه من الجنة بتلك الاكلة فعلم أن هذا اقتضاء حكم الزوجية وانها صارت إلى ما صار إليه آدم فكان تجريد العناية إلى ذكر الأبوين اللذين هما أصل الذرية أولى من تجريدها إلى ذكر أبي الانس وأمهم والله أعلم وبالجملة فقوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو) ظاهر في الجمع فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله اهبطا . قالوا وأما قولكم انه كيف وسوس له بعد اهباطه منها ومحال أن يصعد إليها بعد قوله تعالى اهبط . جوابه من وجوه . أحدهما أنه أخرج منها ومنع من دخولها على وجه السكنى والكرامة واتخاذها داراً فمن أين لكم أنه منع من دخولها على وجه الإبتلاء والامتحان لآدم وزوجه ويكون هذا دخولا عارضا كما يدخل شرط دار من امروا بابتلائه ومحتته وان لم يكونوا اهلا لسكنى تلك الدار . الثاني انه كان يدنو من السماء فيكلمهما ولا يدخل عليهما دارهما . الثالث انه لعنه قام على الباب فناداهما وقاسمهما ولم يبلغ الجنة الرابع انه قد روى انه اراد الدخول عليهما فمنعه الخنزرة فدخل في فم الحية حتى دخلت به عليهما ولا يشعر الخنزرة بذلك . قالوا وبما يدل على انها جنة الخلد بعينها انها جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع كقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) ولا جنة يعهدا المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب فقد صار هذا الاسم علماً عليها بالعلبة وإن كان في أصل الوضع عبارة عن البستان ذى الثمار والفواكه وهذا كالمدينة لطيبة والنجم للثريا ونظائرها فحيث ورد اللفظ معرقاً بالآلف واللام انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين . وأما ان أريد به جنة غيرها فانها تجيء منكرة كقوله (جنتين من أعناب) أو مقيدة بالإضافة كقوله (ولولا إذ دخلت جنتك) أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض كقوله (إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرنها مصبحين) الآيات فهذا السياق والتقييد يدل على أنها بستان في الأرض . قالوا وأيضاً فانه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وقد تواترت الاحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك كما في الصحيحين عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالعداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار فقالت الجنة مالى لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وقالت النار مالى لا يدخلني إلا الجبارون والمتكبرون فقال للجنة أنت رحمتي أرحم بك من أشاء وقال للنار أنت عذابي أعذب بك من أشاء الحديث وفي السنن عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها قال

(٢ - مفتاح ١)

فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها الحديث وفي الصحيحين في حديث الاسراء ثم رفعت
لى سدره المنتهى فاذا ورقها مثل آذان الفيلة وإذا نبقتها مثل قلال حجر وإذا أربعة أنهار نهران
ظاهران ونهران باطنان فقلت ما هذا يا جبريل قال أما النهران الظاهران فالنيل والفرات وأما
الباطنان فنهران في الجنة . وفيه أيضا ثم أدخلت الجنة فاذا جنازيد اللؤلؤ وإذا ترابها المسك
وفي صحيح البخارى عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا
بنهر حافتاه قباب الدر المجوف قال قلت ما هذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذى أعطاك ربك
فضرب الملك بيده فاذا طينه مسك اذفر . وفي صحيح مسلم في حديث صلاة الكسوف أن النبي
صلى الله عليه وسلم جعل يتقدم ويتأخر في الصلاة ثم أقبل على أصحابه فقال انه عرضت لى
الجنة والنار فقربت منى الجنة حتى لو تناولت منها قطعاً لأخذته فلو أخذته لا كلمت منه ما بقيت
الدنيا . وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود في قوله تعالى (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً
بل أحياء عند ربهم يرزقون) أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح
من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال هل تشتهون
شيئاً فقالوا أى شىء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا الحديث . وفي الصحيح من
حديث ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أصيب اخوانكم بأحد جعل الله
أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من
ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب ما كلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا من يبلغ عنا
إخواننا أنا في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله أنا أبلغهم
عنكم فانزل الله عز وجل (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله) الآية . وفي الموطأ من حديث
كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في الجنة
حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه وفي البخارى أن إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم
لما توفى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن له مرضعاً في الجنة . وفي صحيح البخارى عن
عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها
الفقراء واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء . والآثار في هذا الباب أكثر من أن
تذكرها والقول بأن الجنة والنار لم تخلقا بعد . فهو قول أهل البدع من ضلال المعتزلة ومن
قال بقولهم وهم الذين يقولون ان الجنة التى أهبط منها آدم إنما كانت جنة بشرى الارض
وهذه الاحاديث وأمثالها ترد قولهم . قالوا وأما احتجاجكم بسائر الوجوه التى ذكرتموها في
الجنة وأنها منتفية في الجنة التى أسكنها آدم من اللغو والكذب والنصب والعري وغير ذلك
فهذا كله حتى لا تنسره ونحن ولا أحد من أهل الاسلام ولكن هذا إنما هو إذا دخلها المؤمنون

يوم القيامة كما يدل عليه سياق الكلام وهذا لا ينفى أن يكون فيها بين آدم وإبليس ما حكاه الله عز وجل من الامتحان والابتلاء ثم يصير الأمر عند دخول المؤمنين إليها إلى ما أخبر الله عز وجل به فلا تنافي بين الأمرين . قالوا وأما قولكم ان الجنة دار جزاء وثواب وليست دار تكليف وقد كلف الله سبحانه آدم فيها بالنهي عن الشجرة . لجوابه من وجهين . أحدهما أنه إنما يمتنع أن تكون دار تكليف إذا دخلها المؤمنون يوم القيامة حينئذ ينقطع التكليف وأما امتناع وقوع التكليف فيها في دار الدنيا فلا دليل عليه . الثاني أن التكليف فيها لم يكن بالأعمال التي يكلف بها الناس في الدنيا من الصيام والصلاة والجهاد ونحوها وإنما كان حجراً عليه في شجرة من جملة أشجارها وهذا لا يمتنع وقوعه في جنة الخلد كما أن كل أحد محجور عليه أن يقرب أهل غيره فيها فان أردتم بأن الجنة ليست دار تكليف امتناع وقوع مثل هذا فيها في وقت من الأوقات فلا دليل لكم عليه وإن أردتم أن غالب التكليف التي تكون في الدنيا متفية فيها فهو حق ولكن لا يدل على مطلوبكم . قالوا وهذا كما أنه موجب الأدلة وقول سلف الأمة فلا يعرف بقولكم قائل من أئمة العلم ولا يبرج عليه ولا يلتفت إليه . قال ، الأولون الجواب عما ذكرتم من وجهين بجملة ومفصل . أما الجملة فانكم لم تأتوا على قولكم بدليل يتعين المصير إليه لا من قرآن ولا من سنة ولا أثر ثابت عن أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا التابعين لامسندا ولا مقطوعاً . ونحن نوجدكم من قال بقولنا . هذا أحد أئمة الإسلام سفيان بن عيينة قال في قوله عز وجل (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى) قال يعني في الأرض وهذا عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال في معارفه بعد أن ذكر خلق الله لآدم وزوجه ان الله سبحانه أخرجه من مشرق جنة عدن إلى الأرض التي منها أخذ وهذا أبي قد حكى الحسن عنه أن آدم لما احتضر اشتهى قطفاً من قطف الجنة فانطلق بنوه ليطلبوه له فلقيتهم الملائكة فقالوا أين تريدون يا بني آدم قالوا إن أبانا اشتهى قطفاً من قطف الجنة فقالوا لهم ارجعوا فقد كفيتموه فأتوها إليه فقبضوا روحه وغسلوه وحنطوه وكفنوه وصلى عليه جبريل وبنوه خلف الملائكة ودفنوه وقالوا هذه سنتكم في موتاكم . وهذا أبو صالح قد نقل عن ابن عباس في قوله اهبطوا منها قال هو كما يقال هبط فلان في أرض كذا وكذا وهذا وهب بن منبه يذكر أن آدم خلق في الأرض وفيها سكن وفيها نصب له الفردوس وأنه كان بعدن وإن سيحون وجيحون والفرات انقسمت من النهر الذي كان في وسط الجنة وهو الذي كان يسقيها ، وهذا منذر بن سعيد البلوطي اختاره في تفسيره ونصره بما حكيناه عنه وحكاه في غير التفسير عن أبي حنيفة فيما خالفه فيه فلم قال بقوله في هذه المسألة . وهذا أبو مسلم الاصبهاني صاحب التفسير وغيره أحد الفضلاء المشهورين قال بهذا واتصله واحتج عليه بما هو معروف

في كتابه . وهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية ذكر القولين في تفسيره في قصة آدم في البقرة . وهذا أبو محمد بن حزم ذكر القولين في كتاب الملل والنحل له . فقال وكان المنذر بن سعيد القاضى يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلا أنه كان يقول أنها ليست هي التي كان فيها آدم وامراته ومن حكى القولين أيضاً أبو عيسى الرمانى في تفسيره واختار أنها جنة الخلد . ثم قال والمذهب الذى اخترناه قول الحسن وعمر بن واصل وأكثر أصحابنا وهو قول أبي علي وشيخنا أبي بكر وعليه أهل التفسير ومن ذكر القولين أبو القاسم الراغب في تفسيره فقال واختلف في الجنة التي أسكنها آدم فقال بعض المتكلمين كان بستاناً جملة الله له امتحاناً ولم يكن جنة المأوى ثم قال ومن قال لم يكن جنة المأوى لأنه لا تكليف في الجنة وآدم كان مكلفاً . قال وقد قيل في جوابه انها لا تكون دار التكليف في الآخرة ولا يتمتع أن تكون في وقت دار تكليف دون وقت كما أن الانسان يكون في وقت مكلفاً دون وقت . ومن ذكر الخلاف في المسئلة أبو عبد الله بن الخطيب الرازى في تفسيره فذكر هذين القولين وقولاً ثالثاً وهو التوقف قال لا يمكن الجميع وعدم الوصول إلى القطع كما سيأتى حكاية كلامه ومن المفسرين من لم يذكر غير هذا القول وهو أنها لم تكن جنة الخلد إنما كانت حيث شاء الله من الأرض وقالوا كانت تطلع فيها الشمس والقمر وكان ابليس فيها ثم أخرج قال ولو كانت جنة الخلد لما أخرج منها . ومن ذكر القولين أيضاً أبو الحسن الماوردى فقال في تفسيره واختلف في الجنة التي أسكنها على قولين . أحدهما أنها جنة الخلد . الثاني أنها جنة أعداها الله لها وجعلها دار ابتلاء . وليست جنة الخلد التي جعلها الله دار جزاء . ومن قال بهذا اختلفوا فيه على قولين . أحدهما أنها في السماء لأنه أهبطهما منها وهذا قول الحسن . الثاني أنها في الأرض لأنه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهيا عنها دون غيرها من الثمار وهذا قول ابن يحيى وكان ذلك بعد أن أمر ابليس بالسجود لآدم والله أعلم بصواب ذلك هذا كلامه وقال ابن الخطيب في تفسيره اختلفوا في أن الجنة المذكورة في هذه الآية هل كانت في الأرض أو في السماء وتقدير أنها كانت في السماء فهل هي الجنة التي هي دار الثواب وجنة الخلد أو جنة أخرى فقال أبو القاسم البلخى وأبو مسلم الاصبهاني هذه الجنة في الأرض وحملوا الاهباط على الانتقال من بقعة إلى بقعة كما في قوله تعالى اهبطوا مصرأ . القول الثاني وهو قول الجبائي أن تلك كانت في السماء السابعة قال والدليل عليه قوله اهبطوا ثم ان الاهباط الأول كان من السماء السابعة إلى السماء الأولى والاهباط الثاني كان من السماء إلى الأرض . والقول الثالث وهو قول جمهور أصحابنا أن هذه الجنة هي دار الثواب والدليل عليه هو أن الألف واللام في لفظ الجنة لا يفيد العموم لأن سكنى آدم جميع الجنان محال فلا بد من صرفها إلى المعبود السابق والجنة المعبودة المعلومة بين المسلمين هي دار الثواب فوجب صرف اللفظ إليها قال : والقول الرابع أن الكل ممكن والادلة النقلية ضعيفة ومتعارضة فوجب التوقف وترك القطع .

قالوا ونحن لا نقلد هؤلاء ولا نعتمد على ما حكى عنهم والحجة الصحيحة حكم بين المتنازعين
قالوا وقد ذكرنا على هذا القول ما فيه كفاية . وأما الجواب المفصل فنحن نتكلم على
ما ذكرتم من الحجج لينكشف وجه الصواب فنقول وبالله التوفيق . أما استدلالكم بحديث
أبي هريرة وحذيفة حين يقول الناس لآدم استفتح لنا الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا
خطيئة أيكم فهذا الحديث لا يدل على أن الجنة التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم هي التي أخرج
منها بعينها فإن الجنة اسم جنس فكل بستان يسمى جنة كما قال تعالى (انا بلوناكم كما بلونا
أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين) وقال تعالى (وقالوا ان تؤمن لك حتى تفجر
لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب) وقال تعالى (ومثل الذين
ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة) وقال تعالى
(واضرب لهم مثلا رجلاين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل) إلى قوله
(ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله) فإن الجنة اسم جنس فهم لما طلبوا
من آدم أن يستفتح لهم جنة الخلد أخبرهم بأنه لا يحسن منه أن يقدم على ذلك وقد أخرج
نفسه وذريته من الجنة التي أسكنه الله إياها بذنبه وخطيئته هذا الذي دل عليه الحديث .
وأما كون الجنة التي أخرج منها هي بعينها التي طلبوا منه أن يستفتحها لهم فلا يدل الحديث
عليه بشيء من وجوه الدلالات الثلاث ولو دل عليه لوجب المصير إلى مدلول الحديث وامتنع
القول بمخالفته وهل مدارنا إلا على فهم مقتضى كلام الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه
عليه . قالوا وأما استدلالكم بالهبوط وأنه نزول من علو إلى سفلى . فجوابه من وجهين .
أحدهما أن الهبوط قد استنقل في النقلة من أرض إلى أرض كما يقال هبط فلان
بلد كذا وكذا وقال تعالى (اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم) وهذا كثير في نظم
العرب ونثرها قال :

إن تهبطين بلاد قوم يرتعون من الطلاح

وقد روى أبو صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو كما يقال هبط فلان أرض كذا
وكذا . الثاني أنا لا تنازعكم في أن الهبوط حقيقة ما ذكرتموه ولكن من أين يلزم أن تكون
الجنة التي منها الهبوط فوق السموات فإذا كانت في أعلى الأرض أما يصح أن يقال هبط منها
كما هبط الحجر من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه . وأما قوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر
ومتاع إلى حين) فهذا يدل على أن الأرض التي أهبطوا إليها لهم فيها مستقر ومتاع إلى حين
ولا يدل على أنهم لم يكونوا في جنة عالية أعلى من الأرض التي أهبطوا إليها تخالف الأرض

في صفاتها وأشجارها ونعيمها وطيبها فإله سبحانه فإوت بين بقاع الأرض أعظم تفاوت وهذا مشهود بالحس فن أين لكم أن تلك لم تكن جنة تميزت عن سائر بقاع الأرض بما لا يكون إلا فيها ثم أهبطوا منها إلى الأرض التي هي محل التعب والنصب والابتلاء والامتحان وهذا بعينه هو الجواب عن استدلالكم بقوله تعالى (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) إلى آخر ما ذكرتموه مع أن هذا حكم معلق بشرط والشرط لم يحصل فانه سبحانه انما قال ذلك عقيب قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) وقوله (ان لك ألا تجوع فيها ولا تعرى) هو صيغة وعد مرتبطة بما قبلها والمعنى ان اجتنبت الشجرة التي نهيتك عنها ولم تقربها كان لك هذا الوعد والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فلما أكل من الشجرة زال استحقاؤه لهذا الوعد ، قال وأما قولكم أنه لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى إلى آخره فدعوى لا دليل عليها لأنه لا دليل لكم على أن الله سبحانه كان قد أعلم آدم حين خلقه أن الدنيا منقضية فانية وان ملكها يبلى ويزول وعلى تقدير أن يكون آدم حينئذ قد أعلم ذلك فقول ابليس هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى لا يدل على أنه أراد بالخلد مالا يتناهى فان الخلد في لغة العرب هو اللبث الطويل كقولهم قيد مخلد وحبس مخلد وقد قال تعالى ثمود (أتنبون بكل ربيع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) وكذلك قوله (وملك لا يبلى) يراد به الملك الطويل الثابت . وأيضاً فلا وجه للاعتذار عن قول ابليس مع تحقق كذبه ومقاسمته آدم وحواء على الكذب والله سبحانه قد أخبر أنه قاسمهما ودلاهما بغرور وهذا يدل على أنهما اغترا بقوله فغرها بأن اطعمهما في خلد الأبد والملك الذي لا يبلى وبالجملة فالاستدلال بهذا على كون الجنة التي سكنها آدم هي جنة الخلد التي وعدا المتقون غير بين . ثم نقول لو كانت الجنة هي جنة الخلد التي لا يزول ملكها لسكنت جميع أشجارها شجر الخلد فلم يكن لتلك الشجرة اختصاص من بين سائر الشجر بكونها شجرة الخلد وكان آدم يسخر من ابليس إذ قد علم ان الجنة دار الخلد . فان قلتم لعل آدم لم يعلم حينئذ ذلك فغره الخبيث وخدعه بأن هذه الشجرة وحدها هي شجرة الخلد . قلنا فافتنوا منا بهذا الجواب بعينه عن قولكم لو كانت الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب ابليس في ذلك لأن قوله كان خداعا وغرورا محضاً على كل تقدير فانقلب دليلكم حجة عليكم وبالله التوفيق ، قالوا ، وأما قولكم ان قصة آدم في البقرة ظاهرة جدا في أن جنة آدم كانت فوق السماء فنحن نطالبكم بهذا الظهور ولا سبيل لكم إلى إثباته قولكم أنه كرر فيه ذكر الهبوط مرتين ولا بد أن يفيد الثاني غير ما أفاد الأول فيكون الهبوط الأول من الجنة والثاني من السماء فهذا فيه خلاف بين أهل التفسير فقالت طائفة هذا القول الذي ذكرتموه وقالت طائفة

منهم النقاش وغيره أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة الى السماء والهبوط الأول الى الأرض وهو آخر الهبوطين في الوقوع وان كان أولها في الذكر وقالت طائفة أتى به على جهة التغليف والتأكيد كما تقول للرجل اخرج اخرج وهذه الأقوال ضعيفة . فأما القول الأول فيظهر ضعفه من وجوه . أحدها أنه مجرد دعوى لا دليل عليها من اللفظ ولا من خبر يجب المصير اليه وما كان هذا سبيله لا يحمل القرآن عليه . الثاني ان الله سبحانه قد أهبط ابليس لما امتنع من السجود لآدم اهباطاً كونياً قدرياً لا سبيل له الى التخلف عنه فقال تعالى (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين) وقال في موضع آخر (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين) وفي موضع آخر (اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين) وسواء كان الضمير في قوله منها راجعاً الى السماء أو الى الجنة فهذا صريح في اهباطه وطرده ولعنه وادحاره والمدحور المبعد وعلى هذا فلو كانت الجنة فوق السموات لكان قد صعد اليها بعد اهباط الله له . وهذا وان كان ممكناً فهو في غاية البعد عن حكمة الله ولا يقتضيه خبره فلا ينبغي أن يصار اليه . وأما الوجوه الأربعة التي ذكرتموها من صعوده للوسوسة فهي مع أمر الله تعالى بالهبوط مطلقاً وطرده ولعنه ودحوره لا دليل عليها لا من اللفظ ولا من الخبر الذي يجب المصير اليه وما هي إلا احتمالات مجردة وتقديرات لا دليل عليها . الثالث أن سياق قصة اهباط الله تعالى لابليس ظاهرة في أنه اهباط الى الأرض من وجوه . أحدها أنه سبحانه نبه على حكمة اهباطه بما قام به من التكبر المقتضى غاية ذله وطرده ومعاملته بتفويض قصده وهو اهباطه من فوق السموات الى قرار الأرض ولا تقتضى الحكمة أن يكون فوق السماء مع كبره ومنافة حاله للحال الملائكة الأكرمين . الثاني أنه قال (فاخرج منها فانك رجيم وان عليك لعنتي الى يوم الدين) وكونه رجيماً ما عونا ينفي أن يكون في السماء بين المقربين المطهرين . الثالث أنه قال (اخرج منها مذموماً مدحوراً) وملكوت السموات لا يعلوه المذموم المدحور أبداً . وأما القول الثاني فهو القول الأول بعينه مع زيادة ما لا يدل عليه السياق بحال من تقديم ما هو مؤخر في الواقع وتأخير ما هو مقدم فيه فيرد بما رد به القول الذي قبله . وأما القول الثالث وهو أنه للتأكيد فان أريد التأكيد اللفظي المجرد فهذا لا يقع في القرآن وان أريد به أنه مستلزم للتغليف والتأكيد مع ما يشتمل عليه من الفائدة فصحيح فالصواب أن يقال اعيد الاهباط مرة ثانية لأنه علق عليه حكماً غير المعلق على الاهباط الأول فانه علق على الأول عداوة بعضهم بعضاً فقال (اهبطوا بعضهم لبعض عدو) وهذه جملة حالية وهي اسمية بالضمير وحده عند الأكثرين . والمعنى اهبطوا متعادين وعلق على الهبوط الثاني حكيمين آخرين أحدهما هبوطهم جميعاً والثاني

قوله (فاما يا تينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فكأنه قيل اهبطوا بهذا الشرط مأخوذاً عليكم هذا العهد وهو أنه مهما جاءكم منى هدى فمن اتبعه منكم فلا خوف عليه ولا حزن يلحقه ففي الابهاط الأول إيدان بالعقوبة ومقابلتهم على الجريمة وفي الابهاط الثانى روح التسلية والاستبشار بحسن عاقبة هذا الهبوط لمن تبع هداى ومصيره إلى الأمن والسرور المضاد للخوف والحزن فكسروهم بالابهاط الأول وجبر من اتبع هداى بالابهاط الثانى على عادته سبحانه ولطفه بعباده وأهل طاعته كما كسر آدم بالإخراج من الجنة وجبره بالكلمات التى تلقاها منه فتاب عليه وهداى ومن تدبر حكمته سبحانه واطفئه وبره بعباده وأهل طاعته فى كسره لهم ثم جبره بعد الانكسار كما يكسر العبد بالذنب ويذله به ثم يجبره بتوبته عليه ومغفرته له وكما يكسره بأنواع المصائب والحزن ثم يجبره بالعافية والنعمة انفتح له باب عظيم من أبواب معرفته ومحبه وعلم أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها وان ذلك الكسر هو نفس رحمته به وبره واطفئه وهو أعلم بمصلحة عبده منه ولكن العبد لضعف بصيرته ومعرفته بأسماء ربه وصفاته لا يكاد يشعر بذلك ولا ينال رضا المحبوب وقربه والابتهاج والفرح بالدنو منه والزنى لديه الا على جسر من الذلة والمسكنة وعلى هذا قام أمر المحبة فلا سبيل إلى الوصول إلى المحبوب إلا بذلك كما قيل :

تذلل لمن تهوى انحطى بقربه فكم عزة قد نالها العبد بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن ذليلاً فاقراً السلام على الوصل

وقال آخر :

اخضع وذل لمن تحب فليس فى شرع الهوى أنف يشال ويقعد

وقال آخر :

وما فرحت بالوصل نفس عزيزة وما العز إلا ذلها وانكسارها

• قالوا وإذا علم أن إبليس أهبط من دار العز عقب امتناعه وإبائه من السجود لآدم ثبتان وسوسته له ولزوجه كانت فى غير المحل الذى أهبط منه والله أعلم . قالوا وأما قولكم ان الجنة إنما جاءت معرفة باللام وهى تنصرف إلى الجنة التى لا يعهد بنو آدم سواها فلاريب أنها جاءت كذلك ولكن العهد وقع فى خطاب الله تعالى آدم لسكنائها بقوله (اسكن أنت وزوجك الجنة) فهى كانت معهودة عند آدم ثم أخبرنا سبحانه عنها معرفة لها بلام التعريف فانصرف العرف بها إلى تلك الجنة المعهودة فى الذهن وهى التى سكنها آدم ثم أخرج منها فن أين فى هذا ما يدل على محلها وموضعها بنى أو إثبات . وأما مجيء جنة الخلد معرفة باللام فلانها الجنة

التي أخبرت بها الرسل لأمهم ووعدها الرحمن عباده بالغيب حيث ذكرت انصرف الذهن إليها دون غيرها لأنها قد صارت معلومة في القلوب مستقرة فيها ولا ينصرف الذهن إلى غيرها ولا يتوجه الخطاب إلى سواها وقد جاءت الجنة في القرآن معرفة باللام والمراد بها بستان في بقعة من الأرض كقوله تعالى (انا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين) فهذا لا ينصرف الذهن فيها إلى جنة الخلد ولا إلى جنة آدم بحال . قالوا وما قولكم انه قد اتفق أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان وأنه لم ينازع في ذلك إلا بعض أهل البدع والضلال . واستدلوا لكم على وجود الجنة الآن حتى لا تنازعكم فيه وعندنا من الأدلة على وجودها أضعاف ما ذكرتم ولكن أي تلازم بين أن تكون جنة الخلد مخلوقة وبين أن تكون هي جنة آدم بعينها فكانكم تزعمون أن كل من قال ان جنة آدم هي جنة في الأرض فلا بد له أن يقول ان الجنة والنار لم يخلقا بعد وهذا غلط منكم منشؤه من توهمكم أن كل من قال بأن الجنة لم تخلق بعد فإنه يقول ان جنة آدم هي في الأرض وكذلك بالعكس ان كل من قال ان جنة آدم في الأرض فيقول ان الجنة لم تخلق فأما الاول فلا ريب فيه وأما الثاني فوهم لا تلازم بينهما لافي المذهب ولا في الدليل فأنتم نصبتم دليلكم مع طائفة نحن وأنتم متفقون على انكار قولهم ورده وابطاله ولكن لا يلزم من هذا بطلان هذا القول الثالث وهذا واضح . قالوا وأما قولكم ان جميع ما نفاه الله سبحانه عن الجنة من اللغو والعذاب وسائر الآفات التي وجد بعضها من ابليس عدو الله فهذا إنما يكون بعد القيامة إذا دخلها المؤمنون كما يدل عليه السياق . لجوابه من وجهين . أحدهما أن ظاهر الخبر يقتضى نفيه مطلقا لقوله تعالى (لا لغو فيها ولا تأثيم) وقوله تعالى (لا تسمع فيها لاغية) فهذا نفى عام لا يجوز تخصيصه إلا بمخصص بين والله سبحانه قد حكم بأنها دار الخلد حكما مطلقا فلا يدخلها إلا خالك فيها فتخصيصكم هذه التسمية بما بعد القيامة خلاف الظاهر . الثاني أن ما ذكرتم إنما يصار إليه إذا قام الدليل السالم عن المعارض المقاوم أنها جنة الخلد بعينها وحينئذ يتعين المصير إلى ما ذكرتم فاما إذا لم يقم دليل سالم على ذلك ولم تجمع الأمة عليه فلا يسوغ مخالفة ما دلت عليه النصوص البينة بغير موجب والله أعلم . قالوا وبما يدل على أنها ليست جنة الخلد التي وعدنا المتقون أن الله سبحانه لما خلق آدم أعلمه أن عمره أجال ينتهي إليه وأنه لم يخلقه للبقاء . ويدل على هذا ما رواه الترمذي في جامعه قال حدثنا محمد بن بشر قال حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا الحارث بن عبدالرحمن ابن أبي زباب عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله يارب فقال له ربه يرحمك الله يا آدم إذ ذهب إلى أولئك الملائكة إلى ملاء منهم جلوس فقل السلام

عليكم قالوا وعليك السلام ثم رجع إلى ربه فقال ان هذه تحتك ونحية بنك بينهم فقال الله له ويده مقبوضتان اختر أيتها شئت فقال اخترت يمين ربي وكلنا يدي ربي يمين مباركة ثم بسطها فاذا فيها آدم وذريته قال أي رب ما هؤلاء قال هؤلاء ذريتك فاذا كل انسان مكتوب عمره بين عينيه فاذا رجع أضوؤهم أو من أضوؤهم قال يارب من هذا قال هذا ابنك داود وقد كتبت له عمراً أربعين سنة قال يارب زد في عمره قال ذاك الذي كتبت له قال أي رب فاني قد جعلت له من عمري ستين سنة قال أنت وذاك قال ثم أسكن الجنة ماشاء الله ثم اهبط منها وكان آدم يعد لنفسه فأناه ملك الموت فقال له آدم قد عجلت أليس قد كتبت لي ألف سنة قال بلى ولسكنك جعلت لابنك داود ستين سنة فجحد فجحدت ذريته ونسى فنسيت ذريته قال فن يومئذ أمر بالكتاب والشهود هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وروى من غير وجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ . قالوا فهذا صريح في أن آدم لم يكن مخلوقاً في دار الخلد التي لا يموت من دخلها وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله لها ولأهلها أجلاً معلوماً وفيها أسكن . فان قيل فاذا كان آدم قد علم أن له عمراً ينتهي إليه وأنه ليس من الخالدين فكيف لم يكن إبليس ويعلم بطلان قوله حيث قال له (هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى) بل جوز ذلك وأكل من الشجرة طمعاً في الخلد . فالجواب ما تقدم من الوجهين اما أن يكون المراد بالخلد المكث الطويل لأبد الأبد أو يكون عدوه إبليس لما قاسمه وزوجه وغرهما وأطمعهما بدوامهما في الجنة نسي ما قدر له من عمره . قالوا والمعول عليه في ذلك قوله تعالى للملائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) وهذا الخليفة هو آدم باتفاق الناس ولما عجبت الملائكة من ذلك وقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) عرفهم سبحانه أن هذا الخليفة الذي هو جاعل في الأرض ليس حاله كما توهمتم من الفساد بل أعلمه من علمي ما لا تعلمونه فأظهر من فضله وشرفه بأن علمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فلم يعرفوها و (قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) وهذا يدل على أن هذا الخليفة الذي سبق به اخبار الرب تعالى للملائكة وأظهر تعالى فضله وشرفه وأعلمه بما لم تعلمه الملائكة وهو خليفة جمعول في الأرض لافوق السماء . فان قيل قوله تعالى اني جاعل في الأرض خليفة إنما هو بمعنى سأجعله في الأرض فهي مآله ومصيره وهذا لا ينافي أن يكون في جنة الخلد فوق السماء أولاً ثم يصير إلى الأرض للخلافة التي جعلها الله له واسم الفاعل هنا بمعنى الاستقبال ولهذا انتصب عنه المفعول . فالجواب أن الله سبحانه أعلم ملائكته بأنه يخلقه لخلقة الأرض لا لسكني جنة الخلود وخبره الصدق وقوله الحق وقد علمت الملائكة

أنه هو آدم فلو كان قد أسكنه دار الخلود فوق السماء لم يظهر للملائكة وقوع المخبر ولم يحتاجوا إلى أن يبين لهم فضله وشره وعلوه المتضمن رد قولهم (أجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم إنما سألوا هذا السؤال في حق الخليفة المجمعول في الأرض فأما من هو في دار الخلد فوق السماء فلم توهم الملائكة منه سفك الدماء والفساد في الأرض ولا كان اظهار فضله وشره وعلوه وهو فوق السماء رادا لقولهم وجوابا لسؤالهم بل الذي يحصل به جوابهم ضد ما توهموه إظهار تلك الفضائل والعلوم منه وهو في محل خلافته التي خلق لها وتوهمت الملائكة أنه لا يحصل منه هناك إلا ضدها من الفساد وسفك الدماء وهذا واضح لمن تأمله وأما اسم الفاعل وهو جاعل وإن كان بمعنى الاستقبال فلأن هذا إخبار عما سيفعله الرب تعالى في المستقبل من جعله الخليفة في الأرض وقد صدق وعده ووقع ما أخبر به وهذا ظاهر في أنه من أول الأمر جعله خليفة في الأرض وأما جعله في السماء أو لا ثم جعله خليفة في الأرض تانياً وإن كان كما لا ينافي الاستخلاف المذكور فهو مما لا يقتضيه اللفظ بوجه بل يقتضى ظاهره خلافة فلا يصار إليه إلا بدليل يوجب المصير إليه وحوله نذنين . قالوا وأيضا فمن المعلوم الذي لا يخالف فيه مسلم ان الله سبحانه خلق آدم من تراب وهو تراب هذه الأرض بلا ريب كما روى الترمذى في جامعهم من حديث عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك والسهل والحزن والحديث والطيب قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح وقد رواه الإمام أحمد في مسنده من طرق عدة وقد أخبر سبحانه أنه خلقه من تراب وأخبر أنه خلقه من سلاله من طين وأخبر أنه خلقه من صلصال من حمأ مسنون والصلصال قيل فيه هو الطين اليابس الذي له صلصلة مالم يطبخ فاذا طبخ فهو نغار . وقيل فيه هو المتغير الراتحة من قولهم صلص إذا أنتن والحمأ الطين الأسود المتغير والمسنون قيل المصبوب من سنت الماء إذا صببته وقيل المنين المسن من قولهم سنت الحجر على الحجر إذا حككته فاذا سال بينهما شيء فهو سنين ولا يكون إلا منتنا وهذه كلها أطوار التراب الذي هو مبدؤه الأول كما أخبر عن خلق الذرية من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة وهذه أحوال النطفة التي هي مبدأ الذرية ولم يخبر سبحانه أنه رفعه من الأرض إلى فوق السموات لا قبل التخليق ولا بعده وإنما أخبر عن اسجد الملائكة له وعن إدخاله الجنة وما جرى له مع إبليس بعد خلقه فأخبر سبحانه بالأمور الثلاثة في نسق واحد مرتبطا بعضها ببعض . قالوا فأين الدليل الدال على اصعاد مادته واصعاده بعد خلقه إلى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه أصلا ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . قالوا ومن المعلوم أن ما فوق

السموات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الذي قد أنتن من تغيره وإنما محله هذا الأرض التي هي محل المتغيرات والفاسادات وأما ما كان فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا تن ولا فساد ولا استحالة . قالوا وهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء . قالوا وقد قال تعالى (وأما الذين سعدوا في الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ) فأخبر سبحانه أن هذا العطاء في جنة الخلد غير مقطوع وما أعطيه آدم فقد انقطع فلم تكن تلك جنة الخلد . قالوا وأيضا فلا نزاع في أن الله تعالى خلق آدم في الأرض كما تقدم ولم يذكر في قصته أنه نقله إلى السماء ولو كان تعالى قد نقله إلى السماء لكان هذا أولى بالذكر لأنه من أعظم أنواع النعم عليه وأكبر أسباب تفضيله وتشريفه وأبلغ في بيان آيات قدرته وربوبيته وحكمته وأبلغ في بيان المقصود من عاقبة المعصية وهو الاهباط من السماء التي نقل إليها كما ذكر ذلك في حق ابليس حيث لم ينجى في القرآن ولا في السنة حرف واحد أنه نقله إلى السماء ورفع له إليها بعد خلقه في الأرض علم أن الجنة التي أدخلها لم تكن هي جنة الخلد التي فوق السموات قالوا وأيضا فإنه سبحانه قد أخبر في كتابه أنه لم يخلق عباده عبثا ولا سدى وأنكر على من زعم ذلك فدل على أن هذا مناف لحكمته ولو كانتا جنة آدم هي جنة الخلد لكانوا قد خلقوا في دار لا يؤمرون فيها ولا ينهون وهذا باطل بقوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى) قال الشافعي وغيره معطلا لا يؤمر ولا ينهى وقال (أحسبتم أنا خلقناكم عبثا) فهو تعالى لم يخلقهم عبثا ولا تركهم سدى وجنة الخلد لا تكليف فيها . قالوا وأيضا فإنه خلقها جزاء للعاملين بقوله تعالى (نعم أجر العاملين) وجزاء للمتقين بقوله (ولنعم دار المتقين) ودار الثواب بقوله (ثوابا من عند الله) فلم يكن ليسكنها إلا من خلقها لهم من العاملين ومن المتقين ومن تبعهم من ذرياتهم وغيرهم من المحور والولدان . وبالجملة فخبرته تعالى اقتضت أنها لا تنال إلا بعد الابتلاء والامتحان والصبر والجهد وأنواع الطاعات وإذا كان هذا مقتضى حكمته فإنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مطابق لها . قالوا فإذا جمع ما أخبر الله عز وجل به من أنه خلقه من الأرض وجعله خليفة في الأرض وأن ابليس وسوس له في مكانه الذي أسكنه فيه بعد أن أهبط ابليس من السماء وأنه أخبر ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة وإن دار الجنة لا لغو فيها ولا تأثيم وأن من دخلها لا يخرج منها أبداً وإن من دخلها ينعم لا يبؤس وأنه لا يخاف ولا يحزن وأن الله سبحانه حرّمها على الكافرين وعدو الله ابليس أكفر الكافرين فحال أن يدخلها أصلا لا دخول عبور ولا دخول قرار وأنها دار نعم لا دار ابتلاء وامتحان إلى غير ذلك مما ذكرناه من منافاة أوصاف جنة الخلد للجنة التي أسكنها آدم إذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ونظر فيه بعين الانصاف والتجرد عن نصرة المقالات تبين الصواب من ذلك والله المستعان

قال الآخرون بل الجنة التي أسكنها آدم عند سلف الأمة وأمتها وأهل السنة والجماعة هي جنة الخلد ومن قال انها كانت جنة في الأرض بأرض الهند أو بأرض جدة أو غير ذلك فهو من المتفلسفة والملاحدين والمعتزلة أو من اخوانهم المتكلمين المبتدعين فان هذا يقوله من يقوله من المتفلسفة والمعتزلة والسكران يرد هذا القول وسلف الأمة وأمتها متفقون على بطلان هذا القول قال تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابا استكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما عما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) فقد أخبر سبحانه أنه أمرهم بالهبوط وان بعضهم لبعض عدو ثم قال (ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين) وهذا بين انهم لم يكونوا في الأرض وانما اهبطوا الى الأرض فانهم لو كانوا في الأرض وانتقلوا منها الى أرض أخرى كما انتقل قوم موسى من أرض الى أرض كان مستقرهم ومتاعهم الى حين في الأرض قبل الهبوط كما هو بعده وهذا باطل . قالوا وقد قال تعالى في سورة الأعراف لما قال إبليس (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج انك من الصاغرين) يبين اختصاص الجنة التي في السماء بهذا الحكم بخلاف جنة الأرض فان إبليس كان غير ممنوع من التكبر فيها والضمير في قوله منها عائد الى معلوم وان كان غير المذكور في اللفظ لأن العلم به أغنى عن ذكره . قالوا وهذا بخلاف قوله (اهبطوا مصرا فان لستم مأسأتم) فانه لم يذكر هنا ما اهبطوا منه وإنما ذكر ما اهبطوا إليه بخلاف إهباط إبليس فانه ذكر مبدأ هبوطه وهو الجنة والهبوط يكون من علو الى سفلى وبنو اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على مصر الذي يهبطون اليه ومن هبط من جبل الى واد قيل له اهبط . قالوا وأيضا فبنو اسرائيل كانوا يسرون ويرحلون والذي يسير ويرحل إذا جاء بلدة يقال نزل فيها لأن من عادته أن يركب في مسيره فإذا وصل نزل عن دوابه ويقال نزل العدو بأرض كذا ونزل القفل ونحوه ولفظ النزول كلفظ الهبوط فلا يستعمل نزل وهبط إلا إذا كان من علو الى سفلى وقال تعالى عقب قوله (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فهذا دليل على أنهم لم يكونوا قبل ذلك في مكان فيه يحيون وفيه يموتون ومنه يخرجون والقرآن صريح في أنهم انما صاروا اليه بعد الاهباط . قالوا ولو لم يكن في هذه لإقصة آدم وموسى لكانت كافية فان موسى صلى الله عليه وسلم انما لام آدم عليه السلام لما حصل له ولذريته من الخروج من الجنة من التمسك والمشقة فلو كانت بستانا في الأرض لكان غيره من بساتين الأرض يعوض

عنه وموسى أعظم قدرا من أن يلومه على أن أخرج نفسه وذريته من بستان في الأرض ، قالوا وكذلك قول آدم يوم القيامة لما يرغب اليه الناس أن يستفتح لهم باب الجنة فيقول وهل أخرجكم منها إلا خطيئة أبيكم فان ظهور هذا في كونها جنة الخلد وأنه اعتذر لهم بأنه لا يحسن منه أن يستفتحها وقد أخرج منها بخطيئته من أظهر الأدلة . قال الأولون أما قولكم ان من قال انها جنة في الأرض فهو من المتفلسفة والملاحدين والمعتزلة أو من اخوانهم فقد أوجدناكم من قال بهذا وليس من أحد من هؤلاء . ومشاركة أهل الباطل للحق في المسئلة لا يدل على بطلانها ولا تكون اضافتها لهم موجبة لبطلانها ما لم يختص بها فان أردتم أنه لم يقل بذلك إلا هؤلاء فليس كذلك وان أردتم أن هؤلاء من جملة القائنين بهذا لم يفدكم شيئا . قالوا وأما قولكم وسلف الأمة وأئمتها متفقون على بطلان هذا القول فنحن نطالبكم بنقل صحيح عن واحد من الصحابة ومن بعدهم من أئمة السلف فضلا عن اتماقهم . قالوا ولا يوجد عن صاحب ولا تابع ولا تابع تابع خبر يصح موصولا ولا شاذا ولا مشهورا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله تعالى أسكن آدم جنة الخلد التي هي دار المتقين يوم المعاد . قالوا وهذا القاضى منذر بن سعيد قد حكى عن غير واحد من السلف أنها ليست جنة الخلد . فقال ونحن نوجدكم أن أبا حنيفة فقيه العراق ومن قال بقوله قد قالوا أن جنة آدم التي خلقها الله ليست جنة الخلد وليسوا عند أحد من العالمين من الشاذين بل من رؤساء المخالفين وهذه الدواوين مشحونة من علومهم . وقد ذكرنا قول ابن عيينة وقد ذكر ابن مزين في تفسيره . قال سألت ابن نافع عن الجنة مخلوقة فقال السكوت عن هذا أفضل . قالوا فلو كان عند ابن نافع أن الجنة التي أسكنها آدم هي جنة الخلد لم يشك انها مخلوقة ولم يتوقف في ذلك . وقال ابن قتيبة في كتابه غريب القرآن في قوله تعالى (وقلنا اهبطوا منها) قال ابن عباس رضى الله عنهما في رواية أبي صالح هو كما يقال هبط فلان أرض كذا وكذا ولم يذكر في كتابه غيره فأين اجماع سلف الأمة وأئمتها . قالوا وأما احتجاجكم بقوله تعالى (ولكم في الأرض مستقر) عقيب قوله اهبطوا فهذا لا يدل على أنهم كانوا في جنة الخلد فان أحد الأقوال في المسئلة انها كانت جنة في السماء غير جنة الخلد كما حكاه الماوردى في تفسيره وقد تقدم . وأيضا فان قوله (ولكم في الأرض مستقر) يدل على أن لهم مستقرا إلى حين في الأرض المنقطعة عن الجنة ولا بد فان الجنة أيضا لها أرض . قال تعالى عن أهل الجنة (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعلم أجر العاملين) فدل على أن قوله (ولكم في الأرض مستقر) المراد به الأرض الحالية من

تلك الجنة لا كل ما يسمى أرضاً وكان مستقرهم الأول في أرض الجنة ثم صار في أرض
الابتلاء والامتحان ثم يصير مستقر المؤمنين يوم الجزاء أرض الجنة أيضاً فلا تدل الآية على
أن جنة آدم هي جنة الخلد . قالوا وهذا هو الجواب بعينه عن استدلالكم بقوله تعالى (قال
فيها تميمون وفيها تموتون ومنها تخرجون) فإن المراد به الأرض التي أهبطوا إليها وجعلت
مسكننا لهم بدل الجنة . وهذا تفسير المستقر المذكور في البقرة مع تضمنه ذكر الإخراج منها .
قالوا وأما قوله تعالى لإبليس (اهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها) . وقولكم أن هذا
انما هو في الجنة التي في السماء وإلا لجنّة الأرض لم يمنع إبليس من التكبر فيها فهو دليل لنا
في المسئلة فإن جنة الخلد لا سبيل لإبليس إلى دخولها والتكبر فيها أصلاً . وقد أخبر تعالى
أنه وسوس لآدم وزوجه وكذبهما وغرهما وغانمهما وتكبر عليهما وحسدتهما وهما حينئذ
في الجنة فدل على أنها لم تكن جنة الخلد ومحال أن يصعد إليها بعد اهبطها وإخراجه منها .
قالوا والضمير في قوله اهبطوا منها إما أن يكون عائداً إلى السماء كما هو أحد القولين وعلى
هذا فيكون سبحانه قد أهبطه من السماء عقب امتناعه من السجود وأخبر أنه ليس له أن يتكبر
ثم تكبر وكذب وغان في الجنة فدل على أنها ليست في السماء أو يكون عائداً إلى الجنة على
القول الآخر ولا يلزم من هذا القول أن تكون الجنة التي كاد فيها آدم وغره وقاسمه كاذبا
في تلك التي أهبط منها بل القرآن يدل على أنها غيرها كما ذكرناه فعلى التقديرين لا تدل الآية
على أن الجنة التي جرى لآدم مع إبليس ما جرى فيها هي جنة الخلد . قالوا وأما قولكم ان
بني اسرائيل كانوا بجبال السراة المشرفة على الأرض التي يهبطون وهم كانوا يسرون ويرحلون
فلذلك قيل لهم اهبطوا فهذا حق لا تنازعكم فيه وهو بعينه جواب لنا فان الهبوط يدل على أن
تلك الجنة كانت أعلا من الأرض التي أهبطوا إليها وأما كونها جنة الخلد فلا . قالوا والفرق
بين قوله اهبطوا مصرأ وقوله اهبطوا منها فإن الأول لنهاية الهبوط وغايته واهبطوا منها
متضمن لمبدئه وأوله لا تأثير له فيما نحن فيه فإن هبط من كذا إلى كذا يتضمن معنى الانتقال
من مكان عال إلى مكان سافل فأى تأثير لا ابتداء الغاية ونهايتها في تعيين محل الهبوط بأنه جنة
الخلد . قالوا وأما قصة موسى ولومه لآدم على إخراجه من الجنة فلا يدل على أنها جنة الخلد
وقولكم لا يظن بموسى أنه يلوم آدم على إخراجه نفسه وذريته من بستان في الأرض تشنيع
لا يفيد شيئاً أفترى كان ذلك بستاناً مثل أحاد هذه البساتين المقطوعة المبروعة التي هي عرضة
الآفات والتعب والنصب والظلم والحرق والسقى والتلقيح وسائر وجوه النصب الذي يلحق
هذه البساتين ولا ريب أن موسى عليه الصلاة والسلام أعلم وأجمل من أن يلوم آدم على

خروجه وإخراج بنيه من بستان هذا شأنه ولكن من قال بهذا وإنما كانت جنة لا يلحقها آفة ولا تنقطع ثمارها ولا تغور أنهارها ولا يجوع ساكنها ولا يظمأ ولا يضحى للشمس ولا يعرى ولا يمسه فيها التعب والنصب والشقاء ومثل هذه الجنة يحسن لوم الإنسان على التسبب في خروجه منها ، قالوا وأما اعتذار آدم عليه الصلاة والسلام يوم القيامة لأهل الموقف بأن خطيئته هي التي أخرجته من الجنة فلا يحسن أن يستفتحها لهم فهذا لا يستلزم أن تكون هي بعينها التي أخرج منها بل إذا كانت غيرها كان أبلغ في الاعتذار فانه إذا كان الخروج من غير جنة الخلد حصل بسبب الخطيئة فكيف يليق استفتاح جنة الخلد والشفاعة فيها ثم خرج من غيرها بخطيئة فهذا موقف نظر الفريقين ونهاية اقدام الطائفتين فن كان له فضل علم في هذه المسئلة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه ومن علم منتهى خطوته ومقدار بضاعته فليكل الأمر إلى عالمه ولا يرضى لنفسه بالتقصير والازراء عليه وليكن من أهل التلؤل الذين هم نظارة الحرب إذا لم يكن من أهل الكر والفر والطعن والضرب فقد تلاقت الفحول وتطاعنت الأقران وضاق بهم المجال في حابة هذا الميدان .

إذا تلاقى الفحول في اجب ه فكيف حال الغصيص في الوسط

هذه معاهد حجج الطائفتين مجازاة ببابك وإليك تساق وهذه بضائع تجار العلماء يتنادى عليها في سوق الكساد لا في سوق النفاق فن لم يكن له به شيء من أسباب البيان والبصرة فلا يعدم من قد استفرغ وسعه وبذل جهده منه التصويب والمعدرة ولا يرضى لنفسه بشر الخطئين وابتحس الخطئين جهل الحق وأسبابه ومعاداة أهله وطلابه وإذا عظم المطلوب وأعوزك الرفيق الناصح العايم فارحل بهمتك من بين الأموات وعليك بمعلم ابراهيم فقد ذكرنا في هذه المسئلة من النقول والأدلة والنكت البديعة ما لعله لا يوجد في شيء من كتب المصنفين ولا يعرف قدره إلا من كان من الفضلاء المنصفين ومن الله سبحانه الاستمداد وعليه التوكل وإليه الاستناد فإنه لا يخيب من توكل عليه ولا يضيع من لاذ به وفوض أمره اليه وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فصل

ولما أهبطه سبحانه من الجنة وعرضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعظام أفضل مما منعهم وهو عهده الذي عهد إليه وإلى بنيه وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته . قال تعالى عقب إخراجهم منها (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم مني هدى

فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وفي الآية الأخرى قال (اهبطا منها جميعاً فاما يا أيديكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فان له مديدة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) فلما كسره سبحانه بأهباطه من الجنة جبره وذريته بهذا العهد الذى عهده لإلهم . فقال تعالى (فاما يا أيديكم منى هدى) وهذه هى أن الشرطية المؤكدة بما الدالة على استغراق الزمان . والمعنى أى وقت وأى حين أتاكم منى هدى وجعل جواب هذا الشرط جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) كما تقول إن زرتنى فمن بشرنى بقدومك فهو حر وجواب الشرط يكون جملة تامة اما خبراً محضاً كقولك ان زرتنى أكرمك أو خبراً مقروناً بالشرط كهذا أو مؤكداً بالقسم أو بأن واللام كقوله تعالى (وإن أطعتموهم انكم لمشركون) . واما طلباً كقول النبي ﷺ إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله وقوله وإذا أقمتموهم فاصبروا وقوله تعالى (وإذا حلتم فاصطادوا فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وأكثر ما يأتي هذا النوع مع إذا التى تفيد تحقيق وقوع الشرط لمر وهو افادته تحقيق الطلب عند تحقيق الشرط ففى تحقق الشرط فالطلب متحقق فأنى إذا الدالة على تحقيق الشرط فعمل تحقيق الطلب عندها وقد يأتي مع أن قليلاً كقوله تعالى (وان كذبوك فقل لى عملى واسم عمليكم) وأما جملة انشائية كقوله لعبد الكافر ان أسلست فأنت حر ولا مرأتى ان فعلت كذا فأنت طالق فهذا انشاء للعتى والطلاق عند وجود الشرط على رأى أو انشاء له حال التعليق ويتأخر عنه وذه الى حين وجود الشرط على رأى آخر . وعلى التقديرين فجواب الشرط جملة انشائية . والمقصود ان جواب الشرط فى الآية المذكورة جملة شرطية وهى قوله (فمن اتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهذا الشرط يقتضى ارتباط الجملة الأولى بالثانية ارتباط العلة بالمعلول والسبب بالمسبب فيكون الشرط الذى هو ملزوم علة ومقتضيا للجزاء الذى هو لازم فان كان بينهما تلازم من الطرفين كان وجود كل منهما بدون دخول الآخر ممتعا كدخول الجنة بالإسلام وارتفاع الخوف والحزن والضلال والشقاء مع متابعة الهوى وهذه هى عامة شروط القرآن والسنة فانما أسباب وعلل والحكم ينتقى بانتفاء علته وان كان التلازم بينهما من أحد الطرفين كان الشرط ملزوماً خاصاً والجزاء لازماً عاماً ففى تحقق الشرط الملزوم الخاص تحقق الجزاء اللازم العام ولا يلزم العكس كما يقال ان كان هذا انساناً فهو حيوان وان كان البيوع صحيحاً فالملك ثابت . وهذا غالب ما يأتي فى قياس الدلالة حيث يكون الشرط دليلاً على الجزاء فيلزم من وجوده وجود الجزاء لأن الجزاء لازمه ووجود الملزوم يستلزم وجود اللازم ولا يلزم من عدمه عدم الجزاء وان

وقع هذا الشرط بين علة ومعلول فان الحكم معللا بعلة صحت ذلك وجزأ أن يكون الجزاء أعم من الشرط كقولك إن كان هذا مرتدا فهو حلال الدم فان حل الدم أعم من حله بالردة . إلا أن يقال أن حكم العلة المعينة ينتق بالتفاتها وإن ثبت الحكم بعلة أخرى فهو حكم آخر وأما حكم العلة المعينة فحاله أن ينق مع زوالها وحينئذ فيعود التلازم من الطرفين ويلزم من وجود كل واحد من الشرط والجزاء وجود الآخر ومن عدمه عدمه وتام تحقيق هذا في مسألة تعليل الحكم الواحد بعلتين وللناس فيه نزاع مشهور وفصل الخطاب فيها ان الحكم الواحد ان كان واحدا بالنوع كحل الدم وثبوت الملك ونقض الطهارة جاز تعليله بالعلل المختلفة وإن كان واحدا بالعين كحل الدم بالردة وثبوت الملك بالبيع أو الميراث ونحو ذلك لم يجز تعليله بعلتين مختلفتين وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في هذه المسألة والله أعلم . ومن تأمل أدلة الطائفتين وجد كل ما احتج به من رأى تعليل الحكم بعلة مختلفة إنما يدل على تعليل الواحد بالنوع بها وكل من نفي تعليل الحكم بعلتين إنما يتم دليله على نفي تعليل الواحد بالعين بهما فالقولان عند التحقيق يرجعان إلى شيء واحد . والمقصود أن الله سبحانه جعل اتباع هـداه وعهده الذي عهده إلى آدم سبباً ومقتضياً لعدم الخوف والحزن والضلال والشقاء وهذا الجزاء ثابت بثبوت الشرط منتف بالتفاته كما تقدم بيانه ونفي الخوف والحزن عن متبوع الهدى نفي لجميع أنواع الشرور فان المكروه الذي ينزل بالعبد متى علم بمحصوله فهو خائف منه أن يقع به واذا وقع به فهو حزين على ما أصابه منه فهو دائماً في خوف وحزن وكل خائف حزين فكل حزين خائف وكل من الخوف والحزن يكون على فعل المحبوب وحصول المكروه . فالأقسام أربعة خوف من قوت المحبوب وحصول المكروه وهذا جماع الشر كله فنفى الله سبحانه ذلك عن متبوع هده الذي أنزله على السنة رسله وأتى في نفي الخوف بالاسم الدال على نفي الثبوت واللزوم فان أهل الجنة لا بد لهم من الخوف في الدنيا وفي البرزخ ويوم القيامة حيث يقول آدم وغيره من الأنبياء نفسى نفسى فأخبر سبحانه أنهم وإن خافوا فلا خوف عليهم أى لا يلحقهم الخوف الذي خافوا منه وأتى في نفي الحزن بالفعل المضارع الدال على نفي التجدد والحدوث أى لا يلحقهم حزن ولا يحدث لهم إذا لم يذكروا ماسلف منهم بل هم في سرور دائم لا يعرض لهم حزن على ما فات . وأما الخوف فلما كان تعلقه بالمستقبل دون الماضي نفي لحوقه لهم جملة أى الذى خافوا منه لا ينالهم ولا يلزمهم والله أعلم فالحزين إنما يحزن في المستقبل على ماضى والخائف إنما يخاف في الحال مما يستقبل فلا خوف عليهم أى لا يلحقهم ما خافوا منه ولا يعرض لهم حزن على ما فات . وقال في الآية الأخرى (فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فنفي عن متبوع هده أمرين الضلال والشقاء قال عبدالله بن عباس رضى الله عنهما

تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ثم قرأ (فاما
يا أيمنكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى) والآية نفت مسمى الضلال والشقاء
عن متبع الهدى مطلقاً فاقضت الآية أنه لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ولا يشقى
فيها فان المراتب أربعة هدى وشقاوة في الدنيا وهدى وشقاوة في الآخرة لكن ذكر ابن
عباس رضى الله عنهما في كل دار أظهر مرتبتها فذكر الضلال في الدنيا إذ هو أظهر لنا وأقرب
من ذكر الضلال في الآخرة . وأيضاً فضلال الدنيا أضل ضلال في الآخرة وشقاء الآخرة
مستلزم للضلال فيها فنبه بكل مرتبة على الأخرى فنبه بنق ضلال الدنيا على نفي ضلال الآخرة
فان العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه . قال الله تعالى في الآية الأخرى
(ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني
أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) وقال في الآية
الأخرى (ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) فأخبر أن من كان فى
هذه الدار ضالاً فهو فى الآخرة أضل وأما نفي شقاء الدنيا فقد يقال أنه لما انتهى عنه الضلال
فيها وحصل له الهدى والهدى فيه من برد اليقين وطمأنينة القلب وذوق طعم الايمان فوجد
حلاوته وفرحة القلب به وسروره والتعميم به ومصير القلب حياً بالايمان مستنيراً به قويا به
قد نال به غذاءه ورواه وشفاؤه وحياته ونوره وقوته ولذته ونعيمه ما هو من أجل أنواع
التعميم وأطيب الطيبات وأعظم اللذات . قال الله تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو
مؤمن فلنحيينه حياة طيبة وانجز بنهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فهذا خبر أصدق
الصادقين ومخبره عند أهله عين اليقين بل هو حق اليقين ولا بد لكل من عمل صالحاً أن يحببه
الله حياة طيبة بحسب إيمانه وعمله ولكن يغلظ الجفاة الأجلاف فى مسمى الحياة حيث
يظنونها التعميم فى أنواع المآكل والمشارب والملابس والمناكح أو لذة الرئاسة والمال وقهر
الأعداء والتفنن بأنواع الشهوات ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم بل قد يكون حظ
كثير من البهائم منها أكثر من حظ الانسان فن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التى تشاركه فيها
السباع والدواب والأنعام فذلك بمن ينادى عليه من مكان بعيد ولكن أين هذه اللذة من اللذة
بأمر إذا خالط بشاشته القلوب سلى عن الأبناء والنساء والأرطان والأموال والاخوان
والمساكن ورضى بتركها كلها والخروج منها رأساً وعرض نفسه لأنواع المكارم والمشاق وهو
متحل بهذا منشرح الصدر به يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبه وأخيه لاناخذة فى ذلك لومة
لائم حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدرة ويقول فوت ورب الكعبة ويستطيل الآخر حياته
حتى يلقى قوته من يده ويقول انها لحياة طويلة ان صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحاً

مسرورا ويقول الآخر مع فقره لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه
بالسيوف ويقول الآخر انه لير بالقلب أوقات يرقص فيها طرباً . وقال بعض العارفين انه
تمر بي أوقات أقول فيها إن كان أهل الجنة في مثل هذا انهم لفي عيش طيب ومن تأمل قول
النبي صلى الله عليه وسلم لما نهامهم عن الوصال فقالوا انك توصل فقال انى لست كهيتكم انى
أظلم عند ربى يطعمنى ويسقيني علم أن هذا طعام الأرواح وشرابها وما يفيض عليها من أنواع
البهجة واللذة والسرور والنعيم الذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة العليا منه وغيره
إذا تعلق بغيره رأى ملك الدنيا ونعيمها بالنسبة إليه هباء منثورا بل باطلا وعوروا .
وغلط من قال أنه كان يأكل ويشرب طعاما وشرابا يقتدى به بدنه لوجوه . أحدها
أنه قال أظلم عند ربى يطعمنى ويسقيني ولو كان أكل وشرابا لم يكن وصلا ولا صوما . الثانى
أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم أنهم ليسوا كهيتهم فى الوصال فانهم إذا واصلوا تضرروا
بذلك وأما هو صلى الله عليه وسلم فانه إذا واصل لا يتضرر بالوصال فلو كان يأكل ويشرب
لكان الجواب وأنا أيضاً لا واصل بل آكل وأشرب كما تأكلون وتشربون فلما قرره على
قولهم انك توصل ولم يشكره عليهم دل على أنه كان مواصلا وانه لم يكن يأكل أو شربا
يفطر الصائم . الثالث أنه لو كان أكل وشرابا يفطر الصائم لم يصح الجواب بالفارق بينهم
وبينه فانه حينئذ يكون صلى الله عليه وسلم هو وهم مشتركون فى عدم الوصال فكيف يصح
الجواب بقوله لست كهيتكم وهذا أمر يعمله غالب الناس ان القلب متى حصل له ما يفرحه
ويسره من نيل مطلوبه ووصال حبيبته أو ما يغمه ويسوؤه ويحزنه شغل عن الطعام والشراب
حتى أن كثيرا من العشاق تمر به الأيام لا يأكل شيئا ولا يطلب نفسه أكل . وقد أفصح القائل
فى هذا المعنى :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد
لها بوجهك نور تستضى به ومن حديثك فى أعقابها حادى
إذا اشتكت من كلال السير أو عدها روح القدم فتحيا عند ميعاد

والمقصود أن الهدى مستلزم لسعادة الدنيا وطيب الحياة والنعيم العاجل وهو أمر يشهد به
الحس والوجد وأما سعادة الآخرة فغيب يعلم بالايمان فذكرها ابن عباس رضى الله عنهما
لكونها أهم وهى الغاية المطلوبة وضلال الدنيا أظهر وبالنجاة منه ينجو من كل شر وهو أصل
ضلال الآخرة وشقاؤها فلذلك ذكره وحده والله أعلم .

فصل

وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً في كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه ويذكر ضدتهما وهما الهدى والفلاح كثيراً ويخبر أنهما حظ أوليائه . أما الأول فكقوله تعالى (ان المجرمين في ضلال وسعر) فالضلال الضلال والسعر هو الشقاء والعذاب وقال تعالى (قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين) . وأما الثاني فكقوله تعالى في أول البقرة وقد ذكر المؤمنين وصفاتهم (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وكذلك في أول لقمان . وقال في الأنعام (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) ولما كانت سورة أم القرآن أعظم سورة في القرآن وأفرضا قراءة على الأمة وأجمعها لكل ما يحتاج إليه العبد وأعمها نفعاً ذكر فيها الأمرين فأمرنا أن نقول (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) فذكر الهداية والنعمة وهما الهدى والفلاح ثم قال (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فذكر المغضوب عليهم وهم أهل الشقاء والضالين وهم أهل الضلال وكل من الطائفتين له الضلال والشقاء لكن ذكر الوصفين معاً لتسكون الدلالة على كل منهما بصريح لفظه . وأيضاً فإنه ذكر ما هو أظهر الوصفين في كل طائفة فان الغضب على اليهود أظهر لعنادهم الحق بعد معرفته والضلال في النصارى أظهر لغلبة الجهل فيهم . وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

فصل

وقوله تعالى (فاما يا تينسكم منى هدى) هو خطاب لمن أهبطه من الجنة بقوله (اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو) ثم قال (فاما يا تينسكم منى هدى) وكلا الخطابين لأبوي الثقلين وهو دليل على أن الجن مأمورون منهيون داخلون تحت شرائع الأنبياء وهذا مما لاخلاف فيه بين الأمة وأن نبينا بعث اليهم كما بعث إلى الانس كما لاخلاف بينها أن مسيئهم مستحق للعقاب . وإنما اختلف علماء الإسلام في المسلم منهم هل يدخل الجنة فالجمهور على أن محسنهم في الجنة كما أن مسيئهم في النار وقيل بل ثوابهم سلامتهم من الجحيم . وأما الجنة فلا يدخلها أحد من أولاد إبليس وإنما هي لبني آدم وصالحى ذرية خاصة . وحكى هذا القول عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى . واحتج الأولون بوجوه . أحدها هذه الآية فإنه سبحانه أخبر أن من اتبع هداه فلا يخاف ولا يحزن ولا يضل ولا يشقى وهذا مستلزم

لكمال النعم . ولا يقال أن الآية إنما تدل على نفي العذاب فقط ولا خلاف أن مؤمنهم لا يعاقبون لأننا نقول لولم تدل الآية إلا على أمر عدى فقط لم يكن مدحاً لمؤمنى الانس ولما كان فيها إلا مجرد أمر عدى وهو عدم الخوف والحزن . ومعلوم أن سياق الآية ومقصودها إنما أريد به أن من اتبع هدى الله الذى أنزله حصل له غاية النعم واندفع عنه غاية الشقاء . وعبر عن هذا المعنى المطلوب بنفى الأمور المذكورة لاقتضاء الحال لذلك فإنه لما أبط آدم من الجنة حصل له من الخوف والحزن والشقاء ما حصل فأخبره سبحانه أنه معطيه وذريته عهداً من اتبعه منهم اتقى عنه الخوف والحزن والضلال والشقاء . ومعلوم أنه لا يفتنى ذلك كله إلا بدخول دار النعم . ولكن المقام بذكر التصريح بنفى غاية المسكروهاة أولى . الثانى قوله تعالى (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى لولا إلى قومهم منذرين قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم) فأخبرنا سبحانه عن نذيرهم اخباراً بقوله أن من أجاب داعيه غفر له وأجاره من العذاب ولو كانت المغفرة لهم إنما ينالون بها مجرد النجاة من العذاب كان ذلك حاصلًا بقوله (ويجرمكم من عذاب أليم) بل تمام المغفرة دخول الجنة والنجاة من النار فكل من غفر الله له فلا بد من دخوله الجنة . الثالث قوله تعالى فى الحور العين (لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان) فهذا يدل على أن مؤمنى الجن والانس يدخلون الجنة وأنه لم يسبق من أحد منهم طمئ لأحد من الحور فدل على أن مؤمنهم يتأق منهم طمئ الحور العين بعد الدخول كما يتأق من الانس ولو كانوا عن لا يدخل الجنة لما حسن الاخبار عنهم بذلك . الرابع قوله تعالى (فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً وهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) والجن منهم مؤمن ومنهم كافر كما قال صالحوهم (وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون) فكما دخل كافرهم فى الآية الثانية . وجب أن يدخل مؤمنهم فى الأولى . الخامس قوله عن صالحهم (فن أسلم فأولئك تحمروا رشداً) والرشدهو الهدى والفلاح وهو الذى يهدى اليه القرآن ومن لم يدخل الجنة لم ينل غاية الرشده بل لم يحصل له من الرشده إلا مجرد العلم . السادس قوله تعالى (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ومؤمنهم ممن آمن بالله ورسله فيدخل فى المبشرين ويستحق البشارة . السابع قوله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) عم

سبحانه بالدعوة وخص بالهداية المفضية اليها فن هداه اليها فهو بمن دعاه اليها فن اهتدى من الجن
فهو من المدعويين اليها . الثامن قوله تعالى (ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم
من الانس وقال اولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا
قال النار مشوا كم خالدين فيها إلا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا
بما كانوا يكسبون يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم
لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا
كافرين ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ولكل درجات مما عملوا) وهذا
عام في الجن والانس فأخبرهم تعالى أن لكلهم درجات من عمله فاقضى أن يكون لمحسنتهم
درجات من عمله كما لمحسن الانس . التاسع قوله تعالى (ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) وقوله تعالى
(ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة
خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) ووجه التمسك بالآية من وجوه ثلاثة . أحدها عموم
الاسم الموصول فيها . الثاني ترتيبه الجزء المذكور على المسألة ليدل على أنه مستحق بها وهو
قول ربنا الله مع الاستقامة والحكم يعم بعموم علته فاذا كان دخول الجنة مرتباً على الاقرار
بالله وربوبيته مع الاستقامة على أمره فن أتى ذلك استحق الجزء . الثالث انه قال (فلاخوف
عليهم ولا هم يحزنون أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) فدل على أن
كل من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة وقد تقدم في أول الآيات قوله تعالى (فن
اتبع هداى فلاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وأنه متناول للفريقين ودلت هذه الآية على أن
من لاخوف عليه ولا حزن فهو من أهل الجنة . العاشر أنه إذا دخل مسيئهم النار بعدل الله
فدخول محسنتهم الجنة بفضله ورحمته أولى فان رحمته سبقت غضبه والفضل أغلب من العدل
ولهذا لا يدخل النار إلا من عمل أعمال أهل النار . وأما الجنة فيدخلها من لم يعمل خيراً قط
بل ينشئ لها أقواماً يسكنهم إياها من غير عمل عملوه ويرفع فيها درجات العبد من غير سعي
منه بل بما يصل اليه من دعاء المؤمنين وصلاتهم وصدقتهم وأعمال البر التي يهدونها اليه بخلاف
أهل النار فانه لا يعذب فيها بغير عمل أصلاً . وقد ثبت بنص القرآن واجماع الأمة ان مسيء
الجن في النار بعدل الله وبما كانوا يكسبون فحسنتهم في الجنة بفضل الله وبما كانوا يعملون .
لكن قيل أنهم يكونون في رطب الجنة يراهم أهل الجنة ولا يرونهم كما كانوا في الدنيا يرون
بنى آدم من حيث لا يرونهم ومثل هذا لا يعلم إلا بتوقيف تنقطع الحججة عنده فان ثبتت حجة
يجب اتباعها وإلا فهو بما يحكى ليعلم وصحته موقوفة على الدليل والله أعلم .

فصل

ومتابعة هدى الله التي رتب عليها هذه الأمور هي تصديق خبره من غير اعتراض شبهة تقدم في تصديقه وامثال أمره من غير اعتراض شهوة تمنع امتثاله وعلى هذين الأصلين مدار الايمان وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر ويتبعهما أمران آخران وهما نفي شبهات الباطل الواردة عليه المانعة من كمال التصديق وان لا يغمس بها وجه تصديقه ودفع شهوات الغي الواردة عليه المانعة من كمال الامتثال فهنا أربعة أمور . أحدها تصديق الخبر . الثاني بذل الاجتهاد في ردالشبهات التي توحيا شياطين الجن والانس في معارضته . الثالث طاعة الأمر والرابع مجاهدة النفس في دفع الشهوات التي تحول بين العبد وبين كمال الطاعة وهذان الأمران أعنى الشبهات والشهوات أصل فساد العبد وشقاقه في معاشه ومعاده كما أن الأصلين الأولين وهما تصديق الخبر وطاعة الأمر أصل سعادته وفلاحه في معاشه ومعاده وذلك أن العبد له قوتان قوة الإدراك والنظر وما يتبعها من العلم والمعرفة والكلام وقوة الارادة والحب وما يتبعه من النية والعزم والعمل فالشبهة تؤثر فسادا في القوة العلمية النظرية مالم يداوها بدفعها والشهوة تؤثر فسادا في القوة الارادية العملية مالم يداوها باخراجها قال الله تعالى في حق نبيه يذكر مامن به عليه من نزاهته وطهارته مما يلحق غيره من ذلك (والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى) فما ضل دليل على كمال علمه ومرفقه وانه على الحق المبين وما غوى دليل على كمال رشده وانه أبر العالمين فهو الكامل في علمه وفي عمله وقد وصف صلى الله عليه وسلم بذلك خلفاءه من بعده وأمر باتباعهم على سنتهم فقال عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى رواه الترمذى وغيره فالراشد ضد الغاوى والمهدى ضد الضال وقد قال تعالى (كالذين من قبلكم كانوا أشد منك قوة وأكثروا أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلافهم فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلافهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) فذكر تعالى الأصلين وهما أداء الأولين والآخرين أحدهما الاستمتاع بالخلاق وهو النصيب من الدنيا والاستمتاع به متضمن لنيل الشهوات المانعة من متابعة الأمر بخلاف المؤمن فانه وان نال من الدنيا وشهواتها فانه لا يستمتع بنصيبه كله ولا يذهب طبيعته في حياته الدنيا بل ينال منها ما ينال منها ليتقوى به على التزود لمعاده والثاني الخوض بالشبهات الباطلة وهو قوله (وخضتم كالذي خاضوا) وهذا شأن النفوس الباطلة التي لم تخلق للأخرة لانزال ساعية في نيل شهواتها فاذا نالتها فانما هي في خوض بالباطل الذي لا يجدى عليها إلا الضرر العاجل والآجل . ومن تمام حكمة الله تعالى أنه يبثلى هذه النفوس بالشقاء والنعب في تحصيل إرادتها وشهواتها فلا تفرغ للخوض بالباطل الا قليلا ولو تفرغت هذه النفوس الباطولية

كانت أئمة تدعوا إلى النار وهذا حال من تفرغ منها كما هو مشاهد بالعيان وسواء كان المعنى
وخضم كالحزب الذى خاضوا أو كالفريق الذى خاضوا فان الذى يكون للواحد والجمع ونظيره
قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك
جزاء المحسنين) لكن لا يجرى على جمع تصحيح فلا يجرى المسلمون الذى جاؤا وإنما
يجرى غالبا فى اسم الجمع كالحزب والفريق أو حيث لا يذكر الموصوف وان كان جمعا
كقوله الشاعر :

وان الذى جاءت تصحيح دماؤهم • هم القوم كل القوم يا أم خالد

أو حيث يراد الجنس دون الواحد والعدد كقوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق
به) ثم قال (أولئك هم المتقون) ونظيره الآية التى نحن فيها وهى قوله (وخضتم كالذى خاضوا)
أو كان المعنى على القول الآخر وخضتم خوفا كالحوض الذى خاضوا فيكون صفة لمصدر محذوف
كقولك اضرب كالذى ضرب وأحسن كالذى أحسن ونظائره وعلى هذا فيكون العائد منصوبا
محذوفا وحذفه فى مثل ذلك قياس مطرد على القولين فقد ذمهم سبحانه على الخوض بالباطل
وانباع الشهوات واخبر أن من كانت هذه حاله فقد حبط عمله فى الدنيا والآخرة وهو من
الخاسرين ونظير هذا قول أهل النار لأهل الجنة وقد سألوه كيف دخلوها (قالوا لم نك
من المسلمين ولم نك نطعم المسكين وكنا نخوض مع الخائضين وكنا نكذب بيوم الدين)
فذكروا الاصلين الخوض بالباطل وما يتبعه من التكذيب بيوم الدين . واشار الشهوات
وما يستلزمه من ترك الصلوات واطعام ذوى الحاجات فهذان الاصلان هما ما هما
والله ولى التوفيق .

فصل

والقلب السليم الذى ينجم من عذاب الله هو القلب الذى قد سلم من هذا وهذا فهو القلب الذى
قد سلم لربه وسلم لامره ولم تبق فيه منازعة لامره ولا معارضة لخبيره فهو سليم بما سوى الله
وأمره لا يريد الا الله ولا يفعل إلا ما أمره الله فالله وحده غايته وأمره وشرعه وسيلته
وطريقته لانعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره لكن لا تتر عليه إلا وهى مجتازة تعلم
أنه لا قرار لها فيه ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من
الشرك وسليم من البدع وسليم من الغى وسليم من الباطل وكل الأقوال التى قيلت فى تفسيره
فذلك يتضمنها . وحقيقته أنه القلب الذى قد سلم لعبودية ربه حياء وخوفا وطمعاً ورجاء
ففى بحبه عن حب ماسواه وبخوفه عن خوف ماسواه وبرجائه عن رجاء ماسواه وسلم لامره

ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم واستسلم لقضائه وقدره فلم يتهمه ولم ينازعه ولم يتسخط لأقداره فاسلم لربه انقيادا وخضوعا وذلا وعبودية وسلم جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيدته ظاهرا وباطنا من مشكاة رسوله وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلى أن يتبين له وسالم أوليائه وحزبه المفلحين الذابين عن دينه وسنة نبيه القائمين بها وعادى أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه الخارجين عنهما الداعين إلى خلافهما .

فصل

وهذه المتابعة هي التلاوة التي أتى الله على أهلها في قوله تعالى (ان الذين يتلون كتاب الله) وفي قوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به) والمعنى يتبعون كتاب الله حق اتباعه وقال تعالى (أتلى ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة) وقال (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرما وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلا القرآن) حقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة وهي تلاوة اللفظ والمعنى فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة وحقيقة اللفظ إنما هي الإتيان يقال أتلى أثر فلان وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنى تبعت خلفه ومنه قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها) أي تبعتها في الطلوع بعد غيبتها ويقال جاء القوم يتلو بعضهم بعضا أي يتبع وبشي نألى الكلام تاليا لأنه يتبع بعض الحروف بعضها لا يخرجها جملة واحدة بل يتبع بعضها بعضا مرتبة كلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى وهذه التلاوة وسيلة وطريقة . والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنى واتباعه تصديقا بخبره وإتجارا بأمره وانتهاء بنبيه وإتماما به حيث ما فادك انقلت معه فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه وتلاوة المعنى أشرف من مجرد تلاوة اللفظ وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة فانهم أهل تلاوة ومتابعة حقا .

فصل

ثم قال تعالى (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) لما أخبر سبحانه عن حال من أتبع هداة في معاشه ومعاده أخبر عن حال من أعرض عنه ولم يتبعه فقال (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا) أي عن الذكر الذي أنزلته فالذكر هنا مصدر مضاف إلى الفاعل كقياحى وقراءتى لا إلى المفعول وليس المعنى ومن أعرض

عن أن يذكرني بل هذا لازم المعنى ومقتضاه من وجه آخر سنذكره . وأحسن من هذا الوجه أن يقال الذكر هنا مضاف لإضافة الأسماء لا إضافة المصادر إلى معمولاتها . والمعنى ومن أعرض عن كتابي ولم يتبعه فان القرآن يسمى ذكراً قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال تعالى (ذلك نلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) وقال تعالى (وما هو إلا ذكر للعالمين) وقال تعالى (إن الذين كفروا بالذکر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) وقال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذکر وخشى الرحمن) وعلى هذا فإضافته كإضافة الأسماء الجوامد التي لا يقصد بها إضافة العامل إلى معموله ونظيره في إضافة إسم الفاعل (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) فان هذه الإضافات لم يقصد بها قصد الفعل المتجدد وإنما قصد بها قصد الوصف الثابت اللازم وكذلك جرت أوصافاً على اعرف المعارف وهو اسم الله تعالى في قوله تعالى (تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) .

فصل

وقوله تعالى (فان له معيشة ضنكاً) فسرهما غير واحد من السلف بعذاب القبر وجعلوا هذه الآية أحد الأدلة الدالة على عذاب القبر ولهذا قال (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) أى ترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا فذكر عذاب البرزخ وعذاب دار البوار ونظيره قوله تعالى في حق آل فرعون (النار يعرضون عامها غدواً وعشيماً) فهذا في البرزخ (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) فهذا في القيامة الكبرى ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) فقول الملائكة اليوم تجزون عذاب الهون المراد به عذاب البرزخ الذي أوله يوم القبض والموت ونظيره قوله تعالى (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) فهذه الإذاعة هي في البرزخ وأولها حين الوفاة فانه معطوف على قوله (يضربون وجوههم وأدبارهم) وهو من القول المحذوف مقوله لدلالة الكلام عليه كمنظيره وكلاهما واقع وقت الوفاة . وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضى الله عنه في قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) قال نزلت في عذاب القبر والأحاديث في عذاب القبر تكاد تبلغ حد التواتر . والمقصود أن الله سبحانه أخبر أن من أعرض عن ذكره وهو الهبى الذى من انبعمه لا يضل ولا يشقى فان له معيشة ضنكاً وتكفل لمن حفظ

عنده أن يحياه حياة طيبة ويجزيه أجره في الآخرة فقال تعالى (من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) فأخبر سبحانه عن فلاح ما تمسك بهده علماً وعملا في المعالجة بالحياة الطيبة وفي الآخرة بأحسن الجزاء وهذا بعكس من له المعيشة الضنك في الدنيا والبرزخ ونسيانه في العذاب بالآخرة وقال سبحانه (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين وانهم ليصدونهم عن السبيل ومحسبون أنهم مهتدون) فأخبر سبحانه أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين وضلاله به إنما كان بسبب اعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله فكان عقوبة هذا الاعراض أن قبيض له شيطاناً يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه وهو يحسب أنه مهتد حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه وعين هلاكه وافلاسه قال (يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين) وكل من أعرض عن الهدى بالوحى الذى هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة . فان قيل فهل لهذا عذر في ضلاله إذا كان يحسب أنه على هدى كما قال تعالى (ويحسبون أنهم مهتدون) . قيل لا عذر لهذا وأمثاله من الضلال الذين منشأ ضلالهم الاعراض عن الوحى الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولو ظن أنه مهتد فانه مفرط باعراضه عن اتباع داعى الهدى فاذا ضل فانما أتى من تفريطه واعراضه وهذا بخلاف من كان ضلاله لعدم بلوغ الرسالة وعجزه عن الوصول إليها فذلك له حكم آخر والوعيد في القرآن إنما يتناول الأول وأما الثانى فان الله لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه كما قال تعالى (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) وقال تعالى (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . وقال تعالى فى أهل النار (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) . وقال تعالى (أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانى لكانت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين) وهذا كثير فى القرآن .

فصل

وقوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً) اختلف فيه هل هو من عمى البصيرة أو من عمى البصر والذين قالوا هو من عمى البصيرة إنما حملهم على ذلك قوله (أسمع بهم وأبصر يوم يأتونا) . وقوله (لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) وقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) . وقوله (ليرون الجحيم ثم أرونها عين اليقين) ونظائر هذا بما يثبت لهم الرؤية

في الآخرة كقوله تعالى (وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي)
وقوله (يوم يدعون إلى نار جهنم دعا هذه النار التي كنتم بها تكذبون أفسح هذا أم أتم
لا تبصرون) وقوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم واقعوا فيها) والذين رجحوا أنه من
عمى البصر قالوا السياق لا يدل إلا عليه لقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا)
وهو لم يكن بصيرا في كفره قط بل قد تبين له حينئذ أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق
فكيف يقول وقد كنت بصيرا وكيف يجاب بقوله (كذلك أتتك آياتنا ففسيها وكذلك
اليوم نفي) بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر وأنه جوزى من جنس عمله فإنه لما
أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله وعميت عنه بصيرته أعمى الله بصره يوم القيامة
وتركه في العذاب كما ترك الذكر في الدنيا لجأزه على عمى بصيرته عمى بصره في الآخرة وعلى
تركه ذكره تركه في العذاب وقال تعالى (ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء
من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما) . وقد قيل في هذه الآية أيضا
أنهم عمى وبكم وصم عن الهدى كما قيل في قوله (ونحشره يوم القيامة أعمى) قالوا لأنهم
يتكلمون يومئذ ويسمعون ويبصرون ومن نصرانه العمى والبكم والصمم المضاد للبصر
والسمع والنطق قال بعضهم هو عمى وصم وبكم مقيد لا مطلق فهم عمى عن رؤية ما يسرهم
وسمعه . ولهذا قد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لا يرون شيئا يسرهم . وقال
آخرون هذا الحشر حين تتوفاهم الملائكة يخرجون من الدنيا كذلك فإذا قاموا من قبورهم إلى
الموقف قاموا كذلك ثم انهم يسمعون ويبصرون فيما بعد وهذا مروى عن الحسن . وقال
آخرون هذا إنما يكون إذا دخلوا النار واستقروا فيها سلبوا الأسماع والأبصار والنطق حين
يقول لهم الرب تبارك وتعالى (اخسثوا فيها ولا تكلمون) حينئذ ينقطع الرجاء وبكم عقولهم
فيصرون بأجمعهم عميا بكما صما لا يبصرون ولا يسمعون ولا ينطقون ولا يسمع منهم إلا
الزفير والشهيق . وهذا منقول عن مقاتل والذين قالوا المراد به العمى عن الحجية إنما مرادهم
أنهم لا حاجة لهم ولم يريدوا أن لهم حجة هم عمى عنها بل هم عمى عن الهدى كما كانوا في الدنيا
فإن العبد يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه وبهذا يظهر أن الصواب هو القول
الآخر وأنه عمى البصر فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانا ويقر بما كان يمجده في الدنيا
فليس هو أعمى عن الحق يومئذ (وفصل الخطاب) ان الحشر هو الضم والجمع ويراد به
تارة الحشر إلى موقف القيامة كقول النبي صلى الله عليه وسلم انكم محشورون إلى الله حفاة
عراة غرلا وكقوله تعالى (وإذا الوحوش حشرت) وكقوله تعالى (وحشرناهم فلم نغادر
منهم أحدا) ويراد به الضم والجمع إلى دار المستقر لحشر المتقين جمعهم وضمهم إلى الجنة

وحشر الكافرين جمعهم وضمهم إلى النار . قال تعالى (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً) .
وقال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يبعدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) فهذا الحشر هو بعد حشرهم إلى الموقف وهو حشرهم وضمهم إلى النار لأنه قد أخبر عنهم أنهم (قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون) ثم قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) وهذا الحشر الثاني وعلى هذا فهم ما بين الحشر الأول من القبور إلى الموقف والحشر الثاني من الموقف إلى النار فعند الحشر الأول يسمعون ويصرون ويجادلون ويتكلمون وعند الحشر الثاني يحشرون على وجوههم عمياً وبكياً وصماً فكل موقف حال يلقى به ويقضيه عدل الرب تعالى وحكمته فالقرآن يصدق بعضه بعضاً (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

فصل

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى لما اقتضت حكمته ورحمته إخراج آدم وذريته من الجنة أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من عهده الذي جملة سببها موصلاً لهم إليه وطريقاً واضحاً بين الدلالة عليه من تمسك به فاز واهتدى ومن أعرض عنه شقى وغوى . ولما كان هذا العهد الكريم والصرط المستقيم والنبأ العظيم لا يوصل إليه أبداً إلا من باب العلم والإرادة فالإرادة باب الوصول إليه والعلم مفتاح ذلك الباب المتوقف فتحه عليه وكال كل إنسان إنما يتم بهذين النوعين همة ترقيه وعلم يبصره ويهديه فان مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين أو من إحداهما أما أن لا يكون له علم بها فلا يتحرك في طلبها أو يكون عالماً بها ولا تنهض همة إليها فلا يزال في حضيض المبعه محبوساً وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدوداً منسكوساً قد أسام نفسه مع الأنعام راعياً مع الحمل واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل لا كمن رفع له علم فحشر إليه وبورك له في تفرده في طريق طلبه فلزمه واستقام عليه ندابت غلبات شوقه الالهجرة إلى الله ورسوله ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله . ولما كان كمال الإرادة بحسب كمال مرادها وشرف العلم تابع لشرف معلومه كانت نهاية سعادة العبد الذي لا سعادة له بدونها ولا حياة له إلا بها أن تكون إرادته متعلقة بالمراد الذي لا يبلى ولا يفوت وعزمات همة مسافرة إلى حضرة المحي الذي لا يموت ولا سبيل له إلى هذا المطلب الآسنى والحظ الآروفي إلا بالعلم الموروث عن عبده ورسوله وخليفه وحبيبه الذي بعثه لذلك داعياً وأقامه على هذا الطريق هادياً وجعله واسطة بينه وبين الأنام وداعياً لهم بإذنه إلى داد السلام وأبى سبحانه أن يفتح لأحد منهم إلا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعيلاً إلا أن يكون مبتدأ منه ومنتها إليه .

فالطرق كلها إلا طريقه صلوات الله وسلامه عليه مسدودة والقلوب بأسرها إلا قلوب أتباعه المنقادة إليه عن الله محبوسة مصدودة فتح على من كان في سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن الله واعيا أن يجعل على هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرهما أخبثته التي إليها مفرغه في حياته وطأه له فلا جرم كان وضع هذا الكتاب مؤسسا على هاتين القاعدتين ومقصوده التعريف بشرف هذين الأصلين ﴿ وسميته مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة ﴾ إذ كان هذا من بعض النزل والتحف التي فتح الله بها على حين انقطاعي إليه عند بيته وإلقائي نفسي ببابه مسكينا ذليلا وتعرضي لنفحاته في بيته وحوله بكرة وأصيلا فما خاب من أنزل به حوائجه وعلق به آماله وأصبح ببابه مقبيا وبجماه زويلا ولما كان العلم أمام الإرادة ومقدما عليها ومفصلا لها ومرشدا لها قدمنا الكلام عليه على الكلام على المحبة . ثم نتبعه ان شاء الله بعد الفراغ منه كتابا في الكلام على المحبة وأقسامها وأحكامها وفوائدها وثمراتها وأسبابها وموانعها وما يقويها وما يضعفها والاستدلال بسائر طرق الأدلة من النقل والعقل والفطرة والقياس والاعتبار والذوق والوجد على تماقها بالإله الحق الذي لا إله غيره بل لا ينبغي أن تكون إلاله ومن أجله والرد على من انكر ذلك وتبيين فساد قوله عقلا ونقلا وفطرة وقياسا وذوقا ووجدا فهذا مضمون هذه التحفة وهذه عرائس معانيها الآن تجلي عليك وخود أبكارها البديعة الجمال ترفل في حللها وهي تزف اليك فاما شمس منازلها بعد الاسعد وأما خود تزف إلى ضرير مقعد فاختر انفسك احدى الخطتين وأزلفها فيما شئت من المنزلتين ولا بد لكل نعمة من حاسد ولكل حق من جاحد ومعاند هذا وإنما أودع من المعاني والنفائس رهن عند متأمله ومطالعه له غنمه وعلى مؤلفه غرمه وله ثمرته ومنفعته ولصاحبه كله ومشقته مع تعرضه لظعن الطاعنين ولا اعتراض المناقشين وهذه بضاعته المزجاة وعقله المسكدود يعرض على عقول العالمين وإلقائه نفسه وعرضه بين مغالب الحاسدين وأنياب البغاة المعتدين فلك أيها القاري صفوه ومؤلفه كدره وهو الذي نجشم غراسه وتعبه ولك ثمره وما هو قد استهدف لسهام الراشقين واستعذر إلى الله من الزلل والخطأ ثم إلى عباده المؤمنين . اللهم فعياذًا بك ممن قصر في العلم والدين بأعه وطالت في الجهل وأذى عبادك ذراعه فهو لجهله يرى الإحسان اساءة والسنة بدعة والعرف نكرا وظلمه يجزى بالحسنة سيئة كاهلة وبالسيئة الواحدة عشرة قد اتخذ بطر الحق وغمط الناس سلبا إلى ما يحبه من الباطل ويرضاه ولا يعرف من المعروف ولا ينتكر من المنكر إلا ما وافق إرادته أو حالف هواه يستطيل على أولياء الرسول وحزبه باصغريه ويجالس أهل النفي والجهالة ويذاحمهم بركبته قد ارتوى من ماء آجن وتضلع واستشرف إلى مراتب

ورثة الأنبياء وتطلع يركض في ميدان جهله مع الجاهلين ويبرز عليهم في الجمالة فيظن أنه من السابقين وهو عند الله ورسوله والمؤمنين عن تلك الورثة النبوية بمعزل وإذا أنزل الورثة منازلهم منها فنزك منها أقصى وأبعد منزل .

نزولاً بمسكة في قبائل هاشم ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وعياذا بك ممن جعل الملامة بضاعته والعدل نصيحته فهو دائماً يبدى في الملامة ويعيد . ويكرر على العدل فلا يفيده ولا يستفيد . بل عياذا بك من عدو في صورة ناصح وولى في سلاح بعيد كاشح يجعل عداوته وأذاه حذراً وإشفاقاً وتمفيره وتخذيده إسعافاً وإرفاقاً وإذا كانت العين لا تنكاد إلا على هؤلاء تفتح والميزان بهم يخف ولا يرجح فما أحرى اللبيب بأن لا يعيرهم من قلبه جزاً من الالتفات ويسافر في طريق مقصده بينهم سفره إلى الأحياء بين الأموات وما أحسن ما قال القائل :

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم وليس لهم حتى النشور نشور

اللهم فك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك وأنت حسبنا ونعم الوكيل . فلنشرع الآن في المقصود بحول الله وقوته فنقول .

الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه

وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد ونجاته في معاشه ومعاده عليه

قال الله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده فقال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه . أحدها استشهادهم دون غيرهم من البشر . والثاني اقتران شهادتهم بشهادته . والثالث اقترانها بشهادة ملائكته . والرابع أن في ضمن هذا تزكيتهم وتمديلتهم فان الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول ومنه الأثر المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وقال محمد بن أحمد بن يعقوب بن شيبه رأيت رجلاً قدم رجلاً إلى إسماعيل بن إسحاق القاضي

فادعى عليه دعوى فسأل المدعى عليه فأنكر فقال للمدعى ألك بيعة قال نعم فلان وفلان قال أما فلان فن شهودى وأما فلان فليس من شهودى قال فيمرفه القاضى قال نعم قال بماذا قال أعرفه بكتب الحديث قال فكيف تعرفه فى كتبه الحديث قال ما علمت إلا خيراً . قال فان النبى صلى الله عليه وسلم قال يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله فمن عدله رسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بمن عدلته أنت فقال قم فهاته فقد قبلت شهادته . وسيأتى إن شاء الله الكلام على هذا الحديث فى موضعه . الخامس أنه وصفهم بكونهم أولى العلم وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم . السادس أنه سبحانه استشهد بنفسه وهو أجل شاهد ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده ويكفيهم بهذا فضلاً وشرفاً . السابع أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره وهو شهادة أن لا إله إلا الله والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم . الثامن أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده . التاسع أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأظنهم بهذه الشهادة فكان هو الشاهد بها لنفسه لإقامة وإنطاقاً وتعليماً وهم الشاهدون بها له لإقراراً واعترافاً وتصديقاً وإيماناً . العاشر أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به فثبت الحق المشهود به فوجب على الخلق الإقرار به وكان ذلك غاية سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلمن من الأجر مثل أجره وهذا فضل عظيم لا يدرك قدره إلا الله وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلمن من الأجر مثل أجره أيضاً فهذه عشرة أوجه فى هذه الآية . الحادى عشر فى تفضيل العلم وأهله أنه سبحانه نفى التسوية بين أهله وبين غيرهم كأنفى التسوية بين أصحاب الجنة وأصحاب النار . فقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) كما قال تعالى (لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهذا يدل على غاية فضلهم وشر فهم . الوجه الثانى عشر أنه سبحانه جعل أهل الجبل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون فقال (أفن يعلم أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) فائتم إلا عالم أو أعمى وقد وصف سبحانه أهل الجبل بأنهم صم بكم عمى فى غير موضع من كتابه . الوجه الثالث عشر أنه سبحانه أخبر عن أولى العلم بأنهم يرون أن ما أنزل إليه من ربه حقاً وجعل هذا ثناء عليهم واستشهاداً بهم . فقال تعالى (ويرى الذين أتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق) الوجه الرابع عشر أنه سبحانه أمر بسؤالهم والرجوع إلى أقوالهم وجعل ذلك كالشهادة منهم . فقال (وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاستلوا أهل الذكر إن

كنتم لاتعملون) وأهل الذكركم أهل العلم بما أنزل على الأنبياء . الوجه الخامس عشر أنه سبحانه شهد لأهل العلم شهادة في ضمنها الاستشهاد بهم على صحة ما أنزل الله على رسوله فقال تعالى (أفغير الله أتبغى حكما وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين) . الوجه السادس عشر أنه سبحانه صلى نبيه بإيمان أهل العلم به وأمره أن لا يعبأ بالجاهلين شيئا . فقال تعالى (وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا قل آمنوا به اولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وهذا شرف عظيم لأهل العلم وتحمه ان أهله العالمون قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا فسواء آمن به غيرهم أولا . الوجه السابع عشر أنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم . فقال تعالى (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه يمينك إذا لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) وسواء كان المعنى أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ وهو في نفسه آيات بينات فيكون أخبر عنه بمخبرين . أحدهما أنه آيات بينات . الثاني أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم . أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم أي كونه آيات بينات معلوم لهم ثابت في صدورهم والقولان متلازمان ليسا بمختلفين . وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد بهم فتأمله : الوجه الثامن عشر أنه سبحانه أمر نبيه أن يسأله مزيد العلم فقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علما) وكفى بهذا شرفا للعلم أن أمر نبيه أن يسأله المزيد منه . الوجه التاسع عشر أنه سبحانه أخبر عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان خاصة . فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم ففسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير) وقد أخبر سبحانه في كتابه برفع الدرجات في أربعة مواضع . أحدها هذا . والثاني قوله (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) والثالث قوله تعالى (ومن يأتيه مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك هم الدرجات العلى) والرابع قوله تعالى (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا

عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) فهذه أربعة مواضع في ثلاثة منها الرفعة بالدرجات لاهل
الإيمان الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والرابع الرفعة بالجهد فعادت رفعة الدرجات كلها إلى
العلم والجهد اللذين بهما قوام الدين، الوجه العشرون . أنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان
يوم القيامة على بطلان قول الكفار . فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا
غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم
البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) الوجه الحادي والعشرون أنه سبحانه أخبر أنهم
أهل خشية بل خصهم من بين الناس بذلك . فقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله
عزير غفور) وهذا حصر للخشية في أولى العلم . وقال تعالى (جزاؤهم عند ربهم جنات عدن
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه) وقد
أخبر أن أهل خشية هم العلماء فدل على أن هذا الجزء المذكور للعلماء بمجموع النصين . وقال
ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علما وكفى بالاغترار بالله جهلا . الوجه الثاني
والعشرون أنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدهم على صحة ما أخبر به أن أهل
العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها فقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها
إلا العالمون) وفي القرآن بضعة وأربعون مثلاً وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي
ويقول لست من العالمين . الوجه الثالث والعشرون أنه سبحانه ذكر مناظرة إبراهيم لأبيه
وقومه وغلبت لهم بالحجة وأخبر عن تفضيله بذلك وزفمه درجته بعلم الحجية فقال تعالى
عقيب مناظرتة لأبيه وقومه في سورة الأنعام (وتلك حجتنا آتيناها لإبراهيم على قومه فرفع
درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم) قال زيد بن أسلم رضى الله عنه نرفع درجات من
نشاء بعلم الحجية . الوجه الرابع والعشرون أنه سبحانه أخبر أنه خلق الخلق ووضع بيته
الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فقال
تعالى (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن مثلن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على
كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما) فدل على أن علم العباد برهيم وصفاته
وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر . الوجه الخامس والعشرون أن الله سبحانه
أمر أهل العلم بالفرح بما آتاهم وأخبر أنه خير مما يجمع الناس فقال تعالى (قل بفضل الله
وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) وفسر فضل الله بالإيمان ورحمته بالقرآن
والإيمان والقرآن هما العلم النافع والعمل الصالح والهدى ودين الحق وهما أفضل علم
وأفضل عمل . الوجه السادس والعشرون . أنه سبحانه شهد لمن آتاه العلم بأنه قد آتاه خيراً
كثيراً . فقال تعالى (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً) قال

ابن قتيبة والجمهور الحكمة إصابة الحق والعمل به وهي العلم النافع والعمل الصالح . الوجه السابع والعشرون . أنه سبحانه عدد نعمه وفضله على رسوله وجعل من أجلها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلّمه ما لم يكن يعلم . فقال تعالى (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) . الوجه الثامن والعشرون . أنه سبحانه ذكر عباده المؤمنين بهذه النعمة وأمرهم بشكرها وأن يذكره على لسانها إليهم فقال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) الوجه التاسع والعشرون . أنه سبحانه لما أخبر ملائكته بأنه يريد أن يجعل في الأرض خليفة قالوا له أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم إلى آخر قصة آدم وأمر الملائكة بالسجود لآدم فأبى ابليس فلغنه وأخرجه من السماء (ويبيان فضل العلم من هذه القصة من وجوه) أحدها أنه سبحانه رد على الملائكة لما سأله كيف يجعل في الأرض من هم أطوع له منه فقال (اني أعلم ما لا تعلمون) فأجاب سؤالهم بأنه يعلم من بواطن الأمور وحقاقتها ما لا يعلمونه وهو العليم الحكيم فظهر من هذا الخليفة من خيار خلقه ورسله وأنبيائه وصالحى عباده والشهداء والصدّيقين والعلماء وطبقات أهل العلم والايمان من هو خير من الملائكة وظهر من ابليس من هو شر العالمين فأخرج سبحانه هذا وهذا والملائكة لم يكن لها علم لا بهذا ولا بهذا ولا بما في خلق آدم واسكانه الأرض من الحكم الباهرة . الثاني انه سبحانه لما أراد اظهار تفصيل آدم وتمييزه وفضله ميره عليهم بالعلم فعلمه الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . جاء في التفسير أنهم قالوا لن يخلق ربنا خلقاً هو أكرم عليه منا فظنوا أنهم خير وأفضل من الخليفة الذي يجعله الله في الأرض فلما امتحنهم بعلم ما علمه لهذا الخليفة أقروا بالعجز وجهل ما يعلموه . فقالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم) حينئذ أظهر لهم فضل آدم بما خصه به من العلم فقال (يا آدم أنبئهم باسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم) أقروا له بالفضل . الثالث أنه سبحانه لما أن عرفهم فضل آدم بالعلم وعجزهم عن معرفة ما علمه قال لهم (ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) فعرفهم سبحانه نفسه بالعلم وأنه أحاط علما بظواهرهم وباطنهم وبغيب السموات والأرض فتعرف اليهم بصفة العلم وعرفهم فضل نبيه وكليمه بالعلم وعجزهم عما آتاه آدم من العلم وكفى بهذا شرفا للعلم . الرابع أنه سبحانه جعل في آدم

من صفات الكمال ما كان به أفضل من غيره من المخلوقات وأراد سبحانه أن يظهر ملائكته فضله وشرفه فأظهر لهم أحسن ما فيه وهو علمه فدل على أن العلم أشرف ما في الإنسان وإن فضله وشرفه إنما هو بالعلم ونظير هذا ما فعله بنبيه يوسف عليه السلام لما أراد اظهار فضله وشرفه على أهل زمانه كلهم أظهر للملك وأهل مصر من علمه بتأويل رؤياه ما عجز عنه علماء التعبير حينئذ قدمه ومكته وسلم إليه خزائن الأرض وكان قبل ذلك قد حبسه على مارآه من حسن وجهه وجمال صورته ولما ظهر له حسن صورة علمه وجمال معرفته أطلقه من الحبس ومكته في الأرض فدل على أن صورة العلم عند بنى آدم أبهى وأحسن من الصورة الحسية ولو كانت أجمل صورة . وهذا وجه مستقل في تفضيل العلم مضاف إلى ما تقدم فتم به ثلاثون وجها . الوجه الحادى والثلاثون أنه سبحانه ذم أهل الجهل في مواضع كثيرة من كتابه فقال تعالى (ولكن أكثرهم يجهلون) وقال (ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا) فلم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلا منهم . وقال (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) أخبر أن الجهال شر الدواب عنده على اختلاف أصنافها من الخير والسباع والكلاب والحشرات وسائر الدواب فالجهال شر منهم وليس على دين الرسل أضر من الجهال بل أعداؤهم على الحقيقة . وقال تعالى لنبيه وقد أعاده (فلا تكونن من الجاهلين) وقال كليمه موسى عليه الصلاة والسلام (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقال لأول رسله نوح عليه السلام (انى أعظك أن تكون من الجاهلين) فهذه حال الجاهلين عنده والأول حال أهل العلم عنده . وأخبر سبحانه عن عقوبته لأعدائه أنه منعهم علم كتابه ومعرفته وفقهه . فقال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستورا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) وأمر نبيه بالاعراض عنهم فقال (وأعرض عن الجاهلين) وأثنى على عباده بالاعراض عنهم ومشاركتهم كما فى قوله (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) وقال تعالى (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) وكل هذا يدل على قبح الجهل عنده وبغضه للجهل وأهله وهو كذلك عند الناس فإن كل أحد يتبرأ منه وإن كان فيه . الوجه الثانى والثلاثون ان العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة والشر كله سببه عدم الحياة والنور والخير كله سببه النور والحياة فان النور يكشف عن حقائق الأشياء ويبين مراتبها والحياة هى المصححة لصفات الكمال الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال فكلما تصرف من الحياة فهو خير كله كالحياة الذى سببه كمال حياة القلب وتصوره حقيقة الصبح ونفرتة منه وضده الوقاحة

والفحش وسببه موت القلب وعدم نفرته من القبيح وكالحياه الذى هو المطر الذى به حياة كل شيء . قال تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) كان ميتاً بالجهل قلبه فأحياه بالعلم وجعل له من الايمان نوراً يمشى به فى الناس . وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويفزر لكم والله غفور رحيم لتلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرّون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وقال تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى إلى صراط مستقيم) فأخبر أنه روح تحصل به الحياه ونور يحصل به الإضاءة والإشراق لجمع بين الأصلين الحياه والنور . وقال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) وقال تعالى (فأمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا والله بما تعملون خبير) وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال تعالى (قد أنزل الله اليكم ذكراً رسولاً يتلو عليكم آيات الله مبینات ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) وقال تعالى (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) فضرب سبحانه مثلاً لنوره الذى قدفه فى قلب المؤمن كما قال أبى بن كعب رضى الله عنه مثل نوره فى قلب عبده المؤمن وهو نور القرآن والإيمان الذى أعطاه إياه كما قال فى آخر الآية (نور على نور) يعنى نور الايمان على نور القرآن كما قال بعض السلف يكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالآثر فإذا سمع فيها بالآثر كان نوراً على نور وقد جمع الله سبحانه بين ذكر هذين النورين وهما الكتاب والإيمان فى غير موضع من كتابه كقوله (ما كنت تدري ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا) وقوله تعالى (قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون) ففضل الله الايمان ورحمته القرآن . وقوله تعالى (أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها) وقد تقدمت هذه الآيات . وقال فى آية النور (نور على نور)

وهو نور الإيمان على نور القرآن . وفي حديث النواص بن سيمان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى كفتي الصراط داران لهما أبواب مفتحة على الأبواب ستور وداع يدعو على الصراط وداع يدعو فوفقه (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) والأبواب التي على كفتي الصراط حدود الله فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستر والذي يدعو من فوقه واعظ ربه رواه الترمذى وهذا لفظه . والإمام أحمد ولفظه والداعى على رأس الصراط كتاب الله والداعى فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن فذكر الأصولين وهما داعى القرآن وداعى الإيمان . وقال حذيفة حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من الإيمان ثم علموا من القرآن . وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالريحانة ريحها طيب وطعمها سر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنزيرة طعمها مر ولا ريح لها فجعل الناس أربعة أقسام أهل الإيمان والقرآن وهم خيار الناس . الثانى أهل الإيمان الذين لا يقرءون القرآن وهم دونهم فهؤلاء هم السعداء والأشقياء قسمان . أحدهما من أوتى قرآناً بلا إيمان فهو منافق . والثانى من لا أوتى قرآناً ولا إيماناً . والمقصود أن القرآن والإيمان هما نور يجعله الله في قلب من يشاء من عباده وأنهما أصل كل خير في الدنيا والآخرة وعلمهما أجل العلوم وأفضلها بل لا علم في الحقيقة ينفع صاحبه إلا لعلمهما (والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم) الوجه الثالث والثلاثون أن الله سبحانه جعل صيد الكلب الجاهل ميتة محرم أكلها وأباح صيد الكلب المعلم وهذا أيضاً من شرف العلم أنه لا يباح إلا صيد الكلب العالم وأما الكلب الجاهل فلا يحل أكل صيده فد على شرف العلم وفضله . قال الله تعالى (يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه وابتغوا الله ان الله سريع الحساب) ولولا مزية العلم والتعالم وشرفهما كان صيد الكلب المعلم والجاهل سواء . الوجه الرابع والثلاثون ان الله سبحانه أخبرنا عن صفيه وكنيته الذى كتب له التوراة بيده وكنه منه اليه أنه رحل إلى رجل عالم يتعلم منه ويزداد علماً إلى علمه فقال (واذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) حرصاً منه على لقاء هذا العالم وعلى التعلم منه فلما لقيه سلك معه مسلك المتعلم مع معلمه وقال له (هل أتبعك على أن تعلنن بما علمت رشداً) فبدأه بعد السلام بالاستئذان على متابعته وأنه لا يتبعه إلا بأذنه وقال (على أن تعلنن بما علمت

رشد) فلم يحىء بمحتاجنا ولا معتنا وإنما جاء متعلما مستريدا علما إلى علمه . وكفى بهذا فضلا وشرفا لعلم فإن
نبي الله وكليمه سافر ورحل حتى لقي النصب من سفره في تعلم ثلاث مسائل من رجل عالم ولما سمع به لم يقر له
قرار حتى لقيه وطلب منه متابعتة وتعليمه وفي قصتها عبر وآيات وحكم ليس هذا موضع
ذكرها . الوجه الخامس والثلاثون قوله تعالى (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر
من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)
ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه وأنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم
وقد اختلف في الآية فقيل المعنى ان المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم بل ينبغي
أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة ثم ترجع تعلم القاعدين فيكون التغيير على
هذا تغيير تعلم والطائفة تقال على الواحد فإذا قالوا فهو دليل على قبول خير الواحد وعلى
هذا حملها الشافعي وجماعة . وقالت طائفة أخرى المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد
كلهم بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين فإذا جاءت الطائفة التي نفرت
فقهتها القاعدة وعلتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام . وعلى هذا فيكون قوله ليتفقهوا
ولينذروا للفرقة التي نفرت منها طائفة وهذا قول الأكثرين وعلى هذا فالنفي تغيير جهاد
على أصله فإنه حيث استعمل إنما يفهم منه الجهاد . قال الله تعالى (انفروا خفاً وتقالا
وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح ولكن
جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا وهذا هو المعروف من هذه اللفظة . وعلى القولين فهو
ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه فان ذلك يعدل الجهاد بل ربما يكون أفضل منه
كما سيأتى تقريره في الوجه الثامن والمائة ان شاء الله تعالى . الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى
(والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا
بالصبر) قال الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لسكتهم (وبيان ذلك)
ان المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله . أحداها معرفة الحق . الثانية عمله به
الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب
الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر ان كل أحد في خسر الا الذين
آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة . وعملوا الصالحات
وهم الذين عملوا بما علوه من الحق فهذه مرتبة أخرى . وتواصوا بالحق وصى به بعضهم
بعضاً تعليماً وإرشاداً فهذه مرتبة ثالثة . وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم
بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فان الكمال أن يكون الشخص
كاملاً في نفسه مكملاً لغيره وإكماله باصلاح قوته العملية والعملية فصلاح القوة العملية بالإيمان

وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بخذا فيره والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير . الوجه السابع والثلاثون أنه سبحانه ذكر فضله ومنتته على أنبيائه ورسله وأوليائه وعباده بما آتاهم من العلم فذكر نعمته على خاتم أنبيائه ورسله بقوله (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقد تقدمت هذه الآية . وقال في يوسف (ولما بلغ أشده آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) وقال في كليمه موسى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناها حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين) ولما كان الذي آتاه موسى من ذلك أمراً عظيماً خصه به على غيره ولا يثبت له إلا الأقوياء أو أولو العزم هياً له بعد أن بلغ أشده واستوى يعني تم وكملت قوته . وقال في حق المسيح (يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال في حقه ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل فجعل تعليمه مما بشر به أمه وأقر عينها به . وقال في حق داود (وآتيناها الحكمة وفصل الخطاب) وقال في حق الخضر صاحب موسى وفتاه (فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً) فذكر من نعمه عليه تعليمه وما آتاه من رحمته . وقال تعالى يذكر نعمته على داود وسليمان (وداود وسليمان إذ يحكمان إذ نقشت فيه غم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) فذكر النبيين الكريمين وأثنى عليهما بالحكم والعلم وخص بفهم القضية أحدهما وقد ذكرت الحكيمين الداودى والسليمانى ووجههما ومن صار من الأئمة إلى هذا ومن صار إلى هذا وترجميح الحكم السليمانى من عدة وجوه وموافقته للقياس وقواعد الشرع في كتاب الاجتهاد والتقليد . وقال تعالى (قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس يجعلونه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا أتمم ولا آباؤكم قل الله) يعنى الذى أنزله جعل سبحانه تعليمهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة إذ لا ينال هذا العلم إلا من جهة الرسل فكيف يقولون ما أنزل الله على بشر من شيء . وهذا من فضل العلم وشرفه وأنه دليل على صحة النبوة والرسالة والله الموفق للرشاد . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم

ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) يعني وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي فقيل هو اللحاق في الزمان أى يتأخر زمانهم عنهم وقيل هو اللحاق في الفضل والسبق وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بان علمهم بعد الجمل وهداهم بعد الضلالة ويأله من منة عظيمة فانت المن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن . الوجه الثامن والثلاثون أن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم فذكر فيها ما من به على الانسان من تعليمه مالم يعلم فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الانسان بماعلمه اياه وذلك يدل على شرف التعليم والعلم . فقال تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم وذكر خلقه خصوصا وعموماً . فقال (الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم) وخص الانسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكآل رحمته وانه لا إله غيره ولا رب سواه وذكر هنا مبدأ خلقه من علق ليكون العلقة مبدأ الأطوار التى انتقلت اليها النطفة فهى مبدأ تعلق التخليق ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه فان الخير كله بيديه والخير كله منه والنعم كلها هو مولها والسكالم كله والمجد كله له فهو الأكرم حقاً ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً . فقال الذى علم بالقلم فهذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس ثم ذكر تعليم الانسان خصوصاً . فقال (علم الانسان مالم يعلم) فاشتملت هذه الكلمات على أنه معطى الموجودات كلها بجميع أقسامها فان الوجود له مراتب أربعة احداها مرتبتها الخارجية المدلول عليها بقوله خلق . المرتبة الثانية الذهنية المدلول عليها بقوله (علم الانسان مالم يعلم) . المرتبة الثالثة والرابعة اللفظية والحطية فالخطية مصرح بها فى قوله الذى علم بالقلم واللفظية من لوازم التعليم بالقلم فان الكتابة فرع النطق والنطق فرع التصور فاشتملت هذه الكلمات على مراتب الوجود كلها وانه سبحانه هو معطيا بخلقهم وتعليمهم فهو الخالق المعلم وكل شىء فى الخارج فيخلقهم وجد وكل علم فى الذهن فتعليمهم حصل بكل لفظ فى اللسان أو خطى البنان فبقادره وخلقهم وتعليمهم وهذا من آيات قدرته وبراهين حكمته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . والمقصود أنه سبحانه تعرف إلى عبادته بما علمهم اياه بحكمته من الخط واللفظ والمعنى فكان العلم أحد الأدلة الدالة على بل من أعظمها وأظهرها وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له . الوجه التاسع والثلاثون انه سبحانه سمي الحجة العلية سلطاناً ، قال ابن عباس رضى الله عنه كل سلطان فى القرآن فهو حجة وهذا كقوله تعالى (قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغنى له ما فى السموات وما فى الأرض ان عندكم من سلطان بهذا أنقولون على الله

مالا تعلمون) يعنى ما عندكم من حجة بما قلتم ان هو الا قول على الله بلا علم ، وقال تعالى (ان هى الا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان) يعنى ما أنزل بها حجة ولا برهاناً بل هى من تلقاء أنفسكم وآبائكم ، وقال تعالى (أم لكم سلطان مبين فانتوا بكتابتكم ان كنتم صادقين) يعنى حجة واضحة فانتوا بها ان كنتم صادقين فى دعواكم إلا موضعاً واحداً اختلف فيه وهو قوله (ما أغنى عنى مالىة هالك عنى سلطانيه) فقيل المراد به القدرة والمملك أى ذهب عنى مالى وملكى فلا مال لى ولا سلطان وقيل هو على بابہ أى انقطعت حجتي وبطلت فلا حجة لى . والمقصود ان الله سبحانه سى علم الحجة سلطاناً لأنها توجب تسلط صاحبها واقتداره فله بها سلطان على الجاهلين بل سلطان العلم أعظم من سلطان اليد ولهذا ينقاد الناس للحجة مالا ينقادون لليد فان الحجة تنقاد لها القلوب وأما اليد فانما ينقاد لها البدن فالحجة تأسر القلب وتقوده وتذل المخالف وان أظهر العناد والمكابرة فقلبه خاضع لها ذليل مقهور تحت سلطانها بل سلطان الجاه ان لم يكن معه علم يساس به فهو بمنزلة سلطان السباع والاسود ونحوها قدرة بلا علم ولا رحمة بخلاف سلطان الحجة فانه قدرة بعلم ورحمة وحكمة ومن لم يكن له اقتدار فى علمه فهو اما لضعف حجته وسلطانه واما لقمهر سلطان اليد والسيوف له والا فالحجة ناصرة نفسها ظاهرة على الباطل قاهرة له . الوجه الأربعون ان الله تعالى وصف أهل النار بالجهل وأخبر أنه سد عليهم طرق العلم فقال تعالى حكاية عنهم (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير فادبرفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) فآخبروا انهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون والسمع والعقل هما أصل العلم وبهما ينال ، وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها وهم آعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون) فآخبر سبحانه انهم لم يحصل لهم علم من جهة من جهات العلم الثلاث وهى العقل والسمع والبصر كما قال فى موضع آخر (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وقال تعالى (أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وقال تعالى (وجعلناهم سمعا وأبصاراً وأفئدة فا أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بآيات الله وحقابهم ما كانوا به يستهزؤن) فقد وصف أهل الشقاء كما ترى بعدم العلم وشبههم بالانعام تارة وتارة بالحمار الذى يحمل الأسفار وتارة جعلهم أضل من الانعام وتارة جعلهم شر الدواب عنده وتارة جعلهم أمواتا غير أحياء وتارة أخبر انهم فى ظلمات الجهل والضلال وتارة أخبر أن على قلوبهم أكنة وفى آذانهم قرا وعلى أبصارهم غشاوة وهذا كله يدل على قبح الجهل وذم أهله وبغضه لهم كما أنه يجب

أهل العلم ويمدحهم ويثنى عليهم كما تقدم والله المستعان، الوجه الحادى والأربعون مافى الصحيحين من حديث معاوية رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين وهذا يدل على ان من لم يفقهه فى دينه لم يرد به خيرا كما أن من أراد به خيرا فقهه فى دينه ومن فقهه فى دينه فقد أراد به خيرا إذا أريد بالفقه العلم المستلزم للعمل وأما ان أريد به مجرد العلم فلا يدل على ان من فقه فى الدين فقد أريد به خيرا فان الفقه حينئذ يكون شرطا لارادة الخير وعلى الأول يكون موجبا والله اعلم . الوجه الثانى والأربعون مافى الصحيحين ايضا من حديث ابى موسى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلا والعشب الكثير وكان منها أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوها منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به شبه صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذى جاء به بالغيث لما يحصل بكل واحد منهما من الحياة والمنافع والأغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر وشبه القلوب بالأراضى التى يقع عليها المطر لأنها المحل الذى يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع كما أن القلوب تعى العلم فيثمر فيها ويزكو وتظهر بركتته وثمرته ثم قسم الناس إلى ثلاثة أقسام بحسب قبولهم واستعدادهم لحفظه وفهم معانيه واستنباط أحكامه واستخراج حكمه وفوائده . أحدها أهل الحفظ والفهم الذين حفظوه وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والحكم والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التى قبلت الماء وهذا بمنزلة الحفظ فأنبتت الكلا والعشب الكثير وهذا هو الفهم فيه والمعرفة والاستنباط فانه بمنزلة انبات الكلا والعشب بالماء فهذا مثل الحفاظ الفقهاء أهل الرواية والدراية . القسم الثانى أهل الحفظ الذين رزقوا حفظه ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفهما فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الحكم والفوائد منه فهم بمنزلة من يقرأ القرآن ويحفظه ويراعى حروفه وإعراجه ولم يرزق فيه فهما خاصا عن الله كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لإفهامه يؤتبه الله عبدا فى كتابه والناس متفاوتون فى الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت فرب شخص يفهم من النص حكما أو حكيم ويفهم منه الآخر مائة أو مائتين فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء للناس فانتفعوا به هذا يشرب منه وهذا يسقى وهذا يزرع فهؤلاء القسمان هم السعداء والأولون أرفع درجة وأعلى قدرا (وذلك فضل الله يؤتبه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) القسم الثالث الذين لا نصيب لهم منه لاحفظاً ولا فهما ولا رواية ولا دراية بل هم بمنزلة

الأرض التي هي قيعان لا تنبت ولا تمسك الماء وهؤلاء هم الأشقياء والقسمان الأولان اشتركا في العلم والتعليم كل بحسب ما قبله ووصل اليه فهذا يعلم أفاظ القرآن ويحفظها وهذا يعلم معانيه وأحكامه وعلومه والقسم الثالث لا علم ولا تعليم فهم الذين لم يرفعوا بهدى الله رأسا ولم يقبلوه وهؤلاء شر من الأنعام وهم وقود النار فقد اشتمل هذا الحديث الشريف العظيم على الذنبيه على شرف العلم والتعليم وعظم موقعه وشقاء من ليس من أهله وذكر أقسام بنى آدم بالنسبة فيه إلى شقيهم وسعيدهم ونقسم سعيدهم إلى سابق مقرب وصاحب يمين مقتصد وفيه دلالة على ان حاجة العباد إلى العلم كحاجتهم إلى المطر بل أعظم وانهم إذا فقدوا العلم فهم بمنزلة الأرض التي فقدت الغيث . قال الإمام أحمد الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج اليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه بعدد الأنفاس وقد قال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل) شبه سبحانه العلم الذي أنزله على رسوله بالماء الذي أنزله من السماء لما يحصل لكل واحد منهما من الحياة ومصالح العباد في معاشهم ومعادهم ثم شبه القلوب بالأودية فقلب كبير يسع علما كثيرا كواد عظيم يسع ماء كثيرا وقلب صغير إنما يسع علما قليلا كواد صغير إنما يسع ماء قليلا . فقال (فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) هذا مثل ضربه الله تعالى للعلم حين تخالط القلوب بشاشته فانه يستخرج منها زبد الشبهات الباطلة فيطفو على وجه القلب كما يستخرج السيل من الوادي زبدا يعلو فوق الماء وأخبر سبحانه أنه راب يطفو ويعلو على الماء لا يستقر في أرض الوادي كذلك الشبهات الباطلة إذا أخرجها العلم ربت فوق القلوب وطفت فلا تستقر فيه بل تجفى وترى فيستقر في القلب ما ينفع صاحبه والناس من الهدى ودين الحق كما يستقر في الوادي الماء الصافي ويذهب الزبد جفاء وما يعقل عن الله أمثاله إلا العالمون ثم ضرب سبحانه لذلك مثلا آخر . فقال (وما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) يعنى أن مما يوقد عليه بنو آدم من الذهب والفضة والنحاس والحديد يخرج منه خبثه وهو الزبد الذي تلقية النار وتخرجه من ذلك الجوهر بسبب مخالطتها فانه يقذف ويلقى به ويستقر الجوهر الخالص وحده وضرب سبحانه مثلا بالماء لما فيه من الحياة والتبريد والمنفعة ومثلا بالنار لما فيها من الإضاءة والاشراق والاحراق فأيات القرآن تحي القلوب كما تحيا الأرض بالماء وتحرق خبثها وشهواتها وشهواتها وسخائمها كما تحرق النار ما يلقى فيها وتميز جيدها من زبدها كما تميز النار الخبث من الذهب والفضة والنحاس ونحوه منه . فهذا بعض ما في هذا المثل العظيم من العبر والعلم . قال الله تعالى (وتلك

الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) الوجه الثالث والأربعون مافي الصحيحين أيضاً من حديث سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلي رضي الله عنه لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيراً لك من حمر النعم وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيراً له من حمر النعم وهي خيارها وأشرفها عند أهلها فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طوائف من الناس . الوجه الرابع والأربعون ماروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً . أخبر صلى الله عليه وسلم أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له مثل أجر من اهتدى به . والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضل به لأن هذا بذل قدرته في هداية الناس وهذا بذل قدرته في ضلالتهم فزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذکور في غير هذا الموضوع . قال تعالى (ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون) وقال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم) وهذا يدل على أن من دعا الأمة إلى غير سنة رسول الله ﷺ فهو عدوه حقاً لأنه قطع وصول أجر من اهتدى بسنته اليه وهذا من أعظم معاداته نعوذ بالله من الخذلان الوجه الخامس والأربعون ماخرجا في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ لاحسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها . فاخبر صلى الله عليه وسلم أنه لا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً يعني حسد غبطة ويتمنى مثل حاله من غير أن يتمنى زوال نعمة الله عنه إلا في واحدة من هاتين الخصلتين وهي الإحسان إلى الناس بعلمه أو بماله . وما عدا هذين فلا ينبغي غبطته ولا يتمنى مثل حاله لقلّة منفعة الناس به . الوجه السادس والأربعون قال الترمذى حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا سلمة بن رجاء حدثنا الوليد بن حميد حدثنا القاسم عن أبي أمامة الباهلي قال ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عالم والآخر عابد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل العالم على العابد كفضل علي أدناكم ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى الثملة في جحورها وحق الحوت في البحر يصلون على معلمي الناس الخير . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث الخراعى . قال سمعت الفضيل بن عياض يقول عالم عامل معلم يدعى كبيراً في ملكوت السموات وهذا مروى عن الصحابة قال ابن عباس علماء هذه الأمة رجلا ن فرجل أعطاه الله علماً

فبذله للناس ولم يأخذ عليه صفدا ولم يشتر به ثمنا أو لثك يصلى عليهم طير السماء وحياتان البحر ودواب الأرض والكرام الكاتبون ورجل آناه الله علما ففضن به عن عباده وأخذ به صفدا واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة يلجم بلجام من نار ذكره ابن عبد البر مرفوعا وفي رفعه نظير . وقوله ان الله وملائكته وأهل السموات والأرض يصلون على معلم الناس الخير لما كان تعليمه للناس الخير سببا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جازاه الله من جنس عمله بان جعل عليه من صلاته وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببا لنجاته وسعادته وفلاحه . وأيضا فان معلم الناس الخير لما كان مظهرا لدين الرب وأحكامه ومعرفا لهم بأسمائه وصفاته جعل الله من صلاته وصلاة أهل سمواته وأرضه عليه ما يكون تنويها به وتشريفا له واطهارا للشئاء عليه بين أهل السماء والأرض . الوجه السابع والاربعون مارواه أبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من سلك طريقا يبغى فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة وان الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم وان العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ان العلماء ورثة الأنبياء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما وورثوا العلم فن أخذه أخذ بحظ وافر . وقد رواه الوليد بن مسلم عن خالد بن يزيد عن عثمان ابن أيمن عن أبي الدرداء قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من غدا لعل يتعلمه فتح الله له به طريقا إلى الجنة وفرشت له الملائكة اكنافها وصلت عليه ملائكة السماء وحياتان البحر والعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب والعلماء ورثة الأنبياء ان الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما انما وورثوا العلم فن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر وموت العالم مصيبة لا تحجب وثلة لاتسد ونجم طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم وهذا حديث حسن والطريق التي يسلكها إلى الجنة جزاء على سلوكه في الدنيا طريق العلم الموصلة إلى رضا ربه ووضع الملائكة أجنحتها له تواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة ويطلبه وهو يدل على المحبة والتعظيم فن محبة الملائكة له وتعظيمه تضع أجنحتها له لأنه طالب لما به حياة العالم ونجاته فقيه شبه من الملائكة وبينه وبينهم تناسب فان الملائكة أنصح خلق الله وأنفعهم لبني آدم وعلى أيديهم حصل لهم كل سمادة وعلم وهدى . ومن نفعهم لبني آدم ونصحهم أنهم يستغفرون لمسيئتهم ويثنون على مؤمنهم ويعينونهم على أعدائهم من الشياطين ويحرسون على مصالح العبد أضعاف حرصه على مصلحة نفسه بل يريدون له من خير الدنيا والآخرة ما لا يريد العبد ولا يخطر بباله . كما قال بعض التابعين وجدنا الملائكة أنصح خلق الله لعباده ووجدنا الشياطين أغش الخلق للعباد . وقال تعالى (الذين يحملون

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) فإي نصح للعباد مثل هذا إلا نصح الأنبياء فإذا طلب العبد العلم فقد سعى في أعظم ما ينصح به عباد الله فلذلك تحبه الملائكة وتعظمه حتى تضع أجنحتها له رضا ومحبة وتعظيماً . وقال أبو حاتم الرازي سمعت ابن أبي أويس يقول سمعت مالك بن أنس يقول معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم تضع أجنحتها يعني تبسطها بالدعاء لطالب العلم بدلا من الأيدي وقال أحمد بن مروان المالكي في كتاب المجالسة له حدثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري . قال سمعت أحمد بن شعيب يقول كنا عند بعض المحدثين بالبصرة فحدثنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة فجعل يستهزئ بالحديث فقال والله لأطرقن غدا نعلي بمسامير فأطأ بها أجنحة الملائكة ففعل ومنى في النعلين فجفت رجلاه جميعاً ووقعت فيهما الأكلة . وقال الطبراني سمعت أبا يحيى زكريا بن يحيى الساجي . قال كنا نمشي في بعض أزقة البصرة إلى باب بعض المحدثين فاسرعنا المشى وكان معنا رجل ماجن منهم في دينه فقال ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالستهزئ . فما زال من موضعه حتى جفت رجلاه وسقط . وفي السنن والمسانيد من حديث صفوان بن عسال . قال قلت يا رسول الله اني جئت أطلب العلم قال مرحباً بطالب العلم إن طالب العلم لتحف به الملائكة وتظله بأجنحتها فيركب بعضهم بعضاً حتى تبلغ السماء الدنيا من حبهم لما يطلب . وذكر حديث المسح علي الخفين . قال أبو عبد الله الحاكم استاده صحيح . وقال ابن عبد البر هو حديث صحيح حسن ثابت محفوظ مرفوع ومثله لا يقال بالرأى في هذا الحديث حف الملائكة له بأجنحتها إلى السماء وفي الأول وضعها أجنحتها له فالوضع تواضع وتوقير وتبجيل والحف بالأجنحة حفظ وحماية وصيانة فضمن الحديثان تعظيم الملائكة له وحبا إياه وحياطته وحفظه فلولم يكن لطالب العلم إلا هذا الحظ الجزيل لسكنى به شرفاً وفضلاً . وقوله صلى الله عليه وسلم إن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء فانه لما كان العالم سيباً في حصول العلم الذي به نجاة النفوس من أنواع المهلكات وكان سعيه مقصوراً على هذا وكانت نجاته العباد على يديه جوزى من جنس عمله وجعل من في السموات والأرض ساعياً في نجاته من أسباب الهلكات باستغفارهم له وإذا كانت الملائكة تستغفر للمؤمنين فكيف لا تستغفر لخاصتهم وخلصتهم . وقد قيل ان من في السموات ومن في الأرض المستغفرين

العالم عام في الحيوانات ناطقها وبهيمها طيرها وغيره ويؤكد هذا قوله حتى الحيتان في الماء وحتى النملة في جحرها . فقول سبب هذا الاستغفار أن العالم يعلم الخلق مراعاة هذه الحيوانات ويعرفهم ما يحل منها وما يحرم ويعرفهم كيفية تناولها واستخدامها وركوبها والانتفاع بها وكيفية ذبحها على أحسن الوجوه وارقعها بالحيوان والعالم أشفق الناس على الحيوان وأقومهم ببيان ما خلق له وبالجملة فالرحمة والإحسان التي خلق بهما ولهما الحيوان وكتب لها حظهما منه إنما يعرف بالعالم فالعالم معرف لذلك فاستحق أن تستغفر له البهائم والله أعلم . وقوله وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب تشبيهه مطابق لحال القمر والكواكب فإن القمر يضيء الآفاق ويمتد نوره في أقطار العالم وهذه حال العالم . وأما الكواكب فنوره لا يجاوز نفسه أو ما قرب منه وهذه حال العابد الذي يضيء نور عبادته عليه دون غيره وإن جاوز نور عبادته غيره فإنما يجاوزه غير بعيد كما يجاوز ضوء الكواكب له مجاوزة يسيرة ومن هذا الأثر المروى إذا كان يوم القيامة يقول الله للعابد أدخل الجنة فإنما كانت منفعتك لنفسك ويقال للعالم اشفع تشفع فإنما كانت منفعتك للناس . وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما إذا كان يوم القيامة يؤتى بالعابد والفقير فيقال للعابد ادخل الجنة ويقال للفقير اشفع تشفع وفي التشبيه المذكور لطيفة أخرى وهو أن الجهل كالليل في ظلمته وحندسه والعلماء والعباد بمنزلة القمر والكواكب الطالعة في تلك الظلمة وفضل نور العالم فيها على نور العابد كفضل نور القمر على الكواكب . وأيضا فالدين قوامه وزينته وإضاءته بعلمائه وعباده فإذا ذهب علمه وعباده ذهب الدين كما أن السماء إضاءتها وزينتها بقمرها وكواكبها فإذا خسف قمرها وانثرت كواكبها أناها ما تعد وفضل علماء الدين على العباد كفضل ما بين القمر والكواكب . فإن قيل كيف وقع تشبيه العالم بالقمر دون الشمس وهي أعظم نوراً . قيل فيه فائدتان . إحداهما أن نور القمر لما كان مستفاداً من غيره كان تشبيه العالم الذي نوره مستفاد من شمس الرسالة بالقمر أولى من تشبيهه بالشمس الثانية أن الشمس لا يختلف حالها في نورها ولا يلحقها محاق ولا تفاوت في الإضاءة . وأما القمر فإنه يقل نوره ويكثر ويمتلئ وينتص كما أن العلماء في العلم على مراتبهم من كثرة وقلته فيفضل كل منهم في علمه بحسب كثرة وقلته وظهوره وخفائه كما يكون القمر كذلك فعالم كالقدر ليلة تمه وآخر دونه بليلة وثانية وثالثة وما بعدها إلى آخر مراتبه وهم درجات عند الله فإن قيل تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم كقوله صلى الله عليه وسلم : أصحابي كالنجوم ولهذا هي في تعبير الرؤيا عبارة عن العلماء فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر . قيل أما تشبيه العلماء بالنجوم فإن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر وكذلك العلماء . والنجوم زينة للسماء . (٥ - مفتاح ١)

فكذلك العلماء زينة للأرض . وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يلبسوا بما يسترقونه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته وكذلك العلماء رجوم للشياطين الأتس والجن الذي يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين ولولاهم لطمست معالم الدين بتليس المضلين . ولكن الله سبحانه أقامهم حراساً وحفظة لدينه ورجوماً لأعدائه وأعداء رسله فهذا وجه تشبيههم بالنجوم وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل والمعنى أنهم يفضلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضل القمر سائر الكواكب فكل من التشبيهين لا تن بموضعه والحمد لله . وقوله أن العلماء ورثة الأنبياء هذا من أعظم المناقب لأهل العلم فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم : ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته اذم الذين يقومون مقامه من بعده ولم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم . وفي هذا تشبيه على أنهم أقرب الناس إليهم فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى الموروث وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم فكذلك هو في ميراث النبوة والله يختص برحمته من يشاء وفيه أيضاً ارشاد وأمر للامة بطاعتهم واحترامهم وتميزهم وتوقيرهم واجلالهم فانهم ورثة من هذه بعض حقوقهم على الامة وخلفائهم فيهم . وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين وبغضهم مناف للدين كما هو ثابت لموروثهم وكذلك معاداتهم ومحاربتهم معاداة ومحاربة لله كما هو في موروثهم . قال على كرم الله وجهه ورضي عنه محبة العلماء دين يدان به . وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى عن ربه عز وجل : من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وورثة الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل وفيه تنبيه للعلماء على سلوك هدى الأنبياء وطريقتهم في التبليغ من الصبر والاحتمال ومقابلة إساءة الناس إليهم بالاحسان والرفق بهم واستجلابهم إلى الله بالحسن الطرق وبذل ما يمكن من النصيحة لهم فإنه بذلك يحصل لهم نصيبهم من هذا الميراث العظيم قدره الجليل خطره . وفيه أيضاً تنبيه لأهل العلم على تربية الامة كما يربي الوالد ولده فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب بولده الطفل في إيصال الغذاء إليه فإن أرواح البشر بالنسبة إلى الأنبياء والرسل كالاطفال بالنسبة إلى آباؤهم بل دون هذه النسبة بكثير ولهذا كل روح لم تر بها الرسل لم تفلح ولم تصلح لصالحه كما قيل .

ومن لا يربيه الرسول ويسقه لباناله قد در من ندى قدسه

فذلك أقيط ماله نسبة الولا ولا يتعدى طور ابناء جنسه

وقوله أن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورثوا العلم هذا من كمال الأنبياء وعظم

تصحح الامم وتما نعمه الله عليهم وعلى أهمهم أن أزاح جميع العلل وحسم جميع المواد التي
توهم بعض النفوس أن الأنبياء من وجنس الملوك الذين يريدون الدنيا وملكها تخمام الله سبحانه
وته الى من ذلك أتم الحماية . ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده
ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده سد هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله وقطع هذا الوهم الذي عساه
أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول فلعله ان لم يطالب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده فقال
ﷺ : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة فلم تورث الأنبياء ديناراً ولا درهما
ولا ماورثوا العلم . وأما قوله تعالى وورث سليمان داود فهو ميراث العلم والنبوة لا غير . وهذا باتفاق
أهل العلم من المفسرين غيرهم وهذا لأن داود عليه السلام كان له أولاد كثيرة سوى سليمان فلو كان
الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصاً به . وأيضاً فإن كلام الله يسان عن الأخبار بمثل هذا فإنه بمنزلة
أن يقال مات فلان وورثه ابنه . ومن المعلوم ان كل أحد يرثه ابنه وليس في الأخبار بمثل
هذا فائدة . وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثه وراثه العلم والنبوة
لا وراثه المال . قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا لئلا نأخذ الله الذي فضلنا على كثير
من عباده المؤمنين وورث سليمان داود) وإنما سيق هذا لبيان فضل سليمان وما خصه الله
به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب وهو العلم والنبوة (ان هذا هو الفضل
المبين) . وكذلك قول زكريا عليه الصلاة والسلام (وإنى خفت الموالى من ورأى وكانت
امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضى) فهذا
ميراث العلم والنبوة والدعوة إلى الله وإلا فلا يظن بنبي كريم أنه يخاف عصبته أن يرثوه ماله
فيسأل الله العظيم ولداً ينمهم ميراثه ويكون أحق به منهم وقد نزه الله أنبياءه ورسله عن
هذا وأمثاله فبعداً لمن حرف كتاب الله ورد على رسوله كلامه ونسب الأنبياء إلى ما هم برآء
منزهون عنه والحمد لله على توفيقه وهديته . ويذكر عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه مر
بالسوق فوجدهم في تجارتهم وبيوعاتهم فقال أتم ههنا فيما أتم فيه وميراث رسول الله ﷺ
يقسم في مسجده فقاموا سراعاً إلى المسجد فلم يجدوا فيه إلا القرآن والذكر وبجالس العلم
فقالوا أين ما قلت يا أبا هريرة . فقال هذا ميراث محمد ﷺ يقسم بين ورثته وليس بمواريشكم
ودنياكم أو كما قال . وقوله فن أخذه أخذ بحظ وافر أعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد
ردام نفعه له وليس هذا إلا حظه من العلم والدين فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت
الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الأبدين وذلك لأنه موصول بالحى الذى لا يموت فلذلك
لا ينقطع ولا يفوت وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشى متعلقاتها كما قال تعالى (وقد منا إلى
ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً) فإن العاية لما كانت منقطعة زائلة تبعثها أعمالهم فانهطعت

عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله وهذه هي المصيبة التي لا تجبر عياداً بالله واستعانة به وافتقاراً
وتوكلاً عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله موت العالم مصيبة لا تجبر وثلة لاتسد ونجم
طمس وموت قبيلة أيسر من موت عالم لما كان صلاح الوجود بالعلماء ولولا هم كان الناس
كالبهائم بل أسوأ حالا كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له . وأيضاً فإن العلماء
هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك فموتهم فساد لنظام العالم ولهذا لا يزال الله يفرس
في هذا الدين منهم خالفاً عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده وتأمل إذا كان في الوجود
رجل قد فاق العالم في الغنى والكرم وحاجتهم إلى ماعنده شديدة وهو محسن إليهم بكل ممكن
ثم مات وانقطعت عنهم تلك المادة فموت العالم أعظم مصيبة من موت مثل هذا بكثير ومثل
هذا يموت بموته أمم وخلاتق كما قيل :

تعلم ما الرزية فقد مال ولا شاة تموت ولا بعير
والكن الرزية فقد حر يموت بموته بشر كثير

وقال آخر

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه بنيان قوم تهـمـا

والوجه الثامن والأربعون ماروى الترمذى من حديث الوليد بن مسلم حدثنا روح بن
جناح عن مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: فقيه أشد على الشيطان
من ألف عابد . قال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الوليد بن مسلم
قلت قد رواه أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي اليقطينى حدثنا عمر بن سعيد بن سنان حدثنا
هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا روح بن جناح عن الزهرى عن سعيد بن المسيب
عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال الخطيب والأول هو المحفوظ عن روح مجاهد عن ابن عباس
وما أرى الوهم وقع في هذا الحديث إلا من أنى جعفر لأن عمر بن سنان عنده عن هشام بن
عمار عن الوليد عن روح عن الزهرى عن سعيد حديث في السماء بيت يقال له البيت المعمور
حيال الكعبة وحديث ابن عباس كانا في كتاب ابن سنان عن هشام يتلو أحدهما الآخر فكتب
أبو جعفر أسناد حديث أبي هريرة رضى الله عنه ثم عارضه لسهو أوزاع نظره فنزل إلى متن
حديث ابن عباس فركب متن هذا على اسناد هذا وكل واحد منهما ثقة مأمون برىء من
تعمد الغلط وقد رواه أبو أحمد بن عدى عن محمد بن سعيد بن مهران حدثنا شيبان أبو الربيع
السيهان عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لكل شيء دعامة ودعامة الإسلام الفقه في الدين والفقيه أشد على الشيطان من ألف

عابد ولهذا الحديث علة وهو أنه روى من كلام أبي هريرة وهو أشبه رواه همام بن يحيى حدثنا يزيد بن عياض حدثنا صفوان بن سليم عن سليمان عن يسار عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في الدين قال وقال أبو هريرة لأن أفقه ساعة أحب إلى من أن أحيى ليلة أصلها حتى أصبح والفقيه أشد على الشيطان من ألف عابد ولكل شيء دعامة ودعامة الدين الفقه . وقد روى بإسناد فيه من لا يحتج به من حديث عاصم بن أبي النجود عن زر بن حبيش عن عمر بن الخطاب يرفعه ان الفقيه أشد على الشيطان من ألف ورع وألف مجتهد وألف متعبد . وقال المزي روى عن ابن عباس أنه قال ان الشياطين قالوا لإبليس ياسيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد والعالم لانصيب منه والعابد نصيب منه قال انطقوا فانطقوا إلى عابد فأتوه في عبادته فقالوا إنا نريد أن نسألك فانصرف فقال إبليس هل يتقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة فقال لا أدري فقال أتروني كافر في ساعة ثم جاؤا إلى عالم في حلقتة يضحك أصحابه ويحدثهم فقالوا إنا نريد أن نسألك فقال سل فقال هل يتقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة قال نعم قالوا كيف قال يقول كن فيكون فقال أترون ذلك لا يعدو نفسه وهذا يفسد على عالماً كثيراً . وقد رويت هذه الحكاية على وجه آخر وإنهم سألوا العابد فقالوا هل يتقدر ربك أن يخلق مثل نفسه فقال لا أدري فقال أتروني لم تنفعه عبادته مع جهله وسألوا عن ذلك فقال هذه المسئلة محال لأنه لو كان مثله لم يكن مخلوقاً فكونه مخلوقاً وهو مثل نفسه مستحيل فإذا كان مخلوقاً لم يكن مثله بل كان عبداً من عبده وخلقاً من خلقه فقال أترون هذا يهدم في ساعة ما أبنيه في سنين أو كما قال . وروى عن عبد الله بن عمرو فضل العالم على العابد سبعين درجة بين كل درجتين حضر الفرس سبعين عاماً وذلك أن الشيطان يضع البدعة فيبصرها العالم وينهى عنها والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها وهذا معناه صحيح فإن العالم يفسد على الشيطان ما يسعى فيه ويهدم ما يبنيه فكل ما أراد إحياء بدعة وإماتة سنة حال العالم يفنه وبين ذلك فلا شيء أشد عليه من بقاء العالم بين ظهراى الأمة ولا شيء أحب إليه من زواله من بين أظهرهم ليمكن من إفساد الدين وإغواء الأمة . وأما العابد فغاياته أن يجاهده ليسلم منه في خاصة نفسه وهيات له ذلك . الوجه التاسع والأربعون ما روى الترمذى من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم . قال الترمذى هذا حديث حسن . ولما كانت الدنيا حقيرة عند الله لا تساوى لديه جناح بعوضة كانت وما فيها في غاية البعد منه وهذا هو حقيقة اللعنة وهو سبحانه إنما خلقها مزرعة للأخرة ومعبراً إليها يتزود منها عباده إليه فلم يكن يقرب منها إلا ما كان متضمناً

لإقامة ذكره ومفضيا إلى محابه وهو العلم الذي به يعرف الله ويعبد ويذكر ويثنى عليه ويعبد
ولهذا خلقها وخلق أهلها . كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) . وقال
(الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل
شئ قدير وإن الله قد أحاط بكل شئ علماً) فتضمنت هاتان الآيتان أنه سبحانه إنما خلق
السموات والأرض وما بينهما ليعرف بأسمائه وصفاته وليعبد فهذا المطلوب وما كان طريقاً
إليه من العلم والتعلم فهو المستثنى من اللعنة واللعنة واقعة على ماعداه إذ هو بعيد عن الله وعن
محابه وعن دينه وهذا هو متعلق العقاب في الآخرة فانه كما كان متعلق اللعنة التي تتضمن الذم
والبغض فهو متعلق العقاب والله سبحانه إنما يحب من عباده ذكره وعبادته ومعرفته وحبته
ولو ازم ذلك وما أفضى إليه . وما عدها فهو مبعوض له مذموم عنده . الوجه الخمسون مارواه
الترمذى من حديث أبي جعفر الرازى عن الربيع بن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب
رواه بعضهم فلم يرفعه وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه
بالجهاد فقوام الدين بالعلم والجهاد ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك
فيه كثير والثانى الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل وهو جهاد الأئمة
وهو أفضل الجهادين اعظم منفعة وشدة مؤنته وكثرة أعدائه . قال تعالى في سورة الفرقان
وهى مكية (ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً)
فهذا جهاد لهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين أيضاً فإن المنافقين لم يكونوا
يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا . فقد
قال تعالى (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغضب عليهم) ومعلوم أن جهاد المنافقين
بالحجة والقرآن . والمقصود أن سبيل الله هو الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله .
ولهذا قال معاذ رضى الله عنه عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية ومدارسته عبادة ومذاكرته
تسبيح والبحث عنه جهاد ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر . كما قال
تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط
وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله
قوى عزيز) فذكر الكتاب والحديد إذ بهما قوام الدين كما قيل :

فأهو إلا الوحى أوحد مرهف تميل طباه أخذعاً كل مايل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله نسر الصحابة رضى الله عنهم

قوله (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) بالأمراء والعلماء فإنهم
المجاهدون في سبيل الله هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم فطلب العلم وتعليمه من أعظم سبيل
الله عز وجل . قال كعب الأحمق طالب العلم كالفادي الراجح في سبيل الله عز وجل . وجاء عن
بعض الصحابة رضی الله عنهم إذا جاء المورت طالب العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد
وقال سفیان بن عيينة من طلب العلم فقد بايع الله عز وجل . وقال أبو الدرداء من
رأى الغدو والروح إلى العالم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه ، الوجه الحادى
والخسوف ما رواه الترمذى حدثنا محمود بن غيلان حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن
أبي صالح عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سلك طريقاً يلتمس
فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، قال الترمذى هذا حديث حسن قال بعضهم ولم يقل في
هذا الحديث صحيح لأنه يقال دلس الأعمش في هذا الحديث لأنه رواه بعضهم فقال حدثت
عن أبي صالح والحديث رواه مسلم في صحيحه من أوجه عن الأعمش عن أبي صالح قال الحاكم
في المستدرک هو صحيح على شرط البخارى ومسلم رواه عن الأعمش جماعة منهم زائدة وأبو
معاوية وابن نمير وقد تقدم حديث أبي الدرداء في ذلك والحديث محفوظ وله أصل وقد
تظاهر الشرع والقدر على أن الجزاء من جنس العمل فكما سلك طريقاً يطلب فيه حياة قلبه
ونجاته من الهلاك سلك الله به طريقاً يحصل له ذلك . وقد روى من حديث عائشة رواه ابن
عدى من حديث محمد بن عبد الملك الانصارى عن الزهرى عن عروة عنها مرفوعاً ولفظه
أوحى الله إلى أنه من سلك مسلكاً يطلب العلم سهلت له طريقاً إلى الجنة الوجه الثانى الخسوف
أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لمن سمع كلامه ووعاه وبلغه بالنضرة وهى البهجة ونضارة
الوجه وتحسينه فى الترمذى وغيره من حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
نصر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث
لا يغل عليهن قلب مسلم لإخلاص العمل لله ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم
تحيط من ورائهم وروى هذا الاصل عن النبي صلى الله عليه وسلم ابن مسعود ومعاذ بن
جبل وأبو الدرداء وجبير بن مطعم وأنس بن مالك وزيد بن ثابت والتميم بن بشير قال الترمذى
حديث ابن مسعود حديث حسن صحيح وحديث زيد بن ثابت حديث حسن وأخرج الحاكم
في صحيحه حديث جبير بن مطعم والتميم بن بشير وقال في حديث جبير بن مطعم على شرط البخارى
ومسلم ولولم يكن فى فضل العلم الا هذا وحده لكفى به شرفاً فإن النبي صلى الله عليه وسلم
دعا لمن سمع كلامه ووعاه وحفظه وبلغه وهذه هى مراتب العلم أولها وثانيها سماعه وعقله فإذا
سمعه وعاه بقلبه أى عقله واستقر فى قلبه كما يستقر الشيء الذى يوعى فى وعائه ولا يخرج منه

وكذلك عقله هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب ولهذا كان الوعى والعقل قدراً زائداً على مجرد إدراك المعلوم . المرتبة الثالثة تعامده وحفظه حتى لا ينسأه فيذهب . المرتبة الرابعة تبليغه وبشه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده وهو وبشه في الأمة فهو بمنزلة الكسندر المدفون في الأرض الذى لا يتفق منه وهو معرض لذهابه فإن العلم ما لم يتفق منه ويعلم فإنه يوشك أن يذهب فإذا أنفق منه نما وزكا على الانفاق فمن قام بهذه المراتب الأربع دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي البهجة والحسن الذى يكساها الوجه من آثار الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القلب وسروره والتناذره به فظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة . كما فى قوله تعالى (فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . فالنضرة فى وجوههم والسرور فى قلوبهم فالنعيم وطيب القلب يظهر نضارة فى الوجه . كما قال تعالى (تعرف فى وجوههم نضرة النعيم) ، والمقصود أن هذه النضرة فى وجه من سمع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعاها وحفظها وبلغها فهى أثر تلك الخلاوة والبهجة والسرور الذى فى قلبه وباطنه . وقوله صلى الله عليه وسلم رب حامل فقهه إلى من هو أفقه منه تنبيه على فائدة التبليغ وإن المبلغ قد يكون أفهم من المبلغ فيحصل له فى تلك المقالة ما لم يحصل للمبلغ أو يكون المعنى أن المبلغ قد يكون أفقه من المبلغ فإذا سمع تلك المقالة حملها على أحسن وجوها واستنبط فقهها وعلم المراد منها . وقوله صلى الله عليه وسلم ثلاث لا يغفلن قلب مسلم إلى آخره أى لا يحمل العفل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة فإنها تنفى الغفل والغش وهو فساد القلب وسخايمه فالخالص لله إخلاصه يمنع غل قلبه ويخرجه وينزله جملة لأنه قد انصرفت دواعى قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه فلم يبق فيه موضع للغفل والغش كما قال تعالى : (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخالصين) فلما أخلص لربه صرف عنه دواعى السوء والفحشاء فانصرف عنه السوء والفحشاء . ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التى اشترطها للغواية والإهلاك فقال (فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) قال تعالى (إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين) فالإخلاص هو سبيل الخلاص والإسلام هو مركب السلامة والإيمان خاتم الأمان ، وقوله ومناصحة أئمة المسلمين هذا أيضاً مناف للغفل والغش فان النصيحة لا تجامع الغفل إذ هى ضده فمن نصح الأئمة والأئمة فقد برىء من الغفل وقوله ولزوم جماعتهم هذا أيضاً مما يطهر القلب من الغفل والغش فان صاحبه للزومه جماعة المسلمين يجب لهم ما يجب لنفسه ويكره لهم ما يكره لها ويسوؤه ما يسوؤهم ويسرهم ما يسرهم وهذا بخلاف من انحاز عنهم واشتغل بالظعن

عليهم والعيب والذم لهم كفعل الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فان قلوبهم ممثلة غلا وغشاً ولهذا تجرد الرافضة أبعاد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة وأشدهم بعداً عن جماعة المسلمين فهؤلاء أشد الناس غلا وغشاً بشهادة الرسول والأمة عليهم وشهادتهم على أنفسهم بذلك فانهم لا يكونون قط إلا أعواناً وظهراً على أهل الإسلام فأى عدو قام للمسلمين كانوا أعوان ذلك العدو وبطائه وهذا أمر قد شاهدته الأمة منهم ومن لم يشاهد فقد سمع منه ما يصم الآذان ويشجى القلوب . وقوله فان دعوتهم تحيط من ورائهم هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأغفمه معنى شبه دعوة المسلمين بالسور والسياح المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام وهم داخلونها لما كانت سوراً وسيافاً عليهم أخبر أن من أزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعنها وتحيط بها فن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته . الوجه الثالث - والخسوس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتبليغ العلم عنه في الصحيحين من حديث عبد الله ابن عمرو قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . وقال ليبلغ الشاهد منكم الغائب روى ذلك أبو بكره ووابصة بن معبد وعمار بن ياسر وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس وأسماء بنت يزيد بن السكن وحجير وأبو قريع وسرى بنت نهبان ومعاوية بن حيدة القشيري وعم أبي حرة وغيرهم فأمر صلى الله عليه وسلم بالتبليغ عنه لما في ذلك من حصول الهدى بالتبليغ وله صلى الله عليه وسلم أجر من بلغ عنه وأجر من قبل ذلك البلاغ وكلما كثر التبليغ عنه تضاعف له الثواب فله من الأجر بعد كل مبلغ وكل مهتد بذلك البلاغ سوى ماله من أجر عمله المختص به فكل من هدى واهتدى بتبليغه فله أجره لأنه هو الداعي إليه ولو لم يكن في تبليغ العلم عنه إلا حصول ما يحبه صلى الله عليه وسلم لكتفي به فضلاً . وعلامة المحب الصادق أن يسعى في حصول محبوب محبوبه وينذل جهده وطاقته فيها . ومعلوم أنه لاشيء أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إيصاله الهدى إلى جميع الأمة فالمبلغ عنه ساع في حصول محابه فهو أقرب الناس منه وأحبهم إليه وهو نائبه وخليفته في أمته وكفي بهذا فضلاً وشرفاً للعلم وأهله . الوجه الرابع والخسوس أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم بالفضائل العلمية في أعلا الولايات الدينية وأشرفها وقدم بالعلم بالأفضل على غيره . فروى مسلم في صحيحه من حديث أبي مسعود البدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم القوم أقرؤهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأقدمهم لإسلاماً أو سنناً وذكر الحديث فقدم في الإمامة تفضيله العلم على تقدم الإسلام والهجرة ، ولما كان

العلم بالقرآن أفضل من العلم بالسنة لشرف معلومه على معلوم السنة قدم العلم به ثم قدم العلم بالسنة على تقدم الهجرة وفيه من زيادة العمل ما هو متميز به لكن إنما راعى التقديم بالعلم ثم بالعمل وراعى التقديم بالعلم بالأفضل على غيره وهذا يدل على شرف العلم وفضله وإن أهله هم أهل التقدم إلى المراتب الدينية . الوجه الخامس والخمسون ما ثبت في صحيح البخارى من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال خيركم من تعلم القرآن وعلمه . وتعلم القرآن وتعليمه يتناول تعلم حروفه وتعليمها وتعلم معانيها وتعليمها وهو أشرف قسمى علمه وتعليمه فان المعنى هو المقصود واللفظ وسيلة إليه فعلم المعنى وتعليمه تعلم العاية وتعليمها وتعلم اللفظ المجرد وتعليمه تعلم الوسائل وتعليمها وبينهما كما بين العايات والوسائل . الوجه السادس والخمسون ما رواه الترمذى وغيره في نسخة عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لن يشيع المؤمن من خير يسمعه حتى يكون مقتناه الجنة . قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهذه نسخة معروفة رواها الناس وساق أحمد في المسند أكثرها أو كثيراً منها ولهذا الحديث شواهد تجعل النبي صلى الله عليه وسلم النعمة في العلم وعدم الشيع منه من لوازم الإيمان وأوصاف المؤمنين وأخبر أن هذا لا يزال دأب المؤمن حتى دخوله الجنة ولهذا كان أئمة الإسلام إذا قيل لأحدهم إلى متى تطلب العلم فيقول إلى الممات . قال نعيم ابن حماد سمعت عبد الله بن المبارك رضى الله عنه يقول وقد عابه قوم في كثرة طلبه للحديث فقالوا له إلى متى تسمع قال إلى الممات . وقال الحسين بن منصور الجصاص قلت لأحمد بن حنبل رضى الله عنه إلى متى يكتب الرجل الحديث قال إلى الموت . وقال عبد الله بن محمد البغوى سمعت أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول إنما أطلب العلم إلى أن أدخل القبر . وقال محمد بن اسماعيل الصائغ كنت أصوغ مع أبي ببغداد فر بنا أحمد بن حنبل وهو يعدو ونعلاه في يديه فأخذ ابى بمجامع ثوبه فقال يا أبا عبد الله ألا تستحى إلى متى تعدو مع هؤلاء . قال إلى الموت . وقال عبد الله بن بشر الطالقانى أرجو أن يأتينى أمر ابى والمجرة بين بدى ولم يفارقنى العلم والمجرة . وقال حميد بن محمد بن يزيد البصرى جاء ابن بسطام الحافظ يسألنى عن الحديث فقلت له ما أشد حرصك على الحديث فقال أر ما أحب أن أكون في قطار آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لبعض العلماء متى يحسن بالمرء أن يتعلم قال ما حسنت به الحياة وسئل الحسن عن الرجل له ممانون سنة أيحسن أن يطالب العلم قال ان كان يحسن به أن يعيش . الوجه السابع والخمسون ما رواه الترمذى أيضاً من حديث ابراهيم بن الفضل عن المقبرى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها . قال الترمذى هذا

حديث غريب لا نعرفه الا من هذا الوجه و ابراهيم ابن الفضل المديني الخزومي يضعف في الحديث من قبل حفظه . وهذا أيضاً شاهد لما تقدم وله شواهد والحكمة هي العلم فاذا فقدته المؤمن فهو بمنزلة من فقد ضالة نفيسة من نفائسه فاذا وجدها قر قلبه وفرحت نفسه بوجودها كذلك المؤمن إذا وجد ضالة قلبه وروحه التي هو دائماً في طلبها ونشدانها والتفتيش عليها وهذا من أحسن الأمثلة فان قلب المؤمن يطلب العلم حيث وجدته أعظم من طلب صاحب الضالة لها . الوجه الثامن والخمسون . قال الترمذي حدثنا أبو كريب حدثنا خلف بن أيوب عن عوف عن ابن سيرين عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في مناقق حسن سميت وفقه في الدين . قال الترمذي هذا حديث غريب ولا يعرف هذا الحديث من حديث عوف الا من حديث هذا الشيخ خلف بن أيوب العامري ولم أر أحداً يروى عنه غير أبي كريب محمد بن العلاء ولا أدري كيف هو وهذه شهادة بأن من اجتمع فيه حسن السميت والفقه في الدين فهو مؤمن وأحرى بهذا الحديث أن يكون حقاً وان كان اسناده فيه جهالة فان حسن السميت والفقه في الدين من أخص علامات الايمان وان جمعهما الله في مناقق فان التناق ينافيها ويتأفانها الوجه التاسع والخمسون قال الترمذي حدثنا مسلم ابن حاتم الأنصاري حدثنا أبو حاتم البصري حدثنا محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب . قال قال أنس بن مالك رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ يا بني ان قدرت ان تصبح وتمسى وليس في قلبك غش لأحد فافعل ثم قال يا بني وذلك من سنتي ومن أحميا سنتي فقد أحميني ومن أحميني كان معي في الجنة وفي الحديث قصة طويلة . قال الترمذي هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ومحمد بن عبد الله الأنصاري صدوق وأبوه ثقة وعلي بن زيد صدوق إلا أنه ربما يرفع الشيء الذي يوقفه غيره سمعت محمد بن بشارة يقول قال أبو الوليد قال شعبة حدثنا علي بن زيد وكان رفاعاً . قال الترمذي ولا يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس رواية إلا هذا الحديث بطوله وقد روى عباد المنتمى هذا الحديث عن علي بن زيد عن أنس ولم يذكر فيه عن سعيد بن المسيب وذاكرت به محمد بن اسمعيل فلم يعرفه ولم يعرف لسعيد بن المسيب عن أنس هذا الحديث ولا غيره . ومات أنس سنة ثلاث وتسعين وسعيد بن المسيب سنة خمس وتسعين بعده بسنتين . قلت ولهذا الحديث شواهد منها ما رواه الدارمي عبد الله حدثنا محمد بن عيينة عن مروان بن معاوية الفزاري عن كثير ابن عبد الله عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال بن الحارث اعلم قال ما أعلم يا رسول الله قال اعلم يا بلال قال ما أعلم يا رسول الله قال انه من أحميا سنة من سنتي قد أميتت بعدى كان له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء ومن ابتدع

بدعة ضلالة لا يرضاها الله ورسوله كان عليه مثل آتام من عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئاً رواه الترمذى عنه وقال حديث حسن . قال ومحمد بن عيينة مصيبى شامى وكثير ابن عبد الله هو ابن عمرو بن عوف المزنى وفي حديثه ثلاثة أقوال لأهل الحديث منهم من يصححه ومنهم من يحسنه وهما للترمذى . ومنهم من يضعفه ولا يراه حجة كالأمام أحمد وغيره ولكن هذا الأصل ثابت من وجوه كحديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه وهو صحيح من وجوه . وحديث من دل على خير فله مثل أجر فاعله وهو حديث حسن رواه الترمذى وغيره فهذا الأصل محفوظ عن النبي ﷺ فالحديث الضعيف فيه بمنزلة الشواهد والمتابعات فلا يضر ذكره . الوجه الستون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى بطلبة العلم خيراً وماذا لك إلا أفضل مطلوبهم وشرفه . قال الترمذى حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا أبو داود الحفري عن سفيان عن أبي هرون قال كنا نأتى أبا سعيد فيقول مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم إن النبي ﷺ قال إن الناس لكم تبع وإن رجلاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً حدثنا قتيبة حدثنا روح بن قيس عن أبي هرون العبدى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يأتىكم رجال من قبل المشرق يتعلون فإذا جاؤكم فاستوصوا بهم خيراً فكان أبو سعيد إذا رآنا قال مرحباً بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال الترمذى هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث أبي هرون العبدى عن أبي سعيد قال أبو بكر العطار قال على ابن المدينى قال يحيى بن سعيد كان شعبة يضعف أبا هرون العبدى قال يحيى وما زال ابن عوف يروى عن أبي هرون حتى مات وأبو هرون اسمه عمارة بن جوين . الوجه الحادى والستون ما رواه الترمذى من حديث أبي داود عن عبد الله بن سنجر عن سنجر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال من طلب العلم كان كفارة لما مضى هذا الأصل لم أجد فيه إلا هذا الحديث وليس بشيء . فإن أبا داود هو نقيب الاعمى غير ثقة ولكن قد تقدم أن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض وقد رويت آثار عديدة عن جماعة من الصحابة في هذا المعنى . منها ما رواه الثورى عن عبد الكريم عن مجاهد عن ابن عباس أن ملكاً موكلًا بطالب العلم حتى يرد من حيث أبداه مغفوراً له . ومنها ما رواه قطر بن خليفة عن أبي الطفيل عن علي ما اتعل عبد قط ولا تخفف ولا لبس ثوباً ليغدو في طلب العلم إلا غفرت ذنوبه حيث يخطو عند باب بيته وقد رواه ابن عدى مرفوعاً . وقال ليس يرويه عن قطر غير اسمعيل ابن يحيى التميمى . قلت وقد رواه اسمعيل بن يحيى هذا عن الثورى حدثنا محمد بن أيوب الجوزجاني عن مجالد عن الشعبي عن الأسود عن عائشة مرفوعاً من اتعل ليتعلم خيراً غفر له قبل أن

يخطو وقد رواه عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن قطر عن أبي الطفيل عن علي وهذه الأسانيد وان لم تكن بمفردها حجة فطلب العلم من أفضل الحسنات والحسنات يذهبن السيئات فجدير أن يكون طلب العلم ابتغاء وجه الله يكفر ماضي من السيئات فتمت ذلك النصوص أن اتباع السيئة الحسنة تمحوها فكيف بما هو من أفضل الحسنات وأجل الطاعات فالعمدة على ذلك لأعلى حديث أبي داود والله أعلم . وقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة فإذا سمع العلم خاف ورجع وتاب فانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب فلا تفارقوا مجالس العلماء . الوجه الثاني والستون مارواه ابن ماجه في سننه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال خرج رسول الله ﷺ فإذا في المسجد مجلسان مجلس يتفقهن ومجلس يدعون الله تعالى ويسألونه فقال كلا المجلسين إلى خير أما هؤلاء فيدعون الله وأما هؤلاء فيتعلون ويفقهون الجاهل هؤلاء أفضل بالتعليم أرسلت ثم قعد معهم . الوجه الثالث والستون أن الله تبارك وتعالى يباهى ملائكته بالقوم الذين يتذكرون العلم ويذكرون الله ويحمدونه على ما من عليهم به منه قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا مرحوم بن عبدالعزيز العطار حدثنا أبو نعامه عن أبي عثمان عن أبي سعيد قال خرج معاوية إلى المسجد فقال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله عز وجل قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحللتم تهمة لكم وما كان أحد بمنزلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثاً عنه منى أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج على حلقة من أصحابه قال ما يجلسكم قالوا جلسنا نذكر الله ونحمده لما هدانا للإسلام ومن علينا بك قال الله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا الله ما أجلسنا إلا ذلك قال أما انى لم استحللتم تهمة لكم أنه أنانى جبريل فأخبرنى أن الله تعالى يباهى بكم الملائكة قال الترمذى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو نعامه السعدى اسمه عمرو بن عيسى وأبو عثمان النهدي اسمه عبد الرحمن بن مل فهؤلاء كانوا قد جلسوا يحمدون الله بذكر أوصافه وآياته ويثنون عليه بذلك ويذكرون حسن الإسلام ويعترفون لله بالفضل العظيم إذ هداهم له ومن عليهم برسوله . وهذا أشرف علم على الاطلاق ولا يعنى به إلا الراسخون في العلم فإنه يتضمن معرفة الله وصفاته وأفعاله ودينه ورسوله ومحبة ذلك وتعظيمه والفرح به وأحرى بأصحاب هذا العلم أن يباهى الله بهم الملائكة وقد بشر النبي ﷺ الرجل الذى كان يجب سورة الإخلاص وقال أحبها لأنها صفة الرحمن عز وجل فقال حبك اياها أدخلك الجنة . وفى لفظ آخر أخبروه أن الله يحبه فدل على أن من أحب صفات الله أحبه الله وأدخله الجنة . والجمهية أشد الناس نفرة وتنفيرا عن صفاته ونعوت كاله يعاقبون ويذمون من

يذكرها ويقرؤها ويحجمها ويعتني بها ولهذا لهم المقت والذم عند الأمة وعلى لسان كل عالم من علماء الإسلام والله تعالى أشد بغضاً ومقتاً لهم جزاء وفاقا . الوجه الرابع والستون . أن أفضل منازل الخلق عند الله منزلة الرسالة والنبوة فإله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس وكيف لا يكون أفضل الخلق عند الله من جعلهم وسائط بينه وبين عبادته في تبليغ رسالاته وتعريف أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ومراضيه ومساخطة ونوابه وعقابه وخصم بوجه واختصم بتفضيله وارتضاهم لرسالاته إلى عبادته وجعلهم أزكى العالمين نفوساً وأشرفهم أخلاقاً وأكملهم علوماً وأعمالاً وأحسنهم خلقة وأعظمهم محبة وقبولاً في قلوب الناس وبراهم من كل وصم وعيب وكل خلق دنى وجعل أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أمهم فانهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وارشادهم الضال وتعليمهم الجاهل ونصرهم المظلوم وأخذهم على يد الظالم وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيمهم عن المنكر وتركه والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة المعرضين الغافلين والجدال بالتي هي أحسن للعاندين المعارضين . فهذه حال أتباع المرسلين وورثة النبيين . قال تعالى (قل هذه سبيلي ادعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) وسواء كان المعنى أنا ومن اتبعني على بصيرة وأنا ادعوا إلى الله . أو المعنى أدعوا إلى الله على بصيرة والقولان متلازمان فإله لا يكون من أتباعه حقاً إلا من دعا إلى الله على بصيرة كما كان متبوعه يفعل صلى الله عليه وسلم فؤلاً . خلفاء الرسل حقاً وورثتهم دون الناس وهم أولو العلم الذين قاموا بما جاء به علماء وعملا وهداية وارشاداً وصبراً وجهاداً وهؤلاً هم الصديقون وهم أفضل أتباع الأنبياء ورأسهم وإمامهم الصديق الأكبر أبو بكر رضى الله عنه . قال الله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً) فذكر مراتب السعداء وهي أربعة وبدأ بأعلام مرتبة ثم الذين يلونهم إلى آخر المراتب وهؤلاً الأربعة هم أهل الجنة الذين هم أهلها جعلنا الله منهم بمنه وكرمه . الوجه الخامس والستون ان الإنسان إنما يميز على غيره من الحيوانات بفضيلة العلم والبيان وإلا فغيره من الدواب والسباع أكثر أكلاً منه وأقوى بطشاً وأكثر جماعاً وأولاداً وأطول أعماراً وإنما يميز على الدواب والحيوانات بعلمه وبيانه فاذا عدم العلم بقى معه القدر المشترك بينه وبين سائر الدواب وهي الحيوانية المحضة فلا يبقى فيه فضل عليهم بل قد يبقى شراً منهم كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) فؤلاً هم الجهال (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم) أى ليس عندهم محل قابل للخير (ولو) كان محضهم قابلاً للخير (لآسمعهم) أى

لأفهمهم والسمع ههنا سمع فهم وإلا فسمع الصوت حاصل لهم وبه قامت حجة الله عليهم .
قال تعالى (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون) . وقال تعالى (ومثل الذين
كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عنى فهم لا يعقلون) وسواء
كان المعنى ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع من الدواب إلا أصواتا
بمجردة أو كان المعنى ومثل الذين كفروا حين ينادون كمثل دواب الذى ينعق بها فلا تسمع
إلا صوت الدعاء والنداء فالقولان متلازمان بل هما واحد وإن كان التقدير الثانى أقرب إلى
اللفظ وأبلغ فى المعنى فعلى التقديرين لم يحصل لهم من الدعوة إلا الصوت الحاصل الأنعام
فهؤلاء لم يحصل لهم حقيقة الإنسانية التى يميز بها صاحبها عن سائر الحيوان والسمع يراد به
ادراك الصوت ويراد به فهم المعنى ويراد به القبول والإجابة والثلاثة فى القرآن فمن الأول قوله
(قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها وتشكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع
بصير) وهذا أصرح ما يكون فى إثبات صفة السمع ، ذكر الماضى والمضارع واسم الفاعل
سمع ويسمع وهو سميع وله السمع كما قالت عائشة رضى الله عنها الحمد لله الذى وسع سمعه
الأصوات لقد جات المجادلة تشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جانب البيت وانه ليخفى
على بعض كلامها فأنزل الله (قد سمع الله قول الذى تجادلك فى زوجها) . والثانى سمع الفهم
كقوله (ولو علم الله فيهم خيراً لاسمعهم) أى لأفهمهم (ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)
لما فى قلوبهم من الكبر والإعراض عن قبول الحق ففهم آفتان إحداهما أنهم لا يفهمون
الحق لجهلهم ولو فهموه لتولوا عنه وهم معرضون عنه لكبرهم وهذا غاية النقص والعيب
والثالث سمع القبول والإجابة كقوله تعالى (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولا وضعوا
خلالكم يفتونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم) أى قابلون مستجيبون . ومنه قوله (سماعون
للكذب) أى قابلون له مستجيبون لأهله . ومنه قول المصلى سمع الله لمن حمده أى أجاب
الله حمد من حمده ودعاء من دعاه . وقول النبي صلى الله عليه وسلم إذا قال الإمام سمع الله لمن حمده فقولوا
ربنا ولك الحمد يسمع الله لكم أى يجيبكم . والمقصود أن الإنسان إذا لم يكن له علم بما يصلحه
فى مماشه ومعاده كان الحيوان البهيم خيراً منه لسلامته فى المعاد بما يهلكه دون الإنسان الجاهل .
الوجه السادس والستون إن العلم حاكم على ما سواه ولا يحكم عليه شىء . فمكل شىء اختلف فى
وجوده وعدمه وصحته وفساده ومنفعته ومضرته ورجحانه ونقصانه وكاله ونقصه ومدحه
وذمه ومرتبته فى الخير وجودته وردائه وقربه وبعده وإفضائه إلى مطلوب كذا وعدم
إفضائه وحصول المقصود به وعدم حصوله إلى سائر جهات المعلومات فإن العلم حاكم على ذلك
كله فإذا حكم العلم انتطح النزاع ووجب الإنباغ وهو الحاكم على الممالك والسياسات والأموال

والأفلام فملك لا يتأيد بعلم لا يقوم وسيف بلا علم مخراق لاعب وقلم بلا علم حركة عابث
والعلم مسلط حاكم على ذلك كله ولا يحكم شيء من ذلك على العلم وقد اختلف في تفضيل مداد
العلماء على دم الشهداء وعكسه وذكر لكل قول وجوه من التراخيح والأدلة ونفس هذا
النزاع دليل على تفضيل العلم ومرتبته فإن الحاكم في هذه المسئلة هو العلم فبه واليه وعنده
يقع التحاكم والتخاعم والمفضل منهما من حكم له بالفضل . فإن قيل فكيف يقبل حكمه لنفسه .
قيل وهذا أيضا دليل على تفضيله وعلو مرتبته وشرفه فإن الحاكم إنما لم يسغ أن يحكم لنفسه
لأجل مظنة التهمة والعلم لا تلحقه تهمة في حكمه لنفسه فإنه إذا حكم حكم بما تشهد العقول
والنظر بصحته وتلقاه بالقبول ويستحيل حكمه اتهمه فانه إذا حكم بها انزل عن مرتبته
وانحط عن درجته فهو الشاهد المزمك العدل والحاكم الذي لا يجوز ولا يعزل . فان قيل فماذا
حكمه في هذه المسئلة التي ذكرتموها . قيل هذه المسئلة كثر فيها الجدال واتسع المجال وأدلى
كل منهما بحجته واستعلى بمرتبته والذي يفصل النزاع ويعيد المسئلة إلى مواقع الإجماع الكلام
في أنواع مراتب السكالم وذكر الأفضل منهما والنظر في أي هذين الأمرين أولى به وأقرب
اليه . فهذه الأصول الثلاثة تبين الصواب ويقع بها فصل الخطاب . فأما مراتب السكالم فاربع
النبوة والصدقية والشهادة والولاية وقد ذكرها الله سبحانه في قوله (ومن يطع الله والرسول
فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك
رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما) وذكر تعالى هؤلاء الأربع في سورة الحديد فذكر
تعالى الإيمان به وبرسوله ثم ندب المؤمنين إلى أن تخضع قلوبهم لكتابه ووحيه ثم ذكر
مراتب الخلائق شقيهم وسعيدهم . فقال (إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً
يضاعف لهم ولهم أجر كريم والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدقيون والشهداء عند
ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) . وذكر
المنافقين قبل ذلك فاستوعبت هذه الآية أقسام العباد شقيهم وسعيدهم . والمقصود أنه ذكر
فيها المراتب الأربعة الرسالة والصدقية والشهادة والولاية فأعلا هذه المراتب النبوة والرسالة ويلها
الصدقية فالصدقيون هم أمة أتباع الرسل ودرجتهم أعلا الدرجات بعد النبوة فان جرى قلم العالم
بالصدقية وسال مداده بها كان أفضل من دم الشهيد الذي لم يلحقه في رتبة الصدقية وان سال دم
الشهيد بالصدقية وقطر عليها كان أفضل من مداد العالم الذي قصر عنها فافضلها صدقيهما فان استويا
في الصدقية استويا في المرتبة ولله أعلم . والصدقية هي كمال الإيمان بما جاء به الرسول علماً
وتصديقاً وقياماً به في راجعة إلى نرس العلم فكل من كان أعلم بما جاء به الرسول وأكمل تصديقاً
له كان أتم صدقية فالصدقية شجرة أصولها العلم وفروعها التصديق وثمرتها العمل فهذه كلمات

جامعة في مسئلة العالم والشهيد وأيهما أفضل . الوجه السابع والستون أن النصوص النبوية قد تواترت بأن أفضل الأعمال إيمان بالله فهو رأس الأمر والأعمال بعده على مراتبها ومنازلها والإيمان لركنانه . أحدهما معرفة ماجاء به الرسول والعلم به والثاني تصديقه بالقول والعمل والتصديق بدون العلم والمعرفة محال فانه فرع العلم بالشيء المصدق به فاذا العلم من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ولا تقوم شجرة الايمان الا على ساق العلم والمعرفة فالعلم إذا أجل المطالب وأسنى المواهب . الوجه الثامن والستون أن صفات الكمال كلها ترجع إلى العلم والقدرة والإرادة والإرادة فرع العلم فانها تستلزم الشعور بالمراد فهي مفتقرة إلى العلم في ذاتها وحققتها والقدرة لا تؤثر إلا بواسطة الإرادة والعلم لا يفتقر في تعلقه بالمعلوم إلى واحدة منهما وأما القدرة والإرادة فكل منها يفتقر في تعلقه بالمراد والمقدور إلى العلم وذلك يدل على فضيلته وشرف منزلته . الوجه التاسع والستون ان العلم أعم الصفات تعلقاً بمتعلقه وأوسعها فإنه يتعلق بالواجب والممكن والمستحيل والجائز والموجود والمعدوم فذات الرب سبحانه وصفاته وأسمائه معلومة له ويعلم العباد من ذلك ما علمهم العلم الخبير وأما القدرة والإرادة فكل منهما خاص بالتعلق أما القدرة فإنما تتعلق بالممكن خاصة لا بالمستحيل ولا بالواجب فهي أخص من العلم من هذا الوجه وأعم من الإرادة فإن الإرادة لا تتعلق إلا ببعض الممكنات وهو ما أريد وجوده فالعلم أوسع وأعم وأشمل في ذاته ومرتبطه . الوجه السبعون ان الله سبحانه أخبر عن أهل العلم بأنه جعلهم أئمة يهدون بأمره ويأتهم بهم من بعدهم . فقال تعالى (وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وقال في موضع آخر (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين واجعلنا للمتقين إماما) أى أئمة يقتدى بنا من بعدنا . فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين وهي أرفع مراتب الصديقين واليقين هو كمال العلم وغايته فبتكميل مرتبة العلم تحصل إمامة الدين وهي ولاية آلها العلم يختص الله بهامن يشاء من عباده . الوجه الحادى والسبعون ان حاجة العباد إلى العلم ضرورة فوق حاجة الجسم إلى الغذاء لأن الجسم يحتاج إلى الغذاء في اليوم مرة أو مرتين وحاجة الإنسان إلى العلم بعدد الأنفاس لأن كل نفس من أنفاسه فهو محتاج فيه إلى أن يكون مصاحباً لإيمان أو حكمة فان فارقه الايمان أو حكمة في نفس من أنفاسه فقد عطب وقرب هلاكه وليس إلى حصول ذلك سبيل إلا بالعلم فالحاجة اليه فوق الحاجة إلى الطعام والشراب وقد ذكر الإمام أحمد هذا المعنى بعينه فقال: الناس أحوج إلى العلم منهم إلى الطعام والشراب لأن الطعام والشراب يحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين والعلم يحتاج اليه كل وقت . الوجه الثانی والسبعون ان صاحب العلم أقل تعباً وعملاً وأكثر أجراً واعتبر هذا بالشاهد فان الصانع والاجراء يعانوان

الأعمال الشاقة بأنفسهم والأستاذ المعلم يجلس يأمرهم وينهاهم ويربهم كيفية العمل ويأخذ أضعاف ما يأخذونه . وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى حيث قال أفضل الأعمال إيمان بالله ثم الجهاد فالجهاد فيه بذل النفس وغاية المشقة والإيمان علم القلب وعمله وتصديقه وهو أفضل الأعمال مع أن مشقة الجهاد فوق مشقته بأضعاف مضاعفة وهذا لأن العلم يعرف مقادير الأعمال ومراتبها وفاضلها من مفضولها وراجحها من مرجوحها فصاحبه لا يختار لنفسه إلا أفضل الأعمال والعامل بلا علم يظن أن الفضيلة في كثرة المشقة فهو يتحمل المشاق وإن كان ما يعانیه مفضولاً ورب عمل فاضل والمفضول أكثر مشقة منه واعتبر هذا بحال الصديق فإنه أفضل الأمة . ومعلوم أن فهم من هو أكثر عملاً وحجاً وصوماً وصلاة وقرآناً منه . قال أبو بكر بن عياش ماسبكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في قلبه وهذا موضوع المثل المشهور .

من لي بمثل سيرك المدلل * تمشى رويداً ونجى في الأول

الوجه الثالث والسبعون أن العلم إمام العمل وقائد له والعمل تابع له ومؤتم به فكل عمل لا يكون خلف العلم مقتدياً به فهو غير نافع لصاحبه بل مضرة عليه . كما قال بعض السلف من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح والأعمال إنما تتفاوت في القبول والرد بحسب موافقتها للعلم ومخالفتها له فالعمل الموافق للعلم هو المقبول والمخالف له هو المردود فالعلم هو الميزان وهو المحك . قال تعالى (هو الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) قال الفضيل بن عياض هو أخلص العمل وأصوبه قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه قال إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً فالخاص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السنة . وقد قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) فهذا هو العمل المقبول الذي لا يقبل الله من الأعمال سواه وهو أن يكون موافقاً لسنة رسول الله ﷺ مراداً به وجه الله ولا يتمكن العامل من الاتيان بعمل يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم فإنه إن لم يعلم ما جاء به الرسول لم يمكنه قصده وإن لم يعرف معبوده لم يمكنه إرادته وحده فلو لا العلم لما كان عمله مقبولاً فالعلم هو الدليل على الإخلاص وهو الدليل على المتابعة . وقد قال الله تعالى (إنما يتقبل الله من المتقين) وأحسن ما قيل في تفسير الآية إنه إنما يتقبل الله عمل من اتقاه في ذلك العمل وتقواه فيه أن يكون لوجهه على موافقة أمره وهذا إنما يحصل بالعلم وإذا كان هذا منزلة العلم وموقعه علم أنه أشرف شيء وأجله وأفضله والله أعلم . الوجه الرابع والسبعون أن العامل بلا علم كالسائر بلا دليل . ومعلوم أن عطب مثل هذا أقرب من سلامته

وان قدر سلامته اتفاقاً نادراً فهو غير محمود بل مذموم عند العقلاء ، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يقول من فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل إلا بما جاء به الرسول . قال الحسن العامل على غير علم كالسالك على غير طريق والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصاح فاطلبوا العلم طلباً لاتضروا بالعبادة واطلبوا العبادة طلباً لاتضروا بالعلم فان قوما طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيا فهم على أمة محمد ﷺ ولو طلبوا العلم لم يدهم على ما فعلوا والفرق بين هذا وبين ما قبله ان العلم مرتبته في الوجه الاول مرتبة المطاع المتبوع المقتدى به المتبع حكمه المطاع أمره ومرتبته في هذا الوجه مرتبة الدليل المرشد إلى المطلوب الموصل إلى الغاية . الوجه الخامس والسبعون أن النبي ﷺ ثبت في الصحيحين عنه أنه كان يقول اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق باذنك انك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم . وفي بعض السنن أنه كان يكبر تكبيرة الاحرام في صلاة الليل ثم يدعو بهذا الدعاء . والهداية هي العلم بالحق منح قصده وإيثاره على غيره فالمبتدى هو العامل بالحق المريد له وهي أعظم نعمة الله على العبد ولهذا أمرنا سبحانه أن نسأله هداية الصراط المستقيم كل يوم وليلة في صلواتنا الخمس فإن العبد محتاج إلى معرفة الحق الذي يرضى الله في كل حركة ظاهرة وباطنة فاذا عرفها فهو محتاج إلى من يلهمه قصد الحق فيجمل إرادته في قلبه ثم إلى من يقدره على فعله ومعلوم ان ما يجمله العبد أضعاف أضعاف ما يعمله وان كل ما يعلم أنه حق لانظاره نفسه على إرادته ولو أراد لهجز عن كثير منه فهو مضطر كل وقت إلى هداية تتعلق بالماضي وبالحال والمستقبل أما الماضي فهو محتاج إلى محاسبة نفسه عليه وهل وقع على السداد فيشكر الله عليه ويستدعيه أم خرج فيه عن الحق فيتوب إلى الله تعالى منه ويستغفره ويعزم على أن لا يعود . وأما الهداية في الحال فهي مطلوبة منه فإنه ابن وقته فيحتاج أن يعلم حكم ما هو متلبس به من الأفعال هل هو صواب أم خطأ . وأما المستقبل فحاجته في الهداية أظهر ليكون سيره على الطريق . وإذا كان هذا شأن الهداية علم أن العبد أشد شيء اضطراباً اليها وأن ما يورده بعض الناس من السؤال الفاسد وهي انا إذا كنا مهتدين فأى حاجة بنا أن نسأل الله أن يهدينا وهل هذا الا تحصيل الحاصل أفسد سؤال وأبعده عن الصواب وهو دليل على أن صاحبه لم يحصل معنى الهداية ولا أحاط علماً بحقيقتها ومسماها فلذلك تكلف من تكلف الجواب عنه بأن المعنى ثبتنا على الهداية وأدما لنا ومن أحاط علماً بحقيقة الهداية وحاجة العبد اليها علم أن الذي لم يحصل له منها أضعاف ما حصل له وانه كل وقت محتاج إلى هداية متجددة لاسيما والله تعالى خالق أفعال القلوب والجوارح فهو كل وقت محتاج أن يخلق الله له هداية

خاصة ثم ان لم يصرف عنه الموانع والصوارف التي تمنع موجب الهداية وتصرفها لم ينتفع بالهداية ولم يتم مقصودها له فإن الحكم لا يكفى فيه وجود مقتضيه بل لابد مع ذلك من عدم مانعه ومنافيه . ومعلوم أن وساوس العبد وخواطره وشهوات الفنى في قلبه كل منها مانع وصول أثر الهداية اليه فإن لم يصرفها الله عنه لم يهدى تاما لحاجاته إلى هداية الله له مبرورة بأناقته وهي أعظم حاجة للعبد . وذكر النبي ﷺ في الدعاء العظيم القدر من أوصاف الله وربوبيته ما يناسب المطلوب فان فطر السموات والأرض توصل إلى الله بهذا الوصف في الهداية للفطرة التي ابتدأ الخلق عليها فذكر كونه فاطر السموات والأرض والمطلوب تعليم الحق والتوفيق له فذكر علمه سبحانه بالغيب والشهادة وان من هو بكل شيء . علم جدير أن يطلب منه عبده أن يعلمه ويرشده ويهديه وهو بمنزلة التوصل إلى الفنى بغناه وسعة كرمه أن يعطى عبده شيئا من ماله والتوصل إلى الغفور بسعة مغفرته أن يغفر لعبده وبغفوه أن يعفو عنه وبرحمته أن يرجمه ونظائر ذلك وذكر ربوبيته تعالى لجبريل وميكائيل وإسرافيل وهذا والله أعلم لأن المطلوب هدى يحيا به القلب . وهؤلاء الثلاثة الأملاك قد جعل الله تعالى على أيديهم أسباب حياة العباد أما جبريل فهو صاحب الوحي الذى يوحى الله إلى الأنبياء وهو سبب حياة الدنيا والآخرة . وأما ميكائيل فهو موكل بالقطر الذى به سبب حياة كل شيء . وأما إسرافيل فهو الذى ينفخ فى الصور فيحى الله الموتى بنفخته فاذا هم قيام لرب العالمين . والهداية لها أربع مراتب وهي مذكورة فى القرآن . المرتبة الأولى الهداية العامة وهي هداية كل مخلوق من الحيوان والآدمى لمصلحه التي بها قام أمره قال الله تعالى (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدرهدى) فذكر أمورا أربعة : الخلق والتسوية والتقدير والهداية فسوى خلقه وأتقنه وأحكمه ثم قدر له أسباب مصلحه فى معاشه وتغلباته وتصرفاته وهداه إليها والهداية تعليم فذكر أنه الذى خلق وعلم كما ذكر نظير ذلك فى أول سورة أنزلها على رسوله وقد تقدم ذلك . وقال تعالى حكاية عن عدوه فرعون أنه قال لموسى (فن ربك يا موسى قال ربنا الذى أعطى كل شى خلقه ثم هدى) وهذه المرتبة أسبق مراتب الهداية وأعمها . المرتبة الثانية هداية البيان والدلالة التي أقام بها حجته على عباده وهذه لا تستلزم الاهنداء التام . قال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم ودللناهم وعرفناهم فأثروا الضلالة والعمى . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدمهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) . وهذه المرتبة أخص من الأولى وأعم من الثانية . وهي هدى التوفيق والالهام . قال الله تعالى (والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) فعم بالدعوة خلقه وخص بالهداية من شاء منهم . قال تعالى

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ مع قوله (وإنك لنهدي إلى صراط مستقيم) فأثبت هداية الدعوة والبيان ونفى هداية النوفيق والالهام . وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . وقال تعالى (إن تحرص على هدام فإن الله لا يهدي من يضل) أى من يضل الله لا يهتدى أبداً وهذه الهداية الثالثة هى الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء . وأما الثانية فشرط لا واجب فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة فإن تخلف الهدى عنها مستحيل . المرتبة الرابعة الهداية فى الآخرة إلى طريق الجنة والنار . قال تعالى (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم) . وأما قول أهل الجنة (الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) فيحتمل أن يكونوا أرادوا الهداية إلى طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية فى الدنيا التى أوصلتهم إلى دار النعيم ولو قيل إن كلا الأمرين مراد لهم وانهم حمدوا الله على هدايته لهم فى الدنيا وهدايتهم إلى طريق الجنة كان أحسن وأبلغ وقد ضرب الله تعالى لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلامطابقاً لحاله : فقال تعالى (قل أئذعوا من دون الله مالا يتبعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائذنا قل إن هدى الله هو الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين) . الوجه السادس والسبعون ان فضيلة الشئ وشرفه يظهر تارة من عموم منفعة وتارة من شدة الحاجة اليه وعدم الاستغناء عنه وتارة من ظهور النقص والشرف بقده وتارة من حصول اللذة والسرور والبهجة بوجوده لكونه محبوباً ملائماً قادراً كه يعقب غاية اللذة وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية وفضاله إلى أجل المطالب وهذه الوجوه ونحوها تنشأ وتظهر من متعلقه فاذا كان فى نفسه كمالاً وشرفاً بقطع النظر عن متعلقاته جمع جهات الشرف والفضل فى نفسه ومتعلقاته . ومعلوم أن هذه الجهات بأسرها حاصلة للعلم فإنه أعم شئاً نفعاً وأكثره وأدومه والحاجة اليه فوق الحاجة إلى الغذاء بل فوق الحاجة إلى التنفس إذ غاية ما يتصور من فقدهما فقد حياة الجسم . وأما فقد العلم ففقد حياة القلب والروح فلا غنى للعبد عنه طريقة عين . ولهذا إذا فقد من الشخص كان شراً من الخير بل كان شراً من الدواب عند الله ولا شئاً أنقص منه حينئذ وأما حصول اللذة والبهجة بوجوده فلأنه كمال فى نفسه وهو ملائم غاية الملائمة للنفوس فإن الجهل مرض ونقص وهو فى غاية الإيذاء والإيلام للنفوس ومن لم يشعر بهذه الملائمة والمنافرة فهو لفقد حسه ونفسه * وما لجرح ميت لإيلام * فحصوله للنفوس ادراك منها لغاية محبوبها واتصال به وذلك غاية لذتها وفرحتها وهذا بحسب المعلوم فى نفسه ومحبة النفس له ولذتها بقربه والعلوم والمعلومات

متفاوتة في ذلك أعظم التفاوت وأبينه فليس علم النفوس بفاطرها وباريها ومبدعها ومحبة والتقرب اليه كعلمها بالطبيعة وأحوالها وعوارضها وصحتها وفسادها وحركاتها وهذا يتبين . بالوجه السابع والسبعين وهو أن شرف العلم تابع لشرف معلومه لو توثق النفس بأدلة وجوده وبراهينه ولشدة الحاجة إلى معرفته وعظم النفع بها ولا ريب أن أجل معلوم وأعظمه وأكبره فهو الله الذي لا إله إلا هو . رب الصالحين وقيوم السموات والأرضين الملك الحق المبين الموصوف بالكمال كله المنزه عن كل عيب ونقص وعن كل تمثيل وتشبيه في كماله . ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أجل العلوم وأفضلها ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلومات وكان أن العلم به أجل العلوم وأشرفها فهو أصلها كلها كما أن كل موجود فهو مستند في وجوده إلى الملك الحق المبين ومفتقر إليه في تحقق ذاته وأبينته وكل علم فهو تابع للعلم به مفتقر في تحقق ذاته إليه فالعلم به أصل كل علم كما أنه سبحانه رب كل شيء ومليكه وموجده . ولا ريب أن كمال العلم بالسبب التام وكونه سببا يستلزم العلم بمسببه كما أن العلم بالعللة التامة ومعرفة كونها عللة يستلزم العلم بمعلوله وكل موجود سوى الله فهو مستند في وجوده إليه استناد المصنوع إلى صانعه والمفعول إلى فاعله فالعلم بذاته سبحانه وصفاته وأفعاله يستلزم العلم بما سواه فهو في ذاته رب كل شيء ومليكه والعلم به أصل كل علم ومنشؤه فمن عرف الله عرف ما سواه ومن جهل ربه فهو لما سواه أجهل قال تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ، فتأمل هذه الآية تجد تحتها معنى شريفاً عظيماً وهو أن من نسي ربه أنساه ذاته ونفسه فلم يعرف حقيقته ولا مصالحه بل نسي ما به صلاحه وفلاحه في معاشه ومعاده فصار معطلاً مهملاً بمنزلة الأنعام السائبة بل ربما كانت الأنعام أخبر بمصالحها منه لبقائها هداها الذي أعطاها إياه خالقها وأما هذا يخرج عن فطرته التي خلق عليها فنسي ربه فأنساه نفسه وصفاتها وماتكمل به وتزكوه وتسعد به في معاشها ومعادها قال الله تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) فغفل عن ذكر ربه فانفرط عليه أمره وقلبه فلا التفات له إلى مصالحه وكاله وما تزكوه بنفسه وقلبه بل هو مشتت القلب مضطرب مفرط الأمر حيران لا يهتدى سبيلاً . والمقصود أن العلم بالله أصل كل علم وهو أصل علم العبد بسعادته وكاله ومصالح دنياه وآخرته والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكالها وما تزكوه وتفلسح به فالعلم به سعادة العبد والجهل به أصل شقاوته يزيدة إيضاحاً . الوجه الثامن والسبعون أنه لا شيء أطيب للعبد ولا أذو ولا أهناً ولا أنعم لقلبه وعيشه من حبة فاطره وباريه ودوام ذكره والسعي في مرضاته وهذا هو الكمال الذي لا كمال للعبد بدونه وله خلق الخلق ولاجله نزل الوحي وأرسلت الرسل وقامت السموات والأرض ووجدت الجنة والنار ولاجله شرعت الشرائع

ووضع البيت الحرام ووجب حجه على الناس لإقامة لذكره الذى هو من توابع محبته والرضا به
وعنه ولاجل هذا أمر بالجهاد وضرب أعناق من أباه وآثر غيره عليه وجعل له فى الآخرة دار الهوان
خالداً مخلداً وعلى هذا الأمر العظيم أسست الملة ونصبت القبلة وهو قطب رضى الخلق والأمر
الذى مدارهما عليه ولاسيبيل إلى الدخول إلى ذلك إلا من باب العلم فان محبة الشئ فرع عن الشعور به
وأعرف الخلق بالله أشدهم حبا له فكل من عرف الله أحبه ومن عرف الدنيا وأهلها زهد فيهم فالعلم
يفتح هذا الباب العظيم الذى هو سر الخلق والأمر كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. الوجه التاسع
والسبعون أن اللذة بالمحجوب تضعف وتقوى بحسب قوة الحب وضعفه فكلما كان الحب أقوى
كانت اللذة أعظم ولهذا تعظم لذة الظمان بشرب الماء البارد بحسب شدة طلبه للماء وكذلك الجائع
وكذلك من أحب شيئاً كانت لذته على قدر حبه إياه والحب تابع للعلم بالمحجوب ومعرفة جماله
الظاهر والباطن فلذذة النظر إلى الله بعد لقائه بحسب قوة حبه وإرادته وذلك بحسب العلم به
وبصفات كماله فإذا العلم هو أقرب الطرق إلى أعظم اللذات وسيأتى تقرير هذا فيما بعد إن شاء
الله تعالى. الوجه الثمانون أن كل ما سوى الله يفتقر إلى العلم لاقوام له بدونته فان الوجود
وجودان وجود الخلق ووجود الأمر والخلق والأمر مصدرهما علم الرب وحكمته فكل
ما ضمنه الوجود من خلقه وأمره صادر عن علمه وحكمته فاقامت السموات والأرض وما بينهما
إلا بالعلم ولا بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا بالعلم ولا عبد الله وحده وأثنى عليه
ومجد إلا بالعلم ولا عرف الحلال من الحرام إلا بالعلم ولا عرف فضل الإسلام على غيره
إلا بالعلم. واختلف هنا فى مسألة وهى أن العلم صفة فعلية أو انفعالية فقالت طائفة هو
صفة فعلية لأنه شرط أو جزؤه وسبب فى وجود المفعول فان الفعل الاختيارى يستدعى حياة
الفاعل وعلمه وقدرته وإرادته ولا يتصور وجوده بدون هذه الصفات. وقالت طائفة هو
انفعالى فإنه تابع للمعلوم متعلق به على ما هو عليه فان العالم يدرك المعلوم على ما هو به قادرا
كأنه تابع له فكيف يكون متقدما عليه. والصواب أن العلم قسمان علم فعلى وهو علم الفاعل المختار
بما يريد أن يفعله فإنه موقوف على إرادته الموقوفة على تصوره المراد وعلمه به فهذا علم قبل
الفعل متقدم عليه مؤثر فيه وعلم انفعالى وهو العلم التابع للمعلوم الذى لا تأثير له فيه كعلمنا
بوجود الأنبياء والأمم والملوك وسائر الموجودات فان هذا العلم لا يؤثر فى المعلوم ولا هو
شرط فيه فكل من الطائفتين نظرت جزئيا وحكمت كلياً وهذا موضع يغلط فيه كثير من
الناس وكلا القسمين من العلم صفة كمال وعدمه من أعظم النقص يوضحه. الوجه الحادى
والثمانون أن فضيلة الشئ تعرف بضده فالضد يظهر حسنه الضد وبضدهما تبيين الأشياء
ولا ريب أن الجهل أصل كل فساد وكل ضرر يلحق العبد فى دنياه وأخراه فهو نتيجة

الجهل وإلا فمع العلم التام بأن هذا الطعام مثلاً مسموم من أكله قطع أمعاه في وقت معين لا يقدم على أكله وإن قدر أنه قدم عليه لعلبة جوع أو استعجال وفاة فهو لعله بموافقة أكله لمقصوده الذي هو أحب إليه من العذاب بالجوع أو بغيره . وهنا اختلف في مسألة عظيمة وهي أن العلم هل يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه الهدى إلا لعدم العلم أو نقصه والافصح المعرفة الجازمة لا يتصور الضلال وأنه لا يستلزم الهدى فقد يكون الرجل عالماً وهو ضال على عمد هذا مما اختلف فيه المتكلمون وأرباب السلوك وغيرهم فنالت فرقة من عرف الحق معرفة لا يشك فيها استحالة أن لا يهتدى وحيث ضل فلنقصان علمه واحتجوا من النصوص بقوله تعالى (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) فشهد تعالى لسكل راسخ في العلم بالإيمان . وبقوله تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . وبقوله تعالى (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق) . وبقوله تعالى (شهد الله أنه لا إله الا هو والملائكة وأولو العلم) . وبقوله تعالى (أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) قسم الناس قسمين . أحدهما العلماء بان ما أنزل إليه من ربه هو الحق . والثاني العمى فدل على أنه لا واسطة بينهما . وبقوله تعالى في وصف الكفار (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وبقوله (وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) . وبقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) . وهذه مدارك العلم الثلاث قد فسدت عليهم . وكذلك قوله تعالى (أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) . وقوله (وأضله الله على علم) قال سعيد بن جبير على علمه تعالى فيه . قال الزجاج أى على ما سبق في علمه تعالى أنه ضال قبل أن يخلفه (وختم على سمعه) أى طبع عليه فلم يسمع الهدى (وعلى قلبه) فلم يعقل الهدى (وعلى بصره غشاوة) فلا يبصر أسباب الهدى وهذا في القرآن كثير مما يبين فيه منافاة الضلال للعلم . ومنه قوله تعالى (ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) فلو كانوا علوماً ما قال الرسول لم يسألوا أهل العلم ماذا قال ولما كان مطبوعاً على قلوبهم . وقال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات) . وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً) فهذه شهادة من الله تعالى لأولى العلم بالإيمان به وبكلامه . وقال تعالى عن أهل النار (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) فدل على أن أهل الضلال لا يسمع لهم ولا يعقل وقال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) أخبر تعالى أنه لا

يعقل أمثاله إلا العالمون والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين فهم لا يعقلونها . وقال تعالى (بل اتبع الذين ظلوا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله) . وقال تعالى (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمتنا الله أو تأتينا آية) . وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولو كان الضلال يجمع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالا من الذين يعلمون والنص بخلافه والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار فتارة يصفهم بأنهم لا يعلمون وتارة بأنهم لا يعقلون وتارة بأنهم لا يشعرون وتارة بأنهم لا يفقهون وتارة بأنهم لا يسمعون . والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم وهو سمع القلب لا إدراك الصوت وتارة بأنهم لا يبصرون فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجمعه ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون . كقوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وقوله تعالى (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) . وقوله تعالى (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بلغ قومه من أذاه ذلك المبلغ اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون . وفي الصحيحين عنه من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين فدل على أن الفقه مستلزم لارادة الله الخير في العبد ولا يقال الحديث دل على أن من أراد الله به خيراً ففقه في الدين ولا يدل على أن كل من فقه في الدين فقد أراد به خيراً أو بينهما فرق . ودليلكم إنما يتم بالتقدير الثاني والحديث لا يقتضيه . لآنا نقول النبي صلى الله عليه وسلم جعل الفقه في الدين دليلاً وعلامة على ارادة الله بصاحبه خيراً والدليل يستلزم المدلول ولا يتخلف عنه فإن المدلول لازمه ووجود الملزوم بدون لازمه محال . وفي الترمذي وغيره عنه صلى الله عليه وسلم خصلتان لا يجتمعان في منافق حسن سمع وفقه في الدين فجعل الفقه في الدين منافياً للنفاق بل لم يكن السلف يطلقون اسم الفقه الاعلى العلم الذي يصحبه العمل كما سئل سعد بن إبراهيم عن أفقه أهل المدينة قال أنقاهم وسأل فرقد السنجى الحسن البصرى عن شيء . فأجابه فقال إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن ثكلتك أمك فريقد وهل رأيت بعينيك فقيهاً إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الذى لا يهزم من فوقه . ولا يسخر بمن دونه ولا يبتغى على علم الله تعالى أجراً . وقال بعض السلف إن الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يؤمنهم مكر الله ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى مساواه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه كفى بخشية الله علماً وبالاعتزاز بالله جهلاً . قالوا فهذا القرآن والسنة واطلاق السلف من الصحابة والتابعين يدل على أن العلم والمعرفة مستلزم للهداية وأن عدم الهداية دليل على الجهل وعدم العلم . قالوا ويدل عليه أن الإنسان مادام عقله معه لا يؤثر هلاك

نفسه على نجاتها وعذابها العظيم الدائم على نعميها المقيم والحس شاهد بذلك . ولهذا وصف الله سبحانه أهل معصيته بالجهل في قوله تعالى (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال سفيان الثوري كل من عمل ذنباً من خلق الله فهو جاهل كان جاهلاً أو عالماً أن كان عالماً فمن أجهل منه وإن كان لا يعلم فمثل ذلك . وقوله (ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليهما حكيمًا) . قال قبل الموت . وقال ابن عباس رضى الله عنهما ذنب المؤمن جهل منه . قال قتادة أجمع أصحاب رسول الله ﷺ ان كل شيء عصى الله فيه فهو جهالة . وقال السدي كل من عصى الله فهو جاهل . قالوا ويدل على صحة هذا أن مع كمال العلم لا تصدر المعصية من العبد فانه لو رأى صديقاً يتطلع عليه من كوة لم تتحرك جوارحه لمواقعة الفاحشة فكيف يقع منه حال كمال العلم بنظر الله اليه ورؤيته له وعقابه على الذنب وتحريمه له وسوء عاقبه فلا بد من غفلة القلب على هذا العلم وغيبته عنه حينئذ يكون وقومه في المعصية صادراً عن جهل وغلظة ونسيان مضاد للعلم والذنب مخفوف بجهلين جهل بحقيقة الأسباب الصارفة عنه و جهل بحقيقة المسفدة المترتبة عليه وكل واحد من الجهلين تحته جهالات كثيرة فاعصى الله إلا بالجهل وما أطيع إلا بالعلم فهذا بعض ما احتجت به هذه الطائفة . وقالت الطائفة الأخرى العلم لا يستلزم الهداية وكثيراً ما يكون الضلال عن عمد وعلم لا يشك صاحبه فيه بل يؤثر الضلال والكفر وهو عالم بقبحه ومفسدته . قالوا وهذا شيخ الضلال وداعى الكفر وإمام الفجرة إبليس عدو الله قد علم أمر الله له بالسجود لآدم ولم يشك فيه بخالفه وعاند الأمر وباء بلعنة الله وعذابه الدائم مع علمه بذلك ومعرفة به وأقسم له بعزته أنه يعصى خلقه أجمعين إلا عباده منهم المخلصين فكان غير شاك في الله وفي وحدانيته وفي البعث الآخر وفي الجنة والنار ومع ذلك اختار الخلود في النار واحتمل لعنة الله وغضبه وطرده من سمائه وجنته عن علم بذلك ومعرفة لم يحصل لكثير من الناس . ولهذا (قال رب فأظنني إلى يوم يعثون) وهذا اعتراف منه بالبعث وقرار به وقد علم قسم ربه ليلان جهنم منه ومن اتباعه فكان كفره كفر عناد محض لا كفر جهل . وقال تعالى لإخيارا عن قوم ثمود (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) يعنى بينا لهم وعرفناهم فمرفقوا الحق واتيقتوه وآثروا العمى عليه فكان كفر هؤلاء عن جهل . وقال تعالى حاكياً عن موسى إنه قال لفرعون (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإنى لأظنك يافرعون مشبوراً) أى هالكاً على قراءة من فتح التاء وهى قراءة الجمهور وضمها الكسائى وحده وقراءة الجمهور أحسن وأوضح وأنتم معنى وبها تقوم الدلالة ويتم الإلزام بتحقيق كفر فرعون وعناده ويشهد

لها قوله تعالى لإخبارا عنه وعن قومه (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فأخبر سبحانه أنه أن تكذب عليهم وكفرهم كان عن يقين وهو أقوى العلم ظلما منهم وعلوا لا جهلا وقال تعالى لرسوله (قد نعلم أنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) يعنى أنهم قد عرفوا صدقك وأنتك غير كاذب فيما تقول وليكن عاندوا ووجدوا بالمعرفة قاله ابن عباس رضى الله عنهما والمفسرون . قال قتادة يعلمون أنك رسول ولكن يجحدون . قال تعالى (ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا) . وقال تعالى (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون يا أهل الكتاب لم تنبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) يعنى تكفرون بالقرآن وبمن جاء به وأنتم تشهدون بصحته وبأنه الحق فكفركم كفر عناد ووجود عن علم وشهود لا عن جهل وخفاء . وقال تعالى عن السحرة من اليهود (ولقد علوا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق) أى علوا من أخذ السحر وقبله لا نصيب له فى الآخرة ومع هذا العلم والمعرفة فهم يشترونه ويقبلونه ويتعلمونه . وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ذكر هذه المعرفة عن أهل الكتاب فى القبلة كما فى سورة البقرة وفى التوحيد كقوله فى الأنعام (أنتم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنى برىء مما تشركون الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وفى الكتاب أنه منزل من عند الله لقوله تعالى (والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وقال تعالى (كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين) . قال ابن عباس رضى الله عنهما هم قريظة والنضير ومن دان بدينهم كفروا بالنبي ^{صلى الله عليه وسلم} بعد أن كانوا قبل مبعثه مؤمنين به وشهدوا له بالنبوة وإنما كفروا بغيا وحسدا . قال الزجاج أعلم الله عز وجل أنه لاجبة لهدايتهم لأنهم قد استحقوا أن يضلوا بكفرهم لأنهم كفروا بعد البينات ومعنى كيف يهدى أى أنه لا يهدىهم لأن القوم عرفوا الحق وشهدوا به وتيقنوه وكفروا عمدا فمن أين تأتيتهم الهداية فإن الذى ترجى هدايته من كان ضالا ولا يدري أنه ضال بل يظن أنه على هدى فاذا عرف الهدى اهتدى وأما من عرف الحق وتيقنته وشهد به قلبه ثم اختار الكفر والضلال عليه فكيف يهدى الله مثل هذا . وقال تعالى عن اليهود (فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) . ثم قال (بسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) . قال ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن كفرهم شكاً ولا اشتباهاً ولكن بغيا منهم حيث صارت النبوة فى ولد اسماعيل . ثم قال بعد ذلك (ولما جاءهم رسول

من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون) فلما شبههم في فعلهم هذا بمن لا يعلم دل على أنهم نبذوه عن علم كفعل من لا يعلم تقول إذا خاطبت من عصاك عمداً كأنك لم تعلم ما فعلت أو كأنك لم تعلم بنهي إياك ومنه على أحد القولين . قوله تعالى (فان تولوا فإنا على البلاغ المبين يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون) . قال السدي يعني محمداً صلى الله عليه وسلم واختاره الزجاج . فقال يعرفون أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم حق ثم ينكرون ذلك وأول الآية يشهد لهذا القول . وقال تعالى (وانزل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فثله كمثل السكب) . قالوا فهل بعد هذه الآية بيان فان هذا آناه الله آياته فانسلخ منها وآثر الضلال والفتى وقصته معروفة حتى قيل إنه كان أوتي الاسم الاعظم ومع هذا فلم يتفعه علمه وكان من الغاوين فلو استلزم العلم والمعرفة الهداية لاستلزمه في حق هذا . وقال تعالى (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وهذا يدل على ان قولهم (يهود ماجئتنا ببيئتنا وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين) إما بهت منهم ووجود وإما نفي لآيات الاقتراح والخصم ولا يجب الايمان بها وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق ولهذا قال . (وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) . يعني بيئتنا مضيتة . وهذا كقوله تعالى (وجعلنا آية النهار مبصرة) أى مضيتة وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصراً فهى توجب له البصر فتبصره أى تجعله ذا بصر فهى موضحة مبيئة يقال بصر به إذا رآه كقوله تعالى (فبصرت به عن جنب) . وقوله (بصرت بما لم يبصروا به) وأما أبصره فله معنيان . أحدهما جعله باصراً بالشيء . أى ذا بصر به كآية النهار وآية ثمود والثاني بمعنى رآه كقولك أبصرت زيداً وفى حديث أبي شريح العدوى أحدك قولاً قال به رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح فسمعتة أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناي حين تسكلم به . ومنه قوله تعالى (فتول عنهم حتى حين وأبصرهم فسوف يبصرون) قيل المعنى أبصرهم وما يقضى عليهم من الأسر والقتل والعذاب فى الآخرة فسوف يبصرونك وما يقضى لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة والمراد تقريب المبصر من المخاطب حتى كأنه نصب عينيه ورأى ناظره ، والمقصود ان الآية أوجبت لهم البصيرة فأثروا الضلال والكفر عن علم ويقين ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم فى سورة والشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلى الزكية الراشدة المهتدية وإلى الفاجرة الضالة الغاوية وذكر فيها الاصلين القدر والشرع ، فقال (فالهما لجورها

وتقواها) فهذا قدره وقضاؤه ثم قال (قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) فهذا أمره
ودينه وشمود هدهم فاستحبوا العمى على الهدى . فذكر قصتهم ليعين سوء عاقبة من آثر الفجور
على التقوى والتدسية على التزكية والله أعلم بما أراد ، قالوا ويكفي في هذا اخباره تعالى عن
الكفار أنهم يقولون بعد ما عابوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل
(باليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين بل بدا لهم ما كانوا يخفون من
قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون) فأى علم أبين من علم من ورد القيامة
ورأى ما فيها وذاق عذاب الآخرة ثم لو ورد الى الدنيا لاختار الضلال على الهدى ولم ينفعه
ما قد عاينه ورآه . وقال تعالى (ولو اننا نزلنا لإلهم الملائكة وكلهم الموتى وحشرنا عليهم
كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) فهل بعد نزول
الملائكة عيانا وتكليم الموتى لهم وشهادتهم الرسول بالصدق وحشر كل شيء في الدنيا عليهم
من بيان وإيضاح للحق وهدى ومع هذا فلا يؤمنون ولا يتقادون للحق ولا يصدقون الرسول
ومن نظر في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه ومع اليهود علم أنهم كانوا جازمين
بصدقه صلى الله عليه وسلم لا يشكون أنه صادق في قوله أنه رسول الله ولكن اختاروا الضلال والكفر
على الإيمان . قال المسور بن مخرمة رضى الله عنه لأبى جهل وكان خاله أى خال هل كنتم
تهمون محمداً بالكذب قبل أن يقول مقالته التى قالها قال أبو جهل لعنه الله تعالى يا ابن أخى
والله لقد كان محمد فينا وهو شاب يدعى الامين ماجرنا عليه كذباً فقط فلما وخطه الشيب
لم يكن ليكذب على الله قال ياخال فلم لا تتبعونه قال يا ابن أخى تنازعنا نحن وبنو هاشم
الشرف فاطعموا وأطعمنا وسقوا وسقينا وأجاروا وأجرنا فلما تجاثبنا على الركب وكنا
كفرسى رهان قالوا منا نبى فمتى ندرك هذه وهذا أمية بن أبى الصلت كان ينتظره يوماً بيوم
وعليه عنده قبل مبعثه . وقصته مع أبى سفیان لما سافرا معا معروفة واخباره برسول الله
صلى الله عليه وسلم ثم لما تيقنه وعرف صدقه قال لا أومن بنبى من غير ثقيف أبداً وهذا هرقل تيقن أنه رسول
الله صلى الله عليه وسلم ولم يشك فيه وآثر الضلال والكفر استبقاء ملكه . ولما سأله اليهود عن التسع آيات
البنات فآخبرهم بها قبلوا يده وقالوا نشهد أنك نبى قال فما يمنعكم أن تتبعونى قالوا إن داود
عليه السلام دعا أن لا يزال فى ذريته نبى وإنما نخشى إن اتبعناك أن تقتلنا يهود فهؤلاء قد
تحققوا نبوته وشهدوا له بها ومع هذا فآثروا الكفر والضلال ولم يصيروا مسلمين بهذه
الشهادة فقليل لا يصير الكافر مسلماً بمجرد شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
يشهد لله بالوحدانية وقيل يصير بذلك مسلماً وقيل إن كان كفره بتكذيب الرسول كاليهود
صار مسلماً بذلك وإن كان كفره بالشرك مع ذلك لم يصير مسلماً إلا بالشهادة بالتوحيد

كالنصارى والمشركون ، وهذه الأقوال الثلاثة في مذهب الإمام أحمد وغيره وعلى هذا فما لم يحكم لهؤلاء اليهود الذين شهدوا له بالرسالة بحكم الإسلام لأن مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلتزم طاعته ومتابعته والافلو قال انا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدین بدينه كان من أكفر الكفار كحال هؤلاء المذكورين وغيرهم وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الايمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرد ولا معرفة القلب مع ذلك بل لابد فيه من عمل القلب وهو وجهه لله ورسوله وانقياده لدينه والتزامه طاعته ومتابعة رسوله وهذا خلاف من زعم أن الايمان هو مجرد معرفة القلب واقراءه وفيما تقدم كفاية في إبطال هذه المقالة ومن قال أن الايمان هو مجرد اعتقاد صدق الرسول فيما جاء به وإن لم يلتزم متابعته وعاداه وأبغضه وقاتله لزمه أن يكون هؤلاء كلهم مؤمنين وهذا إلزام لا يحيد عنه ولهذا اضطرب هؤلاء في الجواب عن ذلك لما ورد عليهم وأجابوا بما يستحي العاقل من قوله كقول بعضهم إن إبليس كان مستهزئاً ولم يكن يقهر بوجود الله ولا بأن الله ربه وخالفه ولم يكن يعرف ذلك وكذلك فرعون وقومه لم يكونوا يعرفون صحة نبوة موسى ولا يعتقدون وجود الصانع وهذه فضائح نعوذ بالله من الوقوع في أمثالها ونصرة المقالات وتقليد أربابها تحمل على أكثر من هذا ونعوذ بالله من الخذلان . قالوا وقد بين القرآن أن الكفر أقسام : أحدها كفر صادر عن جهل وضلال وتقليد الأسلاف وهو كفر أكثر الاتباع والعوام . الثاني كفر جحود وعناد وقصد مخالفة الحق ككفر من تقدم ذكره وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار أو رياسة سلطانية أو من له ما كل وأموال في قومه فيخاف هذا على رياسته وهذا على ماله . وما كله فيؤثر الكفر على الايمان عمداً . الثالث كفر لإعراض محض لا ينظر فيما جاء به الرسول ولا يحبه ولا يبغضه ولا يواليه ولا يعاديه بل هو معرض عن متابعته ومعاداته وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونها ولا يثبتون من الكفر إلا الأول ويجعلون الثاني والثالث كفراً لدلانه على الاول لأنه في ذاته كفر فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل . ومن تأمل القرآن والسنة وسير الانبياء في أهمهم ودعوتهم لهم وما جرى لهم معهم جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه وعلم أن عامة كفر الامم عن تيقن وعلم ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم وما جاؤا به وهذا القرآن يملؤ من الأخبار عن المشركين عباد الأصنام أنهم كانوا يقرون بالله وأنه هو وحده ربهم وخالقهم وأن الأرض وما فيها له وحده وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم وأنه بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر وأنزل المطر وأخرج النبات والقرآن مناد عليهم بذلك محتج بما أقروا به من ذلك على صحة مادعتهم إليه رسله

فكيف يقال إن القوم لم يكونوا مقرين قط بأن لهم رباً وخالفوا وهذا بهتان عظيم بالكفر أمر وراء مجرد الجهل بل الكفر الاغظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر . قالوا والقلب عليه واجبان لا يصيره مؤمناً لإيهما جميعاً واجب المعرفة والعلم وواجب الحب والانقياد والاستسلام فكما لا يكون مؤمناً إذا لم يأت بواجب الحب والانقياد والاستسلام بل إذا ترك هذا الواجب مع علمه ومعرفته به كان أعظم كفراً وأبعد عن الإيمان من الكافر جهلاً فإن الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع وأما المعاند فلا دواء فيه . قال تعالى (كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدى القوم الظالمين) ، قالوا تحب الله ورسوله بل كون الله ورسوله أحب إلى العبد من سواهما لا يكون العبد مسلماً إلا به ولا ريب أن الحب أمر وراء العلم فما كل من عرف الرسول أحبه كما تقدم قالوا وهذا الحاسد يحمله بفض المحسود على معاداته والسعى في أذاه بكل ممكن مع علمه بفضله وعلمه وأنه لا شيء فيه يوجب عداوته إلا محاسنه وفضائله . ولهذا قيل الحاسد عدو للنعم والمكرم فالحاسد لم يحمله على معاداة المحسود جهله بفضله وكاله وإنما يحمله على ذلك لإفساد قصده وإرادته كما هي حال الرسل وورثتهم مع الرؤساء الذين سلبهم الرسل ووارثوهم رئاستهم الباطلة فعادوهم وصدوا النفوس عن متابعتهم ظناً أن الرياسة تبقى لهم وينفردون بها وستة الله في هؤلاء أن يسلبهم رياسة الدنيا والآخرة ويصغرهم في عيون الخلق مقابلة لهم بنقيض قصدهم (وما ربك بظلام للعبيد) فهذا موارد احتجاج الفريقين وموقف أقسام الطائفتين فاجلس أيها المنصف منهما مجلس الحكومة وتوخ بعلمك وعدلك فصل هذه الخصومة فقد ادلى كل منهما بحجج لا تعارض ولا تمنع وجاء بينات لا ترد ولا تدافع فهل عندك شيء غير هذا يحصل به فصل الخطاب وينكشف به لطالب الحق وجه الصواب فيرضى الطائفتين ويزول به الاختلاف من البين والإلغى المطى وحاديها واعط النفوس باريها :

دع الهوى لأناس يعرفون به قد كابدوا الحب حتى لان أصعبه

ومن عرف قدره وعرف لذى الفضل فضله فقد قرع باب التوفيق والله الفتح العليم فنقول وبالله التوفيق .

كلا الطائفتين ما خرجت عن موجب العلم ولا عدلت عن سنن الحق وإنما الاختلاف والثباين بينهما من عدم التوارد على محل واحد ومن اطلاق ألفاظ بحجة بتفصيل معانها يزول الاختلاف ويظهر أن كل طائفة موافقة الأخرى على نفس قولها . ويبان هذا أن مقتضى قسمان

مقتض لا يتخلف عنه موجه ومقتضاه لقصوره في نفسه بل يستلزم استلزام العلة الشامة لمعلولها ومقتض غير تام يتخلف عنه مقتضاه لقصوره في نفسه عن التمام أو اقوات شرط اقتضائه أو قيام مانع منع تأثيره فان أريد بكون العلم مقتضياً للاهتداء والاقتضاء التام الذي لا يتخلف عنه أثره بل يلزمه الاهتداء بالفعل . فالصواب قول الطائفة الثانية وإنه لا يلزم من العلم حصول الاهتداء المطلوب وإن أريد بكونه موجباً أنه صالح للاهتداء مقتض له وقد يتخلف عنه مقتضاه لقصوره أو قوات شرط أو قيام مانع . فالصواب قول الطائفة الأولى وتفصيل هذه الجملة أن العلم بكون الشيء سبباً لمصلحة العبد ولذاته وسروره قد يتخلف عنه عمله بمقتضاه لأسباب عديدة . السبب الأول ضعف معرفته بذلك . السبب الثاني عدم الأهلية وقد تكون معرفته به تامة لكن يكون مشروطاً بزكاة المحل وقبوله للتزكية فاذا كان المحل غير زكي ولا قابل للتزكية كان كالارض الصلدة التي لا يخالطها الماء فانه يمنع النبات منها لعدم أهليتها وقبولها فاذا كان القلب قاسياً حجرياً لا يقبل تزكية ولا تؤثر فيه النصائح لم ينتفع بكل علم يعلمه كما لا تنبت الارض الصلبة ولو أصابها كل مطر وبذر فيها كل بذر كما قال تعالى في هذا الصنف من الناس (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى رءوا العذاب الأليم) وقال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) وقال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تنفي الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) وهذا في القرآن كثير فاذا كان القلب قاسياً غليظاً جافياً لا يعمل فيه العلم شيئاً وكذلك إذا كان مريضاً مريضاً مائياً لا صلابة فيه ولا قوة ولا عزيمة لم يؤثر فيه العلم . السبب الثالث قيام مانع وهو إما حسد أو كبر وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر وهو داء الأولين والآخرين إلا من عصم الله وبه تخلف الإيمان عن اليهود الذين شاهدوا رسول الله ﷺ وعرفوا صحة نبوته ومن جرى مجراه وهو الذي منع عبد الله بن أبي من الإيمان وبه تخلف الإيمان عن أبي جهل وسائر المشركين فانهم لم يكونوا يرتابون في صدقه وأن الحق معه لكن حملهم الكبر والحسد على الكفر وبه تخلف الإيمان عن أمية وأضرابه ممن كان عنده علم بنبوة محمد ﷺ . السبب الرابع مانع الرياسة والملك وان لم يقيم بصاحبه حسد ولا تكبر عن الانقياد للحق لكن لا يمكنه أن يجتمع له الانقياد وملكه ورياسته فيضن بملكه ورياسته كحال هرقل وأضرابه من ملوك الكفار الذين علوا نبوته وصدقته وأقروا بها باطناً وأحبوا الدخول في دينه لكن خافوا على ملكهم وهذا داء أرباب الملك والولاية والرياسة وقل من نجا منه إلا من عصم الله وهو داء فرعون وقومه . ولهذا قالوا (أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون) أنقوا أن يؤمنوا ويتبعوا

موسى وهرون وينقادوا لهما وبنو إسرائيل عبيد لهم . ولهذا قيل إن فرعون لما أراد متابعة موسى وتصديقه شاور هامان وزيره فقال بينا أنت إله تعبد تصير عبداً تعبد غيرك فأبى العبودية واختار الرياسة والإلهية المحال . السبب الخامس مانع الشهوة والمال وهو الذى منع كثيراً من أهل الكتاب من الإيمان خوفاً من بطلان ما كلهم وأموالهم التى تصير لإيهم من قومهم وقد كانت كفار قریش يصدون الرجل عن الإيمان بحسب شهوته فيدخلون عليه منها فكانوا يقولون لمن يجب الزنا إن محمداً يحرم الزنا ويحرم الخمر وبه صدوا الأعمى الشاعر عن الإسلام وقد فاوضت غير واحد من أهل الكتاب فى الإسلام وصحته فكان آخر ما كلمنى به أحدهم أنا لا أترك الخمر وأشربها أمنأً فإذا أسلمت حلتهم بينى وبينها وجلدتهمونى على شربها . وقال آخر منهم بعد أن عرف ماقلت له لى أقارب أرباب أموالهمونى إن أسلمت لم يصل إلى منها شيء وأنا أؤمل أن أرتهم أو كما قال . ولا ريب أن هذا القدر فى نفوس خلق كثير من الكفار فتتفق قوة داعى الشهوة والمال وضعف داعى الإيمان فيجيب داعى الشهوة والمال ويقول لا أرغب بنفسى عن آبائى وسلفى . السبب السادس محبة الأهل والأقارب والعشيرة يرى أنه إذا اتبع الحق وخالفهم أبعده وطردوه عنهم وأخرجوه من بين أظهرهم . وهذا سبب بقاء خلق كثير على الكفر بين قومهم وأهاليهم وعشائرهم . السبب السابع محبة الدار والوطن وان لم يكن له بعشيرة ولا أقارب سكن يرى أن فى متابعة الرسول خروجه عن داره ووطنه إلى دار الغربة والنوى فيضن بوطنه . السبب الثامن تخيل أن فى الإسلام ومتابعة الرسول لإزراء وطعناً منه على آبائه وأجداده وذمأ لهم وهذا هو الذى منع أبا طالب وأمثاله عن الاسلام استعظموا آباءهم وأجدادهم أن يشهدوا عليهم بالكفر والضلال وأن يختاروا خلاف ما اختار أولئك لأنفسهم ورأوا أنهم إن أسلموا سفهوا أحلام أولئك وضللوا عقولهم ورموهم بأقبح القبائح وهو الكفر والشرك . ولهذا قال أعداء الله لأبى طالب عند الموت أترغب عن ملة عبد المطلب فكان آخر ما كلمهم به هو على ملة عبد المطلب فلم يدعه أعداء الله إلا من هذا الباب لعلهم بتعظيمه آباء عبد المطلب وأنه إنما حاز الفخر والشرف به فكيف يأتى أمراً يلزم منه غاية تنقيته وذمه . ولهذا قال لولا أن تكون مسبة على بنى عبد المطلب لا قررت بها عينك أو كما قال . وهذا شعره يصرح فيه بأنه قد علم وتحقق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدقه كقوله :

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية ديناً
لولا الملامة أو حذار مسبة لوجدتني سمحاً بذلك مبيناً

(وفي قصيدته اللامية)

فو الله لولا أن تكون مسبة تجر على أشياخنا في المحافل
لكننا اتبعناه على كل حاله من الدهر جداً غير قول النهازل
لقد علموا أن ابتئالا مكذب لدينا ولا يعنى بقول إلا باطل

والمسبة التي زعم أنها تجر على أشياخه شهادته عليهم بالكفر والضلال وتسفيه الأحلام
وتضليل العقول فهذا هو الذي منعه من الإسلام بعد تيقنه . السبب التاسع متابعة من
يعاديه من الناس للرسول وسبقه إلى الدخول في دينه وتخصسه وقربه منه وهذا القدر منع
كثيرا من اتباع الهدى يكون للرجل عدو ويغض مكانه ولا يحب أرضاً يمشى عليها ويقصد
مخالفته ومناقضته فيراه قد أتبع الحق فيحمله قصد مناقضته ومعاداته على معاداة الحق
وأهله وإن كان لا عداوة بينه وبينهم وهذا كما جرى للهود مع الأنصار فانهم كانوا أعدائهم
وكانوا يتواعدونهم بخروج النبي صلى الله عليه وسلم وأنهم يتبعونه ويقالونهم معه فلما
بدرهم إليه الإنصار وأسلبوا حملهم معاداتهم على البقاء على كفرهم ويهوديتهم . السبب
العاشر مانع الألف والعادة والمنشأ فان العادة قد تقوى حتى تغلب حكم الطبيعة ولهذا قيل
هي طبيعة ثانية فيربي الرجل على المقالة وينشأ عليها صغيرا فيترى قلبه ونفسه عليها كما يترى
لحمه وعظمه على الغذاء المعتاد ولا يمقل نفسه إلا عليها ثم يأتيه العلم وهلة واحدة يريد
إزالتها وإخراجها من قلبه وأن يسكن موضعها فيعسر عليه الانتقال ويصعب عليه الزوال
وهذا السبب وإن كان أضغف الأسباب معنى فهو أغلبها على الأمم وأرباب المقالات والنحل
ليس مع أكثرهم بل جميعهم إلا ما عسى أن يشذوا إعادة ومربي تربي عليه طفلا لا يعرف
غيرها ولا يحسن به فدين العوايد هو الغالب على أكثر الناس فالانتقال عنه كالاتقال
عن الطبيعة إلى طبيعة ثانية فصلوات الله وسلامه على أنبيائه ورسله خصوصا على خاتمهم
وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم كيف غيروا عوائد الأمم الباطلة وتقلوهم إلى الإيمان
حتى استحدثوا به طبيعة ثانية خرجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدة ولا يعلم مشقة هذا
على النفوس إلا من زاول نقل رجل واحد عن دينه ومقاتته إلى الحق فجزي الله المرسلين
أفضل ما جزي به أحدا من العالمين إذا عرف أن المقتضى نوعان فالهدى المقتضى وحده
لا يوجب الاهتداء والهدى التام يوجب الاهتداء . فالاول هدى البيان والدلالة والتعليم ولهذا
يقال هدى فما اهتدى . والثاني هدى البيان والدلالة مع إعطاء التوفيق وخلق الإرادة فهذا
الهدى الذي يستلزم الاهتداء ولا يتخلف عنه موجبه فتى وجد السبب وانتفت الموانع لزم
وجود حكمه . وههنا دقيقة بها يتفصل النزاع وهي أنه هل ينعطف من قيام المانع وعدم الشرط

على المقتضى أمر يضعفه في نفسه ويسلبه اقتضاه وقوته أو الاقتضاء بحاله وانما غلب المانع فكان التأثير له . ومثال ذلك في مسئلتنا أنه بوجود هذه الموانع المذكورة أو بعضها هل يضعف العلم حتى لا يبين مؤثراً البتة أو العلم بحاله ولكن المانع بقوته غلب فكان الحكم له . هذا سر المسألة وفقهها فأما الأول فلا شك فيه ولكن الشأن في القسم الثاني وهو بقاء العلم بحاله والتحقيق أن الموانع تحجبه وتعميه وربما قلبت حقيقته من القلب والقرآن قد دل على هذا . قال تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين) فعاقبهم سبحانه بازاغة قلوبهم عن الحق لما زاغوا عنه ابتداء . ونظيره قوله تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ولهذا قيل من عرض عليه حق فرده فلم يقبله عوقب بفساد قلبه وعقله ورأيه . ومن هنا قيل لا رأى لصاحب هوى فان هواه يحمله على رد الحق فيغسد الله عليه رأيه وعقله . قال تعالى (فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف) أخبر سبحانه أن كفرهم بالحق بعد أن علوه كان سبباً لطبع الله على قلوبهم (بل طبع الله عليها بكفرهم) حتى صارت غائفاً والغلف جمع أغلف وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه وكل شيء في غلافه فهو أغلف وجمعه غلف يقال سيف أغلف وقوس غافاء ورجل أغلف وأقلف إذا لم يفتح ، والمعنى قلوبنا عليها غشاوة وغطاء فلا نفقه ما نقول يا محمد صلى الله عليه وسلم ولم تع شيئاً من قال أن المعنى أنها غلف للعلم والحكمة أي أوعية لها فلا يحتاج إلى قولك ولا تقبله استغناء بما عندهم لوجود: أحدها أن غلف جمع أغلف كقلف وأقلف وحر وأحمر وجرود وأجرد وغلب وأغلب ونظائره والأغلف من القلوب هو الداخل في الغلاف هذا هو المعروف من اللغة الثاني أنه ليس من الاستعمال السائغ المشهور أن يقال قلب فلان غلاف لكننا وهذا لا يكاد يوجد في شيء من نثر كلامهم ولا نظمه ولا نظيره في القرآن فيحمل عليه ولا هو من التشبيه البديع المستحسن فلا يجوز حمل الآية عليه. الثالث أن نظير قول هؤلاء قول الآخرين من الكفار. قلوبنا في أكنة مما ندعونا إليه والأكنة هنا هي الغلف التي قلوب هؤلاء فيها والأكنة كالأوعية والأغطية التي تغطي المتاع ومنه الكناية اغلاف السهام الرابع أن سياق الآية لا يحسن مع المعنى الذي ذكره ولا يحسن مقابلته بقوله (بل طبع الله عليها بكفرهم) وانما يحسن مع هذا المعنى أن يسلب عنهم العلم والحكمة التي ادعوا كما قيل لهم لما ادعوا ذلك (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) . وأما هنا فلما ادعوا أن قلوبهم في أغطية وأغشية لا نفقه قوله قوبلوا بأن عرفهم أن كفرهم ونقضهم ميثاقهم وقتلهم الانبياء كان سبباً

لأن طبع على قلوبهم . ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست وربما ذهب أثرها حتى يصير السبب الذي يهتدى به المهتدون سبباً لضلال هذا كما قال تعالى . (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين يتقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) فآخبر تعالى أن القرآن سبب لضلال هذا الصنف من الناس وهو هداة الذي هدى به رسوله وعباده المؤمنين ولهذا أخبر سبحانه أنه إنما يهتدى به من اتبع رضوان الله . قال تعالى (وهذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون) ولا شيء أعظم فساداً لمحل العلم من ضرورته بحيث يضل بما يهتدى به فنسبته إلى الهدى والعلم نسبة الفهم الذي قد استحسنت فيه المرارة إلى الماء العذب كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض * يجد مرابه الماء الزلالا

وإذا فسد القلب فسد إدراكه وإذا فسد الفهم فسد إدراكه وكذلك إذا فسدت العين وأهل المعرفة من الصيارفة يقولون إن من خاف في نفسه نسي النقد وسلبه فاشتبه عليه الخالص بالزغل . ومن كلام بعض السلف يهتف العلم بالعمل فإن أجابه حل والارتمحل . وقال بعض السلف كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به فترك العمل بالعلم من أقوى الأسباب في ذهابه ونسيانه . وأيضاً فإن العلم يراد للعمل فإنه بمنزلة الدليل للسائر فإذا لم يسر خلف الدليل لم ينتفع بدلالته فنزل منزلة من لم يعلم شيئاً لأن من علم ولم يعمل بمنزلة الجاهل الذي لا يعلم كما أن من ملك ذهباً وفضة وجاع وعرى ولم يشتر منها ما يأكل ويلبس فهو بمنزلة الفقير العادم كما قيل :

ومن ترك الإنفاق عند احتياجه مخافة فقر فالذي فعل الفقر (١)

والعرب تسمى الفحش والبذاء جهلاً أما لكونه ثمرة الجهل فيسمى باسم سيبه وموجبه وأما لأن الجهل يقال في جانب العلم والعمل قال الشاعر :

ألا لا يجهن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومن هذا قول موسى لقومه وقد قالوا (اتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) فجعل الاستهزاء بالمؤمنين جهلاً . ومنه قوله تعالى حكاية عن يوسف أنه قال (وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين) . ومن هذا قوله تعالى (خذ العفو وأمر

(١) هكذا في الأصل والصواب :

ومن يتفق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ليس المراد إعراضه عن لا علم عنده فلا يعلمه ولا يرشده وإنما المراد إعراضه عن جهل من جهل عليه فلا يقابله ولا يعاتبه . قال مقاتل وعروة والضحاك وغيرهم من نفسك عن مقابلتهم على سفههم وهذا كثير في كلامهم ومنه الحديث إذا كان صوم أحدكم فلا يصبخ ولا يجمل ومن هذا تسمية المعصية جهلاً . قال قتادة أجمع أصحاب محمد أن كل من عصى الله فهو جاهل وليس المراد أنه جاهل بالتحريم إذ لو كان جاهلاً لم يكن عاصياً فلا يترتب الحد في الدنيا والعقوبة في الآخرة على جاهل بالتحريم بل نفس الذنب يسمى جهلاً وإن علم مرتكبه بتحريمه إما أنه لا يبصر إلا عن ضعف العلم ونقصانه وذلك جهل فسمى باسم سببه وإما تنزيلاً لفاعله منزلة الجاهل به . الثاني أنهم لما ردوا الحق ورجعوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم كما قال تعالى عن المنافقين (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) . الثالث أن العلم الذي ينتفع به ويستلزم النجاة والفلاح لم يكن حاصلًا لهم فسلب عنهم حقيقته والشئ قد ينتفي لنفي ثمرته والمراد منه . قال تعالى في ساكن النار (فإن له نار جهنم لا يموت فيها ولا يحيى) نفي الحياة لانقضاء فائدتها والمراد منها ويقولون لا مال إلا ما أنفق ولا علم إلا ما نفع . ولهذا نفي عنه سبحانه عن الكفار الأسماع والأبصار والعقول للملم ينتقموا بها . وقال تعالى وجعلناهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله) وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها) ولما لم يحصل لهم الهدى المطلوب بهذه الخواص كانوا بمنزلة فاقديها . قال تعالى (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) فالقلب يوصف بالبصر والعمى والسمع والصمم والنطق واليبس بل هذه له أصلاً وللعين والاذن واللسان تبعاً فإذا عدها القلب فصاحبه أعمى مفتوح العين أصم ولا آفة باذنه أبكم وإن كان فصيح اللسان . قال تعالى (فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) فلا تنافي بين قيام الحجية بالعلم وبين سلبه ونفيه بالطبع والحتم والقفل على قلوب من لا يعمل بموجب الحجية وينقاد لها . قال تعالى (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً) فآخبر سبحانه أنه منعهم فقه كلامه وهو الإدراك الذي ينتفع به من فقهه ولم يكن ذلك مانعاً لهم من الإدراك الذي تقوم به الحجية عليهم فانهم لو لم يفهموه جملة ما ولوا على أدبارهم نفوراً عند ذكر توحيد الله فلما ولوا عند ذكر التوحيد دل على أنهم كانوا يفهمون الخطاب وأن الذي غشى قلوبهم كالذي غشى آذانهم . ومعلوم أنهم لم يعدوا السمع جملة ويصيروا كالأعمى . ولذلك

ينفي سبحانه عنهم السمع تارة ويثبته أخرى قال الله تعالى (ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم)
ومعلوم أنهم قد سمعوا القرآن وأمر الرسول باسماعهم إياه . وقال تعالى (وقالوا لو كنا نسمع
أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) فهذا السمع المنفي عنهم سمع الفهم والفقه والمعنى ولو علم
الله فيهم خيراً لآسمعهم سما ينتفعون به وهو فقهه المعنى وعقله والا فقد سمعوه سمعاً تقوم به
عليهم الحجة ولكن لما سمعوه مع شدة بغضه وكرهته ونفرتهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوه
والرجل إذا اشتدت كراهته للكلام ونفرت عنه لم يفهم ما يراد به فينزل منزلة من لم يسمعه .
قال تعالى (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) نفي عنهم استطاعة السمع مع
صحة حواسهم وسلامتهم وإنما لفرط بغضهم ونفرتهم عنه وعن كلامه صاروا بمنزلة من لا يستطيع
أن يسمعه ولا يراه وهذا استعمال معروف للخاصة والعامه يقولون لا أطيق أنظر إلى فلان
ولا أستطيع أن أسمع كلامه من بغضه ونفرت عنه وبعض الجبرية يحتاج هذه الآية وشهها على
منهمم ولا دلالة فيها إذ ليس المراد سلبهم السمع والبصر الذي تقوم به الحجة قطعاً وإنما المراد سلب
السمع الذي يرتب عليه فائدته وثمرته والقدر حق ولكن الواجب تنزيل القرآن منازلته ووضع
الآيات مواضعها واتباع الحق حيث كان ومثل هذا إذا لم يحصل له فهم الخطاب لا يعذر بذلك
لأن الآفة منه وهو بمنزلة من سد أذنيه عند الخطاب فلم يسمعه فلا يكون ذلك عذراً له . ومن
هذا (قولهم قلوبنا في أكنة بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) يعنون
أنهم في ترك القبول منه ومعية الاسماع لما جاء به وإيثار الأعراض عنه وشدة النفار عنه بمنزلة
من لا يعقله ولا يسمعه ولا يبصر المخاطب لهم به فهذا هو الذي يقولون لا خلود في النار
(ولو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير) ولهذا جعل ذلك مقهوراً لهم وذنباً
اكتسبوه . فقال تعالى (فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير) والله تعالى ينفي تارة
عن هؤلاء العقل والسمع والبصر فإنها مدارك العلم وأسباب حصوله وتارة ينفي عنهم
السمع والعقل وتارة ينفي عنهم السمع والبصر وتارة ينفي عنهم العقل والبصر وتارة ينفي عنهم
وحده فنفي الثلاثة نفي لمدارك العلم بطريق المطابقة ونفي بعضها نفي له بالمطابقة والآخر باللزوم
فان القلب إذا فسد فسد السمع والبصر بل أصل فسادهما من فساده وإذا فسد السمع والبصر
فسد القلب فإذا أعرض عن سماع الحق وأبغض قائله بحيث لا يجب رؤيته امتنع وصول الهدى
إلى القلب ففسد وإذا فسد السمع والعقل تبعهما فساد البصر فكل مدرك من هذه يصح بصحة
الآخر ويفسد بفساده . فهذا يحىء في القرآن نفي ذلك صريحاً ولزوماً . وبهذا التفصيل يعلم
اتفاق الأدلة من الجانبيين وفي استدلال الطائفة الثانية بقوله (الذين آتيناهم الكتاب)
يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ونظائرهما نظر فان الله تعالى حيث قال (الذين آتيناهم الكتاب) لم
يكونوا إلا مدوحين مؤمنين وإذا أراد ذمهم والاختبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ

الذين أتوا الكتاب مبيحاً للفعول . فالأول كقوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) الآيات . وكقوله تعالى (أغير الله أبغى حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممتريين) فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والاحبار بعنادهم ووجودهم كما استشهدهم في قوله تعالى (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) وفي قوله (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) . وقال تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) . واختاف في الضمير في يتلونه حق تلاوته فمبطل هو ضمير الكتاب الذي أتوه قال ابن مسعود يملون حلاله ويحرمون حرامه ويقرؤنه كما أنزل ولا يحرفونه عن مواضعه قالوا وأنزلت في مؤمنى أهل الكتاب وقيل هذا وصف للمسلمين والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن وهذا بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى (الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) بل هذا حجة لنا أيضاً لما ذكرنا فانه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله صلى الله عليه وسلم ودينه وقبلته كما يعرفون أبناءهم استشهاداً بهم على من كفر وثاء عليهم ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم فدل على أن الأولين غير مذمومين وكوّنهم دخلوا في جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال آتيناكم الكتاب عند الاطلاق فانهم دخلوا في هذا اللفظ ضمناً وتبعاً فلا يلزم تناوله لهم قصداً واختياراً . وقال تعالى في سورة الأنعام (قل أتنتكّم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) قيل الرسول وصدقه وقيل المذكور هو التوحيد والقولان متلازمان إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين لاني معرض ذم الذين آتاهم الكتاب فان السورة مكية والحجاج كان فيها مع أهل الشرك والسياق يدل على الاحتجاج لاذم المذكورين من أهل الكتاب . وأما الثاني فكقوله (وأن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك) فهذا شهادته سبحانه للذين أتوا الكتاب . والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون . وقال تعالى (يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً وفردها على ادبارها) وقال تعالى (وقل للذين أتوا الكتاب والأمينين أسلمتم) وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم وإلا فلم يؤمر صلى الله عليه وسلم

أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أتوا نصيباً من الكتاب إلا بالذم أيضاً كقوله (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت) الآية . وقال تعالى (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) . وقال (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فالأقسام أربعة الذين آتيناها الكتاب وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح والذين أتوا نصيباً من الكتاب لا يكون أظ إلا في معرض الذم والذين أتوا الكتاب أعم منه فانه قد يتناولهما ولكن لا يفرد به الممدوحون قط وبأهل الكتاب يعم الجنس كله ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون يؤمنون بالله واليوم الآخر) الآية . وقال في الذم (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين) وهذا الفصل ينتفع به جدا في أكبر مسائل أصول الإسلام وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه وقد ذكرنا فيه نكتاً حسناً يتضح بها الحق في المسألة والله أعلم . الوجه الثاني والثمانون أن الله سبحانه فاوت بين النوع الإنساني أعظم تفاوت يكون بين المخلوقين فلا يعرف اثنان من نوع واحد بينهما من التفاوت ما بين خير البشر وشرهم والله سبحانه خلق الملائكة عقولا بلا شهوات وخلق الحيوانات ذوات شهوات بلا عقول وخلق الإنسان مركباً من عقل وشهوة فمن غلب عقله شهوته كان خيراً من الملائكة ومن غلبت شهوته عقله كان شراً من الحيوانات وفاوت سبحانه بينهم في العلم فجعل عالمهم معلم الملائكة ، كما قال تعالى (يا آدم ألبسهم بأسمائهم) وتلك مرتبة لا رتبة فوقها وجعل جاهلهم بحيث لا يرضى الشيطان به ولا يصلح له كما قال الشيطان لجاهلهم الذي أطاعه في الكفر إني بريء منك وقال لجاهلهم الذين عصوا رسوله إني بريء منكم فله ما أشد هذا التفاوت بين شخصين أحدهما تسجد له الملائكة ويعلمها بما الله علمه والآخر لا يرضى الشيطان به وليا وهذا التفاوت العظيم إنما حصل بالعلم وثمرته ولو لم يكن في العلم إلا القرب مزرب العالمين والاتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملائكة الأعلى لكفى به فضلاً وشرافاً فكيف وعز الدنيا والآخرة منوط به ومشروط بحصوله . الوجه الثالث والثمانون أن أشرف ما في الإنسان محل العلم منه وهو قلبه وسمعه وبصره . ولما كان القلب هو محل العلم والسمع رسوله الذي يأتيه به والعين طليعته كان ملكاً على سائر الأعضاء يأمرها فتأتمر لأمره ويصرفها فتتقاد له طائعة بما خص به من العلم دونها فلذلك كان ملكها والمطاع فيها وهكذا العالم في الناس كالقلب في الأعضاء . ولما كان صلاح الأعضاء بصلاح ملكها ومطاعها وفسادها بفسادها كانت هذه حال الناس مع علماتهم

وملوكم كما قال بعض السلف صنفان إذا صلحا صلح سائر الناس وإذا فسدا فسد سائر الناس العلماء والأمراء . قال عبد الله بن المبارك :

وهل أفسد الدين الا الملو ك وأجبار سوء ورهبانها

ولما كان للسمع والبصر من الادراك مالميس لغيرهما من الاعضاء كانا في أشرف جزء من الإنسان وهو وجهه وكانا من أفضل ما في الإنسان من الأجزاء والأعضاء والمنافع . واختلف في الأفضل منهما فقالت طائفة منهم أبو المعالي وغيره السمع أفضل قالوا لأن به تنال سعادة الدنيا والآخرة فانها إنما تحصل بمتابعة الرسل وقبول رسالاتهم وبالسمع عرف ذلك فان من لا يسمع له لا يعلم ما جاؤا به . وأيضاً فان السمع يدرك به أجل شيء وأفضله وهو كلام الله تعالى الذي فضله على الكلام كفضل الله على خلقه ، وأيضاً فان العلوم إنما تنال بالتفاهم والتخاطب ولا يحصل ذلك إلا بالسمع . وأيضاً فان مدركه أعم من مدرك البصر فانه يدرك الكلبيات والجزئيات والشاهد والغائب والموجود والمعدوم والبصر لا يدرك إلا بعض المشاهدات والسمع يسمع كل علم فأين أحدهما من الآخر ولوفرنا شخصين أحدهما يسمع كلام الرسول ولا يرى شخصه والآخر بصير يراه ولا يسمع كلامه لضممه هل كانا سواء . وأيضاً ففما البصر إنما يفقد إدراك بعض الأمور الجزئية المشاهدة ويمكنه معرفتها بالصفة ولو تقريباً وأما فاقد السمع فالذي فاته من العلم لا يمكن حصوله بحاسة البصر ولو قريباً . وأيضاً فان ذم الله تعالى للكفار بعدم السمع في القرآن أكثر من ذمه لهم بعدم البصر بل إنما يذمهم بعدم البصر تبعاً لعدم العقل والسمع . وأيضاً فان الذي يورده السمع على القلب من العلوم لا يلحقه فيه كلال ولا سامة ولا تعب مع كثرتة وعظمه والذي يورده البصر عليه يلحقه فيه الكلال والضعف والنقص وربما خشى صاحبه على ذهابه مع قلته ونزارته بالنسبة إلى السمع . وقالت طائفة منهم ابن قتيبة بل البصر أفضل فان أعلا النعيم وأفضله وأعظمه لذة هو النظر إلى الله في الدار الآخرة وهذا إنما ينال بالبصر وهذه وحدها كافية في تفضيله . . قالوا وهو مقدمة القلب وطلبعته ورائده فنزلته منه أقرب من منزلة السمع ولهذا كثيراً ما يقرن بينهما في الذكر بقوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) فالاعتبار بالقلب والبصر بالعين . وقال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) ولم يقل وأسماعهم . وقال تعالى (فإنها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور) وقال تعالى (قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة) وقال تعالى (يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور) وقال في حق رسوله (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال (مازاغ البصر وما طغى) وهذا يدل على شدة الوصلة والارتباط بين القلب والبصر ولهذا يقرأ الإنسان ما في قلب

الآخر من عينه وهذا كثير في كلام الناس نظمه ونثره وهو أكثر من أن نذكره هنا . ولما كان القلب أشرف الاعضاء كان أشدها ارتباطاً به وأشرف من غيره . قالوا ولهذا يأتمنه القلب مالا يأتمن السمع عليه بل إذا ارتاب من جهة عرض ما يأتيه به على البصر ابتزكيه أم يردّه فالبصر حاكم عليه مؤتمن عليه . قالوا ومن هذا الحديث الذي رواه أحمد في مسنده مرفوعاً ليس المخبر كالمعين . قالوا ولهذا أخبر الله سبحانه موسى أن قومه افتتنوا من بعده وعبدوا العجل فلم ينحقه في ذلك مالحقه عند رؤية ذلك ومعاينته من لقاء الألواح وكسرها لقوت المعاينة على الخبر . قالوا وهذا إبراهيم خليل الله يسأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى وقد علم ذلك بخبر الله له ولكن طلب أفضل المنازل وهي طمأنينة القلب . قالوا ولليقين ثلاث مراتب أولها للسمع وثانها للعين (١) وهي المسماة بيمين اليقين وهي أفضل من المرتبة الأولى وأكمل . قالوا وأيضاً فالبصر يؤدي إلى القلب ويؤدي عنه فان العين مرآة القلب يظهر فيها ما يحبه من المحبة والبغض والموالات والمعاداة والسرور والحزن وغيرها . وأما الأذن فلا تؤدي عن القلب شيئاً البتة وإنما مرتبتها الايصال اليه حسب فالعين أشد تعلقاً به . والصواب ان كلامهما له خاصية فضل بها الاخر فالمدرّك بالسمع أعم وأشمل والمدرّك بالبصر أتم وأكمل فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكال الادراك وأما نعيم أهل الجنة فشيئان . أحدهما النظر إلى الله . والثاني سماع خطابه وكلامه كما رواه عبد الله بن أحمد في المسند وغيره كأن الناس يوم القيامة لم يسمعوا القرآن إذا سمعوه من الرحمن عز وجل ومعلوم ان سلامه عليهم وخطابه لهم ومحاضرتهم إياهم كما في الترمذي وغيره لا يشبهها شيء قط ولا يكون أطيب عندهم منها ولهذا يذكر سبحانه في وعيد أعدائه انه لا يكلمهم كما يذكر احتجاجه عنهم ولا يرونه فكلامه أعلا نعيم أهل الجنة والله أعلم . الوجه الرابع والثمانون ان الله سبحانه في القرآن يعدد على عباده من نعمه عليهم أن اعطاهم آلات العلم فيذكر الفؤاد والسمع والابصار ومرة يذكر اللسان الذي يترجم به عن القلب . فقال تعالى في سورة النعم وهي سورة النحل التي ذكر فيها أصول النعم وفروعها وامتعاتها ومكملاتها فعدد نعمه فيها على عباده وتعرف بها اليهم واقتضاهم شكرها وأخبر أنه يتمها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها فأولها في أصول النعم وآخرها في مكملاتها . قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) فذكر سبحانه نعمته عليهم بأن أخرجهم لاعلم لهم ثم اعطاهم الاسماع والابصار والافئدة التي نالوا بها من العلم ما نالوه وان فعل بهم ذلك

(١) هكذا في الأصل بدون أن يذكر المرتبة الثالثة .

ليشكروه . وقال تعالى (وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) وقال تعالى (ألم نجعل لهم عينين ولساناً وشفهتين وهدينا لهم النجدين) فذكر هنا العينين التي يبصر بها فيعلم المشاهدات وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل وهو قول أكثر المفسرين وتدل عليه الآية الأخرى (إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) والهداية تكون بالقلب والسمع فقد دخل السمع في ذلك لزوماً وذكر اللسان والشفهتين اللتين هما آلة التعليم فذكر آلات العلم والتعليم وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته و وحدانيته ونعمه التي تعرف بها إلى عبادته ولما كانت هذه الأعضاء الثلاثة التي هي أشرف الأعضاء وملوكها والمنصرفه فيها والحاكمة عليها خصها سبحانه وتعالى بالذكر في السؤال عنها . فقال (إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) فسعادة الإنسان بصحة هذه الأعضاء الثلاثة وشقاوته بفسادها . قال ابن عباس يسأل الله العباد فيما استعملوا هذه الثلاثة السمع والبصر والفؤاد والله تعالى أعطى العبد السمع لسمع به أوامر ربه ونواهيه وعهوده والقلب ليعقلها ويفقهها والبصر ليرى آياته فيستدل بها على وحدانيته وربوبيته فالمتعود باعطائه هذه الآلات العلم وثمرته ومقتضاه . الوجه الخامس والثمانون إن أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة سعادة خارجية عن ذات الإنسان بل هي مستعارة له من غيره بزول باسترداد العارية وهي سعادة المال والحياة فيبينا المرء بها سعيداً ملحوظاً بالعناية مرموقاً بالأبصار إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه بالظهور واجى فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بحمة ابن عمه والجمال بها كجمال المرء بثيابه وبزينته فاذا جاوز بصرك كسوته فليس وراء عبادان قرية . ويحكى عن بعض العلماء أنه ركب مع تجار في مركب فانكسرت بهم السفينة فأصبحوا بعد عز الغنى في ذل الفقر ووصل العالم إلى البلد فأكرم وقصد بأنواع التحف والكرامات فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم قالوا له هل لك إلى قومك كتاب أو حاجة فقال نعم تقولون لهم إذا اتخذتم مالا لا يفرق إذا انكسرت السفينة فاتخذوا العلم تجارة . واجتمع رجل ذو هيئة حسنة ولباس جميل ورواه برجل عالم فجلس المخاضة فلم ير شيئاً فقالوا كيف رأيته فقال رأيت داراً حسنة مزخرفة ولكن ليس بها ساكن . السعادة الثانية سعادة في جسمه وبدنه كصحته واعتدال مزاجه وتناسب أعضائه وحسن تركيبه وصفاء لونه وقوة أعضائه فهذه ألصق به من الأولى ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته فان الإنسان لإنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه . كما قيل :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم لإنسان (١)
فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه فان البدن أيضا عارية للروح وآلة
لها ومركب من مراكبها فسعادتها بصحة وجماله وحسنه سعادة خارجة عن ذاتها وحقيقتها .
السعادة الثالثة هى السعادة الحقيقية وهى سعادة نفسانية روحية قلبية وهى سعادة العلم النافع
ثمرته فانها هى الباقية على تقلب الأحوال والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة
أعنى دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار وبها يترقى معارج الفضل ودرجات السكال .
أما الأولى فانها تصحب، فى البقعة التى فيها ماله وجاهه . والثانية تعرضه للزوال والتبدل بنكس
الخلق والرد إلى الضعف فلا سعادة فى الحقيقة إلا فى هذه الثلاثة التى كلها طال الامد ازدادت
قوة وعلواً وإذا عدم المال والجاء فهى مال العبد وجاهه وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة
الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليتان وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على
طلبها إلا العلم بها فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه والله يوفق من يشاء لا مانع لما
أعطى ولا معطى لما منع . وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها
وعورة طريقها ومرارة مبادئها وتعب تحصيلها وانها لا تنال إلا على جدم من التعب فانها لا تحصل
إلا بالجد المحض بخلاف الأوليين فانهما حظ قد يحوزه غير طالبه وبخت قد يحوزه غير جالبه
من ميراث أو هبة أو غير ذلك . وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع وصدق
الطلب وصحة النية . وقد أحسن القائل فى ذلك :

فقل لمرجى معالى الأمور بغير اجتهاد رجوت المحالا

﴿ وقال الآخر ﴾

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ومن طمحت همته الى الأمور العالية فواجب عليه أن يشد على حجة الطرق الدينية وهى
السعادة وان كانت فى ابتدائها لا تنفك عن ضرب من المشقة والكره والتأذى وانما متى
أكرهت النفس عليها وسيمت طائفة وكارهة اليها وصبرت على لاوائها وشدتها أفضت منها
الى رياض موفقة ومقاعد صدق ومقام كريم تجدد كل لذة دونها لعب الصبي بالعصفور بالنسبة
الى لذات الملوك فينبذ حال صاحبها كما قيل :

وكنت أرى أن قد تنهى فى الهوى الى غاية ما يمهدها لى مذهب

(١) هكذا بالأصل والبيت مقتضب من بيتين وهما :

يا خادم الجسم كى يشقى بخدمته أطلب الربح مما فيه خسران
انهض الى الروح واستكمل فضاءها فأنت بالروح لا بالجسم لإنسان

فلما تلاقينا وعاينت حسنها تيقنت أني إنما كنت أعب
فالمسكارم منوطة بالمسكاراة والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة فلا تقطع مساقها
إلا في سفينة الجهد والاجتهاد . قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة
الجسم . وقد قيل من طلب الراحة ترك الراحة .

فياوصل الحبيب أما إليه بغير مشقة أبدا طريق

ولولا جهل الأكتيرين بحلاوة هذه اللذة وعظم قدرها لتجالدوا عليها بالسيوف ولسكن
حفت بحجاب من المسكاره وحجبوا عنها بحجاب من الجهل ليختص الله لها من يشاء من
عباده والله ذو الفضل العظيم ، الوجه السادس والثمانون إن الله تعالى خلق الموجودات وجعل
لسكل شيء منها كمالا يختص به هو غاية شرفه فاذا عدم كاله انتقل إلى الرتبة التي دونه
واستعمل فيها فكان استعماله فيها كال أمثاله فاذا عدم تلك أيضا نقل إلى مادونها ولا تعطل
وهكذا أبدأ حتى إذا عدم كل فضيلة صار كالشوك وكالحطب الذي لا يصلح إلا للوقود
فالفرس إذا كانت فيه فروسيته التامة أعد لمراكب الملوك وأكرام أمثاله فاذا نزل عنها
قليلاً أعد لمن دون الملك فإن ازداد تقصيره فيها أعد لآحاد الأجناد فان تقاصر عنها جملة
استعمل استعمال الخمار إما حول المدار وإما لنقل الزبل ونحوه فان عدم ذلك استعمل
استعمال الأغنام للذبح والاعدام . كما يقال في المثل أن فرسين التقيما أحدهما تحت ملك والآخر
تحت الروايا ففقال فرس الملك أما أنت صاحبي وكنت أنا وأنت في مكان واحد فما الذي
نزل بك إلى هذه المرتبة فقال ما ذلك إلا أنك هملجت قليلا وتكسبت أنا . وهكذا السيف
إذا نبا عما هيء له ولم يصلح له ضرب منه فاس أو مفشار ونحوه وهكذا الدور العظام
الحسان إذا خربت وتهدمت اتخذت حظائر للغنم أو الإبل وغيرها . وهكذا الآدمي إذا كان
صالحا لاصطفاه الله له برسالة ونبوته اتخذته رسولا ونبيا . كما قال تعالى (الله أعلم حيث
يجعل رسالته) فاذا كان جوهره قاصراً عن هذه الدرجة صالحا لخلافة النبوة وميراثها
رشحه لذلك وبلغه إياه فإذا كان قاصراً عن ذلك قابلاً لدرجة الولاية رشح لها وإن كان ممن
يصلح للعمل والعبادة دون المعرفة والعلم جعل من أهله حتى ينتهي إلى درجة عموم المؤمنين
فان نقص عن هذه الدرجة ولم تكن نفسه قابلة لشيء من الخير أصلاً استعمل حظياً ووقوداً
لنار . وفي أثر اسرائيلي أن موسى سأل ربه عن شأن من يعذبهم من خلقه . فقال يا موسى
ازرع زرعاً فزرعه فأوحى إليه أن احصده ثم أوحى إليه أن انسفه وذره ففعل وخلص الحب
وحده والعيidan والعصف وحده فأوحى إليه أني لأجعل في النار من العباد من لا خير فيه بمنزلة
العيidan والشوك التي لا يصلح إلا للنار . وهكذا الإنسان يترقى في درجات السكال درجة بعد

درجة حتى يبلغ نهاية ما يناله أمثاله منها فكم بين حاله في أول كونه نطفة وبين حاله والرب
يسلم عليه في داره وينظر إلى وجهه بكرة وعشيا والنبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره
لما جاءه الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارىء وفي آخره أمره بقول الله له (اليوم أكملت
لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) وبقوله له خاصة (وأنزل عليك الكتاب والحكمة
وعطيك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) : وحكى أن جماعة من النصارى
تحدثوا فيما بينهم فقال قائل منهم ما أقل عقول المسلمين يزعمون أن نبيهم كان راعى الغنم
فكيف يصلح راعى الغنم للنبوة . فقال له آخر من بينهم أما هم فوالله أعقل منا فان الله
بحكمته يسترعى النبی الحيوان البهيم فاذا أحسن رعايته والقيام عليه نقله منه إلى رعاية الحيوان
الناطق حكمة من الله وتدرجاً لعبده ولكن نحن جئنا إلى مولود خرج من امرأة يا كل
ويشرب ويمول ويبيكى فقلنا هذا إلهنا الذى خلق السموات والأرض فأمسك القوم عنه .
فكيف يحسن بذى همة قد أزاح الله عنه علله وعرفه السعادة والشقاوة أن يرضى بأن يكون
حيواناً وقد أمكنه أن يصير إنساناً وبأن يكون إنساناً وقد أمكنه أن يكون ملكاً وبأن
يكون ملكاً وقد أمكنه أن يكون ملكاً فى مقعد صدق عند مليك مقتدر فتقوم الملائكة فى
خدمته وتدخل عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار . وهذا السكال
إنما ينال بالعلم ورعايته والقيام بموجبه فعاد الأمر إلى العلم وثمرته والله تعالى الموفق . وأعظم
التقص وأشد الحسرة نقص القادر على التمام وحسرتة على تفويته . كما قال بعض السلف اذا
كثرت طرق الخير كان الخارج منها أشد حسرة . وصدق القائل :

ولم أر فى عيوب الناس عيباً كـنقص القادرين على التمام

ثبت أنه لا شيء أفجع بالإنسان من أن يكون غافلاً عن الفضائل الدينية والعلوم النافعة
والأعمال الصالحة فن كان كذلك فهو من الهمج الرعاع الذين يكبدون الماء ويغفلون
الأسعار إن عاش عاش غير حميد وإن مات مات غير فقيدهم راحة البلاد والعباد ولا
تبكى عليهم السماء ولا تستوحش لهم الغبراء . الوجه السابع والثمانون أن القلب يعترضه
مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته وهما مرض الشهوات ومرض
الشبهات هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله . وقد ذكر الله تعالى هذين المرضين
فى كتابه . أما مرض الشبهات وهو أصعبهما واقتلها للقلب ففى قوله فى حق المنافقين (فى
قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً) وقوله (وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون
ماذا أراد الله بهذا مثلاً) . وقال تعالى (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض
والقاسية قلوبهم) فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة وأما مرضه

الشهوة في قوله (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض) أى لا تلن في الكلام فيطمع الذي في قلبه مجرور وزناه . قالوا والمرأة ينبغى لها إذا خاطبت الاجانب أن تغلظ كلامها وتقويه ولا تليته وتكسره فان ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها والقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض وهذا المرض مركب من مرض الشبهة والشهوة فانه لا بد فيه من تخيل فاسد وإرادة باطلة كالعجب والفخر والخيلاء والكبر المركب من تخيل عظمتة وفضله وإرادة تعظيم الخلق له ومحمدتهم فلا يخرج مرضه عن شهوة أو شبهة أو مركب منهما . وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث صاحب الشجرة الذي افتوه بالفضل فأتوه قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا إنما شفاء العي السؤال لجعل العي وهو عي القلب عن العلم واللسان عن النطق به مرضاً وشفاءه سؤال العلماء فأمراض القلوب أصعب من أمراض الابدان لأن غاية مرض البدن أن يفضى بصاحبه إلى الموت . وأما مرض القلب فيفضى بصاحبه إلى الشقاء الأبدى ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم ولهذا سمي الله تعالى كتابه شفاء لأمراض الصدور . وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم من موعظة من الله وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) ولهذا السبب نسبة العلماء إلى القلوب كنسبة الأطباء إلى الابدان وما يقال للعلماء أطباء القلوب فهو لقدر ما جامع بينهما وإلا فالأمر أعظم فان كثيراً من الأمم يستغنون عن الأطباء ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلى طبيب . وأما العلماء بالله وأمره فهم حياة الموجود وروحه ولا يستغنى عنهم طرفة عين فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء بل أعظم وبالجمل فالعلم للقلب مثل الماء للسمك إذا فقدته مات فنسبة العلم إلى القلب كنسبة ضوء العين إليها وكنسبة سمع الأذن وكنسبة كلام اللسان إليه فاذا عدمه كان كالعين العمياء والأذن الصماء واللسان الأخرس ولهذا يصف سبحانه أهل الجهل بالعمى والصم والبكم وذلك صفة قلوبهم حيث فقدت العلم النافع فبقيت على عماها وصمها وبكها . قال تعالى (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً) والمراد عمى القلب في الدنيا . وقال تعالى (ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكياً وصماً ما وهم جحيم) لأنهم هكذا كانوا في الدنيا والعبد يبعث على ما مات عليه . واختلف في هذا العمى في الآخرة فقيل هو عمى البصيرة بدليل إخباره تعالى عن رؤية الكفار ما في القيامة ورؤية الملائكة ورؤية النار وقيل هو عمى البصر ورجح هذا بأن الاطلاق ينصرف إليه وبقوله (قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً) وهذا عمى العين فان الكافر لم يكن بصيراً بحجته . وأجاب هؤلاء عن رؤية الكفار

في القيامة بأن الله يخرجهم من قبورهم إلى موقف القيامة بهراء وبحشرون من الموقف إلى النار صمياً قاله الفراء وغيره . الوجه الثامن والثمانون ان الله سبحانه بحكمته ساطع على العبد عدواً هالماً بطرق هلاكه وأسباب الشر الذي يأتيه فيه متفتناً فيها خبيراً بها حريصاً عليها لا يفتري يقظة ولا مناماً ولا بدله من واحدة من ست ينالها منه . أحدها وهي غاية مراده منه أن يحول بينه وبين العلم والايمان فيلقيه في الكفر فاذا ظفر بذلك فرغ منه واستراح فان فاتته هذه وهدى للاسلام حرص على تلو الكفر وهي البدعة وهي أحب اليه من المعصية فان المعصية يتاب منها والبدعة لا يتاب منها لأن صاحبها يرى أنه على هدى . وفي بعض الآثار يقول ابليس أهلكك بنى آدم بالذنوب وأهلكوني بالاستغفار وبلا إله الا الله فلما رأيت ذلك بثبت فيهم الأهواء فهم يذنبون ولا يتوبون لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فاذا ظفر منه بهذه ضيره من رعاته وأمرائه فان أعجزته شغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه ليرتج عليه الذي بينهما وهي الخامسة فان أعجزه ذلك صار إلى السادسة وهي تسليط حزبه عليه يؤذونه ويشتمونه ويبهتونه ويرمونهم بالمعظائم ليحزنه ويشغل قلبه عن العلم والارادة وسائر أعماله فكيف يمكن أن يحترز منه من لا علم له بهذه الامور ولا بعدوه ولا بما يحسنه منه فانه لا ينجو من عدوه إلا من عرفه وعرف طريقه التي يأتيه منها وجيشه الذي يستعين به عليه وعرف تداخله ومخارجه وكيفية محاربهه وبأى شيء يحاربه وبماذا يداوى جراحته وبأى شيء يستمد القوة لقتاله ودفعه وهذا كله لا يحصل إلا بالعلم فالجاهل في غفلة وعمى عن هذا الامر العظيم والخطب الجسم . ولهذا جاء ذكر العدو وشأنه وجنوده ومكايده في القرآن كثيراً جداً لحاجة النفوس إلى معرفة عدوها وطرق محاربهه ومجاهدته فلولا أن العلم يكشف عن هذا لما نجا من نجا منه فالعلم هو الذي تحصل به النجاة . الوجه التاسع والثمانون ان أعظم الاسباب التي يحرم بها العبد خير الدنيا والآخرة ولذة النعيم في الدارين ويدخل عليه عدو منها هو الغفلة المضادة للعلم والكسل المضاد للارادة والعزيمة هذان أصل بلاء العبد وحرمانه منازل السعداء وهما من عدم العلم . أما الغفلة فمضادة للعلم منافية له وقد ذم سبحانه أهلها ونهى عن الكون منهم وعن طاعتهم والقبول منهم . قال تعالى (ولاتكن من الغافلين) . وقال تعالى (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا) . وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم اضل وأولئك هم الغافلون) . وقال النبي صلى الله عليه وسلم في وصيته لנסاء المؤمنين لاتغفلن فتنسين الرحمة وسئل بعض العلماء عن عشق الصور فقال قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله بعبودية غيره فالقلب الغافل ماوى

الشیطان فانه وسواس خناس قد التقم قلب الغافل یقرأ علیه أنواع الوسواس والخیالات الباطلة فإذا تذكر وذكر الله انجمع وانضم وخنس وتضامل لذكر الله فهو دائماً بین الوسوسة والخنس . وقال عروة بن رويم إن المسيح صلی الله علیه وسلم سأل ربه أن یریه موضع الشیطان من ابن آدم فجلی له فاذا رأسه رأس الحیة واضع رأسه على ثمرة القلب فاذا ذكر العبد ربه خنس وإذا لم یذكر وضع رأسه على ثمرة قلبه فناه وحده . وقد روى فی هذا المعنى حدیث مرفوع فهو دائماً یتربغ غفلة العبد فیبذر فی قلبه بذر الأمانی والشهوات والخیالات الباطلة فیشر كل حنظل وكل شوك وكل بلاه ولا یزال یمده بسقیه حتى یغطى القلب وبعیمیه . وأما الكسل فیتولد عنه الاضاعة والتفریط والحزمان وأشد الندامة وهو منافی للارادة والعزيمة التي هی ثمرة العلم فان من علم أن جماله ونعمیه فی شیء طلبه بجهده وعزم علیه بقلبه كله فان كل أحد یسعی فی تکمیل نفسه ولذته ولكن أكثرهم أخطأ الطريق لعدم علمه بما ینبغی أن یطلبه فالارادة مسبوقة بالعلم والتصور فتخلفها فی الغالب انما یكون لتخلف العلم والادراك وإلا فع العلم التام بأن سعادة العبد فی هذا المطلب ونجاته وفوزه کیف یلحقه كسل فی النهوض الیه ولهذا استعاذ النبی صلی الله علیه وسلم من الكسل . فی الصحیح عنه انه كان یقول اللهم انی أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجهنم والبخل وضيع الدين وغلبة الرجال فاستعاذ من ثمانية أشياء . كل شیئين منها قرینان والفرق بینهما ان المكروه الوارد على القلب اما أن یكون على ماضی أو لما یتقبل . فالأول هو الحزن والثانی الهم . وان شئت قلت الحزن على المكروه الذی فات ولا یتوقع دفعه والهم على المكروه المنتظر الذی یتوقع دفعه وتأماله والعجز والكسل قرینان فان تخلف مصلحة التبدو كماله ولذته وسروره عنه أو أمان أن یكون مصدره عدم القدرة فهو العجز أو یكون قادراً علیه لكن تخلف لعدم إرادته فهو الكسل وصاحبه یلام علیه ما لا یلام على العجز وقد یكون العجز ثمرة الكسل فیسلام علیه أيضاً فكثیراً ما یکسل المرء عن الشيء الذی هو قادر علیه وتضعف عنه إرادته فیفضی به الى العجز عنه وهذا هو العجز الذی یلوم الله علیه فی قول النبی صلی الله علیه وسلم إن الله یلوم على العجز والا فالعجز الذی لم تخفق له قدرة على دفعه ولا یدخل معجزه تحت القدرة لا یلام علیه . قال بعض الحكماء فی وصیته إرباك والكسل والضجر فان الكسل لا ینض لمكرمة والضجر إذا نهض الیها لا یصبر علیها والضجر متولد عن الكسل والهجز فلم یفرده فی الحدیث بلفظ ثم ذكر الجبن والبخل فان الاحسان المتوقع من العبد اما بماله وإما بیدنه فالبخيل مانع لنفع ماله والجبان مانع لنفح یدنه والمشهور عند الناس ان البخل من تلزم الجبن من غیر عكس لأن من بخل بماله فهو بنفسه یخجل والشجاعة تستلزم التكرم من غیر عكس لأن من جاد بنفسه فهو بماله أسمع وأجود وهذا الذی

قالوه ليس بلازم أكثره فان الشجاعة والكرم واضدادها أخلاق وغرائز قد تجمع في الرجل وقد يعطى بعضها دون بعض وقد شاهد الناس من أهل الاقدام والشجاعة والبأس من هو أبخل الناس وهذا كثيراً ما يوجد في أمة الترك يكون أشجع من ليت وأبخل من كلب فالرجل قد يسمح بنفسه ويضن بماله ، ولهذا يقاتل عليه حتى يقتل فيبدأ بنفسه دونه فن الناس من يسمح بنفسه وماله ومنهم من يبخل بنفسه ومنهم من يسمح بماله ويبخل بنفسه وعكسه والاقسام الأربعة موجودة في الناس ثم ذكر ضلع الدين وغلبة الرجال فان القهر الذي ينال العبد نوعان . أحدهما قهر بحق وهو ضلع الدين . والثاني قهر بباطل وهو غلبة الرجال فصولات الله وسلامه على من أوتى جوامع السلم واقتبست كنوز العلم والحكمة من الفاظة والمقصود أن الغفلة والكسل اللذين هما أصل الحرمان سببهما عدم العلم فعاد النقص كله إلى عدم العلم والعزيمة والكمال كله إلى العلم والعزيمة والناس في هذا على أربعة أضرب الأول من رزق علماء وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل وهذا الضرب خلاصة الخلق وهم الموصوفون في القرآن بقوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) . (وقوله أولى الأيدي والأبصار) . وقوله أفن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) فبالحياة تنال العزيمة وبالتور ينال العلم وأمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل الضرب الثاني من حرم هذا وهذا وهم الموصوفون بقوله (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون) وبقوله (أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم الاكالا نعام بل هم أضلوا سبيلاً) وبقوله (إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم ادعاء) وقوله (وما أنت بمسمع من في القبور) وهذا الصنف شر البرية يضيقون الديار ويعلون الأسعار وعند أنفسهم أنهم يعلمون ولكن ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ويعلمون ولكن ما يضرهم ولا يفهمهم وينطقون ولكن عن الهوى ينطقون ويتكلمون ولكن بالجهل يتكلمون ويؤمنون ولكن بالجبت والطاغوت ويعبدون ولكن يعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا يفهمهم ويجادلون ولكن بالباطل ليدحضوا به الحق ويفسكرون ويديتتون ولكن مالا يرضى من القولى يديتتون ويدعون ولكن مع الله إله آخر يدعون ويذكرون ولكن إذا ذكروا لا يذكرون ويصلون ولكنهم من المصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون ويحكمون ولكن حكم الجاهلية يعنون ويكتبون ولكن يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فزيل لهم بما كتبت أيديهم وويل لهم بما يكسبون ويقولون إننا نحن مصلحون ألا إنهم هم المقسدون ولكن لا يشعرون . فهذا الضرب ناس بالصورة وشياطين بالحقيقة وجلمهم إذا فسرت فهم حير أو كلاب أو ذئاب وصدق البحرى في قوله :

لم يبق من جل هذا الناس باقية يتألفها الوهم إلا هذه الصور

(وقال الآخر)

لا تخدعنك اللحاء والصور تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السدر منهم مثل لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) عالمهم كما قيل فيه :

زوامل الأسفار لا علم عندهم بجيدها إلا كعلم الأباقر

لعمرك ما يدرى البعير إذا غدا بأوساقه أوراخ ما في الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى (كمثل الخمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين) . الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه . وفي الحديث المرفوع أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم يتفقه الله بعلمه ثبته أبو نعم وغيره فهذا جهله كان خيرا له وأخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالوا وعذاباً وهذا لا مطمع في صلاحه فان التائه عن الطريق يرجي له العود إليها إذا أبصرها فاذا عرفها وحاد عنها عمدا فحق ترجى هدايته . قال تعالى (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين . الضرب الرابع من رزق حفا من العزيمة والإرادة ولكن قل نصيبه من العلم والمعرفة فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاء الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ذلك الفضل من الله وكفى بالله علما) رزقنا الله من فضله ولا أحرمنا بسوء أعمالنا انه غفور رحيم . الوجه التسعون ان كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهي ثمرة العلم ونتيجته وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل ونتيجته فمدحه بالإيمان وهو رأس العلم ولبه ومدحه بالعمل الصالح الذي هو ثمرة العلم النافع ومدحه بالشكر والصبر والمساورة في الخيرات والحب له والخوف منه والرجاء والإجابة والحلم والوقار واللب والعقل والعفة والكرم والإيثار على النفس والنصيحة لعباده والرحمة بهم والرفقة وخفض الجناح والعتوف عن مسيئتهم والصفح عن جانيهم وبذل الإحسان لكافتهم ودفع السيئة بالحسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصبر في مواطن الصبر والرضا بالقضاء واللين للأولياء والشدة على الأعداء والصدق في الوعد والوفاء بالعهد والإعراض

عن الجاهلين والقبول من الناصحين واليقين والتوكل والطمأنينة والسكينة والتواصل
والتعاطف والعدل في الأقوال والأفعال والأخلاق والقوة في أمره والبصيرة في دينه والقيام
بأداء حقه واستخراجه من المانعين له والدعوة إليه وإلى مرضاته ورجته والتحذير عن سبل
أهل الضلال وتبيين طرق النقي وحال سالكيها والتواصي بالحق والتواصي بالصبر والحض
على طعام المسكين وبر الوالدين وصلة الأرحام وبذل السلام لكافة المؤمنين إلى سائر
الأخلاق الحمودة والأفعال المرضية التي أقسم الله سبحانه على عظيمها . فقال تعالى (ن
والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرأ غير ممنون وإنك لعلى خلق
عظيم) . قالت عائشة رضی الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت كان خلقه
القرآن فاكنتي بذلك السائل وقال فهمت أن أقوم ولا أسأل عن شيء بعدما فهذه الأخلاق
ونحوها هي ثمرة شجرة العلم . وأما شجرة الجهل فثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد
والشرك والظلم والبغى والعدوان والجزع والهلوع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفسح
والبداء والنشح والبخل ولهذا قيل في حد البخل جهل مقرون بسوء الظن ومن ثمرة الغش
للخلق والكبر عليهم والفخر والخيلاء والمجب والرياء والسمعة والنفاق والكذب
واخلاف الوعد والغلظة على الناس والانتقام ومقابلة الحسنه بالسيئه والأمر بالمنكر والنهي
عن المعروف وترك القبول من الناصحين وحب غير الله ورجائه والتوكل عليه وإيثار رضاه
على رضا الله وتقديم أمره على أمر الله والتماوت عند حق الله والوثوق بما عند حق نفسه
والغضب لها والانتصار لها فإذا انتهكت حقوق نفسه لم يقم لغضبه شيء حتى ينتقم بأكثر
من حقه وإذا انتهكت محارم الله لم يبخس له عرق غضبا لله فلا قوة في أمره ولا بصيرة في دينه
ومن ثمرتها الدعوة إلى سبيل الشيطان وإلى سلوك طرق البغى واتباع الهوى وإيثار الشهوات
على الطاعات وقيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال وأد البنات وعقوق الأمهات وقطيعة
الأرحام وإساءة الجوار وركوب مركب الخزي والعار . وبالجملة فالخير بمجموعه ثمر يجتنى
من شجرة العلم والشرف بمجموعه شوك يجتنى من شجرة الجهل فلو ظهرت صورة العلم للأبصار
لزاد حسننا على صورة الشمس والقمر ولو ظهرت صورة الجهل لكان منظرها أقبح منظر بل
كل خير في العالم فهو من آثار العلم الذي جاءت به الرسل ومسبب عنه . وكذلك كل خير
يكون إلى قيام الساعة وبعدها في القيامة وكل شر وفساد حصل في العالم ويحصل إلى قيام الساعة
وبعدها في القيامة فسببه مخالفة ما جاءت به الرسل في العلم والعمل ولولم يكن للعلم أب ومرتب
وسائس ووزير إلا العقل الذي به عمارة الدارين وهو الذي أرشد إلى طاعة الرسل وسبل

القلب والجوارح ونفسه لإيهم وانقاد لحكمه وعزل نفسه وسلم الأمر إلى أهله لكي به شرفاً
وفضلاً وقد مدح الله سبحانه العقل وأهله في كتابه في مواضع كثيرة منه وذم من لا عقل له
وأخبر أنهم أهل النار الذين لا سمع لهم ولا عقل فهو آلة كل علم وميزانه الذي به يعرف
صحيحه من سقيمه وراجحه من مرجوحه والمرأة التي يعرف بها الحسن من القبيح . وقد
قيل العقل ملك والبدن روحه وحواسه وحركاته كلها رعية له فإذا ضعف عن القيام عليها
وتعهدتها وصل الخلل إليها كلها . ولهذا قيل من لم يكن عقله أغلب خصال الخير عليه كان حقيقه
في أغلب خصال الشر عليه . وروى أنه لما هبط آدم من الجنة أنه جبريل . فقال إن الله
أحضرك العقل والدين والحياة لتختار واحداً منها فقال أخذت العقل فقال الدين والحياة
أمرنا أن لا تفارق العقل حيث كان فأنحاز إليه والعقل عقلان عقل غريزة وهو أب العلم
ومر به ومتمره وعقل مكتسب مستفاد وهو ولد العلم وثمرته ونتيجته فإذا اجتمعاً في العبد
فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء واستقام له أمره وأقبلت عليه جيوش السعادة من كل جانب
وإذا فقد أحدهما فالحيوان إليهم أحسن حالاً منه وإذا انفرد انتقص الرجل ينقصان أحدهما
ومن الناس من يرجح صاحب العقل الغريزي . ومنهم من يرجح صاحب العقل المكتسب .
والتحقيق أن صاحب العقل الغريزي الذي لا علم ولا تجربة عنده آفته التي يؤتي منها الإحجام
وترك انتهاز الفرصة لأن عقله يعقله عن انتهاز الفرصة لعدم علمه بها وصاحب العقل
للمكتسب يؤتي من الإقدام فإن علمه بالفرص وطرقها يلقى على المبادرة إليها وعقله الغريزي
لا يطبق رده عنه فهو غالباً يؤتي من إقدامه والأول من إحجامه فإذا رزق العقل الغريزي عقلاً
إيمانياً مستفاداً من مشكاة النبوة لا عقلاً معيشياً نفاقياً يظن أربابه أنهم على شيء إلا إنهم
هم السكاذبون فأنهم يرون العقل أن يرضوا الناس على طبقاتهم ويسالموهم ويستجلبوا مودتهم
ومحبتهم وهذا مع أنه لا سبيل إليه فهو إشار للراحة والدعة ومؤنة الأذى في الله والموالاتة
فيه والمعاداة فيه وهو وإن كان أسلم عاجلة فهو الهلك في الآجلة فانه ماذا طعم الإيمان
من لم يوال في الله ويعاد فيه فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله والله الموفق
المعين . وفي حديث مرفوع ذكره ابن عبد البر وغيره أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل
قل لفلان المأبد أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت به الراحة وأما انقطاعك إلى فقد اكتسبت
به العز فما عملت فيما لي عليك قال وما لك على قال هل واليت في وليا أو عادت في عدواً
وذكر أيضاً أنه أوحى الله إلى جبريل أن اخسف بقرية كذا وكذا قال يارب ان فهم فلانا
المأبد قال به فابداً لأنه لم يتمر وجهه في يوماً قط . الوجه الحادي والتسعون حديث ابن عمر
عن النبي ﷺ إذا مرتهم برياض الجنة فارتعوا قالوا يا رسول الله وما رياض الجنة قال

حلق الذكر فان لله سيارات من الملائكة يطلبون حلق الذكر فاذا أتوا عليهم صفوا بهم . قال عطاء مجالس الذكر مجالس الحلال والحرام كيف يشتري ويبيع ويصوم ويصلى ويتصدق وينسكح ويطلق ويحج ذكره الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه وقد تقدم بيانه . الوجه الثاني والتسعون ما رواه الخطيب أيضا عن ابن عمر يرفعه مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة وفي رفته نظر . الوجه الثالث والتسعون ما رواه أيضا من حديث عبد الرحمن بن عوف يرفعه يسير الفقه خير من كثير من العبادة ولا يثبت رفته . الوجه الرابع والتسعون ما رواه أيضا من حديث أنس يرفعه فقيه أفضل عند الله من ألف عابد وهو في الترمذى من حديث روح ابن جناح عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعاً وفي ثبوتها مرفوعين نظر والظاهر أن هذا من كلام الصحابة فن دونهم . الوجه الخامس والتسعون ما رواه أيضاً عن ابن عمر يرفعه أفضل العبادة الفقه . الوجه السادس والتسعون . ما رواه أيضاً من حديث نافع عن ابن عمر يرفعه ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في دين . الوجه السابع والتسعون . ما رواه عن علي أنه قال العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازى في سبيل الله . الوجه الثامن والتسعون . ما رواه المخلص عن صاعد حدثنا القاسم بن الفضل بن بزيع حدثنا حجاج بن نصير حدثنا هلال بن عبد الرحمن الجعفي عن عطاء بن أبي ميمونة عن أبي هريرة وأبي ذرأنهما قالاباب من العلم يتعلمه أحب اليانا من ألف ركعة تطوعاً وباب من العلم نعلمه عمل به أو لم يعمل أحب اليانا من مائة ركعة تطوعاً وقالسمعنا رسول الله ﷺ يقول إذا جاء الموت طالب العالم وهو على هذه الحال مات شهيداً ورواه ابن داود عن شاذان عن حجاج به . قلت وشاهده ما مر من حديث الترمذى عن أنس يرفعه من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع الوجه التاسع والتسعون ما رواه الخطيب أيضاً عن أبي هريرة قال لأن أعلم باباً من العلم في أمر أو نهى أحب إلى من سبعين غزوة في سبيل الله وهذا ان صح فعناه أحب إلى من سبعين غزوة بلا علم لأن العمل بلا علم فساده أكثر من صلاحه أو يريد علماً يتعلمه ويعلمه فيكون له أجر من عمل به إلى يوم القيامة وهذا لا يحصل في الغزو المجرد . الوجه المائة مارواه الخطيب أيضا عن أبي الدرداء أنه قال مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة . الوجه الحادى والمائة مارواه عن الحسن قال لأن أتعلم باباً من العلم فاعلمه مسلماً أحب إلى من أن يكون لى الدنيا في سبيل الله . الوجه الثانى والمائة قال مكحول ما عبد الله بأفضل من الفقه . الوجه الثالث والمائة قال سعيد بن المسيب ليست عبادة الله بالصوم والصلاة ولكن بالفقه في دينه وهذا الكلام يراد به أمران . أحدهما أنها ليست بالصوم والصلاة الحاليين عن العلم ولكن بالفقه الذى يعلم به كيف الصوم والصلاة . والثانى أنها ليست الصوم والصلاة

فقط بل الفقه في دينه من أعظم عباداته . الوجه الرابع والمائة قال اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة أقرب الناس من درجة النبوة العلماء وأهل الجهاد والعلماء دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وقد تقدم الكلام في تفضيل العالم على الشهيد وعكسه . الوجه الخامس والمائة قال سفیان بن عيينة أرفع الناس عند الله منزلة من كان بين الله وبين عباده وهم الرسل والعلماء الوجه السادس والمائة قال محمد بن شهاب الزهري ما عبد الله بمثل الفقه وهذا الكلام ونحوه يراد به أنه ما يعبد الله بمثل أن يتعبد بالفقه في الدين فيكون نفس التفقه عبادة . كما قال معاذ بن جبل عليكم بالعلم فإن طلبه لله عبادة وسيأتي ان شاء الله ذكر كلامه بتامه وقد يراد به أنه ما عبد الله بعبادة أفضل من عبادة يصحبها الفقه في الدين لعلم الفقيه في دينه بمراتب العبادات ومفسداتها وواجباتها وسننها وما يكملها وما ينقصها وكلا المعنيين صحيح . الوجه السابع والمائة قال سهل بن عبد الله التستري من أراد النظر إلى مجالس الأنبياء فليُنظر إلى مجالس العلماء وهذا لأن العلماء خلفاء الرسل في أممهم ووارثوهم في علمهم فجاءتهم مجالس خلافة النبوة ، الوجه الثامن والمائة أن كثيراً من الأئمة صرحوا بأن أفضل الأعمال بعد الفرائض طلب العلم . فقال الشافعي ليس شيء بعد الفرائض أفضل من طلب العلم وهذا الذي ذكر أصحابه عنه أنه مذهبه . وكذلك قال سفیان الثوري وحكاه الحنفية عن أبي حنيفة . وأما الإمام أحمد فحكى عنه ثلاث روايات احداهن أنه العالم فانه قيل له أي شيء أحب إليك أجلس بالليل انسخ أو أصلى تطوعاً قال نسختك تعلم به أمور دينك فهو أحب إلى . . . وذكر الخلال عنه في كتاب العلم نصوصاً كثيرة في تفضيل العلم ، ومن كلامه فيه الناس إلى العلم أخرج منهم إلى الطعام والشراب وقد تقدم والرواية الثانية أن أفضل الأعمال بعد الفرائض صلاة التطوع واحتج لهذه الرواية بقوله صلى الله عليه وسلم واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة وبقوله في حديث أبي ذر وقد سأله عن الصلاة فقال خير موضوع وبأنه أوصى من سأله موافقته في الجنة بكثرة السجود وهو الصلاة . وكذلك قوله في الحديث الآخر عليك بكثرة السجود فانك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة وبالاحاديث الدالة على تفضيل الصلاة والرواية الثالثة أنه الجهاد فانه قال لا أعدل بالجهاد شيئاً ومن ذا يطيقه . ولا ريب أن أكثر الأحاديث في الصلاة والجهاد : وأما مالك فقال ابن القاسم سمعت مالكا يقول ان أقواما ابتغوا العبادة وأضاعوا العلم فخرجوا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأسيا فهم ولو ابتغوا العلم لحجزهم عن ذلك . قال مالك وكتب أبو موسى الأشعري إلى عمر بن الخطاب أنه قرأ القرآن عندنا عدد كذا وكذا فكتب إليه عمر أن أفرض لهم من بيت المال فلما كان في العام

الثاني كتب إليه أنه قد قرأ القرآن عندنا عدد كثير لأكثر من ذلك فكتب إليه عمر أن
احمهم من الديوان فاني أخاف من أن يسرع الناس في القرآن أن يتفقوا في الدين فيتأولوه
على غير تأويله . وقال ابن وهب كنت بين يدي مالك بن أنس فوضعت أواحي وقت إلى
الصلاة فقال . ما الذي قمت إليه بأفضل من الذي تركته . قال شيخنا وهذه الأمور الثلاثة
التي فضل كل واحد من الأئمة بعضها وهي الصلاة والعلم والجهاد هي التي قال فيها عمر بن
الخطاب رضى الله عنه لولا ثلاث في الدنيا لما أحببت البقاء فيها لولا أن أحمل أو أجهز
جيشا في سبيل الله ولولا مكابدة هذا الليل ولولا مجالسة أقوام ينتقون أطيب السلام كما
ينتقى أطيب التمر لما أحببت البقاء . فالأول الجهاد . والثاني قيام الليل . والثالث مذاكرة
العلم فاجتمعت في الصحابة بكاملهم وتفرقت فيمن بعدهم . الوجه التاسع والمائة ما ذكره أبو
نعيم وغيره عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال فضل العلم خير من
نقل العمل وخير دينكم الورع وقد روى هذا مرفوعا من حديث عائشة رضى الله عنها وفي
رفعه نظر وهذا الكلام هو فصل الخطاب في هذه المسئلة فإنه إذا كان كل من العلم
والعمل فرضا فلا بد منهما كالصوم والصلاة فإذا كانا فضائين وهما النفلان المتطوع بهما
ففضل العلم ونقله خير من فضل العبادة ونقلها لأن العلم يعم نفعه صاحبه والناس معه والعبادة
يختص نفعها بصاحبها ولأن العلم تبقى فائدته وعده بعد موته والعبادة تنقطع عنه ولما مر من
الوجوه السابقة . الوجه العاشر بعد المائة مارواه الخطيب وأبو نعيم وغيرهما عن معاذ بن
جبل رضى الله عنه قال تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث
عنه جهاد وتعليمه لمن لا يحسنه صدقة وبذله لأهله قرابة به يعرف الله ويعبد به يؤحد وبه يعرف
الحلال من الحرام وتوصل الأرحام وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على
السراء والمعين على الضراء والوزير عند الأخطاء والقريب عند الغرباء ومانر سبيل الجنة
يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة وسادة يقتدى بهم أدلة في الخير تقتص آثارهم
وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلعتهم وبأجنتهم تمسحهم يستغفر لهم كل رطب ويابس
حتى حيطان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها والعلم حياة القلوب من العمى
ونور الأبصار من الظلم وقوة للإبدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات
العلى التفكير فيه يعدل بالصيام ومدارسته بالقيام وهو إمام للعمل والعمل تابعه يلهمه السعداء
ويحرمه الأشقياء هذا الأثر معروف عن معاذ ورواه أبو نعيم في المعجم من حديث معاذ
مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا يثبت وحسبه أن يصل إلى معاذ . الوجه الحادى

عشر بعد المائة مارواه يونس بن عبد الأعلى عن ابن أبي فديك حدثني عمرو بن كثير عن أبي العلاء عن الحسن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحيي به الإسلام فيبينه وبين الأندباء في الجنة درجة النبوة . وقد روى من حديث علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب عن ابن عباس عن النبي ﷺ وهذا وإن كان لا يثبت اسناده فلا يبعد معناه من الصحة فإن أفضل الدرجات النبوة وبعدها الصديقية وبعدها الشهادة وبعدها الصلاح . وهذه الدرجات الأربع التي ذكرها الله تعالى في كتابه في قوله (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) فمن طلب العلم ليحيي به الإسلام فهو من الصديقين ودرجته بعد درجة النبوة . الوجه الثاني عشر بعد المائة قال الحسن في قوله تعالى (ربنا آتنا في الدنيا حسنة) هي العلم والعبادة (وفي الآخرة حسنة) هي الجنة وهذا من أحسن التفسير فإن أجل حسنات الدنيا العلم النافع والعمل الصالح . الوجه الثالث عشر بعد المائة قال ابن مسعود عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفع هلاك العلماء فوالذي نفسى بيده ليودن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يعشهم الله علماء لما يرون من كرامتهم وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم . الوجه الرابع عشر بعد المائة قال ابن عباس وأبو هريرة وبعدهما أحمد بن حنبل تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلينا من إحيائها . الوجه الخامس عشر بعد المائة قال عمر رضى الله عنه أيها الناس عليكم بالعلم فإن لله سبحانه رداء يحبه فمن طلب باباً من العلم رداه الله بردائه فإن أذنب ذنباً استعته لئلا يسلبه رداه ذلك حتى يموت به . قلت ومعنى استعاب الله عبده أن يطلب منه أن يمتبه أى يزيل عتبه عليه بالتوبة والاستغفار والإجابة فإذا أناب إليه رفع عنه عتبه فيكون قد أعتب ربه . أى أزال عتبه عليه والرب تعالى قد استعته أى طلب منه أن يمتبه . ومن هذا قول ابن مسعود وقد وقعت زلزلة بالسكوفة إن ربكم يستعيبكم فاعتبوه وهذا هو الاستعاب الذي نفاه سبحانه في الآخرة في قوله (فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون) أى لا تطلب منهم إزالة عتبتنا عليهم فإن إزالته إنما تكون بالتوبة . وهي لا تنفع في الآخرة وهذا غير استعاب العبد ربه كما في قوله تعالى (فإن يصبروا فالنار مثوى لهم وإن يستعتبوا فاهم من المعتبين) فهنا معاه أن يطلبوا إزالة عتبتنا عليهم والعفو فاهم من المعتبين أى ما هم ممن يزال العتب عليهم وهذا الاستعاب ينفع في الدنيا دون الآخرة . الوجه السادس عشر بعد المائة ، قال عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه ووجه قول عمر إن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلبه وإرشاده وأما العابد فنفضه مقصور على نفسه . الوجه السابع عشر بعد المائة قول بعض السلف إذا أتى على يوم

لازداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لي في شمس ذلك اليوم وقد رفع هذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفعه لإيه باطل وحسبه أن يصل إلى واحد من الصحابة أو التابعين . وفي مثله قال القائل إذا مر بي يوم ولم أستفد هدى ولم أكتسب علماً فما ذلك من عمري . الوجه الثامن عشر بعد المائة قال بعض السلف الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم وقد رفع هذا أيضاً ورفعه باطل . الوجه التاسع عشر بعد المائة إنه في بعض الآثار بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضر الجواد المضمحل سبعين سنة وقد رفع هذا أيضاً وفي رفعه نظر . الوجه العشرون بعد المائة مارواه حرب في مسائله مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم يجمع الله تعالى العلماء يوم القيامة ثم يقول يا معشر العلماء إنني لم أضع علي فيكم إلا العلي بكم ولم أضع علي فيكم لأعذبكم اذهبوا فقد غفرت لكم وهذا وإن كان غريباً فله شواهد حسان ، الوجه الحادي والعشرون بعد المائة . قول ابن المبارك وقد سئل من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذي يأكل يدينه . الوجه الثاني والعشرون بعد المائة إن من أدرك العلم لم يضره ما فاته بعد ادراكه اذ هو أفضل الحظوظ والعطايا ومن فاته العلم لم ينفعه ما حصل له من الحظوظ بل يكون وبالاعليه وسبباً لهلاكه وفي هذا قال بعض السلف أى شيء أدرك من فاته العلم وأى شيء فاته من أدرك العلم الوجه الثالث والعشرون بعد المائة . قال بعض العارفين أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت قالوا بلى قالوا فكذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة ثلاثة أيام يموت وصدق فان العلم طعام القلب وشرابه ودواؤه وحياته موقوفة على ذلك فإذا فقد القلب العلم فهو موت ولكن لا يشعر بموته كما أن السكران الذي قد زال عقله والخائف الذي قد انتهى خوفه إلى غايته والمحب والمفسكر قد يبطل احساسهم بألم الجراحات في تلك الحال فإذا صحوا وعادوا إلى حال الاعتدال أدركوا آلامها هكذا العبد إذا حط عنه الموت أحمال الدنيا وشواغلها اختص بهلاكه وخسرانه .

ختم لا تصحو وقد قرب المدى وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر

بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا وتذ كر قولي حين لا ينفج الذكر

فإذا كشف الغطاء وبرز الخفاء وبلبت السرائر وبدت الضمائر وبعث ما في القبور وحصل ما في الصدور خيفتد يكون الجهل ظلة على الجاهلين والعلم حسرة على البطالين . الوجه الرابع والعشرون بعد المائة قال أبو الدرداء من رأى أن العدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله وشاهد هذا قول معاذ وقد تقدم . الوجه الخامس والعشرون بعد المائة قول أبي الدرداء أيضاً لأن أتعلم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . الوجه السادس والعشرون

بعد المائة قوله أيضا العالم والمتعلم شريكان في الأجر وسائر الناس همج لاخير فهم . الوجه السابع والعشرون بعد المائة مارواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول من دخل مسجدا هنا ليتعلم خيراً أو يعلّمه كان كالجاهد في سبيل الله ومن دخله لغير ذلك كان كالناظر إلى ما ليس له . الوجه الثامن والعشرون بعد المائة مارواه أيضا في صحيحه من حديث الثلاثة الذين انتهوا إلى رسول ﷺ وهو جالس في حلقة فأعرض أحدهم واستحى الآخر فجلس خلفهم وجلس الثالث في فرجة في الحلقة فقال النبي صلى الله عليه وسلم أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه فلولم يكن لطالب العلم إلا أن الله يؤويه إليه ولا يعرض عنه لكني به فضلا ، الوجه التاسع والعشرون بعد المائة مارواه كميل بن زياد النخعي قال أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني ناحية الجبابة فلما أصحرت جعل يتنفس ثم قال يا كميل بن زياد القلوب أوعية نخيرها أو عاها حفظ عني ما أقول لك الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة وهمج رعا ع أتباع كل ناعق يملون مع كل ربح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال العلم يزكو على الاتقاف وفي رواية على العمل والمال تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة العلم دين يبدان بها العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميلة الأحدثه بعد وفاته وصنعة المال نزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة هاه هاه إن ههنا عدداً وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حمله بل أصبته لقنأ غير مأمون عليه يستعمل آلة الدين للدنيا يستظهر حجج الله على كتابه وبنعمه على عباده أو منقاداً لأهل الحق لا بصيرة له في أحيائه ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة لا ذاولا ذاك أو منهوماً للذات سلس القيادة للشهوات أو مغرماً بجمع الأموال والإدخار لئسا من دعاة الدين أقرب شبهها بهم الأنعام السائمة لذلك يموت العلم بموت حامله اللهم بك إن تخلو الأرض من قائم لله بحجته لكيلا تبطل حجج الله وبياناته أولئك الأفلون عدداً الأعظمون عند الله قبيلا بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤديها إلى نظراتهم ويزرعوها في قلوب أشباههم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلنوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا إلا على أولئك خلفاء الله في أرضه ودعائه إلى دينه هاه هاه شوقاً إلى رؤيتهم وأستغفر الله لي ولك إذا شئت فقم ذكره أبو نعيم في الحلية وغيره . قال أبو بكر الخطيب هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظاً وتقسيم أمير

المؤمنين للناس في أوله تقسيم في غاية الصحة ونهاية السداد لأن الإنسان لا يخلو من أخذ الأقسام التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل إما أن يكون عالماً أو متعلماً أو مغفلاً للعلم وطلبه ليس بعالم ولا طالب له فالعالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله ويمتدح وصفه بما خالفها . ومعنى الرباني في اللغة الرفيع الدرجة في العلم العالی المنزلة فيه . وعلى ذلك حملوا قوله تعالى (لولا ينهائم الربانيون) وقوله (كونوا ربانيين) قال ابن عباس حكماً فقهاء . وقال أبو رزين فقهاء علماء . وقال أبو عمر الزاهد سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرباني فقال سألت ابن الأعرابي فقال إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له هذا رباني فإن خرم عن خصلة منها لم يقل له رباني .

قال ابن الأنباري عن النحويين أن الربانيين منسوبون إلى الرب وأن الألف والنون زيدتا للبالغة في النسب كما تقول لحياتي وجهائي إذا كان عظيم اللحية والجمية . وأما المتعلم على سبيل النجاة فهو الطالب بتمليه والقاصد به نجاته من التفريط في توضيح الفروض الواجبة عليه والرغبة بنفسه عن إهمالها وإطراحها والأتفة من بجانسة البهائم . ثم قال وقد نفي بعض المتقدمين عن الناس من لم يكن من أهل العلم . وأما القسم الثالث فهم المهملون لأنفسهم الراصون بالمنزلة الدنية والحال الخسيسة التي هي في الحضيض الأسقط والهبوط الأسفل التي لا منزلة بعدها في الجهل ولا دونها في السقوط . وما أحسن ما شبههم بالهجم الرواع وبه يشبه ذنابة الناس وأراذلهم والرواع المتبدد المتفرق وللناعق الصائح وهو في هذا الموضع الراعي يقال نعق الراعي بالغنم ينعق إذا صاح بها . ومنه قوله تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً أصم بك عمى فهم لا يعقلون) . ونحن نشير إلى بعض ما في هذا الحديث من الفوائد . فقوله رضي الله عنه القلوب أوعية يشبه القلب بالوعاء والإباء والوادي لأنه وعاء للخير والشر . وفي بعض الآثار إن لله في أرضه آنية وهي القلوب فخيرها أرقها وأصلها وأصفاها فهي أواني مملوءة من الخير وأواني مملوءة من الشر كما قال بعض السلف قلوب الأبرار تغلي بالبر وقلوب الفجار تغلي بالفجور . وفي مثل هذا قيل في المثل . وكل إناء بالذي فيه ينضح وقال تعالى (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) شبه العلم بالماء النازل من السماء والقلوب في سمعتها وضيقها بالأودية فقلب كبير واسع يسع علماء كثيراً كواد كبير واسع يسع ماء كثيراً وقلب صغير ضيق يسع علماء قليلاً كواد صغير ضيق يسع ماء قليلاً . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا تسموا العنب السكرم فإن السكرم قلب المؤمن فإنهم كانوا يسمون شجر العنب السكرم لكثرة منافعه وخيره والسكرم كثيرة الخير والمنافع فأخبرهم أن قلب

المؤمن أولى بهذه التسمية لكثرة ما فيه من الخير والمنافع وقوله فخبرها أو عاها يراد به أسرعها وعيا وأثبتها وعيا ويراد به أيضا أحسنها وعيا فيكون حسن الوعي الذي هو إبعاء لما يقال له في قلبه هو سرعته وكثرته وثباته والوعاء من مادة الوعي فإنه آلة ما يوعى فيه كالغطاء والفراس والبساط ونحوها ويوصف بذلك القلب والأذن كقوله تعالى (إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) . قال قتادة أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت . وقال الفراء لتحفظها كل أذن فتكون عظة لمن يأتي بعد فالوعي توصف به الأذن كما يوصف به القلب يقال قلب واع وأذن واعية لما بين الأذن والقلب من الارتباط فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب فهى بابه والرسول الموصل إليه العلم كما أن اللسان رسوله المؤدى عنه ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي وأنها إذا وعت وعى القلب . وفي حديث جابر في المثل الذي ضربته الملائكة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته وقول الملك له اسمع سمعت أذنك وعقل قلبك فلما كان القلب وعاء والأذن مدخل ذلك الوعاء وبابه كان حصول العلم موقوفا على حسن الاستماع وعقل القلب والعقل هو ضبط ما وصل إلى القلب وإمسাকে حتى لا يتفلت منه . ومنه عقل البعير والدابة والعقال لما يعقل به وعقل الإنسان يسمى عقلا لأنه يعقله عن اتباع النهي والهلاك ولهذا يسمى حجراً لأنه يمنع صاحبه كما يمنع الحجر ماحواه فعقل الشيء أخص من علمه ومعرفة لأن صاحبه يعقل ما علمه فلا بدعه يذهب كما تعقل الدابة التي يخاف شروها . وللادراك مراتب بعضها أقوى من بعض فأولها الشعور ثم الفهم ثم المعرفة ثم العلم ثم العقل ومرادنا بالعقل المصدر لا القوة الغريزية التي ركبها الله في الإنسان فخير القلوب ما كان واعيا للخير صابلا له وليس كالقلب القاسى الذي لا يقبله . فهذا قلب حجرى ولا كالمائع الآخرق الذي يقبل ولكن لا يحفظ ولا يضبط فتفهم الأول كالرسم في الحجر وتفهم الثاني كالرسم على الماء بل خير القلوب ما كان ليتنا صلبا يقبل بليته ما ينطبع فيه ويحفظ صورته بصلابته فهذا تفهمه كالرسم في الشمع وشبهه . وقوله الناس ثلاثة فعالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع هذا تقسيم خاص للناس وهو الواقع فإن العبد إما أن يكون قد حصل كماله من العلم والعمل أولا فالأول العالم الربانى والثانى إما أن تكون نفسه متحركة فى طلب ذلك الكمال ساعية فى إدراكه أولا والثانى هو المتعلم على سبيل النجاة الثالث وهو الهمج الرعاع فالأول هو الواصل والثانى هو الطالب والثالث هو المحروم . والعالم الربانى . قال ابن عباس رضى الله عنهما هو المعلم أخذه من التربية أى يربى الناس بالعلم ويربهم به كما يربى الطفل أبوه . وقال سعيد بن جبير هو الفقيه العليم الحكيم قال سيويوه زادوا ألفا ونوناً فى الربانى إذا أرادوا تخصيصا بعلم الرب تبارك وتعالى كما قالوا شعرانى وحيانى ومعنى قول سيويوه رحمه الله إن هذا العالم لما نسب إلى علم الرب تعالى الذى بعث به رسوله

وتخصص به نسب إليه دون سائر من علم علما . قال الواحدى فالربانى على قوله منسوب إلى الرب على معنى التخصيص . بعلم الرب أى يعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى . وقال المبرد الربانى الذى يرب العلم ويرب الناس به أى يعلمهم ويصلحهم . وعلى قوله فالربانى من رب يرب رباً أى يربيه فهو منسوب إلى التربية يربى عليه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه كما يربى صاحب المال ماله ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم . وليس هذا من قوله (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير) فالربيون هنا الجماعات باجماع المفسرين قيل لأنه من الربة بكسر الراء وهى الجماعة . قال الجوهري الربى واحد الربيين وهم الألوف من الناس . قال تعالى (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم) ولا يوصف العالم بكونه ربانياً حتى يكون عاملاً بعلمه معلماً له فهذا قسم . والقسم الثانى متعلم على سبيل نجاته أى قاصداً بعلمه النجاة وهو المخلص فى تعلمه المتعلم ما ينفعه العامل بما علمه فلا يكون المتعلم على سبيل نجاته إلا بهذه الامور الثلاثة فانه إن تعلم ما يضره ولا ينفعه لم يكن على سبيل نجاته وإن تعلم ما ينتفع به لا للنجاة فكذلك وإن تعلمه ولم يعمل به لم يحصل له النجاة ولهذا وصفه بكونه على السبيل أى على الطريق التى تنجيهِ وليس حرف على وما عمل فيه متعلقاً بتعلمه إلا على وجه التضمن أى مفتش متطلع على سبيل نجاته فهذا فى الدرجة الثانية وليس عن تعلمه ليمارى به السفهاء أو يجارى به العلماء أو يصرف وجوه الناس إليه فان هذا من أهل النار كما جاء فى الحديث وثبت أبو نعيم أيضاً . قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ من تعلم علماً بما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد راحة الجنة . قال وثبت أيضاً قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه فهو لاء ليس فيهم من هو على سبيل نجاته بل على سبيل الهلكة نعوذ بالله من الخذلان . القسم الثالث المحروم المعرض فلا عالم ولا متعلم بل همج رعاى والهمج من الناس حماؤهم وجهلهم وأصله من الهمج جمع همجة وهو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغنم والدواب وأعينها فثبته همج الناس به والهمج أيضاً مصدر قال الراجز :

قد هلكت جارتنا من الهمج وإن يجمع نأكل عتوداً أو نلج

والهمج هنا مصدر ومعناه سوء التدبير فى أمر المعيشة . وقولهم همج حاج مثل ليل لايلى والرعاى من الناس الحق الذين لا يعتد بهم . وقوله اتباع كل ناعق أى من صاح بهم ودعاهم تبعوه . سواء دعاهم إلى هدى أو إلى ضلال فانهم لاعلم لهم بالذى يدعون إليه أحق هو أم باطل فهم مستجيبون لدعوته وهؤلاء من أضر الخلق على الأديان فانهم الأكثرون عدداً الألقون

عند الله قدراً وهم حطب كل فتنة بهم توفد ويشب ضرامها فإنها تهترطها أولو الدين ويتولاها
الهمج الرعاع وسمى داعيهم ناعقا تشبيها لهم بالأنعام التي ينشق بها الراعي فتذهب معه أين
ذهب . قال تعالى (ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم
بكم عمى فهم لا يعقلون) وهذا الذي وصفهم به أمير المؤمنين هو من عدم علمهم وظلمة قلوبهم
فليس لهم نور ولا بصيرة يفرقون بها بين الحق والباطل بل الكل عندهم سواء . وقوله رضى
الله عنه يميلون مع كل ريح وفي رواية مع كل صائح شبه عقولهم الضعيفة بالغصن الضعيف
وشبه الأهوية والآراء بالرياح والغصن يميل مع الريح حيث مالت وعقول هؤلاء تميل مع
كل هوى وكل داع ولو كانت عقولا كاملة كانت كالأشجرة الكبيرة التي لا تتلاعب بها الرياح .
وهذا بخلاف المثل الذي ضربه النبي ﷺ للمؤمنين بالخامة من الزرع تقيمه الريح مرة
وتقيمه أخرى والمنافق كشجرة الأرز التي لا تقطع حتى تستحصد فإن هذا المثل ضرب
للدؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع والأوجال وغيرها فلا يزال بين عافية
وبلاء ومحنة ومنحة وصحة وسقم وأمن وخوف وغير ذلك فيقع مرة ويقوم أخرى ويميل
تارة ويمتدل أخرى فيكفر عنه بالبلاء ويمحص به ويخلص من كدره والكافر كله خبث
ولا يصلح إلا للوقود فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة
المؤمن فهذه حال المؤمن في الابتلاء . وأما مع الأهواء ودعاة الفتن والضلال والبدع
فكما قيل :

نزول الجبال الراسيات وقلبه على العهد لا يلوى ولا يتغير

وقوله رضى الله عنه لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق بين السبب الذي
جعلهم بتلك المثابة وهو أنه لم يحصل لهم من العلم نور يفرقون به بين الحق والباطل . كما قال
تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم
نورا تمشون به) . وقال تعالى (أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس
كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها) . وقوله تعالى (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل
السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور) الآية . وقوله (ولكن جعلناه نورا نهدي به من
نشاء من عبادنا) فإذا عدم القلب هذا النور صار بمنزلة الحيران الذي لا يدري أين يذهب
فهو لحيرته وجهله بطريق مقصوده يؤم كل صوت يسمعه ولم يسكن قلوبهم من العلم ما تمتنع
به من دعاة الباطل فإن الحق متى استقر في القلب قوى به وامتنع بما يضره ويهلكه . ولهذا سمي
الله الحجة العالمية سلطانا وقد تقدم ذلك فالعبد يؤتى من ظلمة بصيرته ومن ضعف قلبه فإذا

استقر فيه العلم النافع استنارت بصيرته وقوى قلبه وهذا ان الاصلان هما قطب السعادة أعنى العلم والقوة وقد وصف بهما سبحانه العلم الأول جبريل صلوات الله وسلامه عليه فقال (إن هو إلا وحى يوحى عليه شديد القوى) . وقال تعالى فى سورة التكويد (إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين) فوصفه بالعلم والقوة وفيه معنى أحسن من هذا وهو الأشبه بمراد على رضى الله عنه وهو أن هؤلاء ايسوا من أهل البصائر الذين استضاءوا بنور العلم ولا لجئوا إلى عالم مستبصر فقلدوه ولا متبعين لمستبصر فإن الرجل إما أن يكون بصيراً أو أعمى متمسكا ببصير يقوده أو أعمى يسير بلا قائد . وقوله رضى الله عنه العلم خير من المال العلم يجرسك وأنت تجرس المال . يعنى أن العلم يحفظ صاحبه ويحميه من موارد الهلكة ومواقع العطب فإن الإنسان لا يلقى نفسه فى هلكة إذا كان عقله معه ولا يعرضها لمتلف إلا إذا كان جاهلا بذلك لا علم له به فهو كمن يأكل طعاما مسموما فالعالم بالسهم وضرره يجرسه عليه ويمتنع به من أكله والجاهل به يقتله جهله فهذا مثل حراسة العلم للعالم وكذا الطيب الحاذق يمتنع بعلمه عن كثير ما يجلب له الأمراض والأسقام وكذا العالم بمخاوف طريق سلوكه ومعاطبها يأخذ حذره منها فيجرسه عليه من الهلاك وهكذا العالم بالله وبأمره وبعده ومكائده ومدخله على العبد يجرسه عليه من وساوس الشيطان وخطراته وإلقاء الشك والريب والكفر فى قلبه فهو بعلمه يمتنع من قبول ذلك فعلمه يجرسه من الشيطان فكلمنا جاء لياخذ صاحبه بحرس العلم والإيمان فيرجع خاصنا خائبا . وأعظم ما يجرسه من هذا العدو المبين العلم والإيمان فهذا السبب الذى من العبد والله من وراء حفظه وحراسته وكلاءته ففى وكله إلى نفسه طرفة عين تخطفه عدوه . قال بعض العارفين أجمع العارفون على أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك وأجمعوا على أن الخذلان أن يخلى بينك وبين نفسك . وقوله العلم يزكو على الإنفاق والمال تنقصه النفقة العالم كلما بذل عليه للناس وأنفق منه تفجرت يتابعه فإزداد كثرة وقوة وظهوراً فيكتسب بتعليمه حفظ ما علمه ويحصل له به علم مالم يكن عنده وربما تكون المسئلة فى نفسه غير مكشوفة ولا خارجة من حيز الإشكال فإذا تكلم بها وعلمها اتضحت له وأضامت وانفتح له منها علوم أخر . وأيضاً فإن الجزء من جنس العمل فكما علم الخلق من جهاتهم جزاء الله بأن علمه من جهاته كما فى صحيح مسلم من حديث عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فى حديث طويل وإن الله قال لى أنفق أنفق عليك وهذا يتناول نفقة العلم إما بالفظه وإما بتعليمه وإشارته ونحوه ولزكاء العلم ونحوه طريقان أحدهما تعليمه والثانى العمل به فإن العمل به أيضاً ينميه ويكثره ويفتح لصاحبه أبوابه وخباياه وقوله والمال تنقصه النفقة لا ينافى قول النبى صلى الله عليه وسلم ما نقصت صدقة من مال فإن المال إذا تصدقت منه وأنفقت ذهب ذلك القدر

وخلفه غيره . وأما العلم فكالقنبر من النار لو اقتبس منها العالم لم يذهب منها شيء بل يزيد العلم بالاقتراب منه فهو كالعين التي كلما أخذ منها قوى يذوبها وجاش معيها وفضل العلم على المال يعلم من وجوه أحدها أن العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الملوك والأغنياء والثاني أن العلم يحرص صاحبه وصاحب المال يحرص ماله . والثالث أن المال تذهبه النفقات والعلم يزكو على النفقة . الرابع أن صاحب المال إذا مات فارقه ماله والعلم يدخل معه قبره . الخامس أن العلم حاكم على المال والمال لا يحكم على العلم . السادس أن المال يحصل للمؤمن والكافر والبر والفاجر والعلم النافع لا يحصل إلا للمؤمن . السابع أن العالم يحتاج إليه الملوك فن دونهم وصاحب المال إنما يحتاج إليه أهل العدم والفاقة . الثامن أن النفس تشرف وتزكو بجمع العلم وتحصيله وذلك من كمالها وشرفها والمال يزيكها ولا يكملها ولا يزيد لها صفة كمال بل النفس تنقص وتشح وتبخل بجمعه والحرص عليه فحرصها على العلم عين كمالها وحرصها على المال عين نقصها التاسع أن المال يدعوها إلى الطغيان والفخر والخيلاء والعلم يدعوها إلى التواضع والقيام بالعبودية فالمال يدعوها إلى صفات الملوك والعلم يدعوها إلى صفات العبيد . العاشر أن العلم جاذب موصل لها إلى سعادتها التي خلقت لها والمال حجاب بينها وبينها . الحادي عشر أن غنى العالم أجل من غنى المال فإن غنى المال غنى بأمر خارجي عن حقيقة الإنسان لو ذهب في ليلة أصبح فقيراً معدماً وغنى العلم لا يخشى عليه الفقر بل هو في زيادة أبداً فهو الغنى العالی حقيقة كما قيل .

غنيت بلا مال عن الناس كلهم وإن الغنى العالی عن الشيء لا به

الثاني عشر أن المال يستعبد محبه وصاحبه فيجعل له عبداً له كما قال النبي صلى الله عليه وسلم تأس عبد الدينار والدرهم الحديث والعلم يستعبد له ربه وخالقه فهو لا يدعو إلا إلى عبودية الله وحده . الثالث عشر أن حب العلم وطلبه أصل كل طاعة وحب الدنيا والمال وطلبه أصل كل سيئة . الرابع عشر أن قيمة الغنى ماله وقيمة العالم علمه فهذا متقوم بماله فاذا عدم ماله عدمت قيمته وبقي بلا قيمة والعالم لا تزول قيمته بل هي في تضاعف وزيادة دائماً . الخامس عشر أن جوهر المال من جنس جوهر البدن وجوهر العلم من جنس جوهر الروح كما قال يونس بن حبيب علمك من روحك ومالك من بدنك والفرق بين الأمرين كالفرق بين الروح والبدن . السادس عشر أن العالم لو عرض عليه بحظه من العلم الدنيا بما فيها لم يرضها عوضاً من علمه والغنى العاقل إذا رأى شرف العلم وفضله وابتهاجه بالعلم وكاله به يود لو أن له علمه بغناه أجمع . السابع عشر أنه ما أطاع الله أحد قط إلا بالعلم وعمامة من يعصيه إنما يعصيه بالمال . الثامن عشر أن العالم يدعو الناس إلى الله بعلمه وحاله وجامع المال يدعوهم إلى الدنيا بحاله وماله . التاسع عشر أن غنى المال قد يكون سبب هلاك صاحبه كثير أ فانه معشوق النفوس فاذا رأت من يستأثر بمعشوقها عليها سمعت في هلاكه كما هو الواقع وأما غنى

(٩ - مفتاح ١)

العلم فسبب حياة الرجل وحياة غيره به والناس إذا رأوا من يستأثر عليهم به ويطلبه أحبوه وخدموه وأكرموه العشرون إن اللذة الحاصلة من غنى إما لذوة وهمية وإما لذوة بهيمية فإن صاحب التذ بنفس جمعه وتحصيله فتلك لذوة وهمية خيالية وإن التذ بانفاهة في شهواته فهي لذوة بهيمية وأما لذوة العلم فلذوة عقلية: روحانية وهي تشبه لذوة الملائكة وبهجتها وفرق ما بين اللذتين ، الحادى والعشرون إن عقلاء الأمم مطبقون على ذم الشره في جمع المال الحريص عليه وتنقصه والإضرار به ومطبقون على تعظيم الشره في جمع العلم وتحصيله ومدحه ومحبه ورؤيته بعين السكال الثانى والعشرون أنهم مطبقون على تعظيم الزاهد في المال الممرض عن جمه الذى لا يلتفت إليه ولا يجعل قلبه عبداً له ومطبقون على ذم الزاهد في العلم الذى لا يلتفت إليه ولا يحرص عليه للثالث والعشرون أن المال يمدح صاحبه بتخليه منه وإخراجه والعلم إنما يمدح بتخليه به واتصافه به الرابع والعشرون أن غنى المال مقرون بالخوف والحزن فهو حزين قبل حصوله خائف بعد حصوله وكلما كان أكثر كان الخوف أقوى وغنى العام مقرون بالأمن والفرح والسرور . الخامس والعشرون أن الغنى بما له لا بد أن يفارقه غناه ويتعذب ويتألم بفراقه والغنى بالعلم لا يزول ولا يتعذب صاحبه ولا يتألم فلذوة الغنى بالمال لذوة زائلة منقطعة يعقبها الألم ولذوة الغنى بالعلم لذوة باقية مستمرة لا يلحقها ألم . السادس والعشرون إن استلذاذ النفس وكالها بالغنى استكمال بعارية مؤداة فتجعلها بالمال تجعل بثوب مستعار لا بد أن يرجع إلى مالكة يوماً ما وأما تجعلها بالعلم وكالها به فتجعل بصفة ثابتة لها راسخة فيها لا تفارقها . السابع والعشرون أن الغنى بالمال هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو عين فقر النفس والغنى بالعلم هو غناها الحقيقي فغناها بما لها هو الغنى وغناها بما لها هو الفقر . الثامن والعشرون أن من قدم وأكرم لماله إذا زال ماله زال تقديمه وإكرامه ومن قدم وأكرم لعلمه لا يزداد الا تقديمه وإكرامه . التاسع والعشرون ان تقديم الرجل لماله هو عين ذمه فانه نداء عليه بنقصه وانه اولا ماله امكن مستحقاً للتأخر والإهانه وأما تقديمه وإكرامه لعلمه فانه عين كاله اذ هو تقديم له بنفسه وبصفته القائمة به لا بأمر خارج عن ذاته . الوجه الثلاثون أن طالب السكال بغنى المال كالجامع بين الضدين فهو طالب ما لا سبيل له اليه (ويان ذلك) ان القدرة صفة كمال وصفة السكال محبوبة بالذات والاستغناء عن الغير أيضا صفة كمال محبوبة بالذات فاذا مال الرجل بطبعه الى السخاوة والجود وفعل المكرمات فهذا كمال مطلوب للمقلاء محبوب للنفوس واذا التفت الى أن ذلك يقتضى خروج المال من يده وذلك يوجب نقصه واحتياجه الى الغير وزوال قدرته فقرت نفسه عن السخاء والكرم والجود واصطناع المعروف وظن أن كماله فى إمساك المال وهذه البلية أمر ثابت لعامة الخلق لا ينفكون عنها فلأجل ميل الطبع إلى حصول المدح والثناء والتعظيم محب الجود والسخاء

والمسكارم ولاجل فوت القدرة الحاصلة بسبب إخراجها والحاجة المنافية لكمال الغنى يجب ابقاء ماله ويكره السخاء والكرم والجود فيبقى قلبه واقفاً بين هذين الداعين يتجاذبانه ويعتوران عليه فيبقى القلب في مقام المعارضة بينهما فمن الناس من يرجح عنده جانب البذل والجود والكرم فيؤثره على الجانب الآخر . ومنهم من يرجح عنده جانب الإمساك وبقاء القدرة والغنى فيؤثره فهذان نظران للعقلاء . ومنهم من يبلغ به الجهل والحماسة إلى حيث يريد الجمع بين الوجهين فيعد الناس بالجود والسخاء والمسكارم طمعاً منه في فوزه بالمدح والثناء على ذلك وعند حضور الوقت لا يبق بما قال فيستحق الذم ويبذل بلسانه ويمسك بقلبه ويده فيقع في أنواع القبائح والفضائح . وإذا تأملت أحوال أهل الدنيا من الأغنياء رأيتهم تحت أسر هذه البلية وهم غالباً يكون ويشكون . وأما غنى العلم فلا يعرض له شيء من ذلك بل كلما بذله ازداد يبذله فرحاً وسروراً وابتهاجاً وإن فاته لذة أهل الغنى وتمتعهم بأموالهم فهم أيضاً قد فاتهم لذة أهل العلم وتمتعهم بعلومهم وابتهاجهم بها فمع صاحب العلم من أسباب اللذة ما هو أعظم وأقوى وأدوم من لذة الغنى وتعبه في تحصيله وجمعه وضبطه أقل من تعب جامع المال فجمعه وألمه دون ألمه كما قال تعالى للمؤمنين تسليته لهم بما يتألمون من الألم والتعب في طاعته ومرضاته (ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليماً حكيماً) . الحادى والثلاثون أن اللذة الحاصلة من المال والغنى إنما هي حال تجدده فقط . وأما حال دوامه فيما أن تذهب تلك اللذة وإما أن تنقص ويدل عليه أن الطبع يبقى طالباً لغنى آخر حريصاً عليه فهو يحاول تحصيل الزيادة دائماً فهو في فقر مستمر غير منقضى ولو ملك خزائن الأرض فققره وطالبه وحرصه باق عليه فإنه أحد المنهزمين اللذين لا يشبعان فهو لا يفارقه ألم الحرص والطلب . وهذا بخلاف غنى العلم والإيمان فإن لذته في حال بقاءه مثلها في حال تجدده بل أزيد وصاحبها وإن كان لا يزال طالباً للزيد حريصاً عليه فطلبه وحرصه مستصحب للذة الحاصل ولذة المرجو والمطلوب ولذة الطلب وابتهاجه وفرحه به . الثانى والثلاثون أن غنى المال يستدعى الإناعام على الناس والإحسان إليهم فصاحبه إما أن يسد على نفسه هذا الباب وإما أن يفتحه عليه فإن سده على نفسه اشتهر عند الناس بالبعد من الخير والذم فأبغضوه وذموه واحتقروه وكل من كان بغيضاً عند الناس حقيراً لديهم كان وصول الآفات والمضرات إليه أسرع من النار في الحطب اليابس ومن السيل في منحدره وإذا عرف من الخلق أنهم يمقتونه ويبغضونه ولا يقيمون له وزناً تألم قلبه غاية التألم وأحضر المموم والغموم والأحزان . وإن فتح باب الإحسان والعطاء فإنه لا يمكنه إيصال الخير . والإحسان إلى كل أحد فلا بد من إيصاله إلى البعض وإمساكه عن البعض وهذا

يفتح عليه باب العداوة والمذمة من المحروم والمرحوم . أما المحروم فيقول كيف جاد على غيري
وبخل على وأما المرحوم فانه يلتذ ويفرح بما حصل له من الخير والنفع فيبقى طامعاً مستشرفاً
لنظيره على الدوام وهذا قد يتعذر غالباً فيفضي ذلك إلى العداوة الشديدة والمذمة . ولهذا
قيل اتق شر من أحسنت إليه وهذه الآفات لا تعرض في غنى العلم فان صاحبه يمكنه بذله
للعالم كلهم واشتراكهم فيه والقدر المبذول منه باق لآخذه لا يزول بل يتجر به فهو كالغني
إذا أعطى الفقير رأس مال يتجر به حتى يصير غنياً مثله . الوجه الثالث والثلاثون إن جمع المال
مقرون بثلاثة أنواع من الآفات والمحن نوع قبله ونوع عند حصوله ونوع بعد مفارقتها .
فأما النوع الأول فهو المشاق والانكاد والآلام التي لا يحصل إلا بها . وأما النوع الثاني
فشقة حفظه وحراسته وتعلق القلب به فلا يصبح إلا مهموماً ولا يسمى إلا مغموماً فهو بمنزلة
عاشق مفرط المحبة قد ظفر بمعشوقه والعيون من كل جانب ترهقه والألسن والقلوب ترشقه
فأى عيش ولذة لمن هذه حاله وقد علم أن أعداءه وحساده لا يفترون عن سعيهم في التفريق
بينه وبين معشوقه وإن لم يظفروا هم به دونه ولكن مقصودهم أن يزيلوا اختصاصه به دونهم
فان فازوا به وإلا استولوا في الحرمان فزال الاختصاص المؤلم للنفس ولو قدروا على مثل
ذلك مع العالم لفعلوه ولسكنهم لما علموا أنه لا سبيل إلى سلب علمه عمدوا إلى جحده وانكاره
ليزيلوا من القلوب محبته وتقديمه والثناء عليه فان بهرعله وامتنع عن مكابرة الجحود والانكار
رموه بالعظائم ونسبوه إلى كل قبيح ليزيلوا من القلوب محبته ويسكنوا موضعها النفرة عنه
وبغضه وهذا شغل السحرة بعينه فهو لاء سحرة بألسنتهم فان عجزوا له عن شيء من القبائح
الظاهرة رموه بالتلبس والتدليس والدوكة والرياء وحب الترفع وطلب الجاه وهذا القدر
من معاداة أهل الجهل والظلم للعلماء مثل الحر والبرد لا بد منه فلا ينبغي لمن له مسكة عقل
أن يتأذى به إذ لا سبيل له إلى دفعه بحال فليوطن نفسه عليه كما يوطنها على برد الشتاء
وحر الصيف . والنوع الثالث من آفات الغنى ما يحصل للتبذ بعد مفارقتها من تعلق قلبه به
وكونه قد حيل بينه وبينه والمطالبة بمحقوقه والمحاسبة على مقبوضه ومصروفه من أين اكتسبه
وفيما ذا أنفقه وغنى العلم والإيمان مع سلامته من هذه الآفات فهو كفقيل بكل لذة وفرحة
وسرور ولكن لا ينال إلا على جسر من النعب والصبر والمشقة . الرابع والثلاثون إن لذة
الغنى بالمال مقرونة بخلاطة الناس ولو لم يكن إلا خدمه وأزواجه وسراريه وأتباعه إذ لو انفرد
الغنى بماله وحده من غير أن يتعلق بخادم أو زوجة أو أحد من الناس لم يكمل انتفاعه بماله
ولا التذاه به وإذا كان كمال لذته بغناء موقوفاً على اتصاله بالغير فذلك منشأ الآفات والآلام
ولو لم يكن إلا اختلاف الناس وطبايعهم وأرادتهم فجميع هذا حسن ذلك ومصلحة ذلك مفسدة

هذا ومنفعة هذا مضرة ذلك وبالعكس فهو مبتلى بهم فلا بد من وقوع النفرة والتباغض والتعادى بينهم وبينه فان إرضاءهم كلهم محال وهو جمع بين الضدين وإرضاء بعضهم واستخاط غيره سبب الشر والمعادة وكلما طالت المخالطة ازدادت أسباب الشر والعداوة وقويت وبهذا السبب كان الشر الحاصل من الأقارب والعشراء أضعاف الشر الحاصل من الأجانب والبعداء وهذه المخالطة انما حصلت من جانب الغنى بالمال أما إذا لم يكن فيه فضيلة لهم فانهم يتجنبون مخالطته ومعاشرته فيستريح من أذى الخلطة والعشرة وهذه الآفات معدودة في الغنى بالعلم . الخامس والثلاثون إن المال لا يراد لذاته وعينه فانه لا يحصل بذاته شيء من المنافع أصلا فانه لا يشبع ولا يروى ولا يدفء ولا يتمتع وإنما يراد لهذه الأشياء فانه لما كان طريقا إليها أريد اعادة الوسائل . ومعلوم أن الغايات أشرف من الوسائل فهذه الغايات إذا أشرف منه وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصة دينية وقد ذهب كثير من العقلاء إلى أنها لا حقيقة لها وانما هي دمع الألم فقط فان لبس الثياب مثلا انما فائدته دفع التآلم بالحر والبرد والريح وليس فيها لذة زائدة على ذلك وكذلك الأكل إنما فائدته دفع ألم الجوع ولهذا لولم يجد ألم الجوع لم يستطب الأكل وكذلك الشرب مع العطش والراحة مع التعب . ومعلوم أن في مزاولته ذلك وتحصيله ألما وضرراً ولكن ضرره وألمه أقل من ضرر ما يدفع به وألمه فيحتمل الإنسان أخف الضررين دفعا لأعظمهما . وحكى عن بعض العقلاء أنه قيل له وقد تناول قدحا كريها من الدواء كيف حالك معه قال أصبحت في دار بليات أدافع آفات بأفات . وفي الحقيقة فلذات الدنيا من المآكل والمشارب واللبس والمسكن والمنسكح من هذا الجنس واللذة التي يباشرها الحس ويتحرك لها الجسد وهي الغاية المطلوبة له من لذة المنسكح والمآكل شهوتى البطن والفرج ليس لهما ثالث البتة إلا ما كان وسيلة اليهما وطريقا إلى تحصيلهما وهذه اللذة منغصة من وجوه عديدة منها أن تصور زوالها وانقضائها وفنائها يوجب تنغصها . ومنها أنها مزوجة بالآفات ومعجونة بالآلام محتاطة بالخاوف وفي الغالب لا تنفى آلامها بطبيعتها كما قيل :

قايست بين جمالها وفعالها فاذا الملاحاة بالقباحة لا تنى

ومنها أن الاراذل من الناس وسقطهم يشاركون فيها كبراهم وعقلاءهم بل يزيدون عليهم فيها أعظم زيادة وأخشىا فنسبتهم فيها إلى الافاضل كنسبة الحيوانات البيهيمية اليهم فشاركة الاراذل وأهل الحسنة والدناءة فيها وزيادتهم على العقلاء فيها مما يوجب النفرة والاعراض عنها وكثير من الناس حصل له الزهد في المحبوب والمعشوق منها بهذه الطريق وهذا كثير في أشعار الناس ونثرهم كما قيل

سارك حبها من غير بغض ولكن لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام رفعت يدي ونفسي تشتهي
وتجتنب الاسود ورود ماء إذا كان الكلاب يلغض فيه

وقيل لزامد ماالذي زهدك في الدنيا فقال خسة شركاتها وقلة وفاتها وكثرة جفائها
وقيل لآخر في ذلك فقال مامدحت يدي إلى شيء منها إلا وجدت غيري قد سبقني اليه
فاتركه له . ومنها أن الالتذاذ بموقعها إنما هو بقدر الحاجة اليها والتألم بمطالبة النفس لتناولها
وكما كانت شهوة الظفر بالشئ أقوى كانت اللذة الحاصلة بوجوده أكل فلما لم تحصل تلك
الشهوة لم تحصل تلك اللذة فمقدار اللذة الحاصلة في الحال مساو لمقدار الحاجة والالم والمضرة في
الماضي وحينئذ يتقابل اللذة الحاصلة والالم المتقدم فيتساقطان فتصير اللذة كأنها لم توجد ويصير
بمنزلة من شق بطن رجل ثم خاطه وداواه بالمرام أو بمنزلة من ضربه عشرة أسواط وأعطاه
عشرة دراهم ولا يخرج لذات الدنيا غالبا عن ذلك ومثل هذا لا يعد لذة ولا سعادة ولا كالا
بل هو بمنزلة قضاء الحاجة من البول والغائط فان الإنسان يتضرر بثقله فاذا قضى حاجته
استراح منه فاما أن يعد ذلك سعادة وبهجة ولذة مطلوبة فلا . ومنها أن هاتين اللذتين اللتين
هما أثر اللذات عند الناس ولا سبيل إلى نيلهما إلا بما يقترن بهما قبلهما وبعدهما من مباشرة
القاذورات والتألم الحاصل عقبيهما مثال لذة الأكل فان العاقل لو نظر إلى طعامه حال مخالطته
ويقه وعجنه به لتفرت نفسه منه ولو سقت تلك اللقمة من فيه لنفر طبعه من اعادتها اليه ثم
إن لذته به إنما تحصل في مجرى نحو الأربيع الأصابع فاذا فصل عن ذلك المجرى زال تلذذه
به فاذا استقر في معدته وخاطله الشراب وما في المعدة من الأجزاء الفضلية فانه حينئذ يصير
في غاية الحسة فان زاد على مقدار الحاجة أورت الادواء المختلفة على تنوعها ولولا أن
بقائه موقوف على تناوله لكان تركه والحالة هذه أليق به كما قال بعضهم :

لولا قضاءه جرى نزهت أنملي عن أن تلم بما كول ومشروب

وأما لذة الوقاع فقدرها أبين من أن تذكر آفاته ويدل عليه أن أعضاء هذه اللذة هي
عورة الإنسان التي يستحيا من رؤيتها وذكرها وسرها أمر فطر الله عليه عباده ولا تتم
لذة الموافقة إلا بالاطلاع عليها وإبرازها والتلطيخ بالرطوبات المستقدرة المتولدة منها ثم إن
تمامها إنما يحصل بانفصال النطفة وهي اللذة المقصودة من الوقاع وزمنها يشبه الآن الذي
لا ينقسم فصعوبة تلك المزاولة والمحاولة والمطاولة والمراورة والتعب لأجل لذة لحظة كد
الطرف فأين مقايسة بين هذه اللذة وبين التعب في طريق تحصيلها . وهذا يدل على أن هذه

اللذة ليست من جنس الخيرات والسعادات والكمال الذي خلق له العبد ولا كمال له بدونه بل ثم أمر وراء ذلك كله قد هيء له العبد وهو لا يفعلن له لغفته عنه وإعراضه عن التفيتش على طريقه حتى يصل اليه يسوم نفسه مع الانعام السائمة :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فاربأ نفسك أن ترعى مع الحمل

وموقع هذه اللذات من النفس كموقع لذة البراز من رجل احتبس في موضع لا يمكنه القيام إلى الخلاء وصار مضطراً اليه فانه يجد مشقة شديدة وبلاء عظيماً فاذا تمكن من الذهاب إلى الخلاء وقدر على دفع ذلك الخبيث المؤذي وجد لذة عظيمة عند دفعه وإرساله ولا لذة هناك إلا راحته من حمل ما يؤذيه حمله . فعمل أن هذه اللذات إما أن تكون دفع الآلام وإما أن تكون لذات ضعيفة خسيصة مقترنة بأفات ترى مضرتها عليه وهذا كما يعقب لذة الوقاع من ضعف القلب وخفقان الفؤاد وضعف القوى البدنية والقلبية وضعف الارواح واستيلاء العفونة على كل البدن واسرع الضعف والخور اليه واستيلاء الاخلاط عليه اضعف القوة عن دفعها وقهرها . . . وما يدل على أن هذه اللذات ايسب خيرات وسعادات وكألا أن العقلاء من جميع الأمم مطبقون على ذم من كانت هي نهمته وشغله ومصرف همته وإرادته والازراء به وتحقير شأنه والحاقه بالبهائم ولا يقيمون له وزنا ولو كانت خيرات وكألا لكان من صرف اليها همته أكمل الناس . وما يدل على ذلك أن القلب الذي قد وجه قصده وإرادته إلى هذه اللذات لا يزال مستغرقاً في الهموم والغموم والاحزان وما يتاله من اللذات في جنب هذه الآلام كقطرة في بحر كاقيل سروره ووزن حبة ووزن قطار فإن القلب يجرى بجرى مرآة منصوبة على جدار وذلك الجدار عمر لأنواع المشتريات والمليذوذات والمكروهات وكلما مر به شيء من ذلك ظهر فيه أثره فإن كان محبوباً مشتها مال طبعه إليه فإن لم يقدر على تحصيله تألم وتعذب بفقده وإن قدر على تحصيله تألم في طريق الحصول بالتعب والمشقة ومنازعة الغير له ويتألم حال حصوله خوفاً من فراقه وبعد فراقه خوفاً على ذهابه وإن كان مكروهاً له ولم يقدر على دفعه تألم بوجوده وإن قدر على دفعه اشتغل بدفعه ففاته مصلحة راجحة الحصول فيتألم لفواتها فعمل أن هذا القلب أبداً مستغرق في بحار الهموم والغموم والاحزان وإن نفسه تضحك عليه وترضيه بوزن ذرة من لذته فيغييب بها عن شهوده القناطر من ألمه وعذابه فإذا حيل بينه وبين تلك اللذة ولم يبق له إليها سبيل تجرد ذلك الآلام وأحاط به واستولى عليه من كل جهاته فقل ماشئت في حال عبد قد غيب عنه سعده وحظوظه وأفراحه وأحضر شقوته وهمومه وغموه وأحزانه وبين العبد وبين هذه الحال أن ينكشف الغطاء ويرفع الستار وينجلي الغبار ويحصل

ما في الصدور فإذا كانت هذه غاية اللذات الحيوانية التي هي غاية جمع الأموال وطلبها فما الظن بقدر الوسيلة . وأما غنى العلم والإيمان فدائم اللذة متصل الفرحة مقتض لأنواع المسرة والبهجة لا يزول فيحزن ولا يفارق فيؤلم بل أصحابه كما قال الله تعالى فيهم (لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) . السادس والثلاثون إن غنى المال يبغض الموت ولقاء الله فانه لحبه لماله يكره مفارقه ويجب بقاءه ليشتمع به كاشهد به الواقع . وأما العلم فانه يجب للعبد لقاء ربه ويزهده في هذه الحياة النكدة الفانية . السابع والثلاثون إن الأغنياء يموت ذكرهم بموتهم والعلماء يموتون ويبقى ذكرهم كما قال أمير المؤمنين في هذا الحديث مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقى الدهر فخزان الأموال أحياء كاموات والعلماء بعد موتهم أموات كاحياء . الثامن والثلاثون إن نسبة العلم إلى الروح كنسبة الروح إلى البدن فالروح ميتة حياتها بالعلم كما أن الجسد ميت حياته بالروح فالغنى بالمال غايته أن يزيد في حياة البدن وأما العلم فهو حياة القلوب والأرواح كما تقدم تقريره . التاسع والثلاثون إن القلب ملك البدن والعلم زينه وعدته وماله وبه قوام ملكه والملك لا بد له من عدد وعدة ومال وزينة فالعلم هو مركبه وعدته وجماله . وأما المال فغايته أن يكون زينة وجمالا للبدن إذا أنفقه في ذلك فإذا خزنه ولم ينفقه لم يكن زينة ولا جمالا بل نقصاً ووبالاً . ومن المعلوم أن زينة الملك به ومابه قوام ملكه أجل وأفضل من زينة رعيته وجماله قوام القلب بالعلم كما أن قوام الجسم بالغذاء . الوجه الأربعون أن القدر المقصود من المال هو ما يكفي العبد ويقيمه ويدفع ضرورته حتى يتمكن من قضاء جهازه ومن التزود لسفره إلى ربه عز وجل فإذا زاد على ذلك شغله وقطعه عن السفر وعن قضاء جهازه وتعبية زاده فكان ضرره عليه أكثر من مصلحته وكلما ازداد غناه به ازداد تثبطاً وتخلفاً عن التجهز لما أمامه . وأما العلم النافع فكما ازداد منه ازداد في تعبئة الزاد وقضاء الجهاز وإعداد عدة المسير والله الموفق وبه الاستعانة ولا حول ولا قوة إلا به فعدة هذا السفر هو العلم والعمل وعدة الإقامة جمع الأموال والإدخار ومن أراد شيئاً هياً له عدته . قال تعالى (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدین) . قوله محبة العلم أو العالم دين يدان بها لأن العلم ميراث الأنبياء والعلماء ورثتهم فحبة العلم وأهله محبة لميراث الأنبياء وورثتهم وبغض العلم وأهله بغض لميراث الأنبياء وورثتهم فحبة العلم من علامات السعادة وبغض العلم من علامات الشقاوة وهذا كله إنما هو في علم الرسل الذي جاؤا به وورثوه للامة لا في كل ما يسمى علماً . وأيضاً فان محبة العلم تحمل على تعلمه واتباعه وذلك هو الدين وبغضه ينهى عن تعلمه واتباعه

وذلك هو الشقاء والضلال وأيضاً فإن الله سبحانه عليم يجب كل عليم وإنما يضع علمه عند من يحبه فن أحب العلم وأهله فقد أحب ما أحب الله وذلك بما يدان به . قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته وجميل الأحدثه بعد مماته يكسبه ذاك أى يجعله كسبا له ويورثه إياه ويقال كسبه ذلك عزا وطاعة وأكسبه لغتان ومنه حديث خديجة رضى الله عنها إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتكسب المعدوم روى بفتح التاء وضمها ومعناه تكسب المال والغنى هذا هو الصواب وقالت طائفة من رواه بضمها فذلك من أكسبه مالا وعزاً ومن رواه بفتحها فعناه تكسب أنت المال المعدوم بمعرفتك وحذقك بالتجارة ومعاذ الله من هذا الفهم وخديجة أجل قدراً من تكلمها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أبشر فوالله لا يخزيك الله إنك تكسب الدرهم والدينار وتحسن التجارة ومثل هذه التحريفات إنما تذكر لثلاثا يفترها في تفسير كلام الله ورسوله . والمقصود أن قوله العلم يكسب العالم الطاعة في حياته أى يجعله مطاعاً لأن الحاجة إلى العلم عامة لكل أحد للولوك فن دونهم فكل أحد محتاج إلى طاعة العالم فإنه يأمر بطاعة الله ورسوله فيجب على الخلق طاعته . قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وفسر أولى الأمر بالعلماء قال ابن عباس هم الفقهاء والعلماء أهل الدين الذين يعملون الناس دينهم أوجب الله تعالى طاعتهم . وهذا قول مجاهد والحسن والضحاك واحدى الروایتين عن الإمام أحمد وفسروا بالأمراء وهو قول ابن زيد واحدى الروایتين عن ابن عباس وأحمد والآية تتناولها جميعاً فطاعة ولادة الأمر واجبة إذا أمروا بطاعة الله ورسوله وطاعة العلماء كذلك فالعالم بما جاء به الرسول العامل به أطوع في أهل الأرض من كل أحد فإذا مات أحياء الله ذكره ونشر له في العالمين أحسن الثناء فالعالم بعد وفاته ميت وهو حى بين الناس والجاهل في حياته حى وهو ميت بين الناس . كما قيل

وفى الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسامهم قيل القبور قبور
وأرواحهم فى وحشة من جسمهم وأيس لهم حتى النشور نشور

(وقال الآخر)

قد مات قوم وما ماتت مكارمهم وعاش قوم وهم فى الناس أموات

(وقال آخر)

وما دام ذكر العبد بالفضل باقياً فذلك حى وهو فى التراب هالك

ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كأئمة الحديث والفقهاء كيف هم تحت التراب وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم وإلا فذكورهم وحديثهم والثناء عليهم غير منقطع وهذه هي الحياة حقاً حتى عد ذلك حياة ثانية . كما قال المتنبي .

ذكر الفتى عيشه الثاني وحاجته مافاته وفضول العيش أشغال

قوله وصنيفة المال تزول بزواله يعني أن كل صنيفة صنعت للرجل من أجل ماله من إكرام ومحبة وخدمة وقضاء حوائج وتقديس واحترام وتولية وغير ذلك فإنها إنما هي مراعاة لماله فإذا زال ماله وفارقه زالت تلك الصنائع كلها حتى إنه ربما لا يسلم عليه من كان يدب في خدمته ويسعى في مصالحه . وقد أكثر الناس من هذا المعنى في أشعارهم وكلامهم وفي مثل قولهم .
من ودك لأمر ملك عند انقضائه . قال بعض العرب .

ومن هذا ما قيل إذا أكرمك الناس لمال أو سلطان فلا يبجبتك ذلك فإن زوال الكرامة بزوالها ولكن ليعجبك إن أكرموك لعلم أو دين وهذا أمر لا ينكر في الناس حتى أنهم ليكرموا الرجل لثيابه فإذا نزعها لم يكرمهم تلك الكرامة وهو هو قال مالك بلغني أن أبا هريرة دعى إلى وليمة فأتى فحجب فرجع فلبس غير تلك الثياب فادخل فلما وضع الطعام أدخله في الطعام فموتب في ذلك فقال إن هذه الثياب هي التي أدخلت فهي تأكل حكاة ابن مزين الطليطلي في كتابه وهذا بخلاف صنيفة العلم فإنها لا تزول أبداً بل كل ما لها في زيادة مالم يسلب ذلك العالم علمه وصنيفة العلم والدين أعظم من صنيفة المال لأنها تكون بالقلب واللسان والجوارح فهي صادرة عن حب وإكرام لأجل ما أودعه الله تعالى إياه من علمه وفضله به على غيره . وأيضاً فصنيفة العلم تابعة لنفس العالم وذاته وصنيفة المال تابعة لماله المنفصل عنه . وأيضاً فصنيفة المال صنيفة معاوضة وصنيفة العلم والدين صنيفة حب وتقرب وديانة وأيضاً فصنيفة المال تكون مع البر والفاجر والمؤمن والكافر وأما صنيفة العلم والدين فلا تكون إلا مع أهل ذلك وقد يراد من هذا أيضاً معنى آخر وهو أن من اصطنعت عنده صنيفة بمالك إذا زال ذلك المال وفارقه عدت صنيفتك عنده وأما من اصطنعت إليه صنيفة علم وهدى فإن تلك الصنيفة لانفارقه أبداً بل ترى في كل وقت كأنك أسديتها إليه حينئذ ، قوله مات خزان الأموال وهم أحياء قد تقدم بيانه . وكذا قوله والعلاء باقون ما بقى الدهر . وقوله أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة المراد بأمثالهم صورهم العملية ووجودهم المثالي أي وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تفارقها وهذا هو الوجود الذهني العلي لأن محبة الناس لهم واقتداءهم بهم وانتفاعهم بعلومهم

يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم وقبلة قلوبهم فهم موجودون معهم وحاضرون عندهم وان غابت عنهم أعينهم كما قيل .

ومن عجب أني أحن إليهم وأسأل عنهم من لقيت وهم معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشواقهم قلبي وهم بين أضلعي

(وقال آخر)

ومن عجب أن يشكو البعد عاشق وهل غاب عن قلب المحب حبيب
خيالك في عيني وذكرك في في ومثواك في قلبي فأين تغيب

قوله آه إن هاهنا علماً وأشار إلى صدره يدل على جواز إخبار الرجل بما عنده من العلم والخير ليقبض منه ولينتفع به . ومنه قول يوسف الصديق عليه السلام اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ علم فمن أخبر عن نفسه بمثل ذلك ليكثر به ما يحبه الله ورسوله من الخير فهو محمود وهذا غير من أخبر بذلك ليكثر به عند الناس ويتعظم وهذا يجازيه الله بمقت الناس له وصغره في عيونهم والأول يكثره في قلوبهم وعيونهم وإنما الأعمال بالنيات وكذلك إذا أتى الرجل على نفسه ليخلص بذلك من مظلة وشر أو ليستوفي بذلك حقاً له يحتاج فيه إلى التعريف بحاله أو ايقطع عنه أطماع السفلة فيه أو عند خطبته إلى من لا يعرف حاله والأحسن في هذا أن يوكل من يعرف به وبحاله فإن لسان ثناء المرء على نفسه قصير وهو في الغالب مذموم لما يقترن به من الفخر والتعظيم . ثم ذكر أصناف حملة العلم الذين لا يصاحون لحمله وهم أربعة أحدهم من ليس هو بمؤمن عليه وهو الذي أوتي ذكاه وحفظاً ولكن مع ذلك لم يؤت ذكاه فهو يتخذ العلم الذي هو آله الدين آله الدنيا يستجلها به ويتوسل بالعلم إليها ويجعل البضاعة التي هي متجر الآخرة متجر الدنيا وهذا غير أمين على ما حمله من العلم ولا يجعله الله إماماً فيه قط فإن الأمين هو الذي لا غرض له ولا إرادة لنفسه إلا اتباع الحق وموافقته فلا يدعو إلى إقامة رياسته ولا دنياه وهذا الذي قد اتخذ بضاعة الآخرة ومتجرها متجراً للدنيا قد خان الله وخان عباده وخان دينه . فلماذا قال غير مأمون عليه وقوله يستظهر بحجج الله على كتابه وبنعمه على عباده هذه صفة هذا الخائن إذا أنعم الله عليه استظهر بتلك النعمة على الناس وإذا تعلم علماً استظهر به على كتاب الله ومعنى استظهاره بالعلم على كتاب الله تحكيمه عليه وتقديمه وإقامته دونه وهذه حال كثير من يحصل له علم فانه يستغنى به ويستظهر به ويحكمه ويجعل كتاب الله تبعاً له يقال استظهر فلان على كذا بكذا أي ظهر عليه به وتقدم وجعله وراء ظهره وليست هذه حال العلماء فإن العالم

حقاً يستظهر بكتاب الله على كل ما سواه فيقدمه ويحكمه ويجمله عياراً على غيره مهيمنا عليه كما جعله الله تعالى كذلك فالمستظهر به موفق سعيد والمستظهر عليه مخذول شقي فمن استظهر على الشيء فقد جعله خلف ظهره مقدماً عليه ما استظهر به وهذا حال من اشتغل بغير كتاب الله عنه واكتفى بغيره منه وقدم غيره وأخره . والصف الثاني من حملة العلم المنقاد الذي لم يثلج له صدره ولم يطمئن به قلبه بل هو ضعيف البصيرة فيه لكننه منقاد لأهله وهذه حال اتباع الحق من مقلديهم وهؤلاء وإن كانوا على سبيل نجاة فليسوا من دعاة الدين وإنما هم من مكثري سواد الجيش لا من أمرائه وفرسانه والمنقاد منفعل من قاده يقوده وهو مطاوع الثلاث وأصله منقيد كما اكتسب ثم أعلت الياء ألفاً لحركتها بعد فتحة فصار منقاد تقول قدته فانقاد أى لم يمتنع والإحناء جميع حنو بوزن علم وهى الجوانب والنواحي والعرب تقول أزجر احناء طيرك أى أمسك نواحي خفتك وطيشك يمينا وشمالا وأماما وخلفا . قال لبيد

فقلت ازدرج احناء طيرك واعلن بانك ان قدمت رجلك عاثر

والطير هنا الخفة والطيش . وقوله يتدححح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة هذا لضعف علمه وقلة بصيرته إذا وردت على قلبه أدنى شبهة قدحت فيه الشك والريب بخلاف الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالته يقينه ولا قدحت فيه شكاً لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات بل إذا وردت عليه ردها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة والشبهة وارد على القلب يحول بينه وبين انكشاف الحق له فتى بأشرف القلب حقيقة العلم لم تؤثر تلك الشبهة فيه بل يقوى علمه ويقينه بردها ومعرفة بطلانها ومتى لم يباشر حقيقة العلم بالحق قلبه قدحت فيه الشك بأول وهلة فإن تداركها وإلا تابعت على قلبه أمثالها حتى يصير شاكاً مراتباً والقلب يتوارده جيشان من الباطل جيش شهوات الغنى وجيش شبهات الباطل فأما قلب صفا إليها وركن إليها تشربها وامتلاها بها فينضح لسانه وجوارحه بموجها فإن أشرب شبهات الباطل تفجرت على لسانه الشكوك والشبهات والایرادات فيظن الجاهل أن ذلك لسعة علمه وإنما ذلك من عدم علمه ويقينه . وقال لى شيخ الإسلام رضى الله عنه وقد جعلت أورد عليه إيراداً بعد إيراد لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فلا ينضح إلا بها ولكن اجمله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهاها ولا تستقر فيها فيراها بصفاته ويدفعها بصلابته وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقراً للشبهات أو كما قال فما أعلم أنى انتفعت بوضعية فى دفع الشبهات كاتفعاى بذلك . وإنما سميته الشبهة شبهة لاشتباه الحق بالباطل فيها فانها تلبس ثوب الحق على جسم الباطل وأكثر الناس أصحاب حسن ظاهر فينظر الناظر فيما ألبسته من اللباس فيعتقد ضحتها . وأما صاحب العلم واليقين

فانه لا يعتر بذلك بل يجاوز نظره إلى باطنها وما تحت لباسها فيكشف له حقيقتها ومثال هذا الدرهم الزائف فانه يعتر به الجاهل بالتمتد نظراً إلى ما عليه من لباس الفضة والناقد البصير يجاوز نظره إلى ما وراء ذلك فيطلع على زيفه فاللفظ الحسن الفصيح هو للشبهة بمنزلة اللباس من الفضة على الدرهم الزائف والمعنى كالتحاس الذي تحته وكم قد قتل هذا الاعتذار من خلق لا يحصيهم إلا الله . وإذا تأمل العاقل العظمن هذا القدر وتدبره رأى أ كثر الناس يقبل المذهب والمقالة بلفظ ويردها بعينها بلفظ آخر . وقد رأيت أنا من هذا في كتب الناس ما شاء الله وكم رد من الحق بتشنيعه بلباس من اللفظ قبيح . وفي مثل هذا قال أئمة السنة منهم الإمام أحمد وغيره لا نزيل عن الله صفة من صفاته لأجل شناعة شنت فهُؤلاء الجهمية يسمون إثبات صفات الكمال لله من حياته وعلمه وكلامه وسمعه وبصره وسائر ما وصف به نفسه تشبيهاً وتجسيمياً ومن أثبت ذلك مشبهاً فلا ينفر من هذا المعنى الحق لأجل هذه التسمية الباطلة إلا العقول الصغيرة القاصرة خفافيش البصائر وكل أهل نخلة ومقالة يكونون نحتهم ومقاتلتهم أحسن ما يقدرون عليه من الألفاظ ومقالة مخالفيهم أقيح ما يقدرون عليه من الألفاظ ومن رزقه الله بصيرة فهو يكشف بها حقيقة ما تحت تلك الألفاظ من الحق والباطل ولا تغتر باللفظ . كما قيل في هذا المعنى .

تقول هذا جنى النحل تمدحه وإن نشأ قلت ذا قى الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما والحق قد يعتر به سوء تعبير

فاذا أردت الاطلاع على كنهه المعنى هل هو حق أو باطل فجرده من لباس العبارة وجرد قلبك عن النفرة والميل ثم أعط النظر حقه ناظراً بعين الانصاف ولا تكن بمن ينظر في مقالة أصحابه ومن يحسن ظنه نظراً تاماً بكل قلبه ثم ينظر في مقالة خصومه ومن يسيء ظنه به كمنظر النزر والملاحظة فالناظر بعين العداوة يرى المحاسن مساوية والناظر بعين المحبة عكسه وما سلم من هذا إلا من أراد الله كرامته وارتضاه لقبول الحق . وقد قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كريمة كما أن عين السخط تبتدى المساوية

(وقال آخر)

نظروا بعين عداوة لو أنها عين الرضا الاستحسنوا ما استعجبوا

فاذا كان هذا في نظر العين يدرك الحسوسات ولا يتمكن من المكابرة فيها فما الظن بنظر القلب الذي يدرك المعاني التي هي عرضة المكابرة والله المستعان على معرفة الحق وقبوله ورد الباطل وعدم الاغترار به . وقوله بأول عارض من شبهة هذا دليل ضعف عقله ومعرفته إذ

تؤثر فيه البداآت ويستفز بأوائل الأمور بخلاف الثابت التام العاقل فانه لا تستفزه البداآت ولا تزججه وتقلقه فان الباطل له دهشة وروعة في أوله فاذا ثبت له القلب رد على عقبيه والله يحب من عنده العلم والاناة فلا يعجل بل يثبت حتى يعلم ويستيقن ما ورد عليه ولا يعجل بأمر من قبل استحكامه فالمجلة والطيش من الشيطان فمن ثبت عند صدمة البداآت استقبل أمره بعلم وجزم ومن لم يثبت لها استقبله بعجلة وطيش وعاقبته الندامة وعاقبة الأول حمد أمره ولكن للأول آفة متى فرنت بالحزيم والعزم نجا منها وهى الفتور فانه لا يخاف من التثبيت إلا الفتور فاذا اقترن به العزم والحزم تم أمره . ولهذا في الدعاء الذى رواه الإمام أحمد والنسائي عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وهاتان الكلمتان هما جماع الفلاح وما أتى العبد إلا من تضييعهما أو تضييع أحدهما فما أتى أحد إلا من باب المجلة والطيش واستفزاز البداآت له أو من باب التهاون والتمات وتضييع الفرصة بعد موافقاتها فاذا حصل الثبات أولا والعزيمة ثانيا أفلح كل الفلاح والله ولى التوفيق . الصنف الثالث رجل نهمته في نيل لذته فهو متفاد لداعى الشهوة أين كان ولا ينال درجة وراثه النبوة مع ذلك ولا ينال العلم إلا بهجر اللذات وتطبيق الراحة قال مسلم في صحيحه قال يحيى بن أبي كثير لا ينال العلم براحة الجسم . وقال ابراهيم الحربي أجمع عقلاء كل أمة أن التعميم لا يدرك بالنعيم ومن أثر الراحة فاتته الراحة فما اصحاب اللذات وما لدرجة وراثه الأنبياء

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

فان العلم صناعة القلب وشغله فم تتفرغ لصناعته وشغله لم تنلها وله وجهة واحدة فاذا وجهت وجهته إلى اللذات والشهوات انصرفت عن العلم ومن لم يغلب لذة إدراكه العلم وشهوته على لذة جسمه وشهوته نفسه لم ينل درجة العلم أبدا فاذا صارت شهوته في العلم ولذته في كل إدراكه رجى له أن يكون من جملة أهله ولذة العلم عقلية روحانية من جنس لذة الملائكة ولذة شهوات الأكل والشراب والنكاح لذة حيوانية يشارك الإنسان فيها الحيوان ولذة الشر والظلم والفساد والعلوى في الأرض شيطانية يشارك صاحبها فيها إبليس وجنوده وسائر اللذات تبطل بمفارقة الروح البدن إلا لذة العلم والإيمان فانها تكمل بعد المفارقة لأن البدن وشواغله كان ينقصها ويقلمها ويحجبها فاذا انطوت الروح عن البدن التذت لذة كاملة بما حصلته من العلم النافع والعمل الصالح فمن طلب اللذة العظمى وأثر النعيم والمقيم فهو في العلم والإيمان اللذين بهما كمال سعادة الإنسان وأيضا فان تلك اللذات سريعة الزوال وإذا انقضت أعقبت هما وغما والاحتياج صاحبها أن يداويه بمثلا دفعا لآله وربما كان معاودته لها مؤلما له كرها إليه لكن يحمله عليه مداوة ذلك الغم والهضم فأين هذا من لذة العلم ولذة الإيمان بالله ومحبهه والاقبال عليه والتعميم بذكره فبهذه هي اللذة الحقيقية

الصنف الرابع من حرصه وهمته في جمع الأموال وتشييرها وادخارها فقد صارت لذته في ذلك وقتى بها عما سواه فلا يرى شيئاً أطيب له مما هو فيه فمن أين هذا ودرجة العلم فهو لاء الأصفاف الأربعة ليسوا من دعاة الدين ولا من أئمة العلم ولا من طلبته الصادقين في طلبه ومن تعلق منهم بشيء منه فهو من المتسلقين عليه المتشبهين بحملته وأهله المدعين لوصاله المبتوتين من حباله وفتنة هؤلاء فتنة لكل مفتون فإن الناس يتشبهون بهم لما يظنون عندهم من العلم ويقولون لسنا خيراً منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم فهم حجة لكل مفتون ولهذا قال فيهم بعض الصحابة الكرام احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون . وقوله أقرب شبيهاً بهم الأنعام السائمة وهذا التشبيه مأخوذ من قوله تعالى (إنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً) فما أقصر سبحانه على تشبيههم بالأنعام حتى جعلهم أضل سبيلاً منهم والسائمة الراعية وشبه أمير المؤمنين هؤلاء بها لأن همتهم في سعى الدنيا وحطامها والله تعالى يشبه أهل الجهل والغبى تارة بالأنعام وتارة بالخرم وهذا تشبيه لمن تعلم علماً ولم يعقله ولم يعمل به فهو كالخمار الذى يحمل أسفاراً وتارة بالسكب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخذ إلى الشهوات والهوى . وقوله كذلك يموت العلم بموت حامله هذا من قول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمر وعائشة رضى الله عنهم وغيرهما أن الله لا يقبض العلم انزعاً ينزعه من صدور الرجال ولكن يقبض العلم بقبض العلماء فإذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالاً فستلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا رواه البخارى في صحيحه فذهاب العلم إنما هو بذهاب العلماء . قال ابن مسعود يوم مات عمر رضى الله عنه إنى لأحسب تسعة أعشار العلم اليوم قد ذهب وقد تقدم قول عمر رضى الله عنه موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه . وقوله اللهم بلى لن تخلو الأرض من مجتهد قائم لله بحجج الله ويدل عليه الحديث الصحيح عن النبي ﷺ لانزال طائفة من أمتى على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك . ويدل عليه أيضاً ما رواه الترمذى عن قتبية حدثنا حماد بن يحيى الابح عن ثابت عن أنس قال قال رسول الله ﷺ مثل أمتى مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره قال هذا حديث حسن غريب . ويروى عن عبد الرحمن بن مهدي أنه كان يثبت حماد بن يحيى الابح وكان يقول هو من شيوختنا وفي الباب عن عمار وعبد الله بن عمرو فلو لم يكن في أواخر الأمة قائم بحجج الله مجتهد لم يكونوا موصوفين بهذه الخيرية . وأيضاً فإن هذه الأمة أكمل الأمم وخير أمة أخرجت للناس ونبيها خاتم النبيين لانبي بعده فجعل الله العلماء فيها كلما هلك عالم خلقه عالم لثلاث تظمس معالم الدين وتختفى أعلامه . وكان بنو اسرائيل كلما هلك نبي خلفه نبي فكانت تسوسهم الأنبياء والعلماء لهذه الأمة كالأنبياء في بنى اسرائيل . وأيضاً في الحديث الآخر يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين وهذا يدل على أنه لا يزال محمولا في القرون قرنا بعد قرن وفي صحيح أبي حاتم من حديث الخولاني قال قال رسول الله ﷺ لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم في طاعته وغرس الله هم أهل العلم والعمل فلو خلت الأرض من عالم خلت من غرس الله . ولهذا القول حجج كثيرة لها موضع آخر وزاد الكذابون في حديث علي إما ظاهراً مشهوراً وإما خفياً مستوراً وظنوا أن ذلك دلائل لهم على القول بالمنتظر ولكن هذه الزيادة من وضع بعض كذابين والحديث مشهور عن علي لم يقل أحد عنه هذه المقالة إلا كذاب وحجج الله لا تقوم بحجفي مستور لا يقع العالم له على خبر ولا ينتفعون به في شيء أصلاً فلا جاهل يتعلم منه ولا ضال يهتدى به ولا خائف يأمن به ولا ذليل يتعزز به فأى حجة لله قامت بمن لا يرى له شخص ولا يسمع منه كلمة ولا يعلم له مكان ولا سما على أصول القائلين به فان الذي دعاهم إلى ذلك أنهم قالوا لا بد منه في اللطف بالمكلفين وانقطاع حججهم عن الله فيآله العجب أى لطف حصل بهذا المعدوم لا المعصوم وأى حجة أنتم للخلق على ربهم بأصلكم الباطل فان هذا المعدوم إذا لم يكن لهم سبيل قط إلى لقائه والاهتداء به فهل في تسكين ما لا يطاق أبلغ من هذا وهل في العذر والحجة أبلغ من هذا فالذي فرتم منه وقعتم في شر منه وكنتم في ذلك كما قيل :

المستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولكن أبي الله إلا أن يفضح من تنقص بالصحابة الأخيار وبسادة هذه الأمة وأن يرى الناس عورته ويغريه بكشفها ونعوذ بالله من الخذلان ولقد أحسن القائل :

ما أن للسرداب أن يلد الذي حملتموه بزعمكم ما آنا
فعلى عقولكم العفاء فانكم نثتم العنقاء والغيلانا

ولقد بطلت حجج استودعها مثل هذا الغائب وضاعت أعظم ضياع فانتم أبطلتم حجج الله من حيث زعمتم حفظها وهذا تصريح من أمير المؤمنين رضى الله عنه بان حامل حجج الله في الأرض بحيث يؤديها عن الله ويبلغها إلى عباده مثله رضى الله عنه ومثل إخوانه من الخلفاء الراشدين ومن اتبعهم إلى يوم القيامة . وقوله لسكيلا تبطل حجج الله وبيناته أى لسكيلا تذهب من بين يدي الناس وتبطل من صدورهم وإلا فالبطلان محال عليها لأنها ملزوم ما يستحيل عليه البطلان . فان قيل فما الفرق بين الحجج والبيئات . قيل الفرق بينهما أن الحجج هى الأدلة العلمية التى يعقلها القلب وتسمع بالأذن قال تعالى في مناظرة إبراهيم لقومه وتبيين بطلان ما هم عليه بالدليل العلى (وتلك حججتنا آتيناهم إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) قال ابن زيد بعلم الحجة وقال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعني) وقال

تعالى (والذين يحتاجون في الله من بعد ما استجيب له حججهم داحضة عند ربهم) والحجة هي اسم لما يحتاج به من حق وباطل قال تعالى (لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم) فانهم يحتاجون عليكم بحجة باطلة (فلا تخشوهم واخشوني) وقال تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حججهم إلا أن قالوا اتوا بأياتنا إن كنتم صادقين) والحجة المضافة إلى الله هي الحق وقد تكون الحجة بمعنى المحاصمة ومنه قوله تعالى (فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم) أى قد وضع الحق واستبان وظهر فلا خصومة بيننا بعد ظهوره ولا مجادلة فان الجدل شريعة موضوعة للتعاون على إظهار الحق فاذا ظهر الحق ولم يبق به خفاء فلا فائدة في الخصومة والجدال على بصيرة وخاصة المنكر ومجادلته عناء لاغنى فيه هذا معنى هذه الآية وقد يقع في وهم كثير من الجهال أن الشريعة لا احتجاج فيها وأن المرسل بها صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يحتاج على خصومه ولا يجادلهم ويظن جهال المطلقين وفروخ اليونان أن الشريعة خطاب للجمهور ولا احتجاج فيها وأن الأنبياء دعوا الجمهور بطريق الخطابة والحجج للخواص وهم أهل البرهان يعنون نفوسهم ومن سلك طريقهم وكل هذا من جهلهم بالشريعة والقرآن فان القرآن مملوء من الحجج والأدلة والبراهين في مسائل التوحيد وإثبات الصانع والمعاد وإرسال الرسل وحدث العالم فلا يذكر المتكلمون وغيرهم دليلاً صحيحاً على ذلك إلا وهو في القرآن بأفصح عبارة وأوضح بيان وأتم معنى وأبعده عن الإيرادات والأسئلة وقد اعترف بهذا حذاق المتكلمين من المتقدمين والمتأخرين . قال أبو حامد في أول الأحياء فان قلت فلم لم تورد في أقسام العلم الكلام والفلسفة وتبين أنهما مذمومان أو ممدوحان فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التي ينتفع بها فالقرآن والأخبار مشتملة عليه وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتى بيانه وأما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات تزديها الطباع وتمجها الأسماع وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شئ منه مألوفاً في العصر الأول ولكن تغير الآن حكمه إذا حدثت البدع الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة لفقت لها شبهاً ورتبت لها كلاماً مؤلفاً فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذوناً فيه . وقال الرازي في كتابه أقسام الذات لقد تأملت الكتب السكلاسية والمناهج الفلسفية فإرأيتها تروى غليلاً ولا تشفى غليلاً ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن اقرأ في الإثبات (إليه يصعد الكلم الطيب) (الرحمن على العرش استوى) وقرأ في النبي (ليس كمثل شئ) ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي وهذا الذي أشار إليه بحسب ما فتح له من

دلالة القرآن بطريق الخبر وإلا فدلالته البرهانية العقلية التي يشير إليها يرشد إليها فتكون دليلاً سمعياً عقلياً أمر تميز به القرآن وصار العالم به من الراسخين في العلم وهو العلم الذي يطمئن إليه القلب وتساكن عنده النفس ويزكو به العقل وتستثير به البصيرة وتقوى به الحجة ولا سبيل لأحد من العالمين إلى قطع من حاج به بل من خاعم به فاجت حجته وكسر شبهة خصمه وبه فتحت القلوب واستجيب لله ولرسوله ولكن أهل هذا العلم لا تكاد الأعصار تسمع منهم إلا بالواحد بعد الواحد فدلالة القرآن سمعية عقلية قطعية يقينية لا تعترضها الشبهات ولا تتداولها الاحتمالات ولا ينصرف القلب عنها بعد فهمها أبداً وقال بعض المتكلمين أفيت عمري في السلام أطلب الدليل وأنا لا أزداد إلا بعداً عن الدليل فرجعت إلى القرآن أتدبره وأتفكر فيه وإذا أنا بالدليل حقا معي وأنا لا أشعر به فقلت والله ما مثلي إلا كما قال القائل :

ومن العجائب والعجائب حمة قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيش في البدياء يقتلها الظل والماء فوق ظهورها محمول

قال فلما رجعت إلى القرآن إذا هو الحكيم والدليل ورأيت فيه من أدلة الله وحججه وبراهينه وبياناته ما لو جمع كل حق قاله المتكلمون في كتبهم لكانت سورة من سور القرآن وإفية بمضمونه مع حسن البيان وفصاحة اللفظ وتطبيق المفصل وحسن الاحتراز والتنبيه على مواقع الشبه والإرشاد إلى جوابها وإذا هو كما قيل بل فوق ما قيل :

كفى وشفى ما في العواء فلم يدع لذي أرب في القول جدأ ولا هزلاً

وجعلت جيوش الكلام بعد ذلك تفد إلى كما كانت وتتراحم في صدري ولا يأذن لها القلب بالدخول فيه ولا تلقى منه إقبالا ولا قبولاً فترجع على ادبارها . والمقصود أن القرآن مملوء بالاحتجاج وفيه جميع أنواع الأدلة والأقضية الصحيحة وأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم فيه بإقامة الحجة والمجادلة . فقال تعالى (وجادلهم بالتي هي أحسن) وقال (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) وهذه مناظرات القرآن مع الكفار موجودة فيه وهذه مناظرات رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لخصومهم وإقامة الحجج عليهم لا ينكر ذلك إلا جاهل مفرط في الجهل . والمقصود الفرق بين الحجج والبيانات . فنقول الحجج الأدلة العلمية والبيانات جمع بيئنة وهي صفة في الأصل يقال آية بيئنة وحجة بيئنة والبيئنة اسم لسكل ما يبين الحق من علامة منصوبة أو أمانة أو دليل على . قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبيئات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان) فالبيئات الآيات التي أقامها الله دلالة على صدقهم من المعجزات والكتاب هو الدعوة وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم) ومقام إبراهيم آية جزئية مرئية بالأبصار

وهو من آيات الله الموجودة في العالم . ومنه قول موسى لفرعون وقومه (قد جئكم بينة من ربكم فأرسل معي بنى اسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين فألقى عصاه) وكان اللقاء العساوا انقلابها حية هو البينة . وقال قوم هود يهود ما جئتنا بينة يريدون آية الاقتراح وإلا فهو قد جاءهم بما يعرفون به أنه رسول الله إليهم فطلب الآية بعد ذلك تعنت واقتراح لا يكون لهم عنذر في عدم الإجابة إليه وهذه هي الآيات التي قال الله تعالى فيها (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) فعدم إجابته سبحانه إليها إذ طلبها الكفار رحمة منه وإحسان فانه جرت سنته التي لا تبدل لها انهم إذا طلبوا الآية واقرحوها وأجيبوا ولم يؤمنوا عولجوا بعذاب الاستئصال فلما علم سبحانه أن هؤلاء لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية لم يجبهم إلى ما طلبوا فلم يعذبهم بعذاب لما أخرج من بينهم وأصلابهم من عبادة المؤمنين وإن أكثرهم آمن بعد ذلك بغير الآيات التي اقرحوها فكان عدم إنزال الآيات المطلوبة من تمام حكمة الرب ورحمته واحسانه بخلاف الحجج فانها لم تنزل متتابعة يتلو بعضها بعضا وهي كل يوم في مزيد وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أكثر ما كانت وهي باقية إلى يوم القيامة ، وقوله أو أملك الأفلون عدداً الأعظمون عند الله قدرا يعني هذا الصنف من الناس أقل الخلق عددا وهذا سبب غربتهم فانهم قليلون في الناس والناس على خلاف طريقهم فلم يبنأ وللناس نبأ . قال النبي صلى الله عليه وسلم بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء فالؤمنون قليل في الناس والعلماء قليل في المؤمنين وهؤلاء قليل في العلماء وإياك أن تغتر بما يغتر به الجاهلون فانهم يقولون لو كان هؤلاء على حق لم يكونوا أقل الناس عددا والناس على خلافهم . فاعلم أن هؤلاء هم الناس ومن خالفهم فشبّهون بالناس وليسوا بناس فما الناس إلا أهل الحق وإن كانوا أقلام عددا . قال ابن مسعود لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس ليوطن أحدكم نفسه على أن يؤمن ولو كفر الناس . وقد ذم سبحانه الأكثرين في غير موضع كقوله (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) وقال : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) . وقال : (وقليل من عبادى الشكور) وقال : (وإن كثيراً من الخنطاء ليبلغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم) . وقال بعض العارفين انفرادك في طريق طلبك دليل على صدق الطلب .

مت بداء الهوى والاختاطر واطرق الحى والعيون نواظر

لا تخف وحشة الطريق اذا سرت وكن في خفارة الحق سائر

وقوله بهم يدفع الله عن حججه حتى يودرها الى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم وهذا لأن الله سبحانه ضمن حفظ حججه وبيداته وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه

لا تزال طائفة من أمته على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم الى قيام الساعة فلا يزال غرس الله الذين غرسهم في دينه يغرسون العلم في قلوب من أهلهم الله لذلك وارتضاهم فيكونوا ورثة لهم كما كانوا هم ورثة لمن قبلهم فلا تنقطع حجج الله والقائم بها من الأرض . وفي الأثر المشهور لا يزال الله يغرس في هذا الدين غرسا يستعملهم بطاعته . وكان من دعاء بعض من تقدم اللهم اجعلني من غرسك الذين تستعملهم بطاعتك ولهذا ما أقام الله لهدى الدين من يحفظه ثم قبضه إليه إلا وقد زرع ما علمه من العلم والحكمة أما في قلوب أمثاله وأما في كتب ينتفع بها الناس بعده وبهذا وبغيره فضل العلماء العباد فان العالم إذا زرع عليه عند غيره ثم مات جرى عليه أجره وبقي له ذكره وهو عمر ثمان وحياة أخرى وذلك أحق ما تنافس فيه المتنافسون وورغب فيه الراغبون . وقوله هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فاستلنا ما استوعره المترفون وأنسوا عما استوحش منه الجاهلون . الهجوم على الرجل الدخول عليه بلا استئذان ولما كانت طريق الآخرة وعرة على أكثر الخلق لخالفها شهواتهم ومبايبتهم لإرادتهم ومألوفاتهم قل سال الكواها وزاهدهم فيما قلة عليهم أو عدمه بحقيقة الأمر وعاقبة العباد ومصيرهم وما هيئوا له وهيء لهم فقل عليهم بذلك واستلنا ما مركب الشهوة والهوى على مركب الاخلاص والتقوى وتوعرت عليهم الطريق وبعدت عليهم الشقة وصعب عليهم مرتقى عقابها وهبوط أوديتها وسلوك شعابها فأخذوا الى الدعة والراحة وآثروا العاجل على الآجل وقالوا عيشنا اليوم نقد وموعودنا نسيته فنظروا الى عاجل الدنيا وأغمضوا العيون عن آجالها ووقفوا مع ظاهرها . ولم يتأملوا باطنها وذاقوا حلاوة مبادئها وغاب عنهم مرارة عواقبها ودر لهم ثديها فطاب لهم الارتضاع واشتغلوا به عن التفسر في الفطام ومرارة الانقطاع وقال مقترهم بالله وجاحدهم لعظمته وربوبيته متمثلا في ذلك :

• خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به •

وأما القائمون لله بحجته خلفاء نبيه في أمته فانهم لجمال عليهم وقوته نفذ بهم الى حقيقة الأمر وهجم بهم عليه فعابنوا ببصائرهم ما عشت عنه بصائر الجاهلين فاطمأنت قلوبهم به وعملوا على الوصول اليه لما باشرها من روح اليقين رفع لهم علم السعادة فشمروا اليه وأسعهم منادى الايمان النداء فاستبقوا اليه واستيقنت أنفسهم ما وعدهم به ربهم فزهدوا فيما سواه ورغبوا فيما لديه علموا أن الدنيا دار بمر لا دار مقر ومنزل عبور لا مقعد حبور وأنها خيال طيف أو سحابة صيف وإن من فيها كراكب قال تحت ظل شجرة ثم راح عنها وتركها وتقنوا أنها أحلام نوم أو كظل زائل :

• إن الليب بمنلها لا يندع •

وأن وصفها صدق في وصفها إذ يقول
أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوع
أراها وإن كانت تحب فانها سحابة صيف عن قليل تقشع
فرحلت عن قلوبهم مدبرة كما ترحلت عن أهلها مولية وأقبلت الآخرة إلى قلوبهم مسرعة كما
أسرعت إلى الخلق مقبلة فامتطوا ظهور العزائم وهجروا لذة المنام وما ليل المحب بناثم علوا
طول الطريق وقلة المقام في منزل التزود فسارعوا في الجهاز وجد بهم السير إلى منازل الأحباب
فقطعوا المراحل وطورا المفاوز . وهذا كله من ثمرات اليقين فان القلب إذا استيقن ما أمامه
من كرامة الله وما أعد لأوليائه بحيث كأنه ينظر إليه من وراء حجاب الدنيا ويعلم أنه إذا زال
الحجاب رأى ذلك عبانا زالت عنه الوحشة التي يجدها المتخلفون ولأن له ما استوعره المترفون
وهذه المرتبة هي أول مراتب اليقين وهي علمه وتيقنه وهي انكشاف المعلوم للقلب بحيث
يشاهده ولا يشك فيه كأنه كشف المرئي للبصر . ثم يليها المرتبة الثانية وهي مرتبة عين اليقين ونسبتها
إلى العين كنسبة الأول إلى القلب ثم تليها المرتبة الثالثة وهي حق اليقين وهي مباشرة المعلوم
وإدراك الإدراك التام فالأولى كعملك بأن في هذا الوادي ماء والثانية كرويته والثالثة كالشرب
منه . ومن هذا ما يروى في حديث حارثة . وقول النبي ﷺ كيف أصبحت يا حارثة قال أصبحت
مؤمنا حقا قال إن لكل قول حقيقة فاحقيقة إيمانك قال عزفت نفسي عن الدنيا وشهواتها فأسهرت
ليلي وأظلمات نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون
فيها وإلى أهل النار يتعاون فيها . فقال عبد نور الله قلبه فهذا هو هجوم العلم بصاحبه على
حقيقة الأمر ومن وصل إلى هذا استلان ما استوعره المترفون وأنس بما يستوحش منه الجاهلون
ومن لم يثبت قدم إيمانه على هذه الدرجة فهو لإيمان ضئيف وعلامة هذا انشراح الصدر لمنازل
الايان وانفساحه وطمأنينة القلب لأمر الله والإجابة إلى ذكر الله ومحبته والفرح بلفائه
والتجافي عن دار الغرور كما في الأثر المشهور إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح قيل وما
علامة ذلك قال التجافي عن دار الغرور والإجابة إلى دار الخلود والاستعداد للبوت قبل نزوله
وهذه هي الحال التي كانت تحصل للصحابة عند النبي ﷺ إذا ذكرهم الجنة والنار كما في الترمذي وغيره
من حديث الجريري عن أبي عثمان النهدي عن حنظلة الأسدي . وكان من كتاب النبي ﷺ أنه
مر بأبي بكر رضي الله عنه وهو يبكي فقال مالك يا حنظلة فقال نافق حنظلة يا أبا بكر تكون
عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالجنة والنار كأننا رأينا عين فاذا رجعنا إلى الأزواج والضيعة
نسينا كثيرا قال فوالله إنا كذلك انطلق بنا إلى رسول الله ﷺ فانطلقنا فلما رآه رسول الله
ﷺ قال مالك يا حنظلة قال نافق حنظلة يا رسول الله تكون عندك تذكرنا بالنار والجنة كأننا

وأى حين فاذا رجعنا عافسنا الأزواج والضيعة ونسينا كثيرا . قال فقال رسول الله ﷺ لو
تقومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصاحتمكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم
وعلى فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة وساعة وساعة . قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح
وفي الترمذى أيضاً نحوه من حديث أبى هريرة . والمقصود أن الذى يهجم بالقلب على حقيقة
الايان ويلين له ما يستوعره غيره ويؤنسه بما يستوحش منه سواء العلم التام والحب الخاص
والحب تبع للعلم يقوى بقوته ويضعف بضعفه والحب لا يستوعر طريقاً توصله إلى محبوه ولا
يستوحش فيها . وقوله صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالملا الأعلى وفي رواية بالمحل
الأعلى الروح فى هذا الجسد بدار غربة ولها وطن غيره فلا تستقر إلا فى وطنها وهى جوهر
علوى مخلوق من مادة علوية وقد اضطرت إلى مساكنة هذا البدن الكشيف فهى دائماً تطلب
وطنها فى المحل الأعلى وتحن إليه حنين الطير إلى أو كرها وكل روح فيها ذلك ولكن لفرط
اشتغالها بالبدن والمحسوسات المألوفة أدخلت إلى الأرض ونسيت مملها ووطنها الذى لا راحة
لها فى غيره فانه لا راحة للؤمن دون لقاء ربه والدنيا سجنه حقا فلها تجد المؤمن بدنه فى الدنيا
وروحه فى المحل الأعلى . وفى الحديث المرفوع إذا نام العبد وهو ساجد باهى الله به الملائكة
فيقول انظروا إلى عبدى بدنه فى الأرض وروحه عندي رواه تمام وغيره . وهذا معنى قول
بعض السلف القلوب جواراة فقلوب حول الحشر وقلوب يطوف مع الملائكة حول العرش فأعظم
عذاب الروح انفاسا وتدسيسها فى أعماق البدن واشتغالها بملاذه وانقطاعها عن ملاحظة ما خفت
له وهينت له وعن وطنها ومحلها ومحل أنسها ومنزل كرامتها ولكن سكر الشهوات يحجبها عن
مطالعة هذا الألم والعذاب فإذا صحت من سكرها وأفافت من غمرتها أقبلت عليها جيوش
الحشرات من كل جانب فينثذ تنقطع حشرات على ما فاتها من كرامة الله وقربه والأنس به
والوصول إلى وطنها الذى لا راحة لها الا فيه كما قيل :

صحبك اذ عيني عليها غشاوة فلما انجملت قطعت نفسى ألومها

ولو تنقلت الروح فى المواطن كلها والمنازل لم تستقر ولم تظمن الا فى وطنها ومحلها الذى خلقت
له كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب الا للحيب الأول

كم منزل فى الأرض بألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

وإذا كانت الروح تحن أبدا إلى وطنها من الأرض مع قيام غيره مقامه فى السكنى وكثيرا ما يكون
غير وطنها أحسن وأطيب منه وهى دائما تحن إليه مع أنه لا ضرر عليها ولا عذاب فى مفارقتها
إلى مثله فكيف يحنينها إلى الوطن الذى فى فراقها له عذابها وآلامها وحسرتها التى لا تنقضى فالعبد

المؤمن في هذه الدار سبي من الجنة إلى دار التعب والعناء ثم ضرب عليه الرق فيها فكيف يلام على حنينه إلى داره التي سبي منها وفرق بينه وبين من يحب وجمع بينه وبين عدوه فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن وبدنه في الدنيا . ولى من أبيات في ذلك :

وحى على جنات عن فانها منازلك الأولى وفيها الخيم
ولسكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم
وكذا أراد منه العدو نسيان وطنه وضرب الذكر عنه صفحا وإيلافه وطننا غيره أبت ذلك
روحه رقبته كما قيل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل
ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار أين حل منها فهو في دار غربة . كما قال النبي صلى الله
عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ولسكنها غربة تنقضى ويصير إلى وطنه
ومنزله وإنما الغربة التي لا يرجى انقطاعها فهي غربة في دار الهوان ومفارقة وطنه الذي كان
قد هيء وأعد له وأمر بالتهجير إليه والقدوم عليه فإني إلا اغترابه عنه ومفارقته له فتلك غربة
لا يرجى إياها ولا يجبر مصابها ولا تبادر إلى انكار كون البدن في الدنيا والروح في الملائكة
الأعلى فلروح شأن والبدن شأن والنبي صلى الله عليه وسلم كان بين أظهر أصحابه وهو عند ربه
يطعمه ويسقيه فيبدنه بينهم وروحه وقلبه عند ربه . وقال أبو الدرداء إذا نام العبد عرج روجه
إلى تحت أعرش فان كان طاهراً أذن لها بالسجود وإن لم يكن طاهراً لم يؤذن لها بالسجود
فهذه والله أعلم هي العلة التي أمر الجنب لأجلها أن يتوضأ إذا أراد النوم وهذا الصعود إنما كان
لتجرد الروح عن البدن بانوم فاذا تجردت بسبب آخر حصل لها من الترقى والصعود بحسب
ذلك التجرد وقد يقوى الحب بالمحب حتى لا يشاهد منه بين الناس إلا جسمه وروحه في موضع
آخر عند محبوبه وفي هذا من أشعار الناس وحكاياتهم ما هو معروف . وقرله أولئك خلفاء
الله في أرضه ودعائه إلى دينه هذا حجة أحد القولين في أنه يجوز أن يقال فلان خليفة الله في
أرضه واحتج أصحابه أيضاً بقوله تعالى لللائكة (اني جاعل في الأرض خليفة) . واحتجوا
بقوله تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض) وهذا خطاب للنوع الانسان بقوله
تعالى (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض) بقول موسى
لقومه (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون) . وبقول
النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يمكن لكم في الأرض ومستخلفكم فيها فمناظر كيف تعملون
فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . واحتجوا بقول الراعي يخاطب أبا بكر رضى الله عنه :

خليفة الرحمن انا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلا منزلا

ومنعت طائفة هذا الاطلاق وقالت لا يقال لأحد أنه خليفة الله فان الخليفة انما يكون عن
يعيب ويخلفه غيره والله تعالى شاهد غير غائب قريب غير بعيد راء. وسامع فحال أن يخلفه
غيره بل هو سبحانه الذى يخلف عبده المؤمن فيكون خليفته . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم
في حديث الدجال أن يخرج وأنا فيكم فانا حجيجه دونكم وان يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيح
نفسه والله خليفتي على كل مؤمن والحديث فى الصحيح . وفى صحيح مسلم أيضا من حديث
عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول اذا سافر اللهم أنت الصاحب فى
السفر والخليفة فى الأهل والحضر الحديث . وفى الصحيح ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اللهم
اغفر لابی سلمة وارفع درجته فى المهدين واخلفه فى أهله فالله تعالى هو خليفة العبد لأن العبد
يموت فيحتاج الى من يخلفه فى أهله . قالوا ولهذا أنكر الصديق رضى الله عنه على من قال له
يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسبى ذلك . قالوا وأما قوله
تعالى (انى جاعل فى الأرض خليفة) فلا خلاف ان المراد به آدم وذريته وجمهور أهل التفسير
من السلف والخلف على أنه جعله خليفة عنم كان قبله فى الأرض . قيل عن الجن الذين كانوا
سكانها . وقيل عن الملائكة الذين سكنوها بعد الجن وقصتهم مذكورة فى التفاسير . وأما قوله
تعالى (وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) فليس المراد به خلائف عن الله وانما المراد
به أنه جعلكم يخلف بعضهم بعضا فكما هلك قرن خلفه قرن الى آخر الدهر . ثم قيل ان هذا
خطاب لامة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة أى جعلكم خلائف من الامم الماضية فهلكوا
وورثتم اتم الأرض من بعدهم . ولا ريب ان هذا الخطاب للامة والمراد نوع الانسان الذى
جعل الله اباهم خليفة عن قبله وجعل ذريته يخلف بعضهم بعضا الى قيام الساعة ولهذا جعل هذا
آية من آياته كقوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض)
وأما قول موسى لقومه (ويستخلفكم فى الارض) فليس ذلك استخلافاعنه وانما هو استخلاف
عن فرعون وقومه أهلهم وجعل قوم موسى خلفاء من بعدهم وكذا قول النبي صلى الله عليه
وسلم ان الله مستخلفكم فى الارض أى من الامم التى تهلك وتكونون اتم خلفاء من بعدهم .
قالوا وأما قول الراعى فقول شاعر قال قصيدة فى غيبة الصديق لا يدري أبى بلغت أم لا
ولو بلغت فلا يعلم انه أقره على هذه اللفظة أم لا . قلت ان أريد بالاضافة الى الله أنه خليفة عنه
فالصواب قول الطائفة المانعة منها وإن أريد بالاضافة أن الله استخلفه عن غيره عن كان قبله
فهذا لا يتمتع فيه الاضافة وحقيقتها خليفة الله الذى جعله الله خلفا عن غيره وبهذا يخرج
الجواب عن قول امير المؤمنين أولئك خلفاء الله فى أرضه . فان قيل هذا لا مدح فيه لان هذا

الاستخلاف عام في الامة وخلافة الله التي ذكرها أمير المؤمنين خاصة بخواص الخلق . فالجواب أن الاختصاص المذكور أفاد اختصاص الاضافة فالاضافة هنا للتشريف والتخصيص كما يضاف اليه عباده . كقوله تعالى (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان * وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا) ونظائرهما . ومعلوم أن كل الخلق عباد له تخلفاء الأرض كالعباد في قوله (والله بصير بالعباد . وما الله يريد ظلماً للعباد) وخلفاء الله في قوله (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) ونظائره وحقيقة اللفظة أن الخليفة هو الذي يخلف الذاهب أى يجيء بعده يقال خلف فلان فلانا وأصلها خليف بغير هاء لأنها فعيل بمعنى فاعل كالعليم والقدير فدخلت التاء للمبالغة في الوصف كراوية وعلامة . ولهذا جمع جمع فعيل ففعل خلفاء كشريف وشفراء وكريم وكرماء ومن راعى لفظه بعد دخول التاء عليه جمعه على فعائل فقال خلائف كعميلة وعتائل وظريفة وظرائف وكلاهما ورد به القرآن هذا قول جماعة من النحاة . والصواب أن التاء إنما دخلت فيها للعدل عن الوصف إلى الاسم فإن الكلمة صفة في الأصل ثم أجريت مجرى الاسماء فألحقت التاء لذلك كما قالوا نطيحة بالتاء فاذا أجروها صفة قالوا شاة نطيح كما يقولون كف خضيب وإلا فلا معنى للمبالغة في خليفة حتى تلحقها تاء المبالغة والله أعلم . وقوله ودعائه إلى دينه الدعاء جمع داع كقاض وقضاة ورام ورماء وإضاقتهم إلى الله للاختصاص أى الدعاء التخصيص به الذين يدعون إلى دينه وعبادته ومعرفته ومحبه وهؤلاء هم خواص خلق الله وأفضلهم عند الله منزلة وأعلام قدرأ * يدل على ذلك (الوجه الثلاثون بعد المائة) وهو قوله تعالى (ومن أحسن قولاً لمن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين) . قال الحسن هو المؤمن أجاب الله في دعوته ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته وعمل صالحاً في إجابته فهذا حبيب الله هذا ولى الله فقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد . قال تعالى (وانه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً) . وقال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) جعل سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل للذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعى بطريق الحكمة . والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخير يدعى بالموعظة الحسنة وهي الأمر والنهي المقرون بالرغبة والرغبة . والمعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية لا ما يزعم أسير منطق اليونان أن الحكمة قياس البرهان وهي دعوة الخواص . والموعظة الحسنة قياس الخطابة وهي دعوة العوام . والمجادلة بالتي هي أحسن القياس الجدلي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على أصول

الفلسفة وهو مناف لأصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيرة ليس هذا موضع ذكرها. وقال تعالى (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) . قال الفراء وجماعة ومن اتبعني معطوف على الضمير في أدعو يعني ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو وهذا قول السكبي قال حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى مادعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة . قال ابن الانباري ويجوز أن يتم الكلام عند قوله إلى الله ثم يبتدىء بقوله على بصيرة أنا ومن اتبعني فيكون الكلام على قوله جملتين أخبر في أولهما أنه يدعو إلى الله وفي الثانية بانه من اتبعه على بصيرة والقولان متلازمان فلا يكون الرجل من أتباعه حقاً حتى يدعو إلى مادعا إليه وقول الفراء أحسن وأقرب إلى الفصاحة والبلاغة وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به واليه بل لا بد في كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي ويكفي هذا في شرف العلم أن صاحبه يحوز به هذا المقام والله يؤتي فضله من يشاء . (الوجه الحادى والثلاثون بعد المائة) . أنه لو لم يكن من فوائد العلم إلا أنه يشمر اليقين الذي هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته وقوته ونشاطه وسائر لوازم الحياة ولهذا منح الله سبحانه أهله في كتابه وأتى عليهم بقوله (وبالآخرة هم يوقنون) وقوله تعالى (كذلك نفصل الآيات لقوم يوقنون) . وقوله في حق خليله إبراهيم (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) وذم من لا يقين عنده فقال (إن الناس كانوا أباياتاً لا يوقنون) . وفي الحديث المرفوع من حديث سفیان الثوري عن سليمان التيمي عن خيشمة عن عبد الله بن مسعود يرفعه لارضين أحداً بسخط الله ولا تحمدن أحداً على فضله ولا تذهمن أحداً على مالم يؤتك الله فان رزق الله لا يسوقه حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره وأن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة والفرح في الرضا واليقين وجعل الهم والحزن في الشك والسخط فاذا باشر القلب اليقين امتلاً نوراً وانقى عنه كل ريب وشك وعوفى من أمراضه القائلة وامتلاً شكراً لله وذكراً له ومحبة وخوفاً خفي عن بيته واليقين والمحبة هما ركنا الإيمان وعليهما يبنى وهما قوامه وهما يمدان سائر الأعمال القلبية والبدنية وعنهما تصدر وبضعفهما يكون ضعف الأعمال وبقوتها قوتها وجميع منازل السائرين ومقامات العارفين إنما تفتح بهما وهما يشمران كل عمل صالح وعلم نافع وهدى مستقيم . قال شيخ العارفين الجيد اليقين هو استقرار العلم الذي لا يتقلب ولا يتحول ولا يتغير في القلب . وقال سهل حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله وقيل من علاماته الالتفات إلى الله في كل نازلة والرجوع إليه في كل أمر والاستماعة به في كل حال واردة وجهه بكل حركة وسكون

وقال السرى اليقين السكون عند جولان الموارد في صدرك لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعل ولا ترد عنك مقضيا . قلت هذا إذا لم تكن الحركة مأمورا بها فإذا كانت مأمورا بها فاليقين في بذل الجهد فيها واستفراغ الوسع . وقيل إذا استكمل العبد حقيقة اليقين صار البلاء عنده نعمة والمحنة منحة فالعلم أول درجات اليقين . ولهذا قيل العلم يستعملك واليقين يملكك فاليقين أفضل مواهب الرب لعبده ولا تثبت قدم الرضاء إلا على درجة اليقين . قال تعالى (ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه) . قال ابن مسعود هو العبد تصديه المصيبة فيعلم أنها من الله فيرضى ويسلم فلماذا لم يحصل له هداية القلب والرضا والتسليم إلا بيقينه قال في الصحاح اليقين العلم وزوال الشك يقال منه يقنت الأمر يقنتا واستيقنت وأيقنت وتيقنت كله بمعنى واحد وأنا على يقين منه وإنما صارت الياء واوا في موقف للضمة قبلها وإذا صغرتما رددته إلى الأصل فقلت ميبقن وربما عبروا عن الظن باليقين وبالظن عن اليقين قال :

تحسب هراسا ويقن أنى بها مفتد من واحد لا أغامره

يقول تشمم الأسد ناقتى يظن أنى أفتدى بها منه واستحى نفسى فأتركها له ولا اقتحم المهالك لمقاتته . قلت هذا موضع اختلاف فيه أهل اللغة والتفسير هل يستعمل اليقين في موضع الظن والظن في موضع اليقين فرأى ذلك طائفة منهم الجوهري وغيره واحتجوا بسوى ما ذكر بقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) ولو شكوا في ذلك لم يكونوا موقنين فضلا عن أن يمدحوا بهذا المدح وبقوله (قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) . وبقوله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) وبقول الشاعر

فقلت لهم ظنوا بأنى مقاتل سراتهم في الفارسي المسرد

أى استيقنوا بهذا العدد وأبى ذلك طائفة وقالوا لا يكون اليقين إلا للعلم وأما الظن فمنهم من وافق على أنه يكون الظن في موضع اليقين وأجابوا عما احتج به من جواز ذلك بأن قالوا هذه المواضع التي زعمتهم أن الظن وقع فيها موقع اليقين كلها على بابها فإنما لم نجد ذلك إلا في علم بمغيب ولم نجدهم يقولون لمن رأى الشيء أظنه ولمن ذاقه أظنه وإنما يقال لغائب قد عرف بالسمع والعلم فإذا صار إلى المشاهدة امتنع إلى إطلاق الظن عليه قالوا وبين العيان والخبر مرتبة متوسطة باعتبارها أوقع على العلم بالغائب الظن لفقد الحال التي تحصل المدركة بالمشاهدة وعلى هذا أخرجت سائر الأدلة التي ذكرتموها ولا يرد على هذا قوله (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) لأن الظن إنما وقع على مواقعها وهي غيب حال الرؤية فإذا أقصوها لم يكن ذلك ظنا بل حق يقين قالوا وأما قول الشاعر : ويقن أنى بها مفتد . فعلى بابها لأنه ظن أن الأسد لتيقنه شجاعته

وجراءته موقن بأن الرجل يدع له ناقته يفتدى بها من نفسه قالوا وعلى هذا يخرج معنى الحديث نحن أحق بالشك من إبراهيم وفيه أجوبة لكن بين العيان والخير رتبة طلب إبراهيم زوالها بقوله ولكن ليطمئن قلبي فعبّر عن تلك الرتبة بالشك والله أعلم . (الوجه الثاني والثلاثون بعد المائة) ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده من حديث أنس بن مالك يرفعه إلى النبي ﷺ قال طلب العلم فريضة على كل مسلم وهذا وإن كان في سنده حفص بن سليمان وقد ضعف فعناه صحيح فإن الإيمان فرض على كل واحد وهو ماهية مركبة من علم وعمل فلا يتصور وجود الإيمان إلا بالعلم والعمل . ثم شرائع الإسلام واجبة على كل مسلم ولا يمكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلم بها والله تعالى أخرج عباده من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا فطلب العلم فريضة على كل مسلم وهل تمكن عبادة الله التي هي حقه على العباد كلهم إلا بالعلم وهل ينال العلم إلا بطلبه ثم إن العلم المفروض تعلمه ضربان ضرب منه فرض عين لا يسع مسلما جهله وهو أنواع النوع الأول علم أصول الإيمان الخمسة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن من يؤمن بهذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن . قال الله تعالى (ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) وقال (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) . ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها . النوع الثاني علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الرضوء . والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها ومبطلاتها . النوع الثالث علم المحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الالهية وهي المذكورة في قوله تعالى (قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغى والبيغى الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) فهذه محرمات على كل واحد في كل حال على لسان كل رسول لا تباح قط ولهذا أتى فيها باتما المفيدة للحصر مطلقاً وغيرها محرم في وقت مباح في غيره كالميتة والدم ولحم الخنزير ونحوه فهذه ليست محرمة على الإطلاق والدوام فلم تدخل تحت التحريم المحصور المطلق . النوع الرابع علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا وعموما والواجب في هذا النوع يختلف باختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله وجيرته وليس الواجب على من نصب نفسه لأتباع التجارات من تعلم أحكام البياعات كالواجب على من لا يبيع ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجة إليه وتفصيل هذه الجملة لا يفضبط بحد لاختلف الناس في أسباب العلم الواجب وذلك يرجع

إلى ثلاثة أصول اعتقاد وفعل وترك فالواجب في الاعتقاد مطابقتة للحق في نفسه والواجب في العمل معرفته وموافقة حركات العبد الظاهرة والباطنة الاختيارية للشرع أمراً وإباحة والواجب في الترك معرفة موافقة الكف والسكون لمرضات الله وأن المطلوب منه إبقاء هذا الفعل على عدمه المستصحب فلا يتحرك في طلبه أو كف النفس عن فعله على الطريقتين . وقد دخل في هذه الجملة علم حركات القلوب والأبدان وأما فرض الكفاية فلا أعلم فيه ضابطاً صحيحاً فإن كل أحد يدخل في ذلك ما يظنه فرضاً فيدخل بعض الناس في ذلك علم الطب وعلم الحساب وعلم الهندسة والمساحة وبعضهم يزيد على ذلك علم أصول الصناعة كالزراعة والحياكة والحداثة والخياطة ونحوها وبعضهم يزيد على ذلك علم المنطق وربما جعله فرض عين وبناء على عدم صحة إيمان المقلد وكل هذا هوس وخبط فلا فرض إلا ما فرضه الله ورسوله فياسبحان الله هل فرض الله على كل مسلم أن يكون طبيباً حجماً حاسباً مهندساً أو حائكاً أو فلاحاً أو نجاراً أو خياطاً فإن فرض الكفاية كفر فرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وإنما يخالفه في سقوطه بفعل البعض ثم على قول هذا القائل يكون الله قد فرض على كل أحد جملة هذه الصنائع والعلوم فإنه ليس واحد منها فرضاً على معين والآخر على معين آخر بل عموم فرضيتها مشتركة بين العموم فيجب على كل أحد أن يكون حاسباً حائكاً خياطاً نجاراً فلاحاً طبيباً مهندساً فإن المجموع فرض على المجموع لم يكن قولك إن كل واحد منها فرض كفاية صحيحاً لأن فرض الكفاية يجب على العموم . وأما المنطق فلو كان علماً صحيحاً كان غاية أن يكون للمساحة والهندسة ونحوها فكيف وباطله أضعاف حقه وفساده وتناقض أصوله واختلاف مبادئه توجب مراعاتها للذهن أن يزيغ في فكره ولا يؤمن بهذا إلا من قد عرفه وعرف فساده وتناقضه ومناقضة كثير منه للعقل الصريح وأخبر بعض من كان قد قرأه وعنى به أنه لم يزل متعجباً من فساد أصوله وقواعده ومبادئها لصريح المعقول وتضمنها لدعاو محضة غير مدلول عليها وتفريقه بين متساويين وجمعه بين مختلفين فيحكم على الشيء بحكم وعلى نظيره بصد ذلك الحكم أو يحكم على الشيء بحكم ثم يحكم على مضاده أو مناقضه به قال إلى أن سألت بعض رؤسائه وشيوخ أهله عن شيء من ذلك فأفكر فيه ثم قال هذا علم قد صقلته الأذهان ومرت عليه من عهد القرون الأوائل أو كما قال فينتهي أن نتسله من أهله وكان هذا من أفضل ما رأيت في المنطق . قال إلى أن وقعت على رد متكلمي الإسلام عليه وتبيين فساده وتناقضه فوقفت على مصنف لابن سعيد السيرافي النحوي في ذلك وعلى رد كثير من أهل الكلام والعربية عليهم كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي عبد الجبار والجبائي وابنه وأبي المعالي وأبي القاسم الأنصاري

وخلق لا يحصون كثرة ورأيت استشكالات فضلائهم ورؤسائهم لمواضع الاشكال ومخالفاتها ما كان ينقذ لي كثير منه ورأيت آخر من تجرد للرد عليهم شيخ الإسلام قدس الله روحه فانه أتى في كتابيه الكبير والصغير بالعجب العجيب وكشف أسرارهم وهتك أستارهم فقلت في ذلك :

واعجباً لمنطق اليونان كم فيه من إفك ومن بهتان
مخبط لجيد الأذهان ومفسد لفطرة الإنسان
مضطرب الأصول والمباني على شفا هار بناه الباني
أحوج ما كان إليه العاني يخونه في السر والإعلان
يمشي به اللسان في الميدان مشى مقيد على صفوان
متصل العثار والتواني كأنه السراب بالقيعان
بدا لعين الظلمة الخيران فأمه بالظن والحسبان
يرجو شفاء غلة الظمان فلم يخدم سوى الحرمان
فعاد بالخبية والخسران يقرع سن نادم حيران
قد ضاع منه العمر في الأمان وعان الخفة في الميزان

وما كان من هوس النفوس بهذه المنزلة فهو بأن يكون جهلاً أولى منه بأن يكون علماً تعلمه فرض كفاية أو فرض عين. وهذا الشافعي وأحمد وسائر أئمة الإسلام وتصانيفهم وسائر أئمة العربية وتصانيفهم وأئمة التفسير وتصانيفهم لمن نظر فيها هل راعوا فيها حدود المنطق وأوضاعه وهل صح لهم عليهم بدونه أم لا بل هم كانوا أجل قدراً وأعظم عقولاً من أن يشغلوا أفكارهم بهذيان المنطقيين وما دخل المنطق على علم إلا أفسده وغير أوضاعه وشوش قواعده . ومن الناس من يقول أن علوم العربية من التصريف والنحو واللغة والمعاني والبيان ونحوها تعلمها فرض كفاية لتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها . ومن الناس من يقول تعلم أصول الفقه فرض كفاية لأنه العلم الذي يعرف به الدليل ومرتبته وكيفية الاستدلال وهذه الأقوال وإن كانت أقرب إلى الصواب من القول الأول فليس وجوبها عاماً على كل أحد ولا في كل وقت وإنما يجيب وجوب الوسائل في بعض الأزمان وعلى بعض الأشخاص بخلاف الفرض الذي يعم وجوبه كل أحد وهو علم الإيمان وشرائع الإسلام فهذا هو الواجب وأما ما عداه فإن توقفت معرفته عليه فهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به ويكون الواجب منه القدر الموصل إليه دون المسائل التي هي فضلة لا يقتقر معرفة الخطاب وفهمه إليها فلا

يطلق القول بأن علم العربية واجب على الإطلاق إذ الكثير منه ومن مسائله وبحوثه لا يتوقف فهم كلام الله ورسوله عليها وكذلك أصول الفقه القدر الذي يتوقف فهم الخطاب عليه منه يجب معرفته دون المسائل المقررة والأبحاث التي هي فضلة فكيف يقال أن تعلمها واجب وبالجملة فال مطلوب الواجب من العبد من العلوم والأعمال إذا توقف على شيء منها كان ذلك الشيء واجباً وجوب الوسائل . ومعلوم أن ذلك التوقف يختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأسئلة والأذهان فليس لذلك حد مقدر والله أعلم (الوجه الثالث والثلاثون بعد المائة) ما رواه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة يرفعه إلى النبي ﷺ قال سألت موسى ربه عن ست خصال كان يظن أنها له خالصة والسابعة لم يكن موسى يجها قال يارب أي عبادك أتق قال الذي يذكر ولا ينسى قال فأى عبادك أهدى قال الذي يتبع الهدى قال فأى عبادك أحكم قال الذي يحكم للناس ما يحكم لنفسه قال أي عبادك أعلم قال عالم لا يشبع من العلم يجمع علم الناس إلى علمه قال فأى عبادك أعز قال الذي إذا قدر عفا قال فأى عبادك أغنى قال الذي يرضى بما أوتي قال فأى عبادك أفقر قال صاحب منقوص فأخبر في هذا الحديث أن أعلم عباده الذي لا يشبع من العلم فهو يجمع علم الناس إلى علمه لنهته في العلم وحرصه عليه ولا ريب أن كون العبد أعظم عباد الله من أعظم أوصاف كماله وهذا هو الذي حمل موسى على الرحلة إلى عالم الأرض ليعلمه بما علمه الله . هذا وهو كليم الرحمن وأكرم الخلق على الله في زمانه وأعلم الخلق لعملة حرصه ونهته في العلم على الرحلة إلى العالم الذي وصف له فلولا أن العالم أشرف ما بذات فيه المهج وأنفقت فيه الأنفاس لاشتغل موسى عن الرحلة إلى الخضر بما هو بصده من أمر الأمة وعن مقاساة النصب والتعب في رحلته وتطفه للخضر في قوله (هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً) فلم ير أتباعه حتى استأذنه في ذلك وأخبره أنه جاء متعلماً مستفيداً فهذا النبي الكريم كان عالماً بقدر العلم وأهله صلوات الله وسلامه عليه (الوجه الرابع والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق لعبادته الجامعة لمحبه وإيثار مرضاته المستلزمة لمعرفة رغب للعباد علماً لا كمال لهم إلا به وهو أن تكون حركاتهم كلها موافقة على وفق مرضاته ومحبه ولذلك أرسل رسوله وأنزل كتبه وشرع شرائعه فلكال العبد الذي لا كمال له إلا به أن تكون حركاته موافقة لما يحبه الله منه ويرضاه له ولهذا جعل اتباع رسوله دليلاً على محبه . قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم) فالحب الصادق يرى خيانة منه محبوبه أن يتحرك بحركة اختيارية في غير مرضاته وإذا فعل فعلاً مما أبيض له بموجب طبيعته وشهوته تاب منه كما يتوب من الذنب ولا يزال هذا الأمر يقوى عنده حتى تنقلب

مباحاته كلها طاعات فيحتسب نومه وفطره وراحته كما يحتسب قومه وصومه واجتهاده وهو دائماً بين سره يشكر الله عليها وضراء يصبر عليها فهو سائر الى الله دائماً في نومه ويقظته . قال بعض العلماء الاكياس عادات المحق والحقى عباداتهم عادات وقال بعض السلف حينذا نوم الاكياس وفطرهم يغبنون به سهر الحقى وصومهم فالجب الصادق ان نطق لفظ لله وبالله وان سكبت سكبت لله وان تحرك فبأمر الله وان سكن فسكونه استعانة على مرضات الله فهو لله وبالله ومع الله ومعلوم ان صاحب هذا المقام أخرج خلق الله الى العالم فانه لا تميز له الحركة المحبوبة لله من غيرها ولا السكون المحبوب له من غيره إلا بالعلم فليست حاجته الى العلم كحاجة من طلب العلم لذاته ولانه فى نفسه صفة كمال بل حاجته اليه كحاجته الى ما به قوام نفسه وذاته ولهذا اشتدت وصاة شيوخ العارفين لمريديهم بالعلم وطلبه وانه من لم يطلب العلم لم يفلح حتى كانوا يعدون من لا علم له من السفلة . قال ذو النون وقد سئل من السفلة فقال من لا يعرف الطريق الى الله تعالى ولا يتعرفه وقال أبو يزيد لو نظرتم الى الرجل وقد أعطى من الكرامات حتى يتربح فى الهواء فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف تجددونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود ومعرفة الشريعة . وقال أبو حمزة البراز من علم طريق الحق سهل عليه سلوكه ولا دليل على الطريق الا متابعة الرسول فى أقواله وأفعاله وأحواله . وقال محمد بن الفضل الصوفى الزاهد ذهاب الإسلام على يدي أربعة أصناف من الناس صنف لا يعملون بما يعلمون وصنف يعملون بما لا يعلمون وصنف لا يعملون ولا يعلمون وصنف يمتنعون الناس من التعلم قلت . الصنف الأول من له علم بلا عمل فهو أضر شئ على العامة فانه حجة لهم فى كل نقيصة ومنحسة . والصنف الثانى العابد الجاهل فان الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه فيقتدون به على جهله وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف فى قوله احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مقتون فان الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم فاذا كان العلماء فجرة والعباد جهلة عمت المصيبة بهما وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة والصنف الثالث الذين لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة . والصنف الرابع نواب إبليس فى الأرض وهم الذين يثبطون الناس عن طلب العلم والتفقه فى الدين فهؤلاء أضر عليهم من شياطين الجن فانهم يحولون بين القلوب وبين هدى الله وطريقه فهؤلاء الأربعة أصناف هم الذين ذكرهم هذا العارف رحمة الله عليه وهؤلاء كلهم على شفا جرف هار وعلى سبيل الهدى كما يلقى العالم الداعى الى الله ورسوله ما يلقاه من الأذى والمخاربة إلا على أيديهم والله يستعمل من يشاء فى سخطه كما يستعمل من يحب فى مرضاته إنه بعباده خبير بصير ولا ينكشف سر هذه الطوائف وطريقتهم إلا بالعلم فعاد الخير بخذا فيره الى العلم وموجبه والشر

بمخالفته إلى الجهل وموجبه (الوجه الخامس والثلاثون بعد المائة) أن الله سبحانه جعل العلماء وكلاء وأمناء على دينه ووحيه وارتضاهم لحفظه والقيام به والذب عنه وناهيك بها منزلة شريفة ومنقبة عظيمة . قال تعالى (ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين) وقد قيل ان هؤلاء القوم هم الأنبياء وقيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل كل مؤمن . هذه أمهات الأقوال بعد أقوال متفرعة عن هذه كقول من قال هم الأنصار أو المهاجرون والأنصار أو قوم من أبناء فارس وقال آخرون هم الملائكة . قال ابن جرير وأولى هذه الأقوال بالصواب أنهم الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم في الآيات قبل هذه الآية . قال وذلك ان الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى وفي التي بعدها عنهم ذكر فإليها بان يكون خبراً عنهم أولى وأحق بان يكون خبراً عن غيرهم فالتأويل فإن يكفر قومك من قريش يا محمد بأياتنا وكذبوا بها وجحدوا حقيقتها فقد استحفظناهم واسترعينا القيام بها رسلنا وأنبياءنا من قبلك الذين لا يجحدون حقيقتها ولا يكذبون بها ولكنهم يصدقون بها ويؤمنون بصحتها . قلت السورة مكية والإشارة بقوله هؤلاء إلى من كفر به من قومه أصلاً ومن عداهم تبعاً فيدخل فيها كل من كفر بما جاء به من هذه الأمة والقوم المولكون بها هم الأنبياء أصلاً والمؤمنون بهم تبعاً فيدخل كل من قام بحفظها والذب عنها والدعوة إليها ولا ريب أن هذا للأنبياء أصلاً وللمؤمنين بهم تبعاً وأحق من دخل فيها من اتباع الرسول خلفاؤه في أمته وورثته فهم المولكون بها وهذا يذم في الأقوال التي قبلت في الآية . وأما قول من قال أنهم الملائكة فضعيف جداً لا يدل عليه السياق وتأباه لفظه قوما إذ الغالب في القرآن بل المطرد تخصيص القوم ببني آدم دون الملائكة . وأما قول إبراهيم لهم قوم منكم فإنا ما قاله لما ظنهم من الإنس وأيضاً فلا يقتضيه شغامة المعنى ومقصوده ولهذا لو أظهر ذلك وقيل فإن يكفر بها كفار قومك فقد وكلنا بها الملائكة فإنهم لا يكفرون بها لم نجد منه من التسلية وتحقير شأن الكفرة بها وبيان عدم تأهلهم لها والإنعام عليهم وإيثار غيرهم من أهل الإيمان الذين سبقت لهم الحسنى عليهم لكونهم أحق بها وأهلها والله أعلم حيث يضع هداه ويختص به من يشاء وأيضاً فإن تحت هذه الآية إشارة وبشارة بحفظها وأنه لا ضيعة عليها وأن هؤلاء وإن ضيعوها ولم يقبلوها فإن لها قوماً غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويرعونها ويذبون عنها فكفر هؤلاء بها لا يضيعها ولا يذهبها ولا يضرها شيئاً فإن لها أهلاً ومستحقاً سوامها فأمل شرف هذا المعنى وجلاله وما تضمنه من تحريض عباده المؤمنين على المبادرة إليها والمشاركة إلى (١١ - مفتاح ١)

قبولها وما تحته من نبيهم على محبة لهم وإيثاره إياهم بهذه النعمة على أعدائه الكافرين وما تحته من احتقارهم وازدرائهم وعدم المبالاة والاحتفال بهم وإن آمنوا بها فعبادى المؤمنون بها الموكلون بها سواء كم كثير كما قال تعالى . (قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أتوا العلم من قبله إذا تبلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) وإذا كان الملك عبيد قد عصوه وخالفوا أمره ولم يلتفتوا إلى عهده وله عبيد آخرون سامعون له مطيعون قابلون مستجيبون لأمره فنظر إليهم وقال إن يكفر هؤلاء نعمى ويعصوا أمرى ويضيعوا عهدى فإن لى عبيدا سواهم وهم أتم تطيعون أمرى وتحفظون عهدى وتودون حقى فإن عبيده المطيعين يجدون فى أنفسهم من الفرح والسرور والنشاط وقوة العزيمة ما يكون موجبا لهم المزيد من القيام بحق العبودية والمزيد من كرامة سيدهم ومالكهم وهذا أمر يشهد به الحس والعيان . وأما توكيلهم بها فهو يتضمن توفيقهم للإيمان بها والقيام بحقوقها ومراعاتها والذب عنها والنصيحة لها كما يوكل الرجل غيره بالشيء ليقوم به ويتمهده ويحافظ عليه وبها الأولى متعلقة بوكنا وبها الثانية متعلقة بكافرين والباء فى بكافرين لنا كيد النفى . فان قلت فهل يصح أن يقال لأحد هؤلاء المؤكلين أنه وكيل الله بهذا المعنى كما يقال ولى الله . قلت لا يلزم من اطلاق فعل التوكل المقيد بأمر ما إن يصاغ منه اسم فاعل مطلق كما أنه لا يلزم من اطلاق فعل الاستخلاف المقيد أن يقال خليفة الله لقوله (ويستخلفكم فى الأرض) . وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) فلا يوجب هذا الاستخلاف أن يقال لكل منهم أنه خليفة الله لأنه استخلاف مقيد ولما قيل للصدى يا خليفة الله قال لست بخليفة الله ولكنى خليفة رسول الله وحسى ذلك ولكن يسوغ أن يقال هو وكيل بذلك كما قال تعالى (فقد وكناها قوما) والمقصود أن هذا التوكيل خاص بمن قام بها علما وعملا وجهادا لأعدائها وذبا عنها ونفيا لتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين . وأيضا فهو توكيل رحمة وإحسان وتوفيق واختصاص لا توكيل حاجة كما يوكل الرجل من يتصرف عنه فى غيبته لحاجة إليه . ولهذا قال بعض السلف (فقد وكناها قوما) يقول رزقناها قوما فلها لا يقال لمن رزقها ورحم بها أنه وكيل لله وهذا بخلاف اشتقاق ولى الله من الموالاته فانها المحبة والقرب فكما يقال عبد الله وحبيبه يقال ولىه والله تعالى يوائى عبده إحسانا إليه وجبرا له ورحمة بخلاف المخلوق فانه يوالى المخلوق لتعززه به وتمكثه بموالاته لذل العبد وحاجته وأما العزيز العفى فلا يوالى أحدا من ذل ولا حاجة . قال تعالى (وقل الحمد لله الذى

لم يتخذ ولدأ ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً) فلم ينف
الولي نفياً عاماً مطلقاً بل نفي أن يكون له ولي من الذل وأثبت في موضع آخر أن له أولياء
بقوله (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وقوله (الله ولي الذين آمنوا)
فهذا موالة رحمة وإحسان وجبر والموالة المنفية موالة حاجة وذل . يوضح هذا الوجه
السادس والثلاثون بعد المائة) وهو ما روى عن النبي ﷺ من وجوه متعددة أنه قال
يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل
الجاهلين فهذا الحمل المشار إليه في هذا الحديث هو التوكل المذكور في الآية فأخبر ﷺ
أن العلم الذي جاء به يحمله عدول أمته من كل خلف حتى لا يضيع ويذهب وهذا يتضمن تعديله
صلى الله عليه وسلم لحمة العلم الذي بعث به وهو المشار إليه في قوله هذا العلم فكل من
حمل العلم المشار إليه لا بد وأن يكون عدلاً ولهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقله وحمله اشتهاراً
لا يقبل شكاً ولا امتراء ولا ريب أن من عدله رسول الله ﷺ لا يسمع فيه جرح فالأئمة
الذين اشتهروا عند الأمة بنقل العلم النبوي وميراثه كلهم عدول بتعديل رسول الله ﷺ
ولهذا لا يقبل قبح بعضهم في بعض وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقبح فيه
كأئمة البدع ومن جرى مجراهم من المتهمين في الدين فانهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم
فما حمل علم رسول الله ﷺ إلا عدل ولكن قد يغلط في مسمى العدالة فيظن أن المراد بالعدل
من لا ذنب له وليس كذلك بل هو عدل مؤتمن على الدين وإن كان منه ما يتوب إلى الله منه
فإن هذا لا ينافي العدالة كما لا ينافي الإيمان والولاية .

فصل

وهذا الحديث له طرق عديدة منها ما رواه ابن عدى عن موسى بن اسمعيل بن موسى بن
جعفر عن أبيه عن جده جعفر بن محمد عن أبيه عن علي عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
العوام بن حوشب عن شهر بن حوشب عن معاذ عن النبي ﷺ ذكره الخطيب وغيره .
ومنها ما رواه ابن عدى من حديث الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن سالم عن ابن
عمر عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه محمد بن جزير الطبري من حديث ابن أبي كريمة عن معاذ
ابن رفاعة السلاحي عن أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ . ومنها ما رواه
حماد بن يزيد عن بقر بن الوليد عن معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول
الله ﷺ . قال الدارقطني حدثنا أحمد بن الحسن بن زيد حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا مثنى
ابن بكر ومبشر وغيرهما من أهل العلم كلهم يقولون حدثنا معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن

عن النبي ﷺ يعني أن المحفوظ من هذا الطريق مرسل لأن إبراهيم هذا لا صحة له . وقال الخلال في كتاب العلل قرأت على زهير بن صالح بن أحمد حدثنا معنا قال سألت أحمد عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري قال قال رسول الله ﷺ يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين فقلت لأحمد كأنه موضوع قال لا هو صحيح فقلت بمن سمعته أنت فقال من غير واحد قلت من هم قال حدثني به مسكين إلا أنه يقول عن معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن قال أحمد ومعاذ بن رفاعة لا بأس به . ومنها ما رواه أبو صالح حدثنا الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عن عبد الله بن مسعود قال سمعت النبي ﷺ يقول يرث هذا العلم من كل خلف عدوله . ومنها ما رواه أبو أحمد بن عدى من حديث زريق بن عبد الله الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أمامة الباهلي قال قال رسول الله ﷺ رواه عنه بقرية . ومنها ما رواه بن عدى أيضاً من طريق مروان الفزاري عن يزيد بن كيسان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ . ومنها ما رواه تمام في فوائده من حديث الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن أبي قبيل عن عبد الله بن عمرو وأبي هريرة رواه عنه خالد بن عمرو . ومنها ما رواه القاضي اسماعيل من حديث علي بن مسلم البلوي عن أبي صالح الأشعري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ (الوجه السابع والثلاثون بعد المائة) إن بقاء الدين والدنيا في بقاء العلم وبذهاب العلم تذهب الدنيا والدين فقوام الدين والدنيا إنما هو بالعلم قال الأوزاعي قال ابن شهاب الزهري الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله . وقال ابن وهب أخبرني يزيد عن ابن شهاب قال بلغنا عن رجال من أهل العلم أنهم كانوا يقولون الاعتصام بالسنة نجاة والعلم يقبض قبضاً سريعاً فنعش العلم ثبات الدين والدنيا وذهاب العلم ذهاب ذلك كله (الوجه الثامن والثلاثون بعد المائة) أن العلم يرفع صاحبه في الدنيا والآخرة ما لا يرفعه الملك ولا المال ولا غيرهما فالعلم يزيد الشريف شرفاً ويرفع العبد المملوك حتى يجلسه مجالس الملوك كما ثبت في الصحيح من حديث الزهري عن أبي الطفيل أن نافع بن عبد الحارث أتى عمر بن الخطاب بعسفان وكان عمر استعمله على أهل مكة فقال له عمر من استخلفت على أهل الوادي قال استخلفت عليهم ابن ابري فقال من ابن ابري؟ فقال رجل من موالينا فقال عمر استخلفت عليهم مولى فقال إنه قارىء لكتاب الله عالم بالفرائض فقال عمر أما أن نبيكم ﷺ قد قال إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين قال أبو العالية كنت أتى ابن عباس وهو على سريره وحوله قريش فبأخذ بيدي فيجلسني معه على السرير فتعازر بي قريش فظن لهم ابن عباس فقال كذا هذا العلم يزيد الشريف شرفاً ويجلس المملوك على الأسرة.

وقال ابراهيم الحربى كان عطاء ابن ابي رباح عبدا لامرأة من مكة وكان أنفه كأنه باقلاة
قال وجاء سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى عطاء هو وابناه فجلسوا إليه وهو يصلى فلما صلى
انقفل إليهم فما زالوا يسألونه عن مناسك الحج وقد حول فقاه إليهم ثم قال سليمان لابنيه قوما
فقاما فقال يا بنى لاننيا فى طلب العلم فايق لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود قال الحربى
وكان محمد بن عبد الرحمن إلا وقص عنقه داخل فى بدنه وكان منكباة خارجين كأنهما زجان فقالت
أمه يا بنى لا تكون فى مجلس قوم إلا كنت المضحوك منه المسخور به فعليك بطلب العلم فانه يرفعك
فولى قضاء مكة عشرين سنة قال وكان الخصم إذا جلس إليه بين يديه يرعد حتى يقوم قال ومرت
به امرأة وهو يقول اللهم اعتق رقبتى من النار فقالت له يا ابن أخى وأى رقبة لك وقال يحيى
ابن أكرم قال الرشيدى ما أنبل المراتب قلت ما أنت فيه يا أمير المؤمنين قال فتعرف أجل منى
قلت لا قال لكنى أعرفه رجل فى حلقة يقول حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال
قلت يا أمير المؤمنين أهذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وولى عهد المؤمنين قال
نعم ويملك هذا خير منى لان اسمه مقترن باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يموت أبدا ونحن نموت
ونفى والعلما باقون مابقى الدهر وقال خيشمة بن سليمان سمعت ابي الخناجر يقول كنا فى مجلس
ابن هارون والناس قد اجتمعوا إليه فر أمير المؤمنين فوقف علينا فى المجلس وفى المجلس ألوف
فالتفت إلى أصحابه وقال هذا الملك وفى تاريخ بغداد للخطيب حدثنى أبو النجيب عبد الغفار
ابن عبد الواحد قال سمعت الحسن بن على المقرئ يقول سمعت أبا الحسن بن فارس يقول
سمعت الأستاذ ابن العميد يقول ما كنت أظن أن فى الدنيا حلاوة ألد من الرياسة والوزارة التى
أنا فيها حتى شهدت مذاكرة سليمان ابن أيوب بن أحمد الطبرانى وأبي بكر الجعابى بمحضرتى فكان
الطبرانى يقلب بكثرة حفظه وكان الجعابى يغلب الطبرانى بفطنته وزكا أهل بغداد حتى
ارتفعت أصواتهم ولا يكاد أحدهما يغلب صاحبه فقال الجعابى عندى حديث ليس فى الدنيا
إلا عندى فقال هاته فقال حدثنا أبو خليف حدثنا سليمان بن أيوب وحدث بالحديث فقال
الطبرانى أنبأنا سليمان بن أيوب ومنى سمع أبو خليفة فسمع منى حتى يعلموا اسنادك بأنك تروى
عن أبي خليفة عنى فنجعل الجعابى وغلبه الطبرانى قال ابن العميد فوددت فى مكافئ أن الوزارة
والرياسة ليتها لم تكن لى وكنت الطبرانى وفرحت مثل الفرح الذى فرح الطبرانى لأجل
الحديث أو كما قال وقال المزنى سمعت الشافعى يقول من تعلم القرآن عظمت قيمته ومن
نظر فى الفقه نبل مقداره ومن تعلم اللغة رقى طبعه ومن تعلم الحساب جزل رأيه ومن
كتب الحديث قويت حجته ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه وقد روى هذا الكلام عن
الشافعى من وجوه متعددة وقال سفيان الثورى من أراد الدنيا والآخرة فعليه بطلب العلم وقال عبد

الله بن داود سمعت سفيان الثوري يقول ان هذا الحديث عز فن أراد به الدنيا وجدها ومن أراد به الآخرة وجدها وقال النضر بن شميل من أراد أن يشرف في الدنيا والآخرة فليتعلم العلم وكفى بالمرء سعادة أن يوثق به في دين الله ويكون بين الله وبين عبادته وقال حمزة بن سعيد المصري لما حدث أبو مسلم اللخمي أول يوم حدث قال لانه كم فضل عندنا من أثمان غلاتنا قال ثلاثمائة دينار قال فرقها على أصحاب الحديث والفقراء شكرا ان أباك اليوم شهد على رسول الله ﷺ فقبلت شهادته وفي كتاب المجلس والأيس لأبي الفرج المعافى بن زكرياء الجريري حدثنا محمد بن الحسين بن دريد حدثنا أبو حاتم عن العتيبي عن أبيه قال ابنتي معاوية بالابطح مجلسا لمجلس عليه ومعه ابنه قرظة فاذا هو بجماعة على رحال لهم واذا شاب منهم قد رفع عقيرته يتغنى :

من يساجلني يساجل ماجدا
يملا الدلو الى عقد الكرب

قال من هذا قالوا عبد الله بن جعفر قال خلوا له الطريق ثم اذا هو بجماعة فيهم غلام يتغنى :

بينما يذكرتي أبصرتني عند قيد الميل يسعي بي الأغر

قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

قال من هذا قالوا عمر بن أبي ربيعة قال خلوا له الطريق فليذهب قال ثم اذا هو بجماعة وإذا فيهم رجل يسئل فيقال له رميت قبل أن أحلق وحلقت قبل أن أرى في أشياء أشكلت عليهم.

من مناسك الحج فقال من هذا قالوا عبد الله بن عمر فالتفت إلى ابنه قرظة وقال هذا وأبيك الشرف هذا والله شرف الدنيا والآخرة . وقال سفيان بن عيينة أرفع الناس منزلة عند الله

من كان بين الله وبين عبادته وهم الأنبياء والعلماء وقال سهل التستري من أراد أن ينظر إلى

مجالس الأنبياء فلينظر إلى مجالس العلماء يجيء الرجل فيقول يا فلان ايش تقول في رجل حلف

على امرأته بكذا وكذا فيقول طلقت امرأته ويجيء آخر فيقول حلفت بكذا وكذا فيقول

ليس يحنت بهذا القول وليس هذا إلا لني أو عالم فاعرفوا لهم ذلك (الوجه التاسع والثلاثون

بعد المائة) ان النفوس الجاهلة التي لا علم عندها قد ألبست ثوب النذل والازراء عليها والنقص

بها أسرع منه إلى غيرها وهذا أمر معلوم عند الخاص والعام قال الأعمش اني لأرى الشيخ

لا يروي شيئاً من الحديث فاشتبهى أن أطمعه وقال معاوية سمعت الأعمش يقول من لم يطلب

الحديث أشتبهى أن أصفه بنعلى وقال هشام بن علي سمعت الأعمش يقول إذا رأيت الشيخ

لم يقرأ القرآن ولم يكتب الحديث فاصفع له فانه من شيوخ القمراء قال أبو صالح قلت لأبي

جعفر ما شيوخ القمراء قال شيوخ دهريون يجتمعون في ليالي القمر يتذاكرون أيام الناس ولا يحسن أحدهم أن يتوضأ للصلاة وقال المزني كان الشافعي إذا رأى شيخاً سأله عن الحديث

والفقه فان كان عنده شيء والا قال له لا جزاك الله خيراً عن نفسك ولا عن الإسلام قد

ضيعت نفسك وضيعت الاسلام وكان بعض خلفاء بني العباس يلعب بالشطرنج فاستأذن عليه
 عمه فأذن له وغطى الرقعة فلما جلس قال له يا عم هل قرأت القرآن قال لا قال هل كتب شيئا
 من السنة قال لا قال فهل نظرت في الفقه واختلاف الناس قال لا قال فهل نظرت في العربية
 وأيام الناس قال لا قال فقال الخليفة اكشف الرقعة ثم أتم اللعب وزال احتشامه وحيأوه
 منه وقال له ملاحظه يا أمير المؤمنين تكشفها ومعنا من تحتشم منه قال اسكت فما معنا أحد .
 وهذا لأن الانسان انما يتميز عن سائر الحيوانات بما خص به من العلم والعقل والفهم فاذا عدم
 ذلك لم يبق فيه إلا القدر المشترك بينه وبين سائر الحيوانات وهي الحيوانية البهيمية ومثل هذا
 لا يستحي منه الناس ولا ينعون بحضرة وشهوده بما يستحيا منه من أولى الفضل والعلـم (الوجه
 الأربعون بعد المائة) ان كل صاحب بضاعة سوى العلم إذا علم ان غير بضاعته خير منها زهد
 في بضاعته ورغب في الأخرى وود أنها له عوض بضاعته إلا صاحب بضاعة العلم فانه ليس
 يجب أن له بحظه منها حظ أصلا وكان سفيان الثوري إذا رأى الشيخ لم يكتب الحديث قال
 لا جزاك الله عن الاسلام خيرا قال أبو جعفر الطحاوي كنت عند أحمد بن أبي عمران فر بنا
 رجل من بني الدنيا فنظرت اليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة فقال لي كأنى بك قد
 فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا قلت له نعم قال هل أدلك على خلة هل لك أن
 يحول الله إليك ما عنده من المال ويحول اليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنيا جاهلا ويعيش
 هو عالما فقيرا فقلت ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده فالعلم غنى بلا مال
 وعز بلا عشيرة وسلطان بلا رجال وفي ذلك قيل :

العلم كنز وذخر لا نفاذ له نعم القرين إذا ما صاحب صحبا
 قد يجمع المرء مالا ثم يحرمه عما قليل فيلتي الذل والحربا
 وجامع العلم مغبوط به أبدأ ولا يحاذر منه الفوت والسلبا
 يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه لا تعدان به درأ ولا ذهباً

(الوجه الحادى والأربعون بعد المائة) أن الله سبحانه أخبر أنه يجزى المحسنين أجرهم بأحسن
 ما كانوا يعملون وأخبر سبحانه أنه يجزى على الاحسان بالعلم وهذا يدل على أنه من أحسن
 الجزاء أما المقام الأول في قوله تعالى (والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون لهم
 ما يشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا ويمجزهم أجرهم
 بأحسن الذى كانوا يعملون) وهذا يتناول الجزاءين الدينوى والأخروى وأما المقام الثانى
 في قوله تعالى (ولما بلغ أشده آتيناها حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) قال الحسن من
 أحسن عبادة الله فى شيبته لقاء الله الحكمة عند كبر سنه وذلك قوله (ولما بلغ أشده آتيناها

حكما وعلما وكذلك نجزي المحسنين) ومن هذا قال بعض العلماء تقول الحكمة من التمسق فلم يجدنى فليعمل باحسن ما يعلم وليترك أقبح ما يعلم فاذا فعل ذلك فانا معه وإن لم يعرفنى (الوجه الثانى والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه جعل العلم للقلوب كالطمر للأرض فكما أنه لا حياة للأرض إلا بالمطر فكذلك لا حياة للقلب إلا بالعلم . وفى الموطأ قال لقمان لابنه يا بنى جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فان الله تعالى يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل المطر ولهذا فإن الأرض إنما تحتاج إلى المطر فى بعض الأوقات فاذا تابح عليها احتاجت إلى انقطاعه وأما العلم فيحتاج اليه بعدد الأنفاس ولا تزيده كثرتة إلا صلاحا ونفعا (الوجه الثالث والأربعون بعد المائة) ان كثيرا من الاخلاق التى لا تحمد فى الشخص بل يذم عليها تحمد فى طلب العلم كالملق وترك الاستحياء والذل والتردد إلى أبواب العلماء ونحوها . قال ابن قتيبة جاء فى الحديث ليس الملق من أخلاق المؤمنين إلا فى طلب العلم وهذا أثر عن بعض السلف . وقال ابن عباس ذلك طالبها فعززت مطلوبها وقال وجدت عامة علم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحى من الأنصار إن كنت لأقيل عند باب أحدهم ولو شدت أذن لى ولكن أتبعى بذلك طيب نفسه . وقال أبو اسحاق قال على كلمات لو رحلت المطى فيهن لأنفينموهن قبل أن تدرى كوا مثلهن لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول لا أعلم واعلموا أن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الرأس من الجسد فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد وإذا ذهب البصر ذهب الإيمان . ومن كلام بعض العلماء لا ينال العلم مستحي ولا متكبر هذا يمنعه حياؤه من التعلم وهذا يمنعه كبره وإنما حدث هذه الأخلاق فى طلب العلم لأنها طريق إلى تحصيله فكانت من كمال الرجل ومفضية إلى كماله . ومن كلام الحسن من استتر عن طلب العلم بالحياء لبس للجهل سر باله فاقطعوا سراييل الحياء فانه من رق وجهه رق علمه وقال الخليل منزلة الجهل بين الحياء والأنفة . ومن كلام على رضى الله عنه قرنت الهيبة بالحيية والحياء بالحرمان . وقال ابراهيم منصور سل مسألة الختى واحفظ حفظ الأكياس وكذلك سؤال الناس هو عيب ونقص فى الرجل وذلة تنافى المروءة إلا فى العلم فانه عين كماله ومروءته وعزه كما قال بعض أهل العلم خير خصال الرجل السؤال عن العلم . وقيل إذا جلست إلى عالم فسل تفقها لاتعنتا . وقال رؤبة بن العجاج أتيت النسابة البكرى فقال من أنت قلت أنا ابن العجاج قال قصرت وعرفت لعلك كقوم إن سكت لم يسألونى وإن تكلمت لم يعوا عنى قلت أرجو أن لا أكون كذلك قال ما أعداء المروءة قلت تخبرنى قال بنوعم السوء إن رأوا حسنا ستروه وإن رأوا سيئا أذاعوه ثم قال إن للعلم آفة ونكدا وهجنة فأفنه

نسيانه ونكده الكذب فيه وهجته نشره عند غير أهله . وأنشد ابن الأعرابي :

ما أقرب الأشياء حين يسوقها قدروا بعدها إذا لم تقدر
فلس الفقيه تكن فقيها مثله من يسع في علم بذل يمه
فتدبر العبل الذي تفتى به لاخير في علم بغير تدبر
ولقد يجد المرء وهو مقصر ويخيب جد المرء غير مقصر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم والمنكرون لسلك أمر منكر
وبقيت في خلف يزين بعضهم بعضا ليدفع معور عن معور

والعلم ست مراتب . أولها حسن السؤال . الثانية حسن الانصات والاستماع . الثالثة
حسن الفهم . الرابعة الحفظ . الخامسة التعليم . السادسة وهي ثمرته وهي العمل به ومراعاة
حدوده فن الناس من يجرمه لعدم حسن سؤاله إما لأنه لايسأل بحال أو يسأل عن شيء وغيره
أهم إليه منه كمن يسأل عن فضوله التي لا يضر جملة بها ويدع ما لاغنى له عن معرفته وهذه حال
كثير من الجهال المتعلمين ومن الناس من يجرمه لسوء انصاته فيكون الكلام والممارات آثر
عنده وأحب إليه من الانصات وهذه آفة كامنة في أكثر النفوس الطالبة للعلم وهي تمنعهم علما
كثيرا ولو كان حسن الفهم . ذكر ابن عبد البر عن بعض السلف أنه قال من كان حسن الفهم
ردى الاستماع لم يقم خيره بشره وذكر عبد الله بن أحمد في كتاب العلل له قال كان عروة بن
الزبير يحب مارة ابن عباس فكان يخزن علمه عنه وكان عبيد الله بن عبد الله بن عتبة يلفظ له
في السؤال فيعزه بالعلم عزا . وقال ابن جرير لم أستخرج العلم الذي استخرجت من عطاء إلا
يرفقي به . وقال بعض السلف إذا جالست العالم فكن على أن تسمع أحرص منك على أن
تقول وقد قال الله تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)
فتأمل ماتحت هذه الألفاظ من كنوز العلم وكيف تفتح مراعاتها للاميد أبواب العلم والهدى
وكيف يتعلق باب العلم عنه من اهمالها وعدم مراعاتها فانه سبحانه أمر عباده أن يتدبرو آياته
المتلوة المسموعة والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب فان من عدم القلب الواعى
عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه ولو مرت به كل آية ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس
والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له فاذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به
المرئيات فانه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين أحدهما أن يحضره ويشهده
لما يلقى إليه فان كان غائبا عنه مسافرا في الأمانى والشهوات والخيالات لا ينتفع به فاذا حضره
وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقى سمه ويصغى بكيته إلى ما يعظ به ويرشد إليه . وهاهنا ثلاثة

أمور . أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله . الثاني احضاره وجمعه ومنعه من الشرود والفرق . الثالث لقاء السمع وإصغاؤه والاقبال على الذكر فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية . قال ابن عطية القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب وواع ينتفع به . قال وقال الثبلي قلب حاضر مع الله لا يفغل عنه طرفة عين . وقوله (أو ألقى السمع وهو شهيد) معناه صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه فذلك اللقاء له عليها ومنه قوله (وألقيت عليك محبة مني) أي أثبتتها عليك وقوله وهو شهيد قال بعض المتأولين معناه وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا مفكر في غير ما يسمع . قال وقال قتادة هي إشارة إلى أهل الكتاب فكأنه قال ان هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعله بها من كتابه التوراة وسائر كتب بني اسرائيل قال فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة وقال الزجاج معنى من كان له قلب من شرف قلبه إلى التفهم ألا ترى أن قوله صم بكم عمى أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجملوا بمنزلة من لم يسمع كما قال الشاعر « أصم عما ساءه سميع » ومعنى أو ألقى السمع استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع والعرب تقول ألقى إلى سمعك أي استمع مني وهو شهيد أي قلبه فيما يسمع وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي ﷺ فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد أشاهد أن صفة النبي ﷺ في كتابه وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيدا فيه بمعنى شاهد أي مخبر . وقال صاحب الكشف لمن كان له قلب وواع لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له ولقاء السمع الإصغاء وهو شهيد أي حاضر بفضنته لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من الله وهو بعض الشهداء في قوله لتكونوا شهداء على الناس وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعمته عنده فلم يختلف في أن المراد بالقلب القلب الواعي وأن المراد باللقاء السمع إصغاؤه وإقباله على المذكر وتفريغ سمعه له . واختلف في الشهيد على أربعة أقوال أحدها أنه من المشاهدة وهي الحضور وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره . الثاني أنه شهيد من الشهادة وفيه على هذا ثلاثة أقوال . أحدها أنه شاهد على صحة مأمعه من الإيقان . الثاني أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة الثالث أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة والصواب القول الأول فإن قوله (وهو شهيد) جملة حالية والواو فيها وأو الحال أي ألقى السمع في هذه الحال وهذا يقتضى أن يكون حال القائه السمع شهيدا

وهذا هو من المشاهدة والحضور ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة أو حال كونه شاهداً يوم القيامة ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية . وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب وألقى السمع فكيف يدعى تخصيصها بمؤمنى أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي صلى الله عليه وسلم . وأيضاً فالسورة مكية والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذى علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعى وإلقاء السمع فكيف يقال هى فى أهل الكتاب . فان قيل المختص بهم قوله وهو شهيد فهذا أفسد وأفسد لأن قوله وهو شهيد يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم وهو من له قلب أو ألقى السمع فكيف يدعى عوده إلى شىء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً ولا دلالة فى اللفظ عليه . وأيضاً فان المشهود به محذوف ولا دلالة فى اللفظ عليه فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا لذكر المشهود به إذ ليس فى اللفظ ما يدل عليه وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور فانه لا يقتضى مفعولاً مشهوداً به ليم الكلام بذكره وحده . وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين أحدهما من كان له قلب والثانى من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غايته وهذا والله أعلم سر الإنيان بأو دون الواو لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان . أحدهما ذو القلب الواعى الزكى الذى يكفى بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاه بل قلبه واعزكى قابل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط لئلا استعداده وصحة فطرته فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كما أنه كان مكتوباً فيه فهو قد أدركه بحملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته بحملا وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هى حال الصديق الأكبر رضى الله عنه . والنوع الثانى من ليس له هذا الاستعداد والقبول فاذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج وذكر المعارضات والأجوبة عنها والأولون هم الذين يدعون بالحكمة وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة فهؤلاء نوعا المستجيبين . وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان نوع يدعون بالمجادلة بالتي هى أحسن فان استجابوا وإلا فالمجادلة فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلال ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها كلها كما قال تعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هى أحسن) فهؤلاء المدعون بالكلام وأما أهل الجلال فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . وأما من فسر الآية

بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغنى بفطرته عن علم المنطق وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة فهو اكمال فطرته مستغن عن مراعات أوضاع المنطق والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصفاؤه إليه أن لا يزيغ في فكره وفسر قوله ادع إلى سبيل ربك بالحكمة أنها القياس البرهاني والموعظة الحسنة القياس الخطابي وجادلهم بالتي هي أحسن القياس الجدلي فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير بل ولا من تفاسير المسلمين وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة والقرآن برى من ذلك كله منزعه عن هذه الأباطيل والهديات وقد ذكرنا بطلان ما فسر به المنطقيون هذه الآية التي نحن فيها والآية الأخرى في موضع آخر من وجوه متعددة وبيننا بطلانه عقلا وشرعا ولغة وعرفا وأنه يتعالى كلام الله عن حمله على ذلك وبالله التوفيق . والمقصود بيان حرمان العلم من هذه الوجوه الستة : أحدها ترك السؤال . الثاني سوء الإنصات وعدم القاء السمع . الثالث سوء الفهم . الرابع عدم الحفظ . الخامس عدم نشره وتعليمه فإن من خزن عليه ولم ينشره ولم يعلمه ابتلاه الله بنسيانه وذهابه فنه جزء من جنس عمله وهذا أمر يشهد به الحس والوجد . السادس عدم العمل به فإن العمل به يوجب تذكره وتدبره ومراعاته والنظر فيه فإذا أهمل العمل به نسيه . قال بعض السلف كنا نستمع على حفظ العلم بالعمل به . وقال بعض السلف أيضاً العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل فالعمل به من أعظم أسباب حفظه وثباته وترك العمل به إضاعة له فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل . قال الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وأما قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) فليس من هذا الباب بل هما جملتان مستقتتان طلبية وهي الأمر بالتقوى وخبرية وهي قوله تعالى ويعلمكم الله أى والله يعلمكم ما تتقون وإنست جوابا للأمر بالتقوى ولو أريد بها الجزاء لآتى بها مجزوءة مجردة عن الواو فكان يقول واتقوا الله ويعلمكم الله أو إن تتقوه يعلمكم كما قال (إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) فتدبره . (الوجه الرابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه نفي التسوية بين العالم وغيره كما نفي التسوية بين الخبيث والطيب وبين الأعمى والبصير وبين النور والظلمة وبين الظل والحرور وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار وبين الأبكم العاجز الذى لا يقدر على شىء ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم وبين المؤمنين والكفار وبين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المنقين

والفجار فهذه عشرة مواضع في القرآن نفي فيها التسوية بين هؤلاء الأوصاف وهذا يدل على أن منزلة العالم من الجاهل كمنزلة النور من الظلمة والظل من الحرور والطيب من الخبيث ومنزلة كل واحد من هذه الأوصاف مع مقابله وهذا كاف في شرف العلم وأهله بل إذا تأملت هذه الأوصاف كلها ووجدت نفي التسوية بينها راجعا إلى العلم وموجبه فيه وقع التفضيل وانتفت المساواة . (الوجه الخامس والأربعون بعد المائة) أن سليمان لما توعد الهدد بأن يعذبه عذاباً شديداً أو يذبحه إنما نجا منه بالعلم وأقدم عليه في خطابه له بقوله أحطت بما لم تحط به خبراً وهذا الخطاب إنما جرى عليه العلم وإلا فالهدد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم . ومن هذا الحكاية المشهورة أن بهضر أهل العلم سئل عن مسألة فقال لا أعلمها فقال أحد تلامذته أنا أعلم هذه المسألة فغضب الأستاذ وهم به فقال له أيها الأستاذ لست أعلم من سليمان بن داود ولو بلغت في العلم ما بلغت ولست أنا أجبل من الهدد وقد قال سليمان أحطت بما لم تحط به فلم يعتب عليه ولم يعنفه . (الوجه السادس والأربعون بعد المائة) إن من نال شيئاً من شرف الدنيا والآخرة فأنما ناله بالعلم وتأمل ما حصل لآدم من تميزه على الملائكة واعترافهم له بتعليم الله له الأسماء كلها ثم ما حصل له من تدارك المصيبة والتعويض عن سكتي الجنة بما هو خير له منها بعلم الكلمات التي تنقاه من ربه وما حصل ليوسف من التمكين في الأرض والعزة والعظمة بعلمه بتعبير تلك الرؤيا ثم علمه بوجود استخراج أخيه من إخوته بما يقرون به ويحكمون هم به حتى آل الأمر إلى ما آل إليه من العز والعاقة الحميدة وكال الخال التي توصل إليها بانعلم كما أشار إليها سبحانه في قوله ﴿ كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴾ جاء في تفسيرها نرفع درجات من نشاء بالعلم كما رفعنا درجة يوسف على إخوته بالعلم وقال في إبراهيم عليه السلام (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء) فهذه رفعة بعلم الحجية والأول رفعة بعلم السياسة وكذلك ما حصل للخضر بسبب علمه من تلمذة كليم الرحمن له وتلقفه معه في السؤال حتى قال هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً . وكذلك ما حصل لسليمان من علم منطق الطير حتى وصل إلى ملك سبأ وقهر ملكتهم واحتوى على سرير ملكها ودخولها تحت طاعته . ولذلك قال (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء إن هذا هو الفضل المبين) وكذلك ما حصل لداود من علمه نسج الدروع من الوفاة من سلاح الأعداء وعداد سبحانه هذه النعمة بهذا العلم على عباده فقال (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) وكذلك ما حصل للمسيح من علم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ما رفعه الله

به إليه وفضله وكرمه وكذلك ما حصل لسيد ولد آدم من العلم الذي ذكره الله به نعمة عليه فقال وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعليك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما (الوجه السابع والأربعون بعد المائة) إن الله سبحانه أثنى على إبراهيم خليله بقوله تعالى وإن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين شاكرا لانعمه اجتياه) فهذه أربع أنواع من الثناء افتتحها بأنه أمة والأمة هو القدوة الذي يؤتم به، قال ابن مسعود والأمة المعلم للخير وهي فعلة من الائتام كقدوة وهو الذي يقتدى به والفرق بين الأمة والإمام من وجوب أحدهما أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصد وشعوره أولا ومنه سمي الطريق إماما كقوله تعالى (وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين) أى بطريق واضح لا يخفى على السالك ولا يسمى الطريق أمة. الثاني أن الأمة فيه زيادة معنى وهو الذى جمع صفات السكالم من العلم والعمل بحيث بقى فيها فردا وحده فهو الجامع لحصال تفرقت في غيره فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقا أو عدمها في غيره ولفظ الأمة يشعر بهذا المعنى لما فيه من الميم المضعفة الدالة على الضم بمخرجها وتكريرها وكذلك ضم أوله فإن الضمة من الواو ومخرجها ينضم عند النطق بها وأتى بالثناء الدالة على الوحدة كالفرقة واللقمة ومنه الحديث إن زيد بن عمرو بن نفيل يبعث يوم القيامة أمة وحده فالضم والاجتماع لازم لمعنى الأمة ومنه سميت الأمة التي هي آحاد الأمم لانهم الناس مجتمعون على دين واحد أو في عصر واحد. الثاني قوله قانتا لله قال ابن مسعود القانت المطيع والقنوت يفسر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة. الثالث قوله حنيفا والحنيف المقبل على الله ويلزم هذا المعنى ميله عما سواه فالميل لازم معنى الحنيف لأنّه موضوعه لغة. الرابع قوله شاكرا لانعمه والشكر للنعم مبنى على ثلاثة أركان الأقرار بالنعمة وإضافتها إلى المنعم بها وصرفها في مرضاته والعمل فيها بما يجب فلا يكون العبد شاكرا إلا بهذه الأشياء الثلاثة والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم والعمل بموجبه وتعليمه ونشره فعاد السكالم كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه. الوجه الثامن والأربعون بعد المائة قوله سبحانه عن المسيح أنه قال (إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركا أينما كنت) قال سفيان بن عيينة جعلني مباركا أينما كنت قال معلما للخير وهذا يدل على أن تعليم الرجل الخير هو البركة التي جعلها الله فيه فإن البركة حصول الخير ونماؤه ودوامه وهذا في الحقيقة ليس إلا في العلم الموروث عن الأنبياء وتعليمه ولهذا سمي سبحانه كتابه مباركا كما قال تعالى (وهذا ذكر مبارك أنزلناه) وقال (كتاب أنزلناه إليك مبارك) ووصف رسوله بأنه مبارك كما في قول المسيح (وجعلني مباركا أينما كنت فبركة كتابه ورسوله هي سبب ما يحصل بهما من العلم والهدى والدعوة إلى الله). (الوجه التاسع والأربعون

بعد المائة) مافي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له رواه مسلم في الصحيح وهذا من أعظم الأدلة على شرف العلم وفضله وعظم ثمرته فإن ثوابه يصل إلى الرجل بعد موته مادام ينتفع به فكأنه حتى لم ينقطع عمله مع ماله من حياة الذكر والثناء بخريان أجره عليه إذا انقطع عن الناس ثواب أعمالهم حياة ثانية وخص النبي ﷺ هذه الأشياء الثلاثة بوصول الثواب إلى الميت لأنه سبب لحصولها والعبد إذا باشر السبب الذي يتعلق به الأمر والنهي يترتب عليه مسيبه وإن كان خارجا عن سعيه وكسبه فلما كان هو السبب في حصول هذا الولد الصالح والصدقة الجارية والعلم النافع جرى عليه ثوابه وأجره لتسبيبه فيه فالعبد إنما يثاب على ما باشره أو على ما تولد منه وقد ذكر تعالى هذين الأصلين في كتابه في سورة براءة فقال (ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا يحسبهم في سبيل الله ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا يتألون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين) فهذه الأمور كلها متولدات عن أفعالهم غير مقدورة لهم وإنما المقدور لهم أسبابها التي باشروها ثم قال (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون) فالنفقة وقطع الوادي أفعال مقدورة لهم وقال في القسم الأول كتب لهم به عمل صالح إلا أن المتولد حاصل عن شيئين أفعالهم وغيرها فليست أفعالهم سببا مستقلا في حصول المتولد بل هي جزء من أجزاء السبب فيكتب لهم من ذلك ما كان مقابلا لأفعالهم. وأيضا فإن الظمأ والنصب وغيظ العدو ليس من أفعالهم فلا يكتب لهم نفسه ولكن لما تولد عن أفعالهم كتب لهم به عمل صالح وأما القسم الآخر وهو الأفعال للمقدورة نفسها كالإفناق وقطع الوادي فهو عمل صالح فيكتب لهم نفسه إذ هو مقدور لهم حاصل بارادتهم وقدرتهم فعاد الثواب إلى الأفعال المقدورة والمتولد عنها وبالله التوفيق (الوجه الخمسون بعد المائة) ما ذكره ابن عبد البر عن عبد الله بن داود قال إذا كان يوم القيامة عزل الله تبارك وتعالى العلماء عن الحساب فيقول ادخلوا الجنة على ما كان فيكم إنى لم أجعل على فيكم إلا لخير أردته بكم قال ابن عبد البر وزاد غيره في هذا الخبر أن الله يحبس العلماء يوم القيامة في زمرة واحدة حتى يقضى بين الناس ويدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يدعو العلماء فيقول يا معشر العلماء إنى لم أضع حكمتي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم قد عدت أنكم تخلطون من المعاصي بما يخلط غيركم فسترتها عليكم وغفرتها لكم وإنما كنت أعذب بفتياكم وتعليمكم عبادي لدخلوا الجنة بغير حساب ثم قال لا معطى لما منع ولا مانع لما أعطى قال وروى نحو هذا

المعنى بإسناد متصل مرفوع وقد روى حرب الكرماني في مسأله نحوه مرفوعاً وقال إبراهيم بلغني أنه إذا كان يوم القيامة توضع حسنات الرجل في كفة وسيئاته في الكفة الأخرى فتشيل حسناته فإذا ينس فظن أنها النار جاء شيء مثل السحاب حتى يقع من حسناته فتشيل سيئاته قال فيقال له أتعرف هذا من عملك فيقول لا فيقال هذا ما علت الناس من الخير فعمل به من بعدك (فان قيل) فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم وأنه يغفر له ما لا يغفر للعالم فان حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل وعليه بقبح المعصية وبغض الله لها وعقوبته عليها أعظم من علم الجاهل ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل وقد دلت الشريعة وحكم الله على أن من حبي بالإنعام وخص بالفضل والإكرام ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات فارتعابها في مراتع الهلكات وتجراً على انتهاك الحرمات واستخفاف بالتبعات والسيئات أنه يقابل من الانتقام والعقاب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته وعلى هذا جاء قوله تعالى (يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً) ولهذا كان حد الجرح ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر وما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبتته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه . قال بعض السلف يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب . وقال بعضهم أيضاً إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي للعلماء (فالجواب إن هذا الذي ذكرتموه) حتى لا يريب فيه ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فانه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره فان المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث بخلاف الماء القليل فانه لا يحمل أدنى خبث ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما كنتم تقومون لكم وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكبت مثل ذلك الذنب العظيم فأخبر ﷺ أنه شهد بدرأ فدل على أن مقتضى عقوبته قائم لكن منع من توتب أثره عليه ماله من المشهد العظيم فوقمت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ماله من الحسنات ولما حض النبي صلى الله عليه وسلم على الصدقة فأخرج عثمان رضي الله عنه تلك الصدقة العظيمة قال ماض عثمان ما عمل بعدها وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة أوجب طلحة وهذا موسى كلم الرحمن عز وجل أتقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت فقأها وعاتب ربه ليلة الأسرى في النبي ﷺ وقال شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمي وأخذ بطحينة

هارون وجره إليه وهو نبي الله وكل هذا لم ينقص من قدرة شيئا عند ربه وربّه تعالى يكرمه ويحبّه فان الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له والصبر الذي صبره والأذى الذي أوديه في الله أمر لا تؤثريه أمثال هذه الأمور ولا تغير في وجهه ولا تخفض منزلته وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرم إن من له أوف من الحسنات فانه يسامح بالسيئة والسيئين ونحوها حتى أنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته وداعي شكره على إحسانه فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

وقال آخر :

فان يكن الفعل الذي ساء واحداً فافعله اللاتي سررن كثير

(والله سبحانه) يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته فأيهما غلب كان التأثير له فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة مالا يفعله مع غيرهم * وأيضاً فان العالم إذا زل فانه يحسن اسراع الفيئة وتدارك الفارط ومداواة الجرح فهو كالطبيب الحاذق الصبر بالمرض وأسبابه وعلاجه فان زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل * وأيضاً فان معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعدوه وعيده وخشيته منه وازرائه على نفسه بارتكابه وإيمانه بأن الله حرمه وان له ربا يغفر الذنب ويأخذ به إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه ويزيل أثره بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره فانه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المرديّة فلا يستوى هذا وهذا . وهذا فصل الخطاب في هذا الموضوع وبه يتبين أن الأمرين حق وانه لا منافاة بينهما وان كل واحد من العالم والجاهل انما زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها . ويزيل أثرها فعاد القبح في الموضوعين إلى الجهل وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله وبالله التوفيق .

(الوجه الحادى والخمسون بعد المائة) ان العالم مشغول بالعلم والتعليم لا يزال في عبادة نفسه تعلمه وتعليمه عبادة قال ابن مسعود لا يزال الفقيه يصلى قالوا وكيف يصلى قال ذكر الله على قلبه ولسانه ذكره ابن عبد البر وفي حديث معاذ مرفوعاً وموقوفاً تعلموا العلم فان تعلمه لله حسنة وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح وقد تقدم والصواب انه موقوف وذكر ابن عبد البر عن معاذ مرفوعاً لأن تغدو فتعلم باباً من أبواب العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة وهذا لا يثبت رفعه وقال ابن وهب كنت عند مالك بن أنس لحانت صلاة الظهر أو العصر وأنا أقرأ عليه وانظر في العلم بين يديه جمعت كتي وقت لاركع فقال لى مالك ما هذا فقلت أقوم إلى الصلاة فقال ان هذا لمعجب ما الذى قمت إليه أفضل من الذى كنت فيه إذا صحت فيملئني وقال الربيع سمعت الشافعى يقول طلب العلم أفضل من الصلاة النافلة وقال سفيان الثورى (١٢ — مفتاح ١)

ما من عمل أفضل من طلب العلم إذا صححت فيه النية وقال رجل للمعافى بن عمران أيما أحب الليل أقوم أصلى إليك كاه أو أكتب الحديث فقال حديث تكتبه أحب إلى من قيامك من أول الليل إلى آخره وقال أيضاً كتابة حديث واحد أحب إلى من قيام ليلة وقال ابن عباس تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها وفي مسائل اسحاق بن منصور قلت لأحمد بن حنبل قوله تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها أي علم أراد قال هو العلم الذي ينتفع به الناس في أمر دينهم قلت في الوضوء والصلاة والصوم والحج والطلاق ونحو هذا قال نعم قال اسحاق وقال لي اسحاق بن راهويه هو كما قال أحمد وقال أبو هريرة لأن أجلس ساعة فاتفقه في ديني أحب إلى من إحياء ليلة إلى الصباح وذكر ابن عبد البر من حديث أبي هريرة يرفعه لسكك شيء عماد وعماد هذا الدين العمق وما عبد الله بشيء أفضل من فقه في الدين الحديث وقد تقدم وقال محمد بن علي الباقر عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد وقال أيضاً رواية الحديث وبه في الناس أفضل من عبادة ألف عابد ولما كان طالب العلم والبحث عنه وكتابته والتفتيش عليه من عمل القلب والجوارح كان من أفضل الأعمال ومنزله من عمل الجوارح كتنزلة أعمال القلب من الاخلاص والتوكل والمحنة والانابة والخشية والرضا ونحوها من الأعمال الظاهرة فان قيل فالعلم انما هو وسيلة إلى العمل ومراد له والعمل هو الغاية ومعلوم أن الغاية أشرف من الوسيلة فكيف تفضل الوسائل على غايتها قيل كل من العلم والعمل ينقسم قسمين منه ما يكون وسيلة ومنه ما يكون غاية فليس العلم كله وسيلة مرادة لغايتها فان العلم بالله وأسمائه وصفاته هو أشرف العلوم على الاطلاق وهو مطلوب لنفسه مراد لذاته قال الله تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن متلهن ينزل الأمير بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً) فقد أخبر سبحانه أنه خلق السموات والأرض ونزل الأمر بينهن ليعلم عباده أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله) فالعلم بوحدايته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وان كان لا يكتفى به وحده بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان لانفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبه ومقتضاها فكما أن عبادته مطلوبة مرادة لذاتها فكذلك العلم به ومعرفته وأيضا فان العلم من أفضل أنواع العبادات كما تقدم تقريره فهو متضمن للغاية والوسيلة (وقولكم) أن العمل غاية أما أن تريدوا به العمل الذي يدخل فيه عمل القلب والجوارح أو العمل المختص بالجوارح فقط فان أريد الأول فهو حق وهو يدل على أن العلم غاية مطلوبة لأنه من أعمال القلب كما تقدم وأن أريد به الثاني وهو عمل الجوارح فقط فليس بصحيح فان أعمال القلوب مقصودة

ومراد لذاتها بل في الحقيقة أعمال الجوارح وسيلة مرادة لغيرها فان الثواب والتعاقب والمدح والذم وتوابعها هو للقلب أصلاً وللجوارح تبعاً وكذلك الأعمال المقصودة بها أولاً صلاح القلب واستقامته وعبوديته لربه ومليكه وجعلت أعمال الجوارح تابعة لهذا المقصود مرادة وان كان كثير منها مراداً لأجل المصلحة المترتبة عليه فن أجلها صلاح القلب وزكاه وطهارته واستقامته فلم أن الأعمال منها غاية ومنها وسيلة وان العلم كذلك وأيضا فالعلم الذي هو وسيلة إلى العمل فقط إذا تجرد عن العمل لم ينتفع به صاحبه فالعمل أشرف منه . وأما العلم المقصود الذي تنشأ ثمرته المطلوبة منه من نفسه فهذا لا يقال إن العمل المجرد أشرف منه فكيف يكون مجرد العبادة البدنية أفضل من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه في خلقه وأمره ومن العلم بأعمال القلوب وآفات النفوس والطرق التي تفسد الأعمال وتمنع وصولها من القلب إلى الله والمسافات التي بين الأعمال والقلب وبين القلب والرب تعالى وبما تقطع تلك المسافات إلى غير ذلك من علم الإيمان وما يقويه وما يضعفه فكيف يقال إن مجرد التمسك بالظاهر بالجوارح أفضل من هذا العلم بل من قام بالأمرين فهو أكمل وإذا كان في أحدهما فضل ففضل هذا العلم خير من فضل العبادة فاذا كان في العبد فضلة عن الواجب كان صرفها إلى العلم الموروث عن الأنبياء أفضل من صرفها إلى مجرد العبادة فهذا فضل الخطاب في هذه المسئلة والله أعلم (الوجه الثاني والخمسون بعد المائة) مرواه الامام أحمد والترمذي من حديث أبي كبشة الأتماري قال قال رسول الله ﷺ إنما الدنيا لأربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلماً فهو يتقى في ماله ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأحسن المنازل عند الله ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالا فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علماً فهو يخيطن في ماله ولا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً فهذا بأسوأ المنازل عند الله ورجل لم يؤته الله مالا ولا علماً فهو يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته وهما في الوزر سواء حديث صحيح صححه الترمذي والحاكم وغيرهما . فقسم النبي ﷺ أهل الدنيا أربعة أقسام . . خیرهم من أوتى علماً ومالا فهو محسن إلى الناس وإلى نفسه بعلمه وماله . . ويؤليه في المرتبة من أوتى علماً ولم يؤت مالا وإن كان أجراً سواء فذلك إنما كان بالنية وإلا فالمتصدق فوقه بدرجة الانفاق والصدقة والعالم الذي لا مال له إنما سواه في الأجر بالنية الجازمة المقترن بها مقدورها وهو القول المجرد . الثالث من أوتى مالا ولم يؤت علماً فهذا أسوأ الناس منزلة عند الله لأن ماله طريق إلى هلاكه فلو عدمه لكان خيراً له فانه أعطى ما يتزود به إلى الجنة فجعله ذاداً له إلى النار . الرابع من لم يؤت مالا

ولاعلأ ومضى نيته أنه لو كان له مال لعمل فيه مخصصة الله فهذا على النقي الجاهل في المرتبة
ويساويه في الوزر بنيت الجاهزة المقترن بها مقدورها وهو القول الذي لم يقدر على غيره
قسم السعداء قسمين وجعل العلم والعمل بموجبه سبب سعادتهما وقسم الأشقياء قسمين
وجعل الجهل وما يترتب عليه سبب شقاوتهما فعادت السعادة بجملتها إلى العلم وموجبه
والشقاوة بجملتها إلى الجهل وثمرته . (الوجه الثالث والخمسون بعد المائة) ما نبت عن
بعض السلف أنه قال تفكر ساعة خير من عبادة ستين سنة وسأل رجل أم الدرداء بعد موته
عن عبادته فقالت كان نهاره أجمه في بادية التفكير وقال الحسن تفكر ساعة خير من قيام ليلة
وقال الفضل التفكير مرآة تريك حسناك وسيئاتك وقيل لابراهيم إنك تطيل الفكرة فقال
الفكرة مخ العقل وكان سفيان كثيراً ما يتمثل :

إذا المرء كانت له فكرة • ففي كل شيء له عبرة

وقال الحسن في قوله تعالى (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق)
قال أمنهم التفكير فيها وقال بعض العارفين لو طالعت قلوب المتقين بفكرها إلى ما قدر في
حجب الغيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تقر لهم فيها عين وقال الحسن
طول الوحدة أتم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة وقال وهب ما طالت فكرة
أحد قط الا علم وما علم امرؤ قط الا عمل وقال عمر بن عبد العزيز الفكرة في نعم الله
من أفضل العبادة وقال عبد الله بن المبارك لبعض أصحابه وقد رآه مفكراً أين بلغت قال
الصراط وقال بشر لو فكر الناس في عظمة الله ما عصوه وقال ابن عباس ركعتان مقصدتان في
تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة
لأهل الولاية والفكرة في الآخرة تورث الحكمة وتجلي القلوب وقال ابن عباس التفكير في
الخير يدعو إلى العمل به وقال الحسن إن أهل العلم لم يزالوا يعمدون بالذكر على الفكر والفكر على
الذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة ومن كلام الشافعي استمعوا على الكلام بالصمت
وعلى الاستنباط بالفكرة وهذا لأن الفكرة عمل القلب والعبادة عمل الجوارح والقلب أشرف من
الجوارح فكان عمله أشرف من عمل الجوارح . وأيضاً فالتفكير يوقع صاحبه من الإيمان على
ما لا يوقمه عليه العمل المجرد فان التفكير يوجب له من انكشاف حقائق الأمور وظهورها له
وتمييز مراتبها في الخير والشر ومعرفة مفضولها من فاضلها وأقبحها من قبيحها ومعرفة أسبابها
الموصلة إليها وما يقاوم تلك الأسباب ويدفع موجبها والتمييز بين ما ينبغي السعي في تحصيله
وبين ما ينبغي السعي في دفع أسبابه والفرق بين الهمم والخيال المانع لأكثر النفوس
من انتهاز الفرص بعد إمكانها وبين السبب المانع حقيقة فيشتغل به دون الأول فاقطع

العبد عن كماله وفلاحه وسعادته العاجلة والآجلة قاطع أعظم من الوهم الغالب على النفس والخيال الذي هو مركبها بل بحرهما الذي لا تنفك سابحة فيه وإنما يقطع هذا العارض بفكرة صحيحة وعزم صادق يميز به بين الوهم والحقيقة وكذلك إذا فكر في عواقب الأمور وتجاوز فكره مبادئها وضعها مواضعها وعلم مراتبها فإذا ورد عليه وارد الذنب والشهوة فتجاوز فكره لذته وفرح النفس به إلى سوء عاقبته وما يترتب عليه من الألم والحزن الذي لا يقاوم تلك اللذة والفرحة ومن فكر في ذلك فإنه لا يكاد يقدم عليه وكذلك إذا ورد على قلبه وارد الراحة والدعة والكسل والتقاعد عن مشقة الطاعات ونعها حتى عبر بفكره إلى ما يترب عليها من اللذات والخيرات والأفراح التي تغمر تلك الآلام التي في مبادئها بالنسبة إلى كمال عواقبها وكلما غاص فكره في ذلك اشتد طلبه لها وسهل عليه معاناتها واستقبلها بنشاط وقوة وعزيمة وكذلك إذا فكر في منتهى ما يستمده من المال والجاه والصور ونظر إلى غاية ذلك بعين فكره استحي من عقله ونفسه أن يكون عبداً لذلك كما قيل :

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسببه لم يسبه

وكذلك إذا فكر في آخر الأطعمة المفخرة التي تفانت عليها نفوس أشباه الأنعام وما يصير أمرها إليه عند خروجها ارتفعت همته عن صرفها إلى الإعتناء بها وجعلها معبود قلبه الذي إليه يتوجه وله يرضى ويفضض ويسعى ويكبح ويوالى ويعادى كما جاء في المسند عن النبي ﷺ أنه قال إن الله جعل طعام ابن آدم مثل الدنيا وإن قزحه وملحه فإنه يعلم إلى ما يصير أو كما قال ﷺ فإذا وقع فكره على عاقبة ذلك وآخر أمره وكانت نفسه حرة أبية رباً بها أن يجعلها عبداً لما آخره أتين شيء وأخيشه وأخشنه .

فصل

إذا عرف هذا فالفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثال ذلك إذا أحضر في قلبه العاجلة وعيشها ونعيمها وما يقترن به من الآفات وانقطاعه وزواله ثم أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها ولذته ودوامه وفضله على نعيم الدنيا وجزم بهذين العلبين أمر له ذلك علماً ثالثاً وهو أن الآخرة ونعيمها الفاضل الدائم أولى عند كل عاقل بإيثاره من العاجلة المنقطعة المنفضة ثم له في معرفة الآخرة حالتان : إحداهما أن يكون قد سمع ذلك من غيره من غير أن يباهر قلبه برد اليقين به ولم يفض قلبه إلى مكافئة حقيقة الآخرة وهذا حال أكثر الناس فيتجاذبه داعيان أحدهما داعي العاجلة وإيثارها وهو أقوى الداعيين عنده لأنه مشاهد له محسوس وداعى الآخرة وهو أضعف الداعيين عنده لأنه داع عن سماع

لم يباشر قلبه اليقين به ولا كلفه حقيقة العلية فاذا ترك العاجلة للآخرة تربيته نفسه بأنه قد ترك معلوماً لمظنون أو متحققاً لموهوم فلسان الحال ينادى عليه لا أدع ذرة منقودة لدره موعودة وهذه الآفة هي التي منعت النفوس من الاستعداد للآخرة وأن يسعى لها سعيها وهي من ضعف العلم بها وتيقنها وإلا فاع الجزم التام الذي لا يخالج القلب فيه شك لا يقع التهاون بها وعدم الرغبة فيها ولهذا لو قدم لرجل طعام في غاية الطيب واللذة وهو شديد الحاجة إليه ثم قيل له إنه مسموم فانه لا يقدم عليه لعله بأن سوء ما تجني عاقبة تناوله تربو في المضرة على لذته أكله فإبال الإيمان بالآخرة لا يكون في قلبه بهذه المنزلة ماذا إلا لضعف شجرة العلم والإيمان بها في القلب وعدم استقرارها فيه وكذلك إذا كان سائراً في طريق فقيل له إن بها قطعاً ولصوصاً يقتلون من وجدوه وبأخذون متاعه فانه لا يسلكها إلا على أحد وجهين إما أن لا يصدق الخبر وإما أن يثق من نفسه بملبثهم وقهرهم والانتصار عليهم وإلا فضع تصديقه للخبر تصديقاً لا يتمازى فيه وعلمه من نفسه بضعفه وعجزه عن مقاومتهم فانه لا يسلكها ولو حصل له هذان العلبان فيما يرتكبه من إثارة الدنيا وشهواتها لم يقدم على ذلك فلم أن إثارة للعاجلة وترك استعداده للآخرة لا يكون قط مع كمال تصديقه وإيمانه أبداً (الحالة الثانية) أن يتيقن ويجزم جزماً لا شك فيه بأن له داراً غير هذه الدار ومعاداله خلق وإن هذه الدار طريق إلى ذلك المعاد وم منزل من منازل السائرين إليه ويعلم مع ذلك أنها باقية ونعيمها وعذابها لا يزول ولا نسبة لهذا النعيم والعذاب العاجل إليه إلا كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم ينزعها فالذي تعلق بها منه هو كالدنيا بالنسبة إلى الآخرة فيشمر له هذا العلم إثارة الآخرة وطلبها والاستعداد التام لها وأن يسعى لها سعيها وهذا يسمى تفكراً وتذكراً ونظراً وتأملًا واعتباراً وتدبراً واستبصاراً وهذه معانٍ متقاربة تجتمع في شيء وتفرق في آخر ويسمى تفكراً لأنه استعمال الفكرة في ذلك وإحضاره عنده ويسمى تذكراً لأنه إحضار للعلم الذي يجب مراعاته بعد ذهوله وغيبته عنه ومنه قوله تعالى (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) ويسمى نظراً لأنه التفات بالقلب إلى المنظور فيه ويسمى تأملًا لأنه مراجعة للنظر ككرة بعد ككرة حتى يتجلى له وينكشف لقلبه ويسمى اعتباراً وهو افعال من العبور لأنه يعبر منه إلى غيره فيعبر من ذلك الذي قد فكر فيه إلى معرفة تامة وهي المقصود من الاعتبار ولهذا يسمى عبرة وهي على بناء الحالات كالجلسة والركبة والقتلة إيداناً بأن هذا العلم والمعرفة قد صار حالاً لصاحبه يعبر منه إلى المقصود به وقال الله تعالى (إن في ذلك لعلبرة لمن يخشى) وقال (إن في ذلك لعلبرة لأولى الأبصار) (ويسمى تدبراً) لأنه نظر في ادبار الأمور وهي أواخرها وعواقبها ومنه تدبر القول وقال

تعالى أفلم يدبروا القول أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً وتدبر الكلام أن ينظر في أوله وآخره ثم يعيد نظره مره بعد مره ولهذا جاء على بناء الفعل كالترجع والتفهم والتبين (وسمى استبصاراً) وهو استفعال من التبصر وهو تبين الأمر وانكشافه وتجليه للبصيرة وكل من التذكر والتفكير له فائدة غير فائدة الآخر فالتذكر يفيد تكرار القلب على ما علمه وعرفه ليرسخ فيه ويثبت ولا ينمحي فيذهب أثره من القلب جملة والتفكير يفيد تكثير العلم واستجلاب ما ليس خاصلاً عند القلب فالتفكير يحصله والتذكر يحفظه ولهذا قال الحسن ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة فالتفكير والتذكر بذار العلم وسقيه مطارحته ومذاكرته تلقيحه كما قال بعض السلف ملاقاته الرجال تليح لألبابها فالذاكرة بها لقاح العقل فالخير والسعادة في خزانه مفتاحها التفكير فانه لا بد من تفكير وعلم يكون نتيجة الفكر وحال يحدث للقلب من ذلك العلم فان كل من علم شيئاً من المحبوب أو المكروه لا بد أن يبقى لقلبه حالة وينصبغ بصبغة من علمه وتلك الحال توجب له إرادة وتلك الإرادة توجب وقوع العمل فها هنا خمسة أمور الفكر وثمرته العلم وثمرتها الحالة التي تحدث للقلب وثمره ذلك الإرادة وثمرتها العمل فالتفكير إذا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها وهذا يكشف لك عن فضل التفكير وشره وأنه من أفضل أعمال القلب وأنفعها له حتى قيل تفكير ساعة خير من عبادة سنة فالفكر هو الذي ينقل من موت الفطنة إلى حياة اليقظة ومن المسكاره إلى المحاب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ومن سجن الدنيا إلى فضاء الآخرة ومن ضيق الجهل إلى سعة العلم ورحبه ومن مرض الشهوة والاخلاد إلى هذه الدار إلى شفاء الإنابة إلى الله والمخارج عن دار الغرور ومن مصيبة العمى والصمم والبكم إلى نعمة البصر والسمع والفهم عن الله والعقل عنه ومن أمراض الشبهات إلى برد اليقين وتلج الصدور (وبالجملة) فأصل كل طاعة إنما هي الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة فان الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها حب الافكار الردية فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فاذا صادف أرض القلب مشغولة يبذر الافكار النافعة فيما خلق له وفيما أمر به وفيما هي له وأعد له من النعم المقيم أو العذاب الاليم لم يجد لبذره موضعاً وهذا كما قيل :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً فارغاً فتمكنا

(فان قيل) فقد ذكرت الفكر ومنفعته وعظم تأثيره في الخير والشر فما متعلقه الذي

ينبغي أن يوقع عليه ويجرى فيه فإنه لا يتم المقصود منه إلا بذكر متعلقه الذي يقع الفكر فيه
والإفكار بغير متفكر فيه محال (قيل مجرى الفكر) ومتعلقه أربعة أمور (أحدها) غاية
محبوبة مرادة الحصول (الثاني) طريق موصلة إلى تلك الغاية (الثالث) مضرة مطلوبة
الإعدام مكروهة الحصول (الرابع) الطريق المفضى إليها الموقع عليها فلا تتجاوز أفكار
العقلاء هذه الأمور الأربعة وأى فكر تخطاها فهو من الأفكار الرديئة والخيالات والاماني
الباطلة كما يتخيل الفقير المدمم نفسه من أغنى البشر وهو يأخذ ويعطى وينعم ويحرم وكما
يتخيل العاجز نفسه من أقوى الملوك وهو يتصرف في البلاد والرعية ونظير ذلك من أفكار
القلوب الباطولية التي من جنس أفكار السكران والمحموش والضعيف العقل فالأفكار الرديئة
هي قوت الأنفس الخسيسة التي هي في غاية الدناءة فانها قد قنعت بالخيال ورضيت بالمحال ثم
لا تزال هذه الأفكار تقوى بها وتزايد حتى توجب لها آثارا رديئة ووساوس وأمراضاً بطيئة
الزوال وإذا كان الفكر النافع لا يخرج عن الأقسام الأربعة التي ذكرناها فله أيضاً محلان
ومزلان (أحدهما) هذه الدار والآخرة دار القرار فأبناء الدنيا الذين ليس لهم في الآخرة
من خلاق عمروا بيوت أفكارهم بتلك الأقسام الأربعة في هذه الدار فأثمرت لهم أفكارهم
فيها ما أثمرت ولكن إذا حقت الحقائق وبطلت الدنيا وقامت الآخرة تبين الرابع من
المغبون وخسر هناك المبطلون وأبناء الآخرة الذين خلقوا لها عمروا بيوت أفكارهم على
تلك الأقسام الأربعة فيها (ونحن نفصل ذلك) بعون الله وفضله فنقول : كل طالب لشيء
فهو محب له مؤثر لقربه ساع في طريق تحصيله متوصل إليه بجهده وهذا يوجب له تعلق
أفكاره بجمال محبوبه وكرامته وصفاته التي يجب لأجلها وتعلقها بما يتاله به من الخير والفرح
والسرور ففكره في حال محبوبه دائر بين الجمال والاجمال والحسن والاحسان فكلمة قويت
محبته ازداد هذا الفكر وقوى وتضاعف حتى يستغرق أجزاء القلب فلا يبقى فيه فضل لغيره
بل يصير بين الناس بقلبه وقلبه كله في حضرة محبوبه فإن كان هذا المحبوب هو المحبوب الحق
الذي لا تنبغي المحبة إلا له ولا يجب غيره إلا تبعاً لمحبته فهو أسعد المحبين به وقد وضع الحب
موضعه وتهيأت نفسه لكاملها الذي خلقت له والذي لا يكال لها بدونه بوجه إن كانت تلك المحبة
لغيره من المحبوبات الباطلة الملائشية التي تفتنى وتبقى حزازات القلوب بها على حالها فقد وضع
المحبة في غير موضعها وظلم نفسه أعظم ظلم وأقبحه وتهيأت بذلك نفسه لغاية شقائها وألمها
(وإذا عرف هذا عرف) أن تعلق المحبة بغير الإله الحق هو عين شقاء العبد وخسرانه
فأفكاره المتعلقة بها كلها باطلة وهي مضرة عليه في حياته وبعد موته والمحبة الذي قد ملك المحبوب
أفكار قلبه لا يخرج فكره عن تعلقه بمحبوبه أو بنفسه ثم فكره في محبوبه لا يخرج عن حالتين

أحدهما فكرته في جماله وأوصافه . والثانية فكرته في أفعاله واحسانه وبره ولطفه الدالة على كمال صفاته وان تعلق فكره بنفسه لم يخرج أيضاً عن حالتين . إما أن يفكر في أوصافه المسخوطة التي يبغضها محبوه ويمقت عليها ويسقطه من عينه فهو دائماً يتوقع بفكره عليها ليتجنبها ويبعد منها . والثانية أن يفكر في الصفات والأخلاق والأفعال التي تقربه منه وتحميه اليه حتى يتصف بها فالفكرتان الأولتان توجب له زيادة محبته وقوتها وتضاعفها والفكرتان الآخرتان توجب محبة محبوه له واقباله عليه وقربه منه وعطفه عليه وإثاره على غيره فالحجة التامة مستلزمة لهذه الأفكار الأربعة . والفكرة الأولى والثانية تتعلق بعلم التوحيد وصفات الاله المعبود سبحانه وأفعاله . والثالثة والرابعة تتعلق بالطريق الموصلة إليها وقواطعها وآفاتهما وما يمنع من السير فيها اليه فتفكره في صفات نفسه يميز له المحبوب لربه منها من المكروه له وهذه الفكرة توجب ثلاثة أمور أحدها ان هذا الوصف هل هو مكروه مبعوض لله أم لا الثاني هل العبد متصف به أم لا والثالث إذا كان متصفاً به فما طريق دفعه والعافية منه وان لم يكن متصفاً به فما طريق حفظ الصحة وبقائه على العافية والاحتراز عنه وكذلك الفكرة في الصفة المحبوبة تستدعي ثلاثة أمور أحدها ان هذه الصفة هل هي محبوبة لله مرضية له أم لا الثاني هل العبد متصف بها أم لا . الثالث أنه إذا كان متصفاً بها فما طريق حفظها ودوامها وإن لم يكن متصفاً بها فما طريق اجتنائها والتخليق بها ثم فكرته في الأفعال على هذين الوجهين أيضاً سواء ومجاري هذه الأفكار ومواقفها كثيرة جداً لانكاد تنضب (وانما يحصرها ستة أجناس) . الطاعات الظاهرة والباطنة والمعاصي الظاهرة والباطنة والصفات والأخلاق الحميدة . والأخلاق والصفات الذميمة (فهذه مجاري) الفكرة في صفات نفسه وأفعالها وأما الفكرة في صفات المعبود وأفعاله وأحكامه فتوجب له التمييز بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك والاقرار والتعطيل وتنزيه الرب عما لا يليق به ووصفه بما هو أهله من الجلال والإكرام (ومجاري هذه الفكرة) تدبر كلامه وما تعرف به سبحانه إلى عبادته على السنة رسله من أسماؤه وصفاته وأفعاله وما نزه نفسه عنه بما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه وتدبر أيامه وأفعاله في أولياته وأعدائه التي قصها على عبادته وأشهدم إياها ليستدلوا بها على انه المهم الحق المبين الذي لا ينبغي العبادة إلا له ويستدلوا بها على انه على كل شيء قدير وانه بكل شيء عليم وانه شديد العقاب وانه غفور رحيم وانه العزيز الحكيم وانه الفعال لما يريد وانه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً وان أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة لا يخرج شيء منها عن ذلك وهذه الثمرة لاسبيل إلى تحصيلها الا تدبر كلامه والنظر في آثار أفعاله (وإلى هذين الأصلين) ندب عبادته في القرآن فقال في

الأصل الأول (أفلا يتدبرون القرآن . أفلم يدبروا القول . كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وقال في الأصل الثاني (قل انظروا ماذا في السموات والأرض . إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض . إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون . أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم . قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل . ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون إلى قوله ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) . ونوع سبحانه الآيات في هذه السور لجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم والآيات للعالمين كلهم لا اشتراك لهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالة وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال والقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون فإن سكنوا الرجل إلى امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة فتي نظر بهذه العين إلى الحكمة والرحمة والقدرة التي صدر عنها ذلك دله فكره على أنه الإله الحق المبين الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلايته وحكمته ورحمته وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له بما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم كما أحياهم سبحانه بعد موتهم وأقامهم للتصرف في معاشهم فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغى إليه واستدل بهذه الآية عليه وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون فإن هذه أمور مرتبة بالابصار مشاهدة بالحس فاذا نظر فيها يبصر قلبه وهو عقله استدلل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلوه ورحمته وحكمته وامكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها وهذه أمور لا تدرك إلا يبصر القلب وهو العقل فإن الحس دل على الآية والعقل دل على ما جعلت له آية فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل فقال (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) فتبارك

الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور. وبالجملة فلا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر والتفكير فإنه جامع لجميع منازل السائرين وأحوال العاملين ومقامات العارفين وهو الذي يورث المحبة والشوق والخوف والرجاء والإنابة والتوكل والرضا والتفويض والشكر والصبر وسائر الأحوال التي بها حياة القلب وكماه وكذلك يزرع عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه فلو علم الناس مافي قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ماسواها فإذا قرأه بتفكير حتى مر بآية وهو محتاج إليها في شفاء قلبه كررها ولو مائة مرة ولو ليلة فقراءة آية بتفكير وتفهم خير من قراءة ختمة بغير تدبر وتفهم وأنفع للقلب وأدعى إلى حصول الإيمان وذوق حلاوة القرآن وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قام بآية يرددها حتى الصباح وهي قوله وإن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم، فقراءة القرآن بالتفكير هي أصل صلاح القلب ولهذا قال ابن مسعود لا تهذوا القرآن هذا الشعر ولا تتثروه ثرا الدقل وقفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب لا يكن هم أحدكم آخر السورة وروى أبو أيوب عن أبي جبرة قال قلت لابن عباس إني سريع القراءة إني أقرأ القرآن في ثلاث قال لأن أقرأ سورة من القرآن في ليلة فأتدبرها وأرتها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كما تقرأ (والتفكير في القرآن نوعان) تفكير فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه وتفكير في معاني مادعا عباده إلى التفكير فيه فالأول تفكير في الدليل القرآني والثاني تفكير في الدليل العياني الأول ففكر في آياته المسموعة والثاني تفكير في آياته المشهودة ولهذا أنزل الله القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا مجرد تلاوته مع الإعراض عنه قال الحسن البصري أنزل القرآن ليعمل به فاتخذوا تلاوته عملا.

فصل

وإذا تأملت مادعى الله سبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكير في آياته . ونذكر لذلك أمثلة بما ذكرها الله سبحانه في كتابه ليستدل بها على غيرها (فمن ذلك خلق الإنسان وقد ندب سبحانه) إلى التفكير فيه والنظر في غير موضع من كتابه كقوله تعالى (فلينظر الإنسان مم خلق) وقوله تعالى (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقال تعالى (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم

شيئاً) وقال تعالى (أيعسب الانسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقه خلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والاثني ألين ذلك بقادر على أن يحيى الموتى) وقال تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه في قرار مكين إلى قدر معلوم فقدرنا فنعمم القادرون) وقال (أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) وقال (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين) وهذا كثير في القرآن يدعو العبد إلى النظر والفكر في مبدأ خلقه ووسطه وآخره إذ نفسه وخلقته من أعظم الدلائل على خالقه وخالقه وأقرب شيء إلى الانسان نفسه وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه وهو غافل عنه معرض عن التفكير فيه ولو فكر في نفسه لرجزه ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره قال الله تعالى (قتل الانسان ما أ كفره من أى شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسرة ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) فلم يكرر سبحانه على أسماءنا وعقولنا ذكر هذا لنسمع لفظ النطفة والعلقه والمضغة والقرب والالتكلم بها فقط ولا بمجرد تعريفنا بذلك بل لأمر وراء ذلك كله هو المقصود بالخطاب واليه جرى ذلك الحديث (فانظر الآن إلى النطفة) بعين البصيرة وهي قطرة من ماء مهين ضعيف مستقدر لو مرت بها ساعة من الزمان فسدت وانتنت كيف استخرجها رب الأرباب العليم التقدير من بين الصلب والترائب متقادة لقدرته مطيعة لمشيئته مذلة الاتقياد على ضيق طرقها واختلاف مجاريها إلى أن ساقها إلى مستقرها وبجمها وكيف جمع سبحانه بين الذكر والاثني وألقى المحبة بينهما وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع الذي هو سبب تخليق الولد وتكوينه وكيف قدر اجتماع ذينك الماءين مع بعضهما عن صاحبه وساقهما من أعماق العروق والأعضاء وجمعهما في موضع واحد جعل لهما قرارا مكينا لا يناله هواء يفسده ولا برد يجمده ولا عارض يصل إليه ولا آفة تتسلط عليه ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشربة علقه حمراء تضرب إلى سواد ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقه في لونها وحقيقتها وشكلها ثم جعلها عظاما مجردة لا كسوة عليها مباينة للمضغة في شكلها وهياتها وقدرها وملبسها ولونها (وانظر) كيف قسم تلك الأجزاء المتشابهة المتساوية إلى الأعصاب والعظام والعروق والأوتار واليابس واللين وبين ذلك ثم كيف ربط بعضها ببعض أقوى رباط وأشد وأبعده عن الانحلال وكيف كساها لحماً ركبها عليها وجعله وعاء لها وغشاء وحافظاً وجعلها حاملة له مقيمة له فاللحم قائم بها وهي محفوظة به وكيف صورها فأحسن صورها وشق لها السمع والبصر والقدم والأنف وسائر

المنافذ ومد اليدين والرجلين وبسطهما وقسم رؤسهما بالأصابع ثم قسم الأصابع بالأناامل
وركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء
كل واحد منها له قدر يخصه ومنفعة تخصه (ثم انظر) الحكمة البالغة في تركيب العظام تواما
للبدن وحماداً له وكيف قدرها ربها وخالفها بتقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنها الصغير والكبير
والطويل والقصير والمنحنى والمستدير والدقيق والعريض والمصمت والمجوف وكيف ركب
بعضها في بعض فمنها ما تركيبه تركيب الذكر في الأنثى ومنها ما تركيبه تركيب اتصال فقط
وكيف اختلفت أشكالها باختلاف منافها كالأضراس فانها لما كانت آلة للطحن جعلت عريضة
ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملته
بدنه وبيعض أعضائه للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً بل عظاماً متعددة وجعل
بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وكان قدر كل واحد منها وشكله على حسب الحركة المطلوبة
منه وكيف شد أسر تلك المفاصل والأعضاء وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها
من أحد طرفي العظم والصق أحد طرفي العظم بالطرف الآخر كالرباط له ثم جعل في أحد
طرفي العظم زوائد خارجة عنه وفي الآخر تقراً غائصة فيه موافقة لشكل تلك الزوائد ليدخل
فيها وينطبق عليها فإذا أراد العبد أن يحرك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولولا المفاصل لتعذر
ذلك عليه وتأمل كيفية خلق الرأس وكثرة ما فيه من العظام حتى قيل إنها خمسة وخمسون
عظماً مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع وكيف ركبها سبحانه وتعالى على البدن وجعله عالياً
علو الراكب على مركوبه ولما كان عالياً على البدن جعل فيه الحواس الخمس وآلات الإدراك كلها
من السمع والبصر والشم والذوق واللمس وجعل حاسة البصر في مقدمه ليكون كالطلليعة والحرس
والكاشف للبدن وركب كل عين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص ومقدار مخصوص
ومنفعة مخصوصة لو فقدت طبقة من تلك الطبقات السبع أوزالت عن هيئتها وموضعها
تعمطت العين عن الإبصار ثم أركز سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيباً وهو إنسان
العين بقدر العدسة يبصر به ما بين المشرق والمغرب والأرض والسماء وجعله من العين بمنزلة
القلب من الأعضاء فهو ملسكها وتلك الطبقات والاجفان والأهداب خدم له وحجاب وحراس
فتبارك الله أحسن الخالقين (فانظر) كيف حسن شكل العينين وهيئتها ومقدارهما ثم جعلها
بالاجفان غطاء لها وستراً وحفظاً وزينة فهما يتلقيان عن العين الأذى والقذا والغباب
ويكثناتهما من البارد المؤذي والحار المؤذي ثم غرس في أطراف تلك الاجفان الأهداب
جمالاً وزينة ولمنافع أخر وراء الجمال والزينة ثم أودعهما ذلك النور الباصر والضوء الباهر
الذي يخرق ما بين السماء والأرض ثم يخرق السماء مجاوزاً لرؤية ما فوقها من الكواكب وقد

أودع سبحانه هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير بحيث تنطبع فيه صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها وشق له السمع (وخلق) الأذن أحسن خلقه وأبلغها في حصول المقصود منها لجملها بجوفة كالصدقة لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ وليحص بديب الحيوان فيها فيبادر إلى إخراجها وجعل فيها غضوناً وتجاويف واعوجاجات تمسك الهواء والصوت الداخل فتكسر حذته ثم تؤديه إلى الصماخ ومن حكمة ذلك أن يطول به الطريق على الحيوان فلا يصل إلى الصماخ حتى يستيقظ أو يتنبه لإمساكه وفيه أيضاً حكم غير ذلك ثم اقتضت حكمة الرب الخالق سبحانه أن جعل ماء الأذن مرا في غاية المرارة فلا يجاوزه الحيوان ولا يقطعه داخلا إلى باطن الأذن بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه وجعل ماء العينين ملحاً ليحفظها فانها شحمة قابلة للفساد فكانت ملوحة ماتها صيانة لها وحفظاً وجعل ماء الفم عذبا حلوا ليدرك به طعموم الأشياء على ما هي عليه إذ لو كان على غير هذه الصفة لاحالها إلى طبيعته كما ان من عرض لفته المرارة استمر طعم الأشياء التي ليست بمرارة كما قيل :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا
(ونصب سبحانه) قصبه الأنف في الوجه فأحسن شكله وهياته ووضعه وفتح فيه المنخرين وحجز بينهما بحاجز وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة والنافعة والضارة وليستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب فيتروح به ويتغذى به ثم لم يجعل في داخله من الاعوجاجات والغضون ما جعل في الأذن لئلا يمسك الرائحة فيضعفها ويقطع مجراها وجعله سبحانه مصبا تنحدر إليه فضلات الدماغ فتجتمع فيه ثم تخرج منه واقتضت حكمته أن جعل أعلاه أدق من أسفله لأن أسفله إذا كان واسعا اجتمعت فيه تلك الفضلات فخرجت بسهولة ولأنه يأخذ من الهواء ملاءه ثم يتصاعد في مجراه قليلا حتى يصل إلى القلب وصولا لا يضره ولا يزعجه ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمة منه ورحمة فانه لما كان قصبه ويجرى سائرا لما يتحدر فيه من فضلات الرأس ويجرى النفس الصاعد منه جعل في وسطه حاجزا لئلا يفسد بما يجرى فيه فيمنع نشقه للنفس بل إما أن تعتمد الفضلات نازلة من أحد المنفذين في الغالب فيبقى الآخر للنفس وإما أن يجرى فيهما فينقسم فلا ينسد الأنف جملة بل يبقى فيه مدخل للنفس وأيضاً فانه لما كان عضوا واحدا وحاسة واحدة ولم يكن عضوين وحاستين كالأذنين والعينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما فانه ربما أصيبت إحدهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل

منفعة هذا الحس جملة وكان وجود اثنين في الوجه شيئا ظاهرا فنصب فيه أفقا واحدا وجعل فيه منمذنين حجز بينهما بحاجز يجرى بجرى تعدد العينين والأذنين في المنفعة وهو واحد فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين (وشق سبحانه) للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به وأودع فيه من المنافع وآلات الذوق والكلام وآلات الطحن والقطع ما يهر العقول عجائبه فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه وجعله ترجمانا لملك الأعضاء ميثاقا مؤدياً عنه كما جعل الأذن رسولا مؤدياً مبلغاً إليه فهي رسوله وبريده الذي يؤدي إليه الأخبار واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد (واقترضت حكمته سبحانه) أن جعل هذا الرسول مصوناً محفوظاً مستورا غير بارز مكشوف كالأذن والعين والأنف لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ولما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له سترا مصوناً لعدم الفائدة في إرازه لانه لا يأخذ من الخارج إلى القلب (وأيضاً) فلانه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ومنزلة منه منزلة ترجمانه ووزيره ضرب عليه سرادق تستره وتصونه وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر وأيضاً فانه من أطفف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزاً صار عرضة للحرارة واليبوسة والنفاس المانع له من التصرف وغير ذلك من الحكم والفوائد (ثم زين سبحانه الفم بما فيه) من الأسنان التي هن جمال له وزينة وبها قوام العبد وغذاؤه وجعل بعضها أرحاماً للطحن وبعضها آلة للقطع فأحكم أصولها وحدد رؤسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاء وحسناً وأحاط سبحانه على ذلك حائطين وأودعهما من المنافع والحكم ما أودعها وهما الشفتان لحسن لونهما وشكلهما ووضعهما وهياتهما وجعلهما غطاء للفم وطبقاً له وجعلهما إتماماً لخارج حروف الكلام ونهاية له كما جعل أقصى الخلق بداية له واللسان وما جاوره وسطاً ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الوساطة واقترضت حكمته أن جعل الشفتين لحماً صرفاً لا عظم فيه ولا عصب لئتمكن بهما من مص الشراب ويسهل عليه فتحهما وطبقهما وخص الفك الأسفل بالتحريك لأن تحريك الأخرى أحسن ولانه يشتمل على الأعضاء الشريفة فلم يخاطر بها في الحركة وخلق سبحانه الخناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة والصلابة واللين والطول والقصر فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ولا يكاد يشبه صوتان إلا نادراً ولهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم كما يميز البصير بينهم بصورهم والاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور (وزين سبحانه) الرأس بالشعر وجعله لباساً له لاحتياجه إليه وزين الوجه بما

أثبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير فزيته بالحاجيين وجعلهما وقايهما يتحدر من
بشرة الرأس إلى العينين وقوسهما وأحسن خطهما وزين أجفان العينين بالأهداب وزين الوجه
أيضا بالحية وجعلها كالا ووقارا ومهابة للرجل وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب
وتحتها من المنفقة (وكذلك خلقه سبحانه) للدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه ورأس ماله
معاشه فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه وعرض الكف ليتمكن به من القبض
والبسط وقسم فيه الأصابع الخمس وقسم كل إصبع بثلاث أنامل والاهام بانثنين ووضع
الأصابع الأربعة في جانب والاهام في جانب لتدور الاهام على الجميع لجأت على أحسن وضع
صلحت به للقبض والبسط ومباشرة الأعمال ولواجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا
بدقيق أفكارهم وضما آخر للأصابع سوى ما وضعت عليه لم يجدوا إليه سبيلا فتبارك من
لو شاء لسواها وجعلها طبقا واحدا كالصفيحة فلم يتمكن العبد بذلك من مصالحه وأنواع
تصرفاته ودقيق الصنائع والخط وغير ذلك فان بسط أصابعه كانت طبقا يضع عليه ما يريد
وإن ضمها وقبضها كانت دبوسا وآلة للضرب وإن جعلها بين الضم والبسط كانت مفردة له
يتناول بها وتمسك فيها ما يتناوله وركب الأظفار على رؤسها زينة لها وعمادا ووقاية وليلتقط
بها الأشياء الدقيقة التي لا يتأهلها جسم الأصابع وجعلها سلاحا لغيره من الحيوان والطير وآلة
لمعاشه وليحك الإنسان بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أقل الأشياء وأحقرها لو عدمه
الإنسان ثم ظهرت به حكمة لاشتدت حاجته إليه ولم يقيم مقامه شيء في حك بدنه ثم هدى اليد
إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولوفى النوم والغفلة من غير حاجة إلى الطلب ولو استعان بغيره لم يعثر
على موضع الحك إلا بعد تعب ومشقة ثم انظر إلى الحكمة البالغة في جعل عظام أسفل البدن
غليظة قوية لأنها أساس له وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة لأنها محمولة (ثم انظر كيف
جعل) الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات ثم طبق بعضها على
بعض وركب كل خرزة تركيبا محكما متقنا حتى صارت كأنها خرزة واحدة ثم ركب الرقبة
على الظهر والصدر ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة
مركبة بعضها في بعض هي بجمع أضلاعه والتي تمسكها أن تنحل وتنفصل ثم وصل تلك العظام
بعضها ببعض فوصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتفين بعظام العضدين والعضدين
بالذراعين والذراعين بالكف والأصابع (وانظر) كيف كسا العظام المريضة كمظام الظهر
والرأس كسوة من اللحم تناسبها والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك
كمظام الذراعين والعضدين فهو مركب على ثلاثمائة وستين عظما مائتان وثمانية وأربعون
مفاصل وباقيها صغار خشيت خلال المفاصل فلو زادت عظما واحدا لكان مضرة على الإنسان

يحتاج إلى قلعه ولو نقصت عظما واحدا كان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر في هذه العظام وكيفية تركيبها ليعرف وجه العلاج في جبرها والعارف ينظر فيها ليستدل بها على عظمة باريها وخالقها وحكمته وعلمه ولطفه وكَم بين النظرين (ثم انه سبحانه ربط تلك) الأعضاء والأجزاء بالرباطات فشد بها أسرها وجعلها كالأوتار تمسكها وتحفظها حتى يبلغ عددها إلى خمسمائة وتسعة وعشرين رباطا وهي مختلفة في الغلظ والدفقة والطول والقصر والاستقامة والانحناء بحسب اختلاف مواضعها ومعالها لجعل منها أربعة وعشرين رباطا آلة لتحريك العين وقتحها وضمها وإبصارها لو نقصت منهن رباطا واحدا اختل أمر العين وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات هن له كآلات التي بها يتحرك ويتصرف ويفعل كل ذلك صنع الرب الحكيم وتقدير العزيز العليم في قطرة ماء مهين فويل للكذابين وبعدا للجاحدين (ومن عجائب خلقه) أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن نافذة بعضها إلى بعض خزانة في مقدمه وخزانة في وسطه وخزانة في آخره وأردع تلك الخزائن من أسرارها ما أودعها من الذكر والفكر والتعقل (ومن عجائب خلقه) ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالقلب والكبد والطحال والرئة والأمعاء والمشاة وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة والقوى المتعددة المختلفة المنافع (فاما القلب) فهو الملك المستعمل لجميع آلات البدن والمستخدم لها فهو محفوف بها محشود مخدوم مستقر في الوسط وهو أشرف أعضاء البدن وبه قوام الحياة وهو منبع الروح الحيوانى والحرارة الغريزية وهو معدن العقل والعلم والحلم والشجاعة والكرم والصبر والاحتمال والحب والارادة والرضا والغضب وسائر صفات البكال لجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد القلب فان العين طليعته ورائده الذي يكشف له المراتب فان رأت شيئا أدته إليه ولشدة الارتباط الذي بينها وبينه إذا استقر فيه شيء ظهر فيها فهي مرآته المترجمة للناظر ما فيه كما أن اللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ولهذا كثيرا ما يقرن سبحانه في كتابه بين هذه الثلاث كقوله (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) وقوله (وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة) وقوله (سم بكم عمى) وقد تقدم ذلك وكذلك يقرن بين القلب والبصر كقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم) وقوله في حق رسوله محمد ﷺ (ما كذب الفؤاد ما رأى) ثم قال مازاغ البصر وما طغى) (وكذلك) الاذن هي رسوله المؤدى إليه (وكذلك) اللسان ترجمانه وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده وقال النبي ﷺ (ألا ان في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسدت لها سائر الجسد الا وهي القلب) وقال أبوهريرة القلب ملك والأعضاء جنوده فان طاب الملك طابت جنوده وإذا خبت الملك خبت جنوده وجعلت الرئة له كالروحة تروح عليه دائما لأنه أشد الأعضاء

حرارة بل هو منبع الحرارة (وأما الدماغ) وهو المخ فانه جعل بارداً واختلف في حكمة ذلك فقالت طائفة إنما كان الدماغ بارداً لتبريد الحرارة التي في القلب ليردما عن الافراط إلى الاعتدال وردت طائفة هذا وقالت لو كان كذلك لم يكن الدماغ بعيداً عن القلب بل كان ينبغي أن يحيط به كالرئة أو يكون قريباً منه في الصدر ليكسر حرارته قالت الفرقة الأولى بعد الدماغ من القلب لا يمنع ما ذكرناه من الحكمة لأنه لو قرب منه لغلته حرارة القلب بقوتها لجعل البعد بينهما بحيث لا يتفاسدان وتعتدل كيفية كل واحد منهما بكيفية الآخر وهذا بخلاف الرئة فانها آلة للترويح على القلب لم تجعل لتعديل حرارته وتوسط فرقة أخرى وقالت بل المخ حار لكنه فاتر الحرارة وفيه تبريد بالخاصية فانه مبدأ للذهن ولهذا كان الذهن يحتاج إلى موضع ساكن قار صاف عن الاقذار والكدر غال من الجلبة والزجل ولذلك يكون جودة الفكر والتذكر واستخراج الصواب عند سكون البدن وقنور حركانه وقلة شواغله ومزججانه ولذلك لم يصلح لها القلب وكان الدماغ معتدلاً في ذلك صالحاً له ولذلك تجسود هذه الأفعال في الليل وفي المواضع الخالية وتفسد عند التهاب نار الغضب والشهوة وعند المهم الشديد ومع التعب والحركات القوية البدنية والنفسانية (وهذا بحث متصل بقاعدة أخرى) وهي أن الحواس والعقل هل مبدؤها القلب والدماغ (فقالت طائفة) مبدؤها كلها القلب وهي مرتبطة به وبينه وبين الحواس منافذ وطرق قالوا وكل واحد من هذه الأعضاء التي هي آلات الحواس له اتصال بالقلب بأعصاب وغير ذلك وهذه الأعصاب تخرج من القلب إلى أن تأتي إلى كل واحد من هذه الاجسام التي فيها هذه الحواس (قالوا فالعين) إذا أبصرت شيئاً أدته بالآلة التي فيها إلى القلب لأن هذه الآلة متصلة منها إلى القلب والسمع إذا أحس صوتاً أذاه إلى القلب وكذلك كل حاسة ثم أوردوا على أنفسهم سؤالاً فقالوا (ان قيل كيف يجوز أن يكون عضو واحد على ضروب من الامتزاج يمده عدة حواس مختلفة وأجسام هذه الحواس مختلفة وقررة كل حاسة مخالفة لقوة الحاسة الأخرى) وأجابوا عن ذلك (بأن جميع العروق التي في البدن كلها متصلة بالقلب إما بنفسها وإما بواسطة فإما من عرق ولا عضو الاولة اتصال بالقلب اتصالاً قريباً أو بعيداً قالوا وينبعث منه في تلك العروق والمجاري إلى كل عضو ما يناسبه ويشاكله فينبعث منه إلى العينين ما يكون منه حس البصر وإلى الأذنين ما يدرك به المسموعات وإلى اللحم ما يكون منه حس اللمس وإلى الأنف ما يكون به حس الشم وإلى اللسان ما يكون به حس الذوق وإلى كل ذي قوة ما يمد قوته ويحفظها فهو المعد لهذه الأعضاء والحواس والقوى ولهذا كان الرأي الصحيح أنه أول الأعضاء تكويناً قالوا ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وان كان قد خالف في ذلك آخرون وقالوا بل العقل

في الرأس (فالصواب ان مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن قد دل على هذا بقوله (أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) وقال (أن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) ولم يرد بالقلب هنا مضغة اللحم المشتركة بين الحيوانات بل المراد ما فيه من العقل واللب ونازعهم في ذلك طائفة أخرى وقالوا مبدأ هذه الحواس إنما هو الدماغ وانكروا أن يكون بين القلب والعين والأذن والأنف أعصاب أو عروق وقالوا هذا كذب على الخلقه (والصواب التوسط) بين الفريقين وهو أن القلب تنبعث منه قوة إلى هذه الحواس وهي قوة معنوية لا تحتاج في وصولها إليه إلى مجار مخصوصة وأعصاب تكون حاملة لها فان وصول القوى إلى هذه الحواس والأعضاء لا يتوقف الا على قبولها واستعدادها وامداد القلب لا على مجار وأعصاب وهذا يزول الالتباس في هذا المقام الذي طال فيه الكلام وكثير فيه النزاع والخصام والله أعلم وبه التوفيق للصواب (والمقصود التنبيه) على أقل القليل من وجوه الحكمة التي في خلق الإنسان والأمر أضعاف أضاعف ما يخظر بالبال أو يجري فيه المقال وإنما فائدة ذكر هذه الشذرة التي هي كل شيء بالنسبة إلى ما وراءها التنبيه وإذا نظر العبد إلى غذائه فقط في مدخله ومستقره ومخرجه رأى فيه العبر والعجائب كيف جعلت له آلة يتناول بها ثم باب يدخل منه ثم آلة تقطعه صفاراً ثم طاحون يطحنه ثم أعين بما يعينه ثم جعل له مجرى وطريقاً إلى جانب النفس ينزل هذا ويصعد هذا فلا يلتقيان مع غاية القرب ثم جعل له حوايا وطرقاً توصله إلى المعدة فهي خزائنه وموضع اجتماعه ولها بابان بب أعلى يدخل منه الطعام وباب أسفل يخرج منه ثقله والباب الأعلى أوسع من الأسفل إذ الأعلى مدخل للحاصل والأسفل مصرف للضار منه والأسفل منطبق دائماً ليستقر الطعام في موضعه فاذا انتهى المضم فإن ذلك الباب يفتح إلى انقضاء الدفع ويسمى البواب لذلك والأعلى يسمى فم المعدة والطعام ينزل إلى المعدة متكيساً فاذا استقر فيها انماح وذاب ويحيط بالمعدة من داخلها وخارجها حرارة نارية بل ربما تزيد على حرارة النار ينضج بها الطعام كما ينضج الطعام في القدر بانارة المحيطة به ولذلك يذوب ما هو مستحجر كالحصا وغيره حتى يتركه مانعاً فاذا أذابه علاصفوه الى فوق ورسي كدره الى أسفل ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن يبعث فيها معلوم كل عضو وقوامه بحسب استعداده وقبوله فيبعث أشرف ما في ذلك وألطفه وأخفه الى الأرواح فيبعث الى البصر بصراً والى السمع سمعاً والى الشم شماً والى كل حاسة بحسبها فهذا ألطف ما يتولد عن الغذاء ثم ينبعث منه الى الدماغ ما يناسبه في الطاقة والاعتدال ثم ينبعث من الباقي الى الأعضاء في تلك المجارى بحسبها وينبعث منه الى العظام والشعر والاذنفاً ما ينضجها

ويحفظها فيكون الغذاء داخلا الى المعدة من طرق وجار وخارجا منها الى الاعضاء من طرق وجار هذا وارد اليها وهذا صادر عنها بحكمة بالغة ونعمة سابقة ولما كان الغذاء اذا استحال في المعدة استحال دما ومرة سوداء ومرة صفراء زيلغا اقتضت حكمته سبحانه وتعالى ان جعل لكل واحد من هذه الاخلاط مصرفا ينصب اليه ويجتمع فيه ولا ينبعث الى الاعضاء الشريفة الا اكله فوضع المرارة مصبا للرة الصفراء ووضع الطحال مقرا للرة السوداء والسكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم ثم تبعثه الى جميع البدن من عرق واحد ينقسم على مجار كثيرة يوصل الى كل واحد من الشعور والاعصاب والمظام والعروق ما يكون به قوامه ثم اذا نظرت الى ما فيه من القوى الباطنة والظاهرة المختلفة في أنفسها ومنافعها رأيت العجيب العجيب كقوة سمعه وبصره وشمه وزوقه ولمسه وحبه وبغضه ورضاه وغضبه وغير ذلك من القوى المتعلقة بالادراك والإرادة وكذلك القوى المتصرفة في غذائه كالقوة المنضجة له وكالقوة الماسكة له والدافعة له الى الاعضاء والقوة الهاضمة له بعد أخذ الاعضاء حاجتها منه الى غير ذلك من عجائب خلقته الظاهرة والباطنة .

فصل

فارجع الآن الى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت اليه ثانيا وأنه لو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعا أو بصرا أو عقلا أو قدرة أو علما أو روحا بل عظما واحدا من أصغر عظامها بل عرقا من أدق عروقها بل شعرة واحدة لمجزوا عن ذلك بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين فمن هذا صنعه في قطرة ماء فكيف صنعه في ملكوت السموات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها وتفاوت مشارقها ومغاربها فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع العجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض الى عجائب السموات قال الله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال تعالى (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون) فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الاباب) وهذا كثير في القرآن فالأرض والبحار والهواء وكل ماتحت السموات بالإضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قل ان تعجب سورة في القرآن الا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها وإما اقسامها وإما دناه الى النظر فيها وإما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة

جانبها ورأفها وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيمة وإما استدلالاً
 منه برؤيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا اله الا هو وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها
 واثبات أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته وكذلك ما فيها من الكواكب
 والشمس والقمر والمجانب التي تتقاصر عقول البشر عن قليلها فكمن قسم في القرآن بها كقوله
 (والسما ذات البروج . والسما والطارق . والسما وما بناها . والسما ذات الرجوع والشمس
 وضحاها والنجم إذا هوى . والنجم الثاقب . فلا أقسم بالخنس) وهي الكواكب التي تكون
 خفياً عند طلوعها جوار في مجراها ومسيرها كنساً عند غروبها فاقسم بها في أحوالها الثلاثة ولم
 يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر وهو سبحانه يقسم
 بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والمعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في
 الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظم هذا القسم كقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم
 وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) وأظهر القولين أنه قسم بمواقع هذه النجوم التي في السماء فإن اسم
 النجوم عند الاطلاق إنما ينصرف إليها وأيضاً فإنه لم يجر عاداته سبحانه باستعمال النجوم في
 آيات القرآن ولا في موضع واحد من كتابه حتى تحمل عليه هذه الآية وجرت عاداته باستعمال
 النجوم في الكواكب في جميع القرآن وأيضاً فإن نظير الأقسام بمواقعها هنا إقسامه بهوى
 النجم في قوله (والنجم إذا هوى) وأيضاً فإن هذا قول جمهور أهل التفسير وأيضاً فإنه سبحانه
 يقسم بالقرآن نفسه لا بوصوله إلى عباده هذه طريقة القرآن قال الله تعالى (ص والقرآن ذي
 الذكر . يس والقرآن الحكيم . ق والقرآن المجيد . حم والكتاب المبين) ونظائره (والمقصود أنه
 سبحانه) إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته وحدانيته وقد أنشئ سبحانه
 في كتابه على المتفكرين في خلق السموات والأرض وذم المعرضين عن ذلك فقال (وجعلنا
 السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وتأمل خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته
 وشدته ووثاقته من دخان وهو بخار الماء قال الله تعالى (وبينا فوقكم سبعا شدادا) وقال تعالى
 (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها) وقال (وجعلنا السماء سقفا محفوظاً) فانظر
 إلى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينه بأحسن زينه وأودعه
 المعجائب والآيات وكيف ابتداء خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره ومن هو فوق العرش فرد موحد

لقد تعرف إلى خلقه بأنواع التعريفات ونصب لهم الدلالات وأوضح لهم الآيات البينات ليهلك
 من هلك عن بيته ويحيا من حي بيته وإن الله لسميع عليم فارجع البصر إلى السماء وانظر فيها وفي
 كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها

في الحركة على الهوام من غير فتور في حركتها ولا تغير في سيرها بل تجرى في منازل قدرتت لها بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن بطويها فاطرها وبدبها وانظر إلى كثرت كواكبها واختلاف ألوانها ومقاديرها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي (ثم انظر) إلى مسير الشمس في فلكتها في مدة سنة ثم هي في كل يوم تطلع وتغرب بسير سخرها له خالقها لا تتعداه ولا تقصر عنه ولولا طلوعها وغروبها لما عرف الليل والنهار ولا المواقيت ولا طبق الظلام على العالم أو الضياء ولم يتميز وقت المعاش من وقت السبات والراحة وكيف قدر لها السميع العليم سافرين متباعدين أحدهما سفرها صاعداً إلى أوجها والثاني سفرها هابطة إلى حضيضها تنتقل في منازل هذا السفر منزلة منزلة حتى تبلغ غايتها منه فأحدث ذلك السفر بقدرة الرب القادر اختلاف الفصول من الصيف والشتاء والخريف والربيع فإذا انخفض سيرها عن وسط السماء برد الهوى وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت بين المسافتين اعتدل الزمان وقامت مصالح العباد والحيوان والنبات بهذه الفصول الأربعة واختلفت بسببها الأقوات وأحوال النبات وألوانه ومنافع الحيوان والأغذية وغيرها (وانظر) إلى القمر وعجائب آياته كيف بيده الله كالخيوط الدقيق ثم يزايد نوره ويتكامل شيئاً فشيئاً كل ليلة حتى ينتهي إلى ابداره وكاله وتماه ثم يأخذ في التقصان حتى يعود إلى حاله الأولى ليظهر من ذلك مواقيت العباد في معاشهم وعبادتهم ومناسكهم فتميزت به الأشهر والسنين وقام حساب العالم مع ما في ذلك من الحكم والآيات والعبء التي لا يحصيا إلا الله (وبالجملة فما من كوكب من الكواكب) إلا والرب تبارك وتعالى في خلقه حكم كثيرة ثم في مقدارها ثم في شكله ولونه ثم في موضعه من السماء وقربه من وسطها وبعده وقربه من الكوكب الذي يليه وبعده منه وإذا أردت معرفة ذلك على سبيل الإجمال فقسه بأعضاء بدنك واختلافها وتفاوتها بين المتجاورات منها وبعدها بين المتباعدات وأشكالها ومقاديرها وتفاوت منافعها وما خلقت له وأين نسبة ذلك إلى عظم السموات وكواكبها وآياتها وقد اتفق أرباب الهيئة على أن الشمس بقدر الأرض مائة مرة وبنهاً وستين مرة والكواكب التي تراها كثير منها أصغرهما بقدر الأرض وبهذا يعرف ارتفاعها وبعدها وفي حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي أن بين الأرض والسماء مسيرة خمسمائة عام وبين كل سماء من كذلك وأنت ترى الكوكب كأنه لا يسير وهو من أول جزء من طلوعه إلى تمام طلوعه يكون فلانة قد طلع بقدر مسافة الأرض مائة مرة أو أكثر وذلك بعد لحظة واحدة، لأن الكوكب إذا كان بقدر الأرض مائة مرة مثلاً ثم سار في اللحظة من موضع إلى موضع فقد قطع بقدر مسافة الأرض مائة مرة وزيادة في لحظة من اللحظات وهكذا يسير على الدوام والعبد غافل

عنه وعن آياته وقال بعضهم إذا تلفظ بقولك لا نعم فين اللفظين تكون الشمس قد قطعت من الملك مسيرة خمسمائة عام ثم أنه سبحانه أمسك السموات مع عظمها وعظم ما فيها وثبتها من غير علاقة من فوقها ولا عمد من تحتها (الله الذي خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبثنا فيها من كل زوج كريم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين)

(فصل) والنظر في هذه الآيات وأمثالها نوعان :نظار إليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا ذرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظريشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالامر الثاني أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول في أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفقته ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة ويرى الملائكة حافين من حوله لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتقديس والتكبير والامر ينزل من فوقه بتدبير الممالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها فينزل الأمر باحياء قوم وإماتة آخرين وإعزاز قوم وإذلال آخرين وإسعاد قوم وشقاوة آخرين وإنشاء ملك وسلب ملك وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتباينها وكثرتها من جبر كسر وإغناء فقير وشفاء مريض وتفريج كرب ومغفرة ذنب وكشف ضر ونصر مظلوم وهداية حيران وتعليم جاهل ورد آبق وأمان خائف وإجارة مستجير ومدد لضعيف وإغاثة للمهوف وإعانة لعاجز وانتقام من ظالم وكف العدوان فهي مراسم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة تنفذ في أقطار العوالم لا يشغله سمع شيء منها عن سماع غيره ولا تغلظه كثرة المسائل والحوادث على اختلافها وتباينها واتحاد وقتها ولا يتبرم بالحاح الملحين ولا تنقص ذرة من خزائنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم فينشد يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقا لهيبته خاشعاً لعظمته عان لعزته فيسجد بين يدي الملك الحق المبين سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد فهذا سفر القلب وهو في وطنه وداره ومحل ملكه وهذا من أعظم آيات الله وعجائب صنعته فيأله من سفر ما أبركه وأروحه وأعظم ثمرته وربحه وأجل منفعتة وأحسن عاقبته سفر هو حياة الأرواح ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والالباب لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب

(فصل) وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديها خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذلكها لعباده وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم وأرساها بالجبال لجملها أوتاداً تحفظها لئلا تميد

بهم ووسع أكنافها ودحاها فدها وبسطها وطحاها فوسمها من جوانبها وجعلها كفاتا للأحياء
تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم في بطنها إذا ما توارى فظرها وطن
للأحياء وبطنها وطن للأموات وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه ودعا عباده إلى
النظر إليها والتفكير في خلقها فقال تعالى (والأرض فرشنا فمن الماهدون . الله الذي جعل
لكم الأرض قراراً . الذي جعل لكم الأرض فراشا . أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت
وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت . إن في السموات
والأرض آيات للؤمنين) وهذا كثير في القرآن فانظر إليها وهي مائة هامة خاشعة فإذا
أنزلنا عليها الماء اهتزت فتحركت وربت فارتفعت واخضرت وأنبئت من كل زوج بهيج
فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر بهيج للناظرين كريم للتناولين فأخرجت الأقوات
على اختلافها وتباين مقاديرها . وأشكالها وألوانها ومنافعها والفواكه والثمار وأنواع الأدوية
ومراعي الدواب والطيور (ثم انظر) قطعها المتجاورات وكيف ينزل عليها ماء واحداً فتنبت
الازواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة واللتاح واحد والأم
واحدة كما قال تعالى (وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان
وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك آيات لقوم يعقلون)
فكيف كانت هذه الاجنة المختلفة مودعة في بطن هذه الأم وكيف كان حملها من لقاح واحد
صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبه عليه عباده
وهدهم إلى التفكير فيه . قال الله تعالى (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت
وربت وأنبئت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء
قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) فجعل النظر في هذه الآية
وما قبلها من خلق الجنين دليلاً على هذه النتائج الخمس مستلزماً للعلم بها ثم انظر كيف أحكم
جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف نصبها فأحسن نصبها وكيف
رفعها وجعلها أصلاب أجزاء الأرض لثلاثا تضمحل على تظاول السنين وترادف الأمطار والرياح
بل أتقن صنعها وأحكم وضعها وأودعها من المنافع والمعادن والعيون ما أودعها ثم هدى الناس
إلى استخراج تلك المعادن منها وألهمهم كيف يصنعون منها النقود والحلى والزينة واللباس
والسلاح وآلة المعاش على اختلافها ولولا هدايته سبحانه لهم إلى ذلك لما كان لهم علم شيء منه
ولا قدرة عليه (ومن آياته الباهرة) هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض يدرك
بحس اللمس عند هبوبه يدرك جسمه ولا يرى شخصه فهو يجري بين السماء والأرض والطيور
مختلفة فيه سابعة بأجنحتها في أمواجه كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه

وأواجه عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر فاذا شاء سبحانه وتعالى حركة بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولا قهراً للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقح الذكر الأثني بالحل . وتسمى رياح الرحمة المبهشات والنشر والذاريات والمرسلات والرخاء والواقع ورياح العذاب العاصف والقاصف وهما في البحر والعقيم والصرصر وهما في البر وإن شاء حركة بحركة العذاب فجعله عقياً وأودعه عذاباً أليماً وجعله نعمة على من يشاء من عباده فيجعله صرصرأ ونحسأ وعاتياً ومفسداً لما يمر عليه وهي مختلفة في مهابها فمنها صبا ودبور وجنوب وشمال وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان وأخرى تجففه وأخرى تهلكه وتعطبه وأخرى تشده وتصلبه وأخرى توهنه وتضعفه . ولهذا يخبر سبحانه عن رياح الرحمة بصيغة الجمع لاختلاف منافعها وما يحدث منها . فريح تثير السحاب وريح تلقحه وريح تحملها على متونها وريح تغذي النبات . ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها جعل لكل ريح ريحاً مقابلتها تكسر سورتها وحدتها ويبقى لينها ورحمتها فرياح الرحمة متعددة وأما ريح العذاب فانه ريح واحدة ترسل من وجه واحد لاهلاك ما ترسل باهلاكه فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها وتكسر سورتها وتدفع حدتها بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء يدمر كل ما أتى عليه . وتأمل حكمة القرآن وجلالته وفصاحته كيف طرد هذا في البر وأما في البحر فجاءت ريح الرحمة فيه بلفظ الواحد كقوله تعالى (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان) فان السفن إنما تسير بالريح الواحدة التي تأتي من وجه واحد فاذا اختلفت الرياح على السفن وتقابلت لم يتم سيرها فالمقصود منها في البحر خلاف المقصود منها في البر إذ المقصود في البحر أن تكون واحدة طيبة لا يعارضها شيء فأفردت هنا وجمعت في البر . ثم أنه سبحانه أعطى هذا الخلق اللطيف الذي يحركه أضعف مخلوقات ويخرقه من الشدة والقوة والبأس ما يلقق به الأجسام الصلبة القوية الممتنعة ويزعجها عن أمأكتها ويفتها ويحملها على منته فانظر اليه مع لطفه وخفته إذا دخل في الزق مثلاً وامتلأ به ثم وضع عليه الجسم الثقيل كالرجل وغيره وتحامل عليه ليغمسه في الماء لم يطق ويضع الحديد الصلب الثقيل على وجه الماء فيرسب فيه فامتنع هذا اللطيف من قهر الماء له ولم يمتنع منه القوى الشديد وهذه الحكمة أمسك الله سبحانه السفن على وجه الماء مع ثقلها وثقل ما تحويه وكذلك كل مجوف حل فيه الهواء فانه لا يرسب فيه لأن الهواء يمتنع من الغوص في الماء فتعلق به السفينة المشحونة الموقرة فتأمل كيف استجار هذا الجسم الثقيل العظيم بهذا اللطيف الخفيف وتعلق به حتى أمن من الفرق وهذا كالذي يهوى في قلب فيتعلق بذيول رجل قوى شديد يمتنع عن السقوط في القلب فينجو بتعلقه به فسبحان من خلق هذا

الركب العظيم الثقيل بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة ولا عقدة تشاهد (ومن آية السحاب المسخر بين السماء والأرض) كيف ينشئه سبحانه بالرياح فتثيره كسيفا ثم يؤلف بينه ويضم بعضه إلى بعض ثم تلقحه الريح وهي التي سماها سبحانه لواقع ثم يسوقه على متونها إلى الأرض المحتاجة إليه فإذا علاها واستوى عليها أمراق ماءه عليها فيرسل سبحانه عليه الريح وهو في الجو فتدوره وتفرقه لثلاثا يؤذى ويهدم ما ينزل عليه بجملة حتى إذا رويت وأخذت حاجتها منه ألقع عنها وفارقها فهي روابيا الأرض محمولة على ظهور الرياح وفي الترمذى وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى السحاب قال هذه روابيا الأرض يسوقها الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يذكرونه فالسحاب حامل رزق العباد وغيرهم التي عليها ميرتهم . وكان الحسن إذا رأى السحاب قال في هذا والله رزقكم ولكنكم تحرمونه بخطاياكم وذنوبكم . وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال بينما رجل بفلاة من الأرض إذ سمع صوتا في سحابة إسق حديقة فلان فر الرجل مع السحابة حتى أتت على حديقة فلما توسطتها أفرغت فيها ماءها فإذا برجل معه مسحاة يسحى الماء بها فقال ما اسمك يا عبد الله قال فلان للإسم الذي سمعه في السحابة (وبالجملة) فإذا تأملت السحاب الكشيف المظلم كيف تراه يجتمع في جوصاف لاكدورة فيه وكيف يخلفه الله متى شاء وإذا شاء وهو مع لينة ورغاوته حامل للباء الثقيل بين السماء والأرض إلى أن يأذن له ربه وخالقه في ارسال مامعه من الماء فيرسله وينزله منه مقطعا بالقطرات كل قطرة بقدر مخصوص اقتضته حكمته ورحمته فيرش السحاب الماء على الأرض رشا ويرسله قطرات مفصلة لا تختلط قطرة منها بأخرى ولا يتقدم متأخرها ولا يتأخر متقدمها ولا تدرك القطرة صاحبها فتمزج بها بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه حتى تصيب الأرض قطرة قطرة قد عمنت كل قطرة منها لجزء من الأرض لا تعداه إلى غيره فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أو يحصوا عدد القطر في لحظة واحدة لعجزوا عنه . فأمل كيف يسوقه سبحانه رزقا للعباد والدواب والطيور والذر والنمل يسوقه رزقا للحيوان الفلاني في الأرض الفلانية بجانب الجبل الفلاني فيصل إليه على شدة من الحاجة والعطش في وقت كذا وكذا . ثم كيف أودعه في الأرض ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والآفات فهذا النبات يغذى وهذا يصلح الغذاء وهذا ينفعه وهذا يضعف وهذا أسم قاتل وهذا شفاء من السم وهذا يمرض وهذا دواء من المرض وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة قبح الصفراء من أعماق العروق وهذا إذا حصل فيها ولد الصفراء واستحال إليها وهذا يدفع البلغم والسوداء وهذا يستحيل

إليهما وهذا يهيج الدم وهذا يسكنه وهذا ينوم وهذا يمنع النوم وهذا يفرح وهذا يجلب.
الغم إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا تكاد تخلو ورقة منه ولا عرق ولا ثمرة من منافع
تعجز عقول البشر عن الأحاطة بها وتفصيلها . وانظر إلى مجارى الماء في تلك العروق
الرفيعة الضئيلة الضعيفة التي لا يكاد البصر يدركها إلا بعد تحديقك كيف يقوى قسره واجتذابه
من مقره ومركزه إلى فوق ثم ينصرف في ملك المجارى بحسب قبولها وسعتها وضيقها ثم
تتفرق وتتشعب وتندق إلى غاية لا يناها البصر ، ثم انظر إلى تكون حمل الشجرة ونقله من
حال إلى حال كستقل أحوال الجنين المغيب عن الأبصار ترى العجب العجيب فتبارك الله رب
العالمين وأحسن الخالقين بينا تراها حطبا قائما عاريا لا كسوة عليها إذ كساها ربها وخالقها
من الزهر أحسن كسوة ثم سلبها تلك الكسوة وكساها من الورق كسوة هي أثبت من الأولى
ثم أطلع فيها حملها ضعيفا ضئيلا بعد أن أخرج ورقها صيانة وثوبا لتلك الثمرة الضعيفة
لتستجن به من الحر والبرد والآفات ثم ساق إلى تلك الثمار رزقها وغذاها في تلك العروق
والمجارى فتغذت به كما يتغذى الطفل بلبان أمه ثم رباها ونماها شيئا فشيئا حتى استوت
وكمات وتاهى إدراكها فأخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين من تلك الحطبة الصماء . هذا وكم لله
من آية في كل ما يقع الحس عليه ويبصره العباد وما لا يبصرونه تفنى الأعمار دون الأحاطة
بها وبجميع تفاصيلها .

فصل

ومن آياته سبحانه وتعالى الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ولهذا
يميد ذكرهما في القرآن ويديه كقوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار) وقوله (وهو الذى
جعل الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا) وقوله عز وجل (وهو الذى خلق الليل
والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) وقوله عز وجل (الله الذى جعل لكم الليل
لتسكنوا فيه والنهار مبصرا) وهذا كثير فى القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتا من
العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكنا ولباسا يغشى العالم فتسكن
فيه الحركات وتأوى الحيوانات إلى بيوتها والطير إلى أوكارها وتستجم فيه النفوس وتستريح
من كبد السعى والتعب حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معاشها وتصرفها
جاء فاتق الأصباح سبحانه وتعالى بالنهار يقدم جيشه بشير الصباح فهزم تلك الظلمة ومزقها كل
مزق وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون فانتشر الحيوان وتصرف فى معاشه ومصالحه وخرجت
الطيور من أوكارها فياله من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر وتكرره

ودوام مشاهدة النفوس له بحيث صار عادة ومألفاً منها من الاعتبار به والاستدلال به على النشأة الثانية وإحياء الخلق بعد موتهم ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلف ذلك ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعنى عن هذه الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه فلا يهتدى بها ولا يصرفها لمن هو واقف في الماء إلى خلقه وهو يستفيد من العطش ويشكر وجود الماء وبهذا وأمثاله يعرف الله عز وجل ويشكر ويحمد ويتضرع إليه ويسأل .

فصل

ومن آياته وعجائب مصنوعاته البحار المكتنفة لأقطار الأرض التي هي خليجان من البحر المحيط الأعظم بجميع الأرض حتى أن المكشوف من الأرض والجبال والمدن بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مغمورة بالماء . ولولا إمساك الرب تبارك وتعالى له بقدرته ومشيبته وحبسه الماء لطفح على الأرض وعلاها كلها هذا طبع الماء ولهذا حار عقلاء الطبيعيين في سبب بروز هذا الجزء من الأرض مع اقتضاء طبيعة الماء للعلو عليه وإن يغمره ولم يجدوا ما يحيلون عليه ذلك إلا الاعتراف بالعناية الأزلية والحكمة الإلهية التي اقتضت ذلك لعيش الحيوان الأرضي في الأرض وهذا حق ولكنه يوجب الاعتراف بقدرة الله وإرادته ومشيبته وعلمه وحكمته وصفات كماله ولا يحصى عنه . وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم . وهذا أحد الأقوال في قوله عز وجل (والبحر المسجور) أنه المحبوس حكاة ابن عطية وغيره . قالوا ومنه ساجور الكلب وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه وكذلك لولا أن الله يحبس البحر ويمسكه لفاض على الأرض فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض وإذا تأملت عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومقاديرها ومنافعها ومضارها وألوانها حتى أن فيها حيواناً أمثال الجبال لا يقوم له شيء وحتى أن فيه من الحيوانات ما يرى ظهورها فيظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فيعلم أنه حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله حتى الإنسان والفرس والبعير وأصنافها وفيه أجناس لا يهد لها نظير في البر أصلاً هذا مع ما فيه من الجواهر واللؤلؤ والمرجان فترى اللؤلؤة كيف أودعت في كن كالبيت لها وهي الصدفة تكنها وتحفظها ومنه اللؤلؤ المكتنون وهو الذي في صدفة لم تمسه الأيدي وتأمل كيف نبت المرجان في قعره في الصخرة الصماء تحت الماء على هيئة الشجر هذا مع ما فيه من العنبر وأصناف النفائش

التي يقذفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخره بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها وإنما قائدها وسائقها الرياح التي يسخرها الله لاجرائها فاذا حبس عنها القائد والسائق ظلت راکدة على وجه الماء قال الله تعالى (ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لسلك صبار شكور) وقال الله تعالى (الله الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فما أعظمها من آية وأبينها من دلالة ولهذا يكرر سبحانه ذكرها في كتابه كثيراً وبالجملة فعجائب البحر وآياته أعظم وأكثر من أن يحصها إلا الله سبحانه وقال الله تعالى (إننا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكراً وتعبها أذن واعية) .

فصل

ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه وألوانه وعجائبه المودعة فيه فنه الماشى على بطنه ومنه الماشى على رجليه ومنه الماشى على أربع ومنه ما جعل سلاحه في رجليه وهو ذوات الخالب ومنه ما جعل سلاحه المناقير كالنسر والرخم والغراب ومنه ما سلاحه الأسنان ومنه ما سلاحه الصياصى وهى القرون يدافع بها عن نفسه من روم أخذه ومنه ما أعطى منها قوة يدفع بها عن نفسه لم يحتج إلى سلاح كالأسد فإن سلاحه قوته ومنه ما سلاحه فى ذرقه وهو نوع من الطير إذا دنا منه من يريد أخذه ذرق عليه فأهلكه ونحن نذكر هنا فصولاً منتشرة من هذا الباب مختصرة وإن تضمنت بعض التكرار وترك الترتيب فى هذا المقام الذى هو من أهم فصول الكتاب بل هو لب هذا القسم الأول ولهذا يكرر فى القرآن ذكر آياته ويميدها ويبيدها ويأمر عباده بالنظر فيها مرة بعد أخرى فهو من أجل مقاصد القرآن قال الله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) وقال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب) وقال تعالى (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبب إلى كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت) وقال الله تعالى (أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ) وقال تعالى (إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون فائق الاصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات

كل شيء فأخرجنا منه خضرا فخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره اذا اثمر وينعه) فأمر سبحانه بالنظر إليه وقت خروجه وإثماره ووقت نضجه وإدراكه يقال أينعت الثمار إذا نضجت وطابت لأن في خروجه من بين الحطب والورق آية باهرة وقدرة بالغة ثم في خروجه من حد العفوصة واليبوسة والمرارة والحموضة إلى ذلك اللون المشرق الناصع والطعم الحلو اللذيذ الشهى آيات لقوم يؤمنون وقال بعض السلف حق على الناس أن يخرجوا وقت إدراك الثمار وينهما فينظروا إليها ثم تلى (انظروا الى ثمره إذا اثمر وينعه) ولو أردنا نستوعب مافي آيات الله المشهورة من العجائب والدلالات الشاهدة لله بأن الله الذي لا اله الا هو الذي ليس كمثل شيء. وانه الذي لا أعظم منه ولا أكل منه ولا أبر ولا اللطف لعجزنا نحن والأولون والآخرون عن معرفة أدنى عشر معشار ذلك ولكن مالا يدرك جميعه لا ينبغي ترك التنبيه على بعض ما يستدل به على ذلك وهذا حين الشروع في الفصول .

فصل

تأمل العبرة في موضع هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على أحسن نظام وأدله على كمال قدرة خالقه وكمال علمه وكمال حكمته وكمال لطفه فانك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آياته ومصالحه وكل ما يحتاج اليه فالسما سقفه المرفوع عليه والأرض مهادو بساط وفرش ومستقر للساكن والشمس والقمر سرجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينة وأدلة للتشقل في طرق هذه الدار والجواهر والمعادن مخزونة فيه كالذخائر والحواصل الممعدة للمياة كل شيء. منها لشأنه الذي يصلح له وضروب النبات مهيأ لمآربه وصنوف الحيوان مصروقة لمصالحه فمنها الركوب ومنها الحلوب ومنها الغذاء ومنها اللباس والأمتعة والآلات ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان بحرسه وهو قائم وقاعد مما هو مستعد لإهلاكه وأذاه فلو لا ما سلط عليه من ضده لم يقر للإنسان قرار بينهم وجعل الانسان كالملك الخول في ذلك المحكم فيه المتصرف بفعله وأمره ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير علم قدره أحسن تقدير ونظمه أحسن نظام وإن الخالق له يستحيل أن يكون اثنين بل الاله واحد لا اله الا هو تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً وإنه لو كان في السموات والأرض إله غير الله لفسد أمرهما واختل نظامهما وتعطلت مصالحهما وإذا كان البدن يستحيل أن يكون المدبر له روحان متكافئان متساويان ولو كان كذلك لفسد وهلك مع امكان أن يكون تحت قهر ثالث هذا من المحال في أوائل العقول وبداية الفطر فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب

كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون فهذان برهانان يمجز الأولون والآخرون أن يقدحوا فيهما بقدر صحيح أو يأتوا بأحسن منهما ولا يعترض عليهما إلا من لم يفهم المراد منهما ولولا خشية الإطالة لذكرنا تقديرهما وبيان ما تضمناه من السر العجيب والبرهان الباهر وسنفرد إن شاء الله كتاباً مستقلاً لادلة التوحيد .

فصل

فتأمل خلق السماء وارجع البصر فيها كرة بعد كرة كيف تراها من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وسعتها وقرارها بحيث لا تصعد علوا كالنار ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة ولا عدهتها ولا علاقة فوقها بل هي ممسوكة بقدره الله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ثم تأمل استواءها واعتدالها فلا صدع فيها ولا فطر ولا شق ولا أمت ولا عوج ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر وتقوية له حتى إن من أصابه شيء أضر ببصره يؤمر بامان النظر إلى الحضرة وما قرب منها إلى السواد وقال الأطباء إن من كل بصره فإنه من دوائه أن يديم الاطلاع إلى إجابة خضراء مملوءة ماء فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له هذا بعض فوائد هذا اللون والحكمة فيه اضعاف ذلك .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم وكيف كان الناس يسمعون في معاشتهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة في غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنة وظهور سلطاتها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات فصارت تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقرؤوا ويهدؤوا وصار ضياء النهار مع ظلام الليل وحر هذا مع برد هذا مع تضادهما متعاونين مظاهرين بهما تمام مصالح العالم وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى وتبه عباده عليه بقوله عز وجل ﴿ قل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار

سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتسكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) خص سبحانه
النهار بذكر البصر لأنه محلّه وفيه سلطان البصر وتصرفه وخص الليل بذكر السمع لأن
سلطان السمع يكون بالليل وتسمع فيه الحيوانات ما لا تسمع في النهار لأنه وقت هسود
الأصوات وخمود الحركات وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر والنهار بالعكس فيه
قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع فقوله أفلا تسمعون راجع إلى قوله قل أرأيتم إن
جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتسكم به وقوله أفلا تبصرون
راجع إلى قوله قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة وقال تعالى (تبارك
الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً وهو الذي جعل الليل والنهار
خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً) فذكر تعالى خلق الليل والنهار وإنهما خلفه أي
يخاف أحدهما الآخر لا يجتمع معه ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما
وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر لا يجامعه ولا يحاذيه
بل يغشى أحدهما صاحبه فيطلبه حيثاً حتى يزيله عن سلطانه ثم يجيء الآخر عقبيه فيسطبه
حيثاً حتى يهزمه ويزيله عن سلطانه فهما دائماً يتطالبان ولا يدرك أحدهما صاحبه .

فصل

ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة
والفصول وما فيها من المصالح والحكم إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح
الفصول الباقية فيه فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع مصالح الشتاء ولو كان شتاءً لفاتت مصالح
الصيف وكذلك لو كان ربيعاً كله أو خريفاً كله ففي الشتاء تغور الحرارة في الأجواف
وبطون الأرض والجبال فتولد مواد الثمار وغيرها وتبرد الظواهر ويستكشف فيه الهواء
فيحصل السحاب والمطر والثلج والبرد الذي به حياة الأرض وأهلها واشتداد أبدان الحيوان
وقوتها وتزايد القوى الطبيعية واستخلاف ما حملته حرارة الصيف من الأبدان وفي الربيع
تتحرك الطبائع وتظهر المواد المتولدة في الشتاء فيظهر النبات ويتنور الشجر بالزهر ويتحرك
الحيوان للتناسل وفي الصيف يحد الهواء ويسخن جداً فتنضج الثمار وتنحل فضلات الأبدان
والإخلاط التي انعدت في الشتاء وتغور البرودة وتهرب إلى الأجواف ولهذا تبرد العيون
والآبار ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء من الأطعمة الغليظة لأنها كانت
تهضمها بالحرارة التي سكنت في البطون فلما جاء الصيف خرجت الحرارة إلى ظاهر الجسد
وغارت البرودة فيه فاذا جاء الخريف اعتدل الزمان وصفا الهواء وبرد فانكسر ذلك السموم
وجعله الله بحكمته برزخاً بين سموم الصيف وبرد الشتاء لئلا يتنقل الحيوان وهلة واحدة من

الحر الشديد إلى البرد الشديد فيجد أذاه ويعظم ضرره فإذا انتقل إليه بتدرج وترتيب لم يصعب عليه فإنه عند كل جزء يستعد لقبول ما هو أشد منه حتى تأتي جمرة البرد بعد استعداد وقبول حكمة بالغة وآية باهرة وكذلك الربيع برزخ بين الشتاء والصيف ينتقل فيه الحيوان من برد هذا إلى حر هذا بتدرج وترتيب لتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين .

فصل

ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من النور والإضاءة وكيف جعل لهما بروجاً ومنازل ينزلانها بعد مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السنة وتماخ حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه فبذلك يعلم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجازات والمعاملات والعدد وغير ذلك فلولا حلوك الشمس والقمر في تلك المنازل وتقلعها فيها منزلة بعد منزلة لم يعلم شيء من ذلك وقد نبه تعالى على هذا في غير موضع من كتابه كقوله (هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب) .

فصل

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قدره العزيز العالم سبحانه فانها لو كانت تطلع في موضع من السماء تقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات لأن ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر وكان يكون الليل دائما سرمدا على من لم تطلع عليهم والنهار سرمدا على من هي طالعة عليهم فيفسد هؤلاء وهؤلاء فاقضت الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن قدر طلوعها من أول النهار من المشرق فتشرق على ما قبلها من الأفق الغربي ثم لا تزال تدور وتغشى جهة بعد جهة حتى تنتهي إلى المغرب فتشرق على ما استر عنها في أول النهار فيختلف عندهم الليل والنهار فتنتظم مصالحهم .

فصل

ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار تجدها على غاية المصلحة والحكمة وأن مقدار اليوم واللييلة لو زاد على ما قدر عليه أو نقص لفاتت المصلحة واختالفت الحكمة بذلك بل جعل مكيالها أربعة وعشرين ساعة وجعلها يتقارضان الزيادة والنقصان بينهما فما يزيد في أحدهما من الآخر يعود الآخر فيسترده منه . قال الله تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) وفيه قولان أحدهما أن المعنى يدخل ظلمة هذا في مكان ضياء ذلك وضياء هذا في مكان ظلمة الآخر فيدخل كل واحد منهما في موضع صاحبه وعلى هذا فهمى عامة في كل ليل ونهار والقول الثاني

أنه يزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر فإينقص منه يلج في الآخر لا يذهب جملة وعلى هذا فالآية خاصة ببعض ساعات كل من الليل والنهار في غير زمن الاعتدال فهي خاصة في الزمان وفي مقدار ما يلج في أحدهما من الآخر وهو في الأقاليم المعتدلة غاية ما انتهى الزيادة خمس عشرة ساعة فيصير الآخر تسع ساعات فإذا زاد على ذلك انحرف ذلك الإقليم في الحرارة أو البرودة إلى أن ينتهي إلى حد لا يسكنه الإنسان ولا يتسكون فيه النبات وكل موضع لانفع عليه الشمس لا يعيش فيه حيوان ولا نبات لفرط برده ويديه وكل موضع لانفاره كذلك لفرط حره ويديه والمواضع التي يعيش فيها الحيوان والنبات هي التي تطلع عليها الشمس وتغيب وأعد لها المواضع التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة ويكون فيها اعتدالان خريفيين وربيعيين .

فصل

ثم تأمل إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل والحكمة في ذلك فإن الله تعالى اقتضت حكمته خلق الظلمة لهدو الحيوان وبرد الهواء على الأبدان والنبات فتعادل حرارة الشمس فيقوم النبات والحيوان فلما كان ذلك مقتضى حكمته شاب الليل بشيء من الأنوار ولم يجعله ظلمة داجية حندسا لاضوء فيه أصلا فكان لا يتمكن الحيوان فيه من شيء من الحركة ولا الأعمال ولما كان الحيوان قد يحتاج في الليل إلى حركة ومسير وعمل لا يتيأ له بالنهار لضيق النهار أو أشدة الحر أو لخوفه بالنهار كحال كثير من الحيوان جعل في الليل من أضواء الكواكب وضوء القمر ما يتأتى معه أعمال كثيرة كالسفر والحراث وغير ذلك من أعمال أهل الحراث والزروع فجعل ضوء القمر بالليل معونة للحيوان على هذه الحركات وجعل طلوعه في بعض الليل دون بعض مع نقص ضوءه عن الشمس لئلا يستوى الليل والنهار فتفوت حكمة الاختلاف بينهما والنفاهات الذي قدره العزيز العليم فتأمل الحكمة البالغة والتقدير العجيب الذي اقتضى أن أعان الحيوان على دولة الظلام بجند من النور يستعين به على هذه الدولة المظلمة ولم يجعل الدولة كلها ظلمة صرفا بل ظلمة مشوبة بنور رحمة منه وإحسانا فسبحان من أتقن ما صنع وأحسن كل شيء خلقه .

فصل

ثم تأمل حكمته تبارك وتمال في هذه النجوم وكثرتها وعجيب خلقها وأنها زينة للسماء وأدلة يهتدى بها في طرق البر والبحر وما جعل فيها من الضوء والنور بحيث

يمكننا رؤيتها مع البعد المفرط ولولا ذلك لم يحصل لنا الاهتداء والدلالة ومعرفة المواقيت ثم نأمل تسخيرها منقاداً بأمر ربها تبارك وتعالى جارية على سنن واحد اقتضت حكمته وعله أن لا يخرج عنه فجعل منها البروج والنازل والثواب والسيارة والسكراب والصغار والمتوسط والأبيض الأزهر والأبيض الأحمر ومنها ما يخفى على الناظر فلا يدركه وجعل منطقة البروج قسمين مرتفعة ومنخفضة وقدر سيرها تقديراً واحداً ونزل الشمس والقمر والسيارات منها منازلها فمنها ما يقطعها في شهر واحد وهو القمر ومنها ما يقطعها في عام ومنها ما يقطعها في عدة أعوام كل ذلك موجب الحكمة والعناية وجعل ذلك أسبأبأ لما يحده سبحانه في هذا العالم فيستدل بها الناس على تلك الحوادث التي تقارنها كعرفتهم بما يكون مع طلوع الثريا إذا طلعت وغروبها إذا سقطت من الحوادث التي تقارنها وكذلك غيرها من المنازل والسيارات ثم تأمل جملة سبحانه بنات نعيش وما قرب منها ظاهرة لا تغيب لقربها من المركز ولما في ذلك من الحكمة الآلية وانها بمنزلة الأعلام التي يهتدى بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر فهم ينظرون إليها وإلى الجسدي والفرقدين كل وقت أرادوا فيهتدون بها حيث شاؤوا .

فصل

ثم تأمل اختلاف سير الكواكب وما فيه من العجائب كيف تجد بعضها لا يسير إلا مع رفيقه ولا يفرد عنهم سيره أبداً بل لا يسرون إلا جميعاً وبعضها يسير سيراً مطلقاً غير مقيد برفيق ولا صاحب بل إذا انفق له مصاحبته في منزل وافقه فيه ليلة وفارقه الليلة الأخرى فيبنا تراه ورفيقه ورفيقه إذ رأيتهما مفترقين متباعدين كأنهما لم يتصاحبا قط وهذه السيارة لها في سيرها سيران مختلفان غاية الاختلاف سير عام يسير بها فلكنها وسير خاص تسير هي في فلكنها كما شبهوا ذلك بنملة تدب على رحي ذات الشمال والرحى تأخذ ذات اليمين فللنملة في ذلك حركتان مختلفتان إلى جهتين متباينتين إحداهما بنفسها والأخرى مكرهة عليها تبعاً للرحى تجذبها إلى غير جهة مقصدها وبذلك يجعل التقديم فيها كل منزلة إلى جهة الشرق ثم يسير فلكنها وبمزانها إلى جهة الغرب فسل الزنادقة والممثلة أي طبيعة اقتضت هذا وأي فلك أوجبه وهلا كانت كلها راتبه أو منتقلة أو على مقدار واحد وشكل واحد وحركة واحدة وجريان واحد وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثل شيء أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل ما صنعه وأنه العليم الحكيم الذي خلق فسوى وقدر فهدى وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه وأنه خلق مسخر مربوب مدبر (ان ربكم الله الذي خلق السموات

والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه خثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره أإله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين) . فان قلت فما الحكمة في كون بعض النجوم راتباً وبعضها منتقلاً . قيل إنما لو كانت كلها راتبة لبطلت الدلالة والحكم التي نشأت من تنقلها في منازلها ومسيرها في بروجها ولو كانت كلها منتقلة لم يكن لمسيرها منازل تعرف بها ولا رسم يقاس عليها لأنه إنما يقاس مسير المنتقلة منها بالراتب كما يقاس مسير السائرين على الأرض بالمنازل التي يعمرون عليها فلو كانت كلها بحال واحدة لاختلط نظامها ولبطلت الحكم والفوائد والدلالات التي في اختلافها ولتشبهت المعطل بذلك وقال لو كان فاعلمها ومبدعها مخترعها لم تكن على وجه واحد وأمر واحد وقدر واحد فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته

فصل

ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقره ونجومه وبروجه وكيف يدور على هذا العالم هذا الدوران الدائم إلى آخر الأجل على هذا الترتيب والنظام وما في طي ذلك من اختلاف الليل والنهار والفصول والحر والبرد وما في ضمن ذلك من مصالح ما على الأرض من أصناف الحيوان والنبات وهل يخفى على ذي بصيرة ان هذا ابداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم ولهذا خاطب الرسل أمتهم مخاطبة من لا شك عنده في الله وإنما دعوهم إلى عبادته وحده لا إلى الاقرار به فقالت لهم (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) فوجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الاطلاق فهو أظهر للبصائر من الشمس للأبصار وأبين للمعتول من كل ما تعقله وتقر بوجوده فما ينكره إلا مكابر بنسائه وقلبه وعقله وفطرته وكلها تكذبه قال تعالى (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان في ذلك آيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات) الآية . وقال تعالى (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات للذين آمنوا وفي خلقكم وما يبث من دابة) إلى قوله (وآياته يؤمنون) وقال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها وأتى في الأرض رواسي أن تمد بكم وبث فيها من كل دابة إلى قوله في ضلال مبين) . وقال تعالى (خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) إلى قوله (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وتأمل كيف وحد سبحانه الآية من قوله (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب إلى آخرها) وختمها بأصحاب الفكرة فأما

توحيد الآية فلأن موضع الدلالة واحد وهو الماء الذي أنزله من السماء فاخرج به كلما ذكره من الأرض وهو على اختلاف أنواعه لقاحه واحد وأمه واحدة فهذا نوع واحد من آياته . وأما تخصيصه ذلك بأهل الفكر فلأن هذه المخلوقات التي ذكرها من الماء موضع فسر وهو نظر القلب وتأمله لا موضع نظر مجرد بالعين فلا ينتفع الناظر بمجرد رؤية العين حتى ينتقل عنه إلى نظر القلب في حكمه ذلك وبديع صنعه والاستدلال به على خالقه وباريه وذلك هو الفكر بعينه . وأما قوله تعالى في الآية التي بعدها (ان في ذلك آيات لقوم يعقلون) فجمع الآيات لأنها تضمنت الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم وهي آيات متعددة مختلفة في أنفسها وخلقها وكيفيةاتها فان إظلام الجو وغروب الشمس ومجيء الليل الذي يلبس العالم كالثوب ويسكنون تحته آية باهرة ثم ورد جيش الضياء يقدمه بشير الصباح فينهزم عسكر الظلام وينتشر الحيوان وينكشط ذلك اللباس بجماته آية أخرى ثم في الشمس التي هي آية النهار آية أخرى وفي التمر الذي هو آية الليل آية أخرى وفي النجوم آيات أخرى كما قدمناه هذا مع ما يتبعها من الآيات المقارنة لها من الرياح واختلافها وسائر ما يمدنه الله بسببها آيات أخر فالموضع موضع جمع وخص هذه الآيات بأهل العقل لأنها أعظم بما قبلها وأدوأكب والأولى كالباب لهذه فمن استدلل بهذه الآيات وأعطاها حقها من الدلالة استحق من الوصف ما يستحقه صاحب الفكر وهو العقل ولأن منزلة العقل بعد منزلة الفكر فلما دلهم بالآية الأولى على الفكر نقلهم بالآية الثانية التي هي أعظم منها إلى العقل الذي هو فوق الفكر فتأمل . فأما قوله في الآية الثالثة (ان في ذلك آية لقوم يذكرون) فوحد الآية وخصها بأهل التذكر . فأما توحيدها فكأن توحيد الأولى سواء فان ما ذرأ في الأرض على اختلافه من الجواهر والنبات والمعادن والحيوان كله في محل واحد فهو نوع من أنواع آياته وإن تعددت أصنافه وأنواعه . وأما تخصيصه إياها بأهل التذكر فطريقة القرآن في ذلك أن يجعل آياته للتبصر والتذكر كما قال تعالى في سورة ق (والأرض مددناها وألقىنا فيها رواسبنا ونبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) فالتبصرة التعقل والتذكر التذكر والفكر باب ذلك ومدخله فاذا فكر تبصر وإذا تبصر تذكر فجاء التذكير في الآية لترتيبها على العقل المرتب على الفكر فقدم الفكر إذ هو الباب والمدخل ووسط العقل إذ هو ثمرة الفكر ونتيجته وآخر التذكر إذ هو المطلوب من الفكر والعقل فتأمل ذلك حتى التأمل . فان قلت فالفرق بين التذكر والتفكير فاذا تبين الفرق ظهرت الفائدة . قلت التفكير والتذكر أصل الهدى والفلاح وهما قطبا السعادة ولهذا وسعنا الكلام في التفكير في هذا الوجه لعظم المنفعة وشدة الحاجة إليه قال الحسن مازال أهل العلم يعددون بالتذكر على التفكير وبالتفكير على التذكر ويناطقون القلوب حتى نطقت فاذا لها أسماع وأبصار . فاعلم أن التفكير طلب القلب ما ليس بمحصل من العلوم من أمره حاصل

منها هذا حقيقته فإنه لو لم يكن ثم مراد يكون مورداً للفكر استحال الفكر لأن الفكر بغير متعلق متفكر فيه محال وتلك المواد هي الأمور الحاصلة ولو كان المطلوب بها حاصلًا عنده لم يتفكر فيه فإذا عرف هذا فالتفكير ينقل من المقدمات والمبادئ التي عنده إلى المطلوب الذي يريده فإذا ظفر به وتحصل له تذكر به وأبصر مواقع الفعل والتفكير وما ينبغي إثارة وما ينبغي اجتنابه فالتذكر هو مقصود التفكير وثمرته فإذا تذكر عاد بتذكره على تفكيره فاستخرج ما لم يكن حاصلًا عنده فهو لا يزال يكرر بتفكيره على تذكره وبتذكره على تفكيره مادام عاقلًا لأن العلم والإرادة لا يقفان على حد بل هو دائماً سائر بين العلم والإرادة (وإذا عرفت) معنى كون آيات الرب تبارك وتعالى تبصرة وذكرى يتبصر بها من عسى القلب ويتذكر بها من غفلته فإن المضاد للعلم إما عسى القلب وزواله بالتبصر وإما غفلته وزواله بالتذكر . والمقصود تنبيه القلب من رقدته بالإشارة إلى شيء من بعض آيات الله ولو ذهبتا تتبع ذلك لفقد الزمان ولم نخط بتفصيل واحدة من آياته على التمام ولكن ما لا يدرك جملة لا يترك جملة وأحسن ما أنفقت فيه الأنفاس التفكير في آيات الله وبجانب صنعه والانتقال منها إلى تعلق القلب وأهمته به دون شيء من مخلوقاته فلذلك عقدنا هذه الكتاب على هذين الأصلين إذ هما أفضل ما يكتسبه العبد في هذه الدار

فصل

فصل المعطل الجاحد ما تقول في دولا ب دائر على نهر قد أحكمت آلاته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خلافاً في مادته ولا في صورته وقد جعل على حديقه عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها وفي تلك الحديقه من يلم شعنها ويحسن مراعاتها وتمهدها والقيام بجميع مصالحها فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر الخراج بحسب حاجاتهم وضرورتهم فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام أترى هذا اتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولا ب والحديقه وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيم ولا مدبر أترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان وما الذي يفتيك به وما الذي يرشدك إليه ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياً لا بصائر لها فلا ترى هذه الآيات الباهرة إلا رؤيه الحيوانات البهيمية كما خلق أعيناً لا أبصار لها والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها أن أنكرتها وجحدتها فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ولكن أصحاب الأعين لا يعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل وهني قلت هذا الصبح ليل أيعنى العالمون عن الضياء .

فصل

ثم تأمل المسك للسموات والأرض الحافظ لها أن تزولا أو تقعا أو تعطل بعض ما فيها أفقرى من المسك لذلك ومن القيم بأمره ومن المقيم له فلو تعطل بعض آلات هذا الدولاب العظيم والحديفة العظيمة من كان يصلحه وماذا كان عند الخلق كلهم من الحيلة في رده كما كان فلو أمسك عنهم قيم السموات والأرض الشمس لجعل عليهم الليل سرمداً من الذي كان يطلعها عليهم ويأتيهم بالنهار ولو حبسها في الأفق ولم يسرها فن ذا الذي كان يسرها ويأتيهم بالليل ولو أن السماء والأرض زالتا فن ذا الذي كان يمسكها من بعده .

فصل

ثم تأمل هذه الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما وفكر في دخول أحدهما على الآخر بالتدرج والمهلة حتى يبلغ نهايته ولو دخل عليه مفاجأة لأضر ذلك بالأبدان وأهلكها وبالنبات كما لو خرج الرجل من حمام مفرط الحرارة إلى مكان مفرط في البرودة ولولا المنية والحكمة والرحمة والإحسان لما كان ذلك . فان قلت هذا التدرج والمهلة إنما كان لإبطاء سير الشمس في ارتفاعها وانخفاضها . قيل لك فما السبب في ذلك الانخفاض والارتفاع فان قلت السبب في ذلك بعد المسافة من مشارقها ومغاربها قيل لك فما السبب في بعد المسافة ولا تزال المسألة متوجهة عليك كما عينت سبباً حتى تفضى بك إلى أحد أمرين إما مكابرة ظاهرة ودعوى أن ذلك اتفاق من غير مدبر ولا صانع وإما الاعتراف برب العالمين والإقرار بقيوم السموات والأرضين والدخول في زمرة أولى العقل من العالمين ولن تجد بين القسمين واسطة أبداً فلا تتبع ذهنك هذيانات الملحدين فانها عند من عرفها من هوس الشياطين وخيالات المبطلين وإذا طلع فجر الهدى وأشرقت النبوة فساكر تلك الخيالات والوساوس في أول المنهزمين والله هم نوره ولو كره الكافرون .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق النار على ما هي عليه من الكون والظهور فانها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم وتنتشر ويهظم الضرر بها والمفسدة ولو كانت كأمثة لا نظراً بدأفان المصالح المترتبة على وجودها فاقتضت حكمة العزيز العليم أن جعلها مخزونة في الأجسام يخرجها ويقيها الرجل عند حاجته إليها فيمسكها ويحبسها بمادة يجعلها فيها من الحطب ونحوه فلا يزال حابسها ما احتاج إلى بقائها فاذا استغنى عنها وترك حبسها بالمادة خبت بإذن ربها وفاطرها فاسقط المؤنة والمضرة ببقائها فسبحان من سخرها وأنشأها على تقدير محكم عجيب اجتمع فيه الاستمتاع والانتفاع

والسلامة من الضرر قال تعالى (أفرايتم النار التي تورون) إلى قوله (فسبح باسم ربك العظيم) فسبحان ربنا العظيم لقد تعرف إلينا بأياته وشفافنا بيناته وأغنانا بها عن دلالات العالمين فأخبر سبحانه أنه جعلها تذكرة بنار الآخرة فستجير منها ونهرب إليه منها ومتاعاً للقيوم وهم المسافرون النازلون بالقواء والقواء هي الأرض الحالية وهم أحوج إلى الانتفاع بالنار للإضاءة والطبخ والخبز والتدفى والإنس وغير ذلك .

فصل

ثم تأمل حكمته تعالى في كونه خص بها الإنسان دون غيره من الحيوانات فلاحاجة بالحيوان إليها بخلاف الإنسان فإنه لو فقد لها لعظم الداخل عليه في معاشه ومصالحه وغيره من الحيوانات لا يستعملها ولا يتمتع بها ونذبه من مصالح النار على خلة صغيرة القدر عظيمة النفع وهي هذا المصباح الذي يتخذة الناس فيقضون به من حوائجهم ماشاؤا من ليهم ولو هذه الخلة لكان الناس نصف أعمارهم بمنزلة أصحاب القبور فمن كان يستطيع كتابة أو خياطة أو صناعة أو تصرفاً في ظلة الليل الداجي وكيف كانت تكون حال من عرض له وجع في وقت من الليل فاحتاج إلى ضياء أو دواء أو استخراج دم أو غير ذلك ثم انظر إلى ذلك النور المحمول في ذبالة المصباح على صغر جوهره كيف يضيء ما حولك كله فترى به القريب والبعيد ثم انظر إلى أنه لو اقتبس منه كل من يفرض أو يقدر من خلق الله كيف لا ينفى ولا ينفذ ولا يضعف وأما منافع النار في انضاج الأطعمة والأدوية وتجفيف ما لا ينتفع إلا بجفافه وتحليل ما لا ينتفع إلا بتحليله وعقد ما لا ينتفع إلا بعقده وتركيبه فأكثر من أن يحصى ثم تأمل ما أعطيته النار من الحركة الصاعدة بطبعها إلى العلو فلولا المادة تمسكها لذهبت صاعدة كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك يمسكه لذهب نازلاً فمن أعطى هذا القوة التي يطلب بها الهبوط إلى مستقره وأعطى هذه القوة التي تطلب بها الصعود إلى مستقرها وهل ذلك إلا بتقدير العزيز العليم .

فصل

ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح فإنه حياة هذه الأبدان والممسك لها من داخل بما تستنشق منه ومن خارج بما تباشر به من روحه فتغذى به ظاهراً وباطناً وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتودبها للقريب والبعيد كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها ينقلها من موضع إلى موضع فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح وكذلك تأتيه الأصوات وهو أيضاً الحامل للحر والبرد اللذين بهما صلاح الحيوان والنبات وتأمل منفعة الريح وما يجري له في البر والبحر وما هيئت له من الرحمة

والعذاب وتأمل كم سخر للشحاب من ريح حق أمطر فسخرت له المثيرة أولاً فثبته بين السماء والأرض ثم سخرت له الحاملة التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية ثم سخرت له المؤلفة فتؤلف بين كسفه وقطعه ثم يجتمع بعضها إلى بعض فيصير طيباً واحداً ثم سخرت له اللاقحة بمنزلة الذكر الذي يلقي الأنتى فتلقحه بالماء ولولاها لكان جهاماً لأماء فيه ثم سخرت له المرجية التي ترجيه وتسوقه إلى حيث أمر فيفرغ مائه هنالك ثم سخرت له بعد اعصاره المفرفة التي تبسه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعاً ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات بل تفرقه فتجمعه قطراً وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات ولولاها لكانت عقياً وكذلك الرياح التي تسير السفن ولولاها لو قفت على ظهر البحر ومن منافعها أنها تبرد الماء وتضرم النار التي يراد اضرامها وتجفف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها . وبالجملة حياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح فانه لو لا تسخير الله لها لعباده لذوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنزل العالم وفسد ألا ترى إذا ركبت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأنف النفوس وأسقم الحيوان وأمراض الأصحاء وأهلك المرضى وأفسد الثمار وعفن الزرع وأحدث الوباء في الجو فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته وطافه ونعمته كما قال النبي ﷺ في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة . وتنبه للطيفة في هذا الهواء وهي إن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام وليس نفس الاصطكاك كما قال ذلك من قاله واسكنه موجب الاصطكاك وقرع الجسم للجسم أو قلعه عنه فسببه قرع أو قلع فيحدث الصوت فيجمله الهواء ويؤديه إلى مسامع الناس فينتفعون به في حوائجهم ومعاملاتهم بالليل والنهار وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم فلو كان أثر هذه الحركات والأصوات يبقى في الهواء كما يبقى الكتاب في القرطاس لامتلا العالم منه ولعظم الضرر به واشتدت مؤنته واحتاج الناس إلى محوه من الهواء والاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المعلوم كتابة فان ما يلقي من الكلام في الهواء اضعاف ما يودع في القرطاس فاقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفياً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم يمحي بإذن ربه فيعود جديداً نقياً لا شيء فيه فيحمل ما حمل كل وقت .

فصل

ثم تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها واقفة ساكنة لتسكون مهادا ومستقرا للحيوان والنبات والائمة ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مأربهم والجلوس لراحاتهم والنوم لهدوهم والتسكن من أعمالهم ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارا ولا هدوا ولا ثبت لهم عليها بناء ولا أمسكنهم عليها صناعة

ولا تجارة ولا حرانة ولا مصدحة وكيف كانوا يتهنون بالعيش والارض ترنج تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها كيف يصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله (وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم) وقوله تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض قراراً) وقوله (الله الذي جعل لكم الأرض مهداً) وفي القراءة الأخرى مهادا . وفي جامع الترمذى وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال لما خلق الله الأرض جعلت تמיד تغلق الجبال عليها فاستقرت فعجبت الملائكة من شدة الجبال فقالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الجبال قال نعم الحديد قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الحديد قال نعم النار قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من النار قال نعم الريح قالوا يارب هل من خلقك شيء أشد من الريح قال نعم ابن آدم يتصدق صدقة يمينه يخفيها عن شماله ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها فانها لو أفرطت في اللين كالتين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان ولا تمكنا من الانتفاع بها ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها فنقصت عن يبس الحجارة وزادت على ليونة الطين فجاءت بتقدير فاطرها على أحسن ما جاء عليه مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة فتهيأ عليها جميع المصالح .

فصل

ثم تأمل تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عنها أرفع من مهب الجنوب وحكمة ذلك أن تتحد المياها على وجه الأرض فتسقيها وترويها ثم تفيض فتصب في البحر فكما أن الباني إذا رفع سطحاً رفع أحد جانبيه وخفض الآخر ليكون مصبا الماء ولو جعله مستويا لقام عليه الماء فافسده كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب ولولا ذلك لبقى الماء واقفا على وجه الأرض فنع الناس من العمل والانتفاع وقطع الطرق والمسالك وأضر بالخلق أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم الذي أتقن كل شيء .

فصل

ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال الذي يحسبها الجاهل الغافل فضلة في الأرض لا حاجة إليها وفيها من المنافع مالا يحصيه إلا خائفها وناصبها وفي حديث إسلام ضمام بن ثعلبة قوله للنبي ﷺ بالذي نصب الجبال وأودع فيها المنافع آله أمرك بهكذا وكذا قال اللهم نعم ، فمن منافعها أن الثلج يستقط عليها فيبقى في قلوبها حاصل اشراب الناس إلى حين نفاذه وجعل

فيها ليزوب أولاً فأولاً فتجىء منه السيول الغزيرة وتسيل منه الأنهار والأودية فينبت في المروج والوهاد والربا ضروب النبات والفواكه والأودية التي لا يكون مثلها في السهل والرمل فلولا الجبال المسقط الثلج على وجه الأرض فأنحل جملة وساح دفعة فقدم وقت الحاجة إليه وكان في انحلاله جملة السيول التي تهلك مامرت عليه فيضر بالناس ضرراً لا يمكن تلافيه ولا دفعه لاذيته (ومن منافعها) ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي بمنزلة الحصون والقلاع وهي أيضاً اكنان للناس والحيوان . ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للأبنية على اختلاف أصنافها والأرحية وغيرها . ومن منافعها ما يوجد فيها من المعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص والزربرجد والزمرد وأضام ذلك من أنواع المعادن الذي يمجز البشر عن معرفتها على التفصيل حتى أن فيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد قيمته ومنفعته على قيمة الذهب بأضعاف مضاعفة وفيها من المنافع ما لا يعلمه إلا فاطرها ومبدعها سبحانه . ومن منافعها أيضاً أنها ترد الرياح العاصفة وتكسر حدتها فلا تدعها تصدم ما تحتها ولهذا فالساكنون تحتها في أمان من الرياح العظام المؤذية . ومن منافعها أيضاً أنها ترد عنهم السيول إذا كانت في مجاريها فتصرفها عنهم ذات اليمين وذات الشمال ولولاها خربت السيول في مجاريها مامرت به فتكون لهم بمنزلة السد والسكن . ومن منافعها أنها أعلام يستدل بها في الطرقات فهي بمنزلة الأدلة المنصوبة المرشدة إلى الطرق ولهذا سماها الله أعلاماً فقال (ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام) فالجوارى هي السفن والأعلام الجبال واحدها علم قالت الخنساء .

وأن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
فسمى الجبل علماً من العلامة والظهور . ومن منافعها أيضاً ما ينبت فيها من العقاقير والأودية التي لا تكون في السهول والرمال كما أن ما ينبت في السهول والرمال لا ينبت مثله في الجبال وفي كل من هذا وهذا منافع وحكم لا يحيط به إلا الخلاق العليم . ومن منافعها أنها تكون حصونا من الأعداء يتحرز فيها عباد الله من أعدائهم كما يتحصنون بالقلاع بل تكون أبلغ وأحصن من كثير من القلاع والمدن . ومن منافعها ما ذكره الله تعالى في كتابه أن جعلها للأرض أوتادا تثبتها ورواسي بمنزلة مراسي السفن وأعظم بها من منفعة وحكمة هذا وإذا تأملت خلقها العجيبة البديعة على هذا الوضع وجدتها في غاية المطابقة للحكمة فانها لو طالت واستدقت كالحائط لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها وسرت عن الناس الشمس والهواء فلم يتمكنوا من الانتفاع بها ولو بسطت على وجه الأرض لضيق عليهم المزارع والمسكن والملاط السهل ولما حصل لهم بها الانتفاع من التحصن والمغارات والاكنان ولما سرت عنهم الرياح ولما حجت السيول

ولو جعلت مستديرة شكل الكرة لم يتمكنوا من صعودها ولما حصل لهم بها الانتفاع التام فكان أولى الأشكال والأوضاع بها واليقها وأوقمها على وفق المصلحة هذا الشكل الذي نصبت عليه واقد دعانا الله سبحانه في كتابه إلى النظر فيها وفي كيفية خلقها فقال (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت) فخلقها ونافعها من أكبر البواهر على قدره باريها وفاطرها وعليه وحكمته ووحدايته هذا مع أنها تسمع بحمده وتخشع له وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها على شدتها وعظم خلقها من الأمانة إذ عرضها عليها وأسفقت من حملها ومنها الجبل الذي كلم الله عليه موسى كلمته ونجيه . ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكك . ومنها الجبل الذي حجب الله رسوله وأصحابه إليه وأحبه رسول الله ﷺ وأصحابه . ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على نبيه وجعل الصفا في ذيل أحدهما والمروة في ذيل الآخر وشرح لعباده السعي بينهما وجعله من مناسكهم وتعبداتهم . ومنها جبل الرحمة المنصوب عليه ميدان عرفات فله كم به من ذنب مغفور وعثرة مقالة وزلة معصومتها وحاجة مقضية وكرمة مفروجة وبلية مرفوعة ونعمة متجددة وسعادة مكتسبة وشقاوة محجوة كيف وهو الجبل المخصوص بذلك الجمع الأعظم والوفد الأكرم الذين جاؤا من كل فج عميق وقوفالربهم مستكئين لعظمته خاشعين لعزته شعشعاً غبراً حاسرين عن رؤسهم بستة لونه عشراتهم ويسألونه حاجاتهم فيدنو منهم ثم يباهى بهم الملائكة فله ذاك الجبل وما ينزل عليه من الرحمة والتجاوز عن الذنوب العظام . ومنها جبل حراء الذي كان رسول الله ﷺ يخلو فيه بربه حقاً كرمه الله برسالته وهو في غاره فهو الجبل الذي فاض منه النور على أقطار العالم فانه ليفخر على الجبال وحق له ذلك فسبحان من اختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال فجعل منها جبالاتها مغناطيس القلوب كأنها مركبة منه فهي تهوى إليها كلما ذكرت وتنفو نحوها كما اختص من الرجال من خصه بكرامته وأتم عليه نعمته ووضع عليه محبته منه فأحبه وحبيه إلى ملائكته وعباده المؤمنين ووضع له القبول في الأرض بينهم .

وإذا تأملت البقاع وجدتها تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

فدع عنك الجبل الفلاني وجبل بني فلان وجبل كذا

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

هذا وانها لتعلم أن لها موعداً ويوماً تنسف فيها نفساً وتصير كالهن من هوله وعظمه فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له وكانت أم البرداء رضى الله عنها إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها أسمعت الجبال ما وعدتها ربهما فيقال ما أسمعتا فتقول (ويسألونك

عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا فينذرها قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة وهذه رقتها وخشيتها وتد كدكها من جلال ربها وعظمته وقد أخبر عنها فاطرها وباريها إنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله فياعجبا من مصفة لحم أقسي من هذه الجبال تسمع آيات الله تتلى عليها ويذكر الرب تبارك وتعالى فلا تدين ولا تخشع ولا تديب فليس بمستذكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارا تذيبها إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه ولم ينب إليه ولم يذبه بحبه والبكاء من خشيته فليتمتع قليلا فان أمامه المئين الأعظم وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم

فصل

ولما اقتضت حكمته تبارك وتعالى أن جعل من الأرض السهل والوعر والجبال والرمل ليتمتع بكل ذلك في وجهه ويحصل منه ما خلق له وكانت الأرض بهذه المثابة لزم من ذلك أن صارت كالأم التي تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف ثم تخرج إلى الناس والحيوان من ذلك ما أذن لها فيه ربه أن تخرجه إما بعلمهم وإما بدونه ثم يرد إليها ماخرج منها وجعلها سبحانه كفاتا فأحياء ماداموا على ظهرها فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها فكانت كفاتا لهم تضمهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتا فإذا كان يوم الوقت المعلوم وقد أنقأها الخل ولحان وقت الولادة ودنو المخاض أوحى إليها ربه وفاطرها أن تضع حملها وتخرج أنقأها فتخرج الناس من بطنها إلى ظهرها وتقول رب هذا ما استودعتني وتخرج كنوزها بأذنه تعالى ثم تحدث أخبارها وتشهد على بنائها بما عملوا على ظهرها من خير وشر .

فصل

ولما كانت الرياح تجول فيها وتدخل في تجاويها وتحدث فيها الأبخرة وتخفق الرياح ويتعذر عليها المنفذ أذن الله سبحانه لها في الأحياء بالتنفس فتحدث فيها الزلازل العظام فيحدث من ذلك لعباده الخوف والخشية والإنابة والإفلاخ عن معاصيه والتضرع إليه والندم كما قال بعض السلف وقد زلزلت الأرض أن ربكم يستعيتكم وقال عمر بن الخطاب وقد زلزلت المدينة خطيبهم ووعظهم وقال لئن عادت لا أسأكنكم فيها .

فصل

(ثم تأمل حكمة الله عز وجل) في عزة هذين النقيدين الذهب والفضة وقصور خيرة العالم عما جاؤوا من صنعتهما والتشبه بخلق الله اياهما مع شدة حرصهم وبلوغ أقصى جهدهم واجتهادهم في ذلك فلم يظفروا بسوى الصنعة ولو مكثوا أن يصنعوا مثل ما خلق الله من ذلك لفسد أمر العالم وأستفاض الذهب والفضة في الناس حتى ضارا

كالسيف والفخار وكانت تعطل المصلحة التي وضعا لاجلها وكانت كثرتهما جداً سبب تعطل الانتفاع بهما فانه لا يبقى لها قيمة ويبطل كونهما قيا لنفائس الأموال والمعاملات وأرزاق المقاتلة ولم يتسخر بعض الناس لبعض إذ يصير الكل أرباب ذهب وفضة فلو أغنى خلقه كلهم لأفقرهم كلهم فمن يرضى لنفسه بامتهانها في الصنائع التي لا قوام للعالم إلا بها فسبحان من جعل عزتهما سبب نظام العالم ولم يجعلهما في العزة كالكبريت الأحمر الذي لا يوصل إليه فتفوت المصلحة بالكلية بل وضعهما وأنبتهما في العالم بقدر اقتضته حكمته ورحمته ومصالح عباده . وقرأت بخط الفاضل جبريل بن روح الانباري قال أخبرني بعض من تداول المعادن أنهم أوغلوا في طلبها إلى بعض نواحي الجبل فانتهوا إلى موضع وإذا فيه أمثال الجبال من الفضة ومن دون ذلك واد يجرى متصلياً بماء غزير لا يدرك ولا حيلة في عبوره فانصرفوا إلى حيث يعملون ما يعبرون به فلما هيئوه وعادوا راموا طريق النهر فما وقفوا له على أثر ولا عرفوا إلى أين يتوجهون فانصرفوا آيسين وهذا أحد ما يدل على بطلان صناعة الكيمياء وانها عند التحقيق زغل وصبغة لا غير وقد ذكرنا بطلانها وبيننا فسادها من أربعين وجهاً في رسالة مفردة والمقصود أن حكمة الله تعالى اقتضت عزة هذين الجوهريين وقتلتهما بالنسبة إلى الحديد والنحاس والرصاص لصلاح أمر الناس واعتبر ذلك بأنه إذا ظهر الشيء الظريف المستحسن مما يحدهه الناس من الامتعة كان نفيساً عزيزاً مادام فيه قلة وهو مرغوب فيه فاذا فشى وكثر في أيدي الناس وقتل عليه الخاص والعام سقط عندهم وقلت رغباتهم فيه ومن هذا قول القائل نقاسة الشيء من عزته ولهذا كان أزهدي الناس في العالم أهله وجبرانه وأرغبههم فيه البعداء عنه .

فصل

وتأمل الحكمة البديعة في تيسيره سبحانه على عباده ما هم أحوج اليه وتوسيعه وبذله فكما كانوا أحوج اليه كان أكثر وأوسع وكلما استغنوا عنه كان أقل وإذا توسطت الحاجة توسط وجوده فلم يكن بالعام ولا بالنادر على مراتب الحاجات وتفاوتها فاعتبر هذا بالأصول الأربعة التراب والماء والهواء والنار وتأمل سعة ما خلق الله منها وكثرته فتأمل سعة الهواء وعمومه ووجوده بكل مكان لأن الحيوان مخلوق في البر لا يمكنه الحياة إلا به فهو معه أينما كان وحيث كان لأنه لا يستغنى عنه لحظة واحدة ولولا كثرته وسعته وامتداده في أقطار العالم لاخترق العالم من الدخان والبخار المتصاعد المتعقد فتأمل حكمة ربك في أن سخر له الرياح فاذا تصاعد إلى الجو حالته سحاباً أو ضباباً فأذهبت عن العالم شره وأذاه فسل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وهل يقدر العالم كلهم لو اجتمعوا أن يحيلوا ذلك

ويقبلوه سبحانه أو ضباباً أو يذهبوه عن الناس ويكشفوه عنهم ولو شاء ربه تعالى لحبس عنه الرياح فأخترت على وجه الأرض فأهلك ما عليها من الحيوان والناس .

فصل

ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها ولولا ذلك لضائق عن مساكن الانس والحيوان وعن مزارعهم ومراعيهم ومنابت ثمارهم وأعشابهم . فإن قلت فما حكمة هذه الفغار الخالية والغلوات الفارغة الموحشة . فاعلم أن فيها معاش مالا يحصى إلا الله من الوحوش والدواب وعليها أرزاقهم وفيها مقتردم ومنزلهم كالمدن والمساكن للانس وفيها مجالم ومرعاهم ومصيفهم ومشتاهم ثم فيها بعد متسع ومتنفس للناس ومضطرب إذا احتاجوا إلى الانتقال والبدو والاستبدال بالأوطان فكم من بيساء سملق صارت قصوراً وجناناً ومساكن ولولا سعة الأرض وفسحها لكان أهلها كالمحصورين والمحبوسين في أما كنهم لا يمدون عنها انتقالاً إذا فحجم ما يزعمهم عنها ويضطرم إلى النزلة منها وكذلك الماء لولا كثرته وتدفعه في الأودية والانهار لضائق عن حاجة الناس اليه ولعلب القوى الضعيف واستبد به دونه فيحصل الضرر وتعظم البلية مع شدة حاجة جميع الحيوان اليه من الطير والوحوش والسياب فاقضت الحكمة ان كان بهذه السكثرة والسعة في كل وقت وأما النار فقد تقدم أن الحكمة اقتضت كونها متى شاء العبد أوراها عند الحاجة فهي وان لم تكن مبيثوة في كل مكان فانها عتيدة حاصلة متى احتيج إليها واسعة لسكل ما يحتاج اليه منها غير أنها مودعة في أجسام جعلت معادن لها للحكمة التي تقدمت .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علو ليعم بسقيه وهادها وتلوطها وظراها وأكامها ومنخفضها ومرفعها ولو كان ربه تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر وفي ذلك فساد فاقضت حكمته أن سقاها من فوقها فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الأرض ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الاثني ولهذا تجدد البلاد القريبة من البحر كثيرة الامطار وإذا بعدت من البحر قل مطرها وفي هذا المعنى يقول الشاعر يصف السحاب
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نديج

وفي الموطن مرفوعاً وهو أحد الاحاديث الاربعة المنطوعة إذا نشأت سحابة بحرية ثم نشاءت فتلق عين غديقة فائقه سبحانه ينشئ الماء في السحاب انشاء تارة يقبل الهواء ماء وتارة يحمله الهواء من البحر فيلقح به السحاب ثم ينزل منه على الأرض للحكم التي

ذكرناها ولو أنه ساقه من البحر إلى الأرض جاريا على ظهرها لم يحصل عموم السقي إلا بتخريب كثير من الأرض ولم يحصل عموم السقي لأجزائها فصاعده سبحانه إلى الجو بلطفه وقدرته ثم أنزله على الأرض بغاية من اللطف والحكمة التي لا اقتراح يجمع عقول الحكماء فوقها فأنزله ومعه رحمة على الأرض.

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله بقدر الحاجة حتى إذا أخذت الأرض حاجتها منه وكان تابعه عليها بعد ذلك يضرها أقلع عنها وأعقبه بالصحو فهما أعنى الصحو والأيم يعتقان على العالم لما فيه صلاحه ولو دام أحدهما كان فيه فساده فلو تواتت الأمطار ، لأهلك ما على الأرض ولو زادت على الحاجة أفسدت الحبوب والثمار وعفنت الزروع والخضراوات وأرخت الأبدان وحشرت الهواء لحدثت ضروب من الأمراض وفسد أكثر المأكول وتقطعت المسالك والسبل ولو دام الصحو لجفت الأبدان وغيض الماء وانقطع معين العيون والآبار والأنهار والأودية وعظم الضرر واحتدم الهواء فيبس ما على الأرض وجفت الأبدان وغلب اليبس وأحدث ذلك ضروبا من الأمراض عسرة الزوال فاقضت حكمة اللطيف الخبير أن عاقب بين الصحو والمطر على هذا العالم فاعتدل الأمر وصح الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر واستقام أمر العالم وصلاح.

فصل

ثم تأمل الحكمة الإلهية في إخراج الأقوات والثمار والحبوب والفواكه متلاحقة شيئا بعد شيء متتابعة ولم يخلقها كلها جملة واحدة فانها لو خلقت كذلك على وجه الأرض ولم تكن تثبت على هذه السوق والأغصان لدخل الخنثل وفانت المضال التي رتبت على تلاحقها وتتابعها فان كل فصل وأوان يقتضى من الفواكه والنبات غير ما يقتضيه الفصل الآخر فهذا حار وهذا بارد وهذا معتدل وكل في فصله موافق للصلحة لا يليق به غير ما خلق فيه . ثم أنه سبحانه خلق تلك الأقوات مقارنة لمنافع آخر من العصف والخشب والورق والنور والعسف والكرب وغيرها من منافع الثبات والشجر غير الأقوات كعلف البهائم وأداة الابنية والسفن والرحال والأواني وغيرها ومنافع النور من الأدوية والمظنر البهيج الذي يشوق الناظرين وحسن مرأى الشجر وخلقتها البديعة المشاهدة لفاطرها ومبدعها بغاية الحكمة والظلف . ثم إذا تأملت إخراج ذلك النور البهي من نفس ذلك الحطب ثم الورق الأخضر ثم إخراج تلك الثمار على اختلاف أنواعها وأشكالها ومقاديرها وألوانها وطعمها وورائها ومنافعها وما يراى منها ثم تأمل أين كانت مستودعة في تلك الخشبة وهاتيكم العيدان وجعلت الشجرة لها كالأم

فهل كان في قدرة الأب العاجز الضعيف إبراز هذا التصوير العجيب وهذا التقدير المحكم وهذه الأصباغ الفاتقة وهذه الطعوم اللذيذة والروائح الطيبة وهذه المناظر العجيبة فسل الجاحد من تولى تقدير ذلك وتصويره وإبرازه وترتيبه شيئاً فشيئاً وسوق الغذاء إليه في تلك العروق اللطاف التي يكاد البصر يعجز عن إدراكها وتلك المجارى الدقاق . فمن الذى تولى ذلك كله ومن الذى أطلع لها الشمس وسخر لها الرياح وأنزل عليها المطر ودفع عنها الآفات وتأمل تقدير اللطيف الخبير فان الأشجار لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الناس وسائر الحيوان ولم يكن لها قوة أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تذيب بها لتناول الغذاء جعلت أصولها مركوزة في الأرض ليسرع بها الغذاء وتمتصه من أسفل الترى فتؤديه إلى أغصانها فتؤديه الأغصان إلى الورق والثمر كل له شرب معلوم لا يتعداه يصل إليه في مجارى وطرق قد أحسكت غاية الأحكام فتأخذ الغذاء من أسفل فتلقمه بعروقها كما يلتقم الحيوان غذاءه بغمه ثم تقسمه على حملها بحسب ما يحتاجه فتعطي كل جزء منه بحسب ما يحتاج إليه لا تظله ولا تزيد على قدر حاجته . فسل الجاحد من أعطاها هذا ومن هداها إليه ووضعها فيها فلو اجتمع الأولون والآخرون هل كانت قدرتهم وإرادتهم تصل إلى تربية ثمرة واحدة منها هكذا بإشارة أو صناعة أو حيلة أو مزاولة؟ وهل ذلك إلا من صنع من شهدت له مصنوعاته ودلت عليه آياته كما قيل :

فواعجبا كيف يعصى الإله أم كيف يجده الجاحد
ولله في كل تحريكه وتسكينه أبدأ شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

فصل

ثم تأمل إذا نصبت خيمة أو فسطاطاً كيف تمده من كل جانب بالأطناب ليثبت فلا يسقط ولا يتعوج . هكذا تجدد النبات والشجر له عروق تمتد في الأرض منتشرة إلى كل جانب لتمسكه وتقيمه وكلما انتشرت أعاليه امتدت عروقه وأطنابه من أسفل في الجهات .. ولولا ذلك كيف كانت تثبت هذه النخيل الطوال الباسقات والدوح العظام على الرياح العواصف . وتأمل سبق الخلق الإلهية للصناعة البشرية حتى يعلم الناس نصب الخيم والفساطيط من خلقه للشجر والنبات لأن عروقه لها كأطناب الخيمة وأغصان الشجر يتخذ منها الفساطيط ثم يحاكي بها الشجرة .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق الورق فانك ترى في الورقة الواحدة من جملة العروق

المتدة فيها المشوثة فيها ما يهبر الناظر . فنها غلاظ ممتدة في الطول والعرض ومنها دقان تتخلل تلك الغلاظ منسوجة نسجا دقيقا معجبا لو كان مما يتولى البشر صنع مثله بأيديهم لما فرغوا من ورقة في عام كامل ولاحتاجوا فيه إلى آلات وحركات وعلاج تعجز قدرتهم عن تحصيله فبث الخلاق العليم في أيام قلائل من ذلك ما يبلا الأرض سهلا وجبالها بلا آلات ولا معين ولا معالجة ان هي إلا ارادته النافذة في كل شيء . وقدرته التي لا يمتنع منها شيء (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) فأمل الحكمة في تلك العروق المنخللة الورقة بأسرها لتسقيها وتوصل إليها المادة فتحفظ عليها حياتها ونضارتها بمنزلة العروق المشوثة في الأبدان التي توصل الغذاء إلى كل جزء منه وتأمل ما في العروق الغلاظ من إمساكها الورق بصلابتها ومنايتها لتلا تمزق وتضمحل فهي بمنزلة الأعصاب ليدين الحيوان فتراها قد أحكمت صنعتها ومدت العروق في طولها وعرضها لتتماسك فلا يعرض لها التمزق .

فصل

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير في كونها جعلت زينة للشجر وستة ألباسا للثمرة ووقاية لها من الآفات التي تمنع كالمها ولهذا إذا جردت الشجرة عن ورقها فسدت الثمرة ولم ينتفع بها وانظر كيف جعلت وقاية لثبث الثمرة الضعيفة من اليبس فاذا ذهب الثمرة بقي الورق وقاية لتلك الأفتان الضعيفة من الحر حتى إذا طفت تلك الجرة ولم يضر الأفتان عراها من ورقها وسلبها إياه لتكتسى لباسا جديدا أحسن منه فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مسافط تلك الأوراق ومنايتها فلا يخرج منها ورقة إلا ياذنه ولا تسقط إلا بعلمه ومع هذا فلو شاهدنا العباد على كثرتها وتنوعها وهي تسبح بحمد ربها مع الثمار والأفتان والأشجار لشاهدوا من جمالها أمرا آخر ولرأوا خلقها بعين أخرى ولعلموا أنها لشأن عظيم خلقت وأنها لم تخلق سدى . قال تعالى (والنجم والشجر يسجدان) فالنجم ما ليس له ساق من النبات والشجر ماله ساق وكلها ساجدة لله مسبحة بحمده (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم لأنه كان حلما غفورا) ولعلك أن تكون من غلظ حجابهم فذهب إلى أن التسبيح دلالتها على صانعها فقط فاعلم أن هذا القول يظهر بطلانه من أكثر من ثلاثين وجها قد ذكرنا أكثرها في موضع آخر . وفي أي لغة تسمى الدلالة على الصانع تسبيحا وسجودا وصلاة وتأويبا وهبوطا من خشية كما ذكر تعالى ذلك في كتابه فتارة ينجبر عنها بالتسبيح وتارة بالسجود وتارة بالصلاة كقوله تعالى (والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه) أفترى يقبل عقلك أن يكون معنى الآية قد علم الله دلالة عليه وسمى تلك الدلالة صلاة وتسبيحا وفرق بينهما وعطف أحدهما

على الآخر وتارة يخبر عنها بالتأويب كقوله (يا جبال أوبي معه) وتارة يخبر عنها بالتسبيح
الخاص بوقت دون وقت كالعشي والاشراق أفترى دلالتها على صانعها انما يكون في هذين
الوقتين ؟ . وبالجملة فبطلان هذا القول أظهر لذوى البصائر من أن يطلبوا دليلا على بطلانه
والحمد لله .

فصل

ثم تأمل حكمته سبحانه في إبداع العجم والنوى في جوف الثمرة وما في ذلك من الحكم
والفوائد التي منها أنه كالعظم لبدن الحيوان فهو يمسك بصلابته رخاوة الثمرة ورقمتها ولطافتها
ولولا ذلك لشدخت وتفسخت ولأسرع اليها الفساد فهو بمنزلة العظم والثمره بمنزلة اللحم الذي
يكسوه الله عز وجل العظام . ومنها أن في ذلك بقاء المادة وحفظها إذ ربما تعطلت الشجرة
أو نوعها فخلق فيها ما يقوم مقامها عند تعطلها وهو النوى الذي يفرس فيعود مثلها . ومنها
ما في تلك الحبوب من أقوات الحيوانات وما فيها من المنافع والأدهان والأدوية والأصباغ
وضروب آخر من المصالح التي يتعلمها الناس وما خفي عليهم منها أكثر فتأمل الحكمة في إخراجه
سبحانه هذه الحبوب لمنافع فيها وكسوتها لحما لئلا يشها يتفكك به ابن آدم ثم تأمل هذه الحكمة
البديعة في أن جعل للثمرة الرقيقة اللطيفة التي يفسدها الهواء والشمس غلافا يحفظها وغشاء
يوارئها كالرمان والمجوز واللوز ونحوه وأما مالا يفسد إذا كان بارزا فجعل له أول خروجه
غشاء يوارئيه لضعفه ولقلة صبره على الحر فاذا اشتد وقوى تفتق عن ذلك الغشاء وضحى
للشمس والهواء كطلع النخل وغيره .

فصل

ثم تأمل خلقه الرمان وماذا فيه من الحكم والعجائب فانك ترى داخل
الرمانة كما مثال القلال شحما متراكما في نواحيها وترى ذلك الحب فيها مرصوفا رصفا
ومنضودا نضدا لا يمكن الأيدي أن تنضده وترى الحب مقسوما أقساما وفرقا وكل
قسم وفرقة منه ملفوفا بلفائف وحجب منسوجة أعجب نسج والطفه وأدقه على غير منوال
الانموال (كن فيكون) ثم ترى الوعاء المحكم الصلب قد اشتمل على ذلك كله وضمه أحسن
ضم فتأمل هذه الحكمة البدیعة في الشحم المودع فيها فان الحب لا يمد بعضه بعضاً إذ لم يمد
بعضه بعضاً لاختلط وصار حبة واحدة فجعل ذلك الشحم خلاله ليمده بالغذاء والدليل عليه
أنك ترى أصول الحب مركوزة في ذلك الشحم وهذا بخلاف حب العنب فإنه استغنى عن
ذلك بأن جعل لكل حبة مجرى تشرب منه فلا تشرب حق أختها بل يجرى الغذاء في ذلك
العرق مجرى واحدا ثم ينقسم منه في مجارى الحبوب كلها فينبعث منه في كل مجرى غذاء تلك

الحبة فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم أنه لف ذلك الحب في تلك الرمانة بتلك الغائف ليضمه ويمسكه فلا يضطرب ولا يتبدد ثم غشى فوق ذلك بالغشاء الصلب صوتاً له وحفظاً وبمسكاله باذن الله وقدرته فهذا قليل من كثير من حكمة هذه الثمرة الواحدة ولا يمكننا ولا غيرنا استقصاء ذلك ولو طالمت الأيام واتسع الفكر ولكن هذا منه على ما وراءه واللييب بكتفى ببعض ذلك . وأما من غلبت عليه الشقاوة (وكأين من آية في السموات والأرض يبرون عليها وهم عنها معرضون) غافلون عن موضع الدلالة فيها .

فصل

ثم تأمل هذا الريح والنماء الذي وضعه الله في الزرع حتى صارت الحبة الواحدة ربما أنبتت سبعائة حبة ولو أنبت الحبة حبة واحدة مثلها لا يكون في الغلة متسع لما يورد في الأرض من الحب وما يكفي الناس ويقوت الزارع إلى إدراك زرعه فصار الزرع بريح هذا الريح لينى بما يحتاج إليه اللقوت والزراعة وكذلك ثمار الأشجار والنخيل وكذلك ما يخرج مع الأصل الواحد منها من الصنوان ليكون لما يقطعه الناس ويستعملونه في ما ربهم خلفاً فلا تبطل المادة عليهم ولا تنقص ولو أن صاحب بلد من البلاد أراد عمارته لأعطى أهله ما يندرونه فيهم وما يقيتهم إلى استواء الزرع فاتضت حكمة اللطيف الخبير أن أخرج من الحبة الواحدة حبات عديدة ليقب الحارح الناس ويدخرون منه ما يزرعون .

فصل

ثم تأمل الحكمة في الحبوب كالبز والشعير ونحوهما كيف يخرج الحب مدرجاً في قشور على رؤسها أمثال الأسننة فلا يتمكن جند الطير من اقتصادها والعبث فيها فإنه لو صادف الحب بارزاً لا صوان عليه ولا وقاية تحول دونه لتمكن منه كل التمكن فافسد وعاب وعات وأكب عليه أكلاً ما استطاع وعجز أرباب الزرع عن رده فجعل اللطيف الخبير عليه هذه الوقايات لتصونه فينال الطير منه مقدار قوته ويبقى أكثره للإنسان فإنه أولى به لأنه هو الذى كدح فيه وشقى به وكان الذى يحتاج إليه أضعاف حاجة الطير .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة في هذه الأشجار كيف تراها في كل عام لها حمل ووضع فهي دائماً في حمل وولادة فإذا أذن لها ربها في الحمل احتبست الحرارة الطبيعية في داخلها واختبأت فيها ليكون فيها حملها في الوقت المقدر لها فيكون ذلك الوقت بمنزلة وقت العلوق ومبدأ

تكوين النطف فتعمل المادة في أجوافها عملها وتهيئها للعلق حتى إذا آن وقت الحمل دب فيها الماء فلانت أعطافها وتحركت للحمل وسرى الماء في أفنانها وانتشرت فيها الحرارة والرطوبة حتى إذا آن وقت الولادة كسيت من سائر الملابس الفاخرة من الثور والورق ما تبختر فيه وتميس به وتفخر على العقيم فإذا ظهرت أولادها وبان للناظر حملها علم حينئذ كرمها وطيبها من لؤمها وبخلها فتولى تغذية ذلك الحمل من تولى غذاء الأجنة في بطون أمهاتها وكساها الأوراق وصانها من الحر والبرد فإذا تكامل الحمل وآن وقت الفطام تدلت اليك أفنانها كأنما تتناولك ثمرة درها فإذا قابلتها رأيت الأفنان كأنها تلقاك بأولادها وتحييك وتكرمك بهم وتقدمهم إليك حتى كأن منا ولا يزاوئك إياهم بيده ولا يسيا قطوف جنات النعيم الدانية التي يتناولها المؤمن قائماً وقاعداً ومضطجعاً وكذلك ترى الرياحين كأنها تحييك بأنفاسها وتقابلك بطيب رائحتها وكل هذا إكراماً لك وعناية بأمرك وتخصيصاً لك وتفضيلاً على غيرك من الخيوانات أفيجمل بك الاشتغال بهذه النعم عن المنعم بها فكيف إذا استغنت بها على معاصيه وصرفتها في مساخطة فكيف إذا جحدته وأضفتها إلى غيره كما قال (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) بخدير بمن له مسكة من عقل أن يسافر بفكره في هذه النعم والآلاء ويكرر ذكرها لعله يوقفه على المراد منها . ما هو ولاى شيء خلق ولماذا هيء وأى أمر طلب منه على هذه النعم كما قال تعالى (واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) فذكر آلائه تبارك وتعالى ونعمه على عبده سبب الفلاح والسعادة لأن ذلك لا يزيد إلا محبة لله وحمداً وشكراً وطاعة وشهوداً تقصيره بل تفريله في القليل مما يجب لله عليه والله در القائل :

قد هيؤك لأمر لو فطنت له فأربأ بنفسك أن ترعى مع الحمل

فصل

حم تأمل الحكمة في شجرة اليقطين والبطيخ والجزر كيف لما اقتضت الحكمة أن يكون حملها ثماراً كبيراً جعل نباته منبسطاً على الأرض إذ لو انتصب قائماً كما ينصب الزرع لضغفت قوته عن حمل هذه الثمار الثقيلة والنقصت قبل ادراكها وانتهائها إلى غاياتها فاقتضت حكمة مبدعها وخلقها أن بسطه ومدته على الأرض ليلقى عليها ثماره فتحملها عنه الأرض فترى العرق المنهيف الدقيق من ذلك منبسطاً على الأرض وثماره مبسوثة حواله كأنها حيوان قد أكتفتها أجراؤها فهي ترضعهم ولما كان شجر اللوبيا والبادنجان والباقلان وغيرها مما يقوى على حمل ثمرته أنبتته الله منتصباً قائماً على ساقه إذ لا يلقى من حمل ثماره مؤنة ولا يضعف عنه .

فصل

ثم تأمل كيف اقتضت الحكمة الإلهية موافات أصناف الفواكه والثمار للناس بحسب الوقت المشاكل لها المتضمن لها فتوافيهم كموافاة الماء للظمان فتلقاها الطبيعة بانسراح واشتياق منتظرة لتقدمها كأنظار الغائب للغائب فلو كان نبات الصيف إنما يوافي في الشتاء لصادف من الناس كراهيته واستنقلا بوروده مع ما كان فيه من المضرة للأبدان والأذى لها وكذلك لو وافى ما في ربيعها في الخريف أو ما في خريفها في الربيع لم يقع من النفوس ذلك الموقع ولا استطابته واستلذته ذلك الالتذاد. ولهذا تجد المتأخر منها عن وقته يملولاً محلول الطعم ولا يظن أن هذا لجرمان العادة المجردة بذلك فإن العادة إنما جرت به لأنه وفق الحكمة والمصلحة التي لا يخل بها الحكيم الخبير .

فصل

ثم تأمل هذه النخلة التي هي إحدى آيات الله تجمد فيها من الآيات والمعجائب ما يبهرك فانه لما قدر أن يكون فيه افاك محتاج إلى الافاح جعلت فيها ذكور تلقحها بمنزلة الحيوان وانائه ولذلك اشدت شبيهاً من بين سائر الأشجار بالإنسان خصوصاً بالمؤمن كما مثله النبي ﷺ وذلك من وجوه كثيرة (أحدها) نبات أصلها في الأرض واستقراره فيها وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (الثاني) طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها كذلك المؤمن طيب الكلام طيب العمل فيه المنفعة لنفسه ولغيره (الثالث) دوام لباسها وزيتها فلا يسقط عنها صيفاً ولا شتاء كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى وزيتها حتى يوافي ربه تعالى (الرابع) سهولة تناول ثمرتها وتيسره أما قصيرها فلا يحوج المتناول أن يرقاها وأما باسقتها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال وغيرها فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرج إلى أعلاها وكذلك المؤمن خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغر ولا بالثيم (الخامس) ان ثمرتها من أنفع ثمار العالم فانه يؤكل رطبه فاكهة وحلاوة ويابسه يكون قوتا وأدماً وفاكهة ويتخذ منه الخل والناطف والحلوى ويدخل في الأدوية والأشربة وعموم المنفعة به وبالغلب فوق كل الثمار . وقد اختلف الناس في أيهما أنفع وأفضل وصنف الجاحظ في المحاكاة بينهما مجلداً فأطال فيها الحجاج والتفضيل من الجانبين . وفصل النزاع في ذلك أن النخل في معدته ومحل سلطانه أفضل من العنب وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالمدينه والحجاز والمراق والعنب في معدته ومحل سلطانه أفضل وأعم نفعاً وأجدى على أهله كالشام والجبال والمواضع الباردة التي لا تقبل التخييل . وحضرت مرة في مجلس بمكة فيه من أكابر البلد لمرت هذه المسئلة وأخذ بمض الجماعة الحاضرين يطنب في تفضيل النخل

وفوائده وقال في أثناء كلامه ويكنى في تفضيله انا نشترى بتواه العنب فكيف يفضل عليه ثم يكون نواه ثمنا له وقال آخر من الجماعة قد فصل النبي ﷺ النزاع في هذه المسئلة وشقي فيها بنبيه عن تسمية شجر العنب كرما وقال الكرم قلب المؤمن فأي دليل أبين من هذا وأخذوا يبالغون في تقرير ذلك . فقلت للأول ما ذكرته من كون نوى التمر ثمناً للعنب فليس بدليل فان هذا له أسباب . أحدها حاجتكم إلى النوى للعلف فيرغب صاحب العنب فيه لعلف ناضحه وحمولته . الثاني ان نوى العنب لا فائدة فيه ولا يجتمع . الثالث ان الاعناب عندكم قليلة جداً والتمر أكثر شيء عندكم فيكثر نواه فيشترى به الشيء اليسير من العنب وأما في بلاد فيها سلطان العنب فلا يشترى بالنوى منه شيء . ولا قيمة لنوى التمر فيها . وقلت لمن احتج بالحديث هذا الحديث من حجج فضل العنب لأنهم كانوا يسمونه شجرة الكرم لكثرة منافعه وخيره فانه يؤكل رطباً ويابساً وحلوا وحامضاً وتجنى منه أنواع الأشربة والحلوى والدبس وغير ذلك فسموه كرما لكثرة خيره فأخبرهم النبي ﷺ أن قلب المؤمن أحق منه بهذه التسمية لكثرة ما أودع الله فيه من الخير والبركة والرحمة واللين والعدل والإحسان والنصح وسائر أنواع البر والخير التي وضعها الله في قلب المؤمن فهو أحق بأن يسمى كرما من شجر العنب ولم يرد النبي ﷺ إبطال ما في شجر العنب من المنافع والفوائد وان تسميته كرماً كذب وانها لفظة لا معنى تحتها كتسمية الجاهل عالماً والفاجر براً والبخيل سخياً الأثرى أنه لم ينف فوائده شجر العنب وانما أخبر عنه أن قلب المؤمن أغزر فوائده وأعظم منافع منها . هذا الكلام أو قريب منه جرى في ذلك المجلس وأنت إذا تدبرت قول النبي ﷺ الكرم قلب المؤمن وجدته مطابقاً لقوله في النخلة مثلاً مثل المسلم فشبه النخلة بالمسلم في حديث ابن عمر وشبه المسلم بالكرم في الحديث الآخر ونهاهم أن يخصوا شجر العنب باسم الكرم دون قلب المؤمن وقد قال بعض الناس في هذا معنى آخر وهو أنه نهاهم عن تسمية شجر العنب كرماً لأنه يقتنى منه أم الحباثت فيكرهه أن يسمى باسم يرغب النفوس فيها ويحضهم عليها من باب سد الذرائع في الألفاظ وهذا لا بأس به لولا أن قوله فان الكرم قلب المؤمن كالتعليل لهذا النهي والإشارة إلى أنه أولى بهذه التسمية من شجر العنب ورسول الله ﷺ أعلم بما أراد من كلامه فالذي قصده هو الحق . وبالجملة فالله سبحانه عدد على عباده من نعمه عليهم ثمرات النخيل والاعناب فساقتها فيما عدده عليهم من نعمه والمعنى الأول أظهر من المعنى الآخر إن شاء الله فان أم الحباثت تتخذ من كل ثمر كالتخيل كما قال تعالى (ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرأرزقا حسناً) وقال أنس نزل تحريم الخمر وما بالمدينة من شراب الاعناب شيء وإنما كان شراب القوم الفضيخ المتخذ من التمر فلو كان نبيه ﷺ عن تسمية شجر العنب

كرما لأجل المسكر لم يشبه النخلة بالمؤمن لأن المسكر يتخذ منها والله أعلم (الوجه السادس) من وجوه التشبيه أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها من الدوح العظام تميلها الريح تارة وتقلعها تارة وتقصف أفنانها ولا صبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة فذلك المؤمن صبور على البلاء لاتزعجه الرياح . السابع أن النخلة كلها منقعة لا يسقط منها شيء بغير منقعة فثمرها منقعة وجدعها فيه من المنافع مالا يحجل الأبنية والسقوف وغير ذلك وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب ويستر به الفرج والحلل وخصوصا يتخذ منه المكائيل والزنايل وأنواع الآنية والحصر وغيرها وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس وقد تابع بعض الناس هذه المنافع وصفات المسلم وجعل لكل منقعة منها صفة في المسلم تقابلها فلما جاء الى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحدة على أعداء الله وأهل الفجور فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك والذومنين والمتقين بمنزلة الرطب حلاوة وإيناً (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (الثامن) أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها وجاد ثمرها وكذلك المؤمن إذا طال عمره ازداد خيره وحسن عمله (التاسع) إن قلبها من أطيب القلوب وأحلاه وهذا أمر خصت به دون سائر الشجر وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب . العاشر انها لا يتعطل نفعها بالكلية أبداً بل إن تعطلت منها منقعة ففيها منافع أخر حتى لو تعطلت ثمارها سنة لكان للناس في سعفها وخصوصها وليفها وكربها منافع وهكذا المؤمن لا يتخلو عن شيء من خصال الخير قط إن أجذب منه جانب من الخير أخصب منه جانب فلا يزال خيره مأمولاً وشره مأمولاً . في الترمذي مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من يرجي خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجي خيره ولا يؤمن شره فهذا فصل معترض ذكرناه استطراداً للحكمة في خلق النخلة وهيئتها فلنرجع إليه فتأمل خلقه الجذع الذي لها كيف هو تجده كالمسوج من خيوط ممدودة كالسدا وأخرى معترضة كاللحمه كنعو المسوج باليد وذلك لتشد وتصلب فلا تتقصف من حمل الحيوان الثقيل وتصبر على هز الرياح العاصفة وليبها في السقوف والجسور والأواني وغير ذلك مما يتخذ منها وهكذا سائر الخشب وغيرها إذا تأملته شبه النسيج ولا تراه مصتماً كالحجر الصلد بل ترى بعضه كأنه داخل بعضاً طولاً وعرضاً كتداخل أجزاء اللحم بعضها في بعض فان ذلك أمين له وأهياً لما يراد منه فانه لو كان مصتماً كالحجارة لم يمكن أن يستعمل في الآلات والأبواب والأواني والأمتعة والأسرة والتوابيت وما أشبهها ومن بديع الحكمة في الخشب أن جعل يطفو على الماء وذلك للحكمة البالغة إذ لو لا ذلك لما كانت هذه السفن تحمل أمثال الجبال من الحمولات والأمتعة وتمخر البحر مقبلة ومدبرة ولولا ذلك لما تهيأ للناس هذه المرافق لحل هذه التجارات العظيمة والأمتعة الكثيرة

حوقلها من بلد إلى بلد من حيث لو نقلت في البر لمظمت المؤونة في نقلها وتعذر على الناس كثير من مصالحهم .

فصل

ثم تأمل أحوال هذه العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض وما خص به كل واحد منها وجعل عليه من العمل والنفع فهذا يغور في المفاصل فيستخرج الفضول الغليظة القاتلة لو احتسبت وهذا يستخرج المرة السوداء وهذا يستخرج المرة الصفراء وهذا يحلل الأورام وهذا يسكن الهيجان والقلق وهذا يجلب التوم ويمعيده إذا أعوزه الإنسان وهذا يخفف البدن إذا وجد الثقل وهذا يفرج القلب إذا تراكت عليه الغموم وهذا يجلو البلغم ويكشطه وهذا يمد البصر وهذا يطيب النكهة وهذا يسكن هيجان الباءة وهذا يهيجها وهذا يبرد الحرارة ويطفئها وهذا يقتل البرودة ويهيج الحرارة وهذا يدفع ضرر غيره من الأدوية والأغذية وهذا يقاوم بكيفية غيره فيعتدل المزاج بتنازلها وهذا يسكن العطش وهذا يصرف الرياح الغليظة ويطردها وهذا يعطى اللون إشراقاً ونضارة وهذا يزيد في أجزاء البدن بالسمن وهذا ينقص منها وهذا يدبغ المعدة وهذا يجلوها ويغسلها إلى أضعاف ذلك بما لا يحصى العباد فسل المعطل من جعل هذه المنافع والقوى في هذه النباتات والحشائش والحبوب والعروق ومن أعطى كل منها خاصيته ومن هدى العباد بل الحيوان إلى تناول ما ينفع منه ترك ما يضر ومن فطن لها الناس والحيوان البهيم وبأى عقل وتجربة كان يقف على ذلك ويعرف ما خلق له كما زعم من قل نصيبه من التوفيق لولا انعام الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهب أن الإنسان فطن لهذه الأشياء بذهنه وتجاربه وفكره وقياسه فن الذى فطن لها البهائم فى أشياء كثيرة منها ما لا يهتدى إليها الإنسان حتى صار بعض السباع يتداوى من جراحه ببعض تلك العقاقير من النبات فيبرأ فن الذى جملة يقصد ذلك النبات دون غيره وقد شوهد بعض الطير يحتقن عند الحصر بماء البحر فيسهل عليه الخارج وبعض الطير يتناول إذا اعتل شيئاً من النبات فتعود صحته وقد ذكر الأطباء فى مبادئ الطب فى كتبهم من هذا عجائب فسل المعطل من ألهمها ذلك ومن أرشدها إليه ومن دلها عليه أفبجوز أن يكون هذا من غير مدبر عزيز حكيم وتقدير عزيز علم وتقدير لطيف خبير بهرت حكمته المقول وشهدت له الفطر بما استودعها من تعريفه بأنه الله الذى لا إله إلا هو الخالق البارى المصور الذى لا تنبى العبادة إلا له وإنه لو كان معه فى سمواته وأرضه إله سواه لفسدت السموات والأرض واختل نظام الملك فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . ولعلك أن تقول ما حكمه هذا النبات المبثوث فى الصحارى

والقفار والجبال التي لا أنيس بها ولا ساكن وتظن أنه فضلة لا حاجة إليه ولا فائدة في خلقه وهذا مقدار عقلك ونهاية علمك فكم لباريه وغالفه فيه من حكمة وآية من طعم لوحش وطيرودواب مساكنها حيث لا تراها تحت الأرض وفوقها فذلك بمنزلة مائدة نصيبها الله لهذه الطيور والدواب تتناول منها كفايتها ويبقى الباقي كما يبقى الرزق الواسع الفاضل عن الضيف اسمة رب الطعام وغناه التام وكثرة إنعامه

فصل

ثم تأمل الحكمة الباقية في إعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الأسماع والأبصار ليتم تناولها لمصلحتها ويكمل ارتفاع الإنسان بها إذ لو كانت عمياء أو صماء لم يتمكن من الارتفاع بها ثم سلها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيرها إياها فيقودها ويصرفها حيث شاء ولو أعطيت العقول على كبر خلقها لامتنت من طاعته واستعصت عليه ولم تكن مسخرة له فأعطيت من التمييز والإدراك ما تتم به مصلحتها ومصلحة من ذلك له وسلبت من الذهن والعقل ما ميز به عليها الإنسان وليظهر أيضاً فضيلة التمييز والاختصاص . ثم تأمل كيف قادها وذلكها على كبر أجسامها ولم يكن يطيعها لولا تسخيرها قال الله تعالى (وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين) أي مطيقين ضابطين وقال تعالى (أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذلناها لهم فنها ركوبهم ومنها يأكلون) فترى البعير على عظم خلقته يقوده الصبي الصغير ذليلاً متقاداً ولو أرسل عليه لسواه بالأرض ولفصله عضواً فسل المعطل من الذي ذلله وسخره وقاده على قوته لبشر ضعيف من أضعف المخلوقات وفرغ بذلك انتسخير النوع الإنساني لمصالح معاشه ومعاده فإنه لو كان يزاول من الأعمال والأحوال ما يزاول الحيوان لشغل بذلك عن كثير من الأعمال لأنه كان يحتاج مكان الجمل الواحد إلى عدة أناسي يحملون أقاله وحمله ويعجزون عن ذلك وكان ذلك يستفرغ أوقاتهم ويصدمهم عن مصالحهم فأعينوا بهذه الحيوانات مع ما لهم فيها من المنافع التي لا يحصيها إلا الله من الغذاء والشرب والدواء واللباس والامتعة والآلات والأواني والركوب والحراث والمنافع الكثيرة والجبال .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلق آلات البطش في الحيوانات من الإنسان وغيره فالإنسان لما خلق مهيباً لمثل هذه الصناعات من البناء والحياطة والكتابة . وغيرها خلق له كف

مستدير منبسط وأصابع يتمسك بها من القبض والبسط والطي والنشر والجمع والتفريق
وضم الشيء إلى مثله والحيوان البهيم للمم يهياً لتلك الصنائج لم يخلق له تلك الاكف والأصابع
بل لما قدر أن يكون غذاء بعضها من صيده كالسباع خلق له أكف اطاف مدبجة ذوات
برائن ومخالب تصلح لاقتناص الصيد ولا تصلح للصناعات هذا كله في أكلة اللحم من الحيوان
وأما أكلة النبات فلما قدر أنها لا تصطاد ولا صنعة لها خلق لبعضها أظلالاً تقبها خشونة
الأرض إذا جالت في طلب المرعى وبعضها خوافر ملبلة مقعرة كأخمص القدم لتنتطبق على
الأرض وتهياً للركوب والحمولة ولم يخلق لها برائن ولا أنياباً لأن غذاءها لا يحتاج إلى ذلك .

فصل

ثم تأمل الحكمة في خلقه الحيوان الذي يأكل اللحم من البهائم كيف جعلت له أسنان
حداد وبرائن شداد وأشداق مهرونة وأفواه واسعة وأعينت بأسلحة وأدوات تصلح للصيد
والأكل ولذلك تجدد سباع الطير ذوات مناقير حداد ومخالب كالسكايب ولهذا حرم النبي
ﷺ كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير لضرره وعدوانه وشره والمغتذى شبيهه
بالغاذي فلو اغتذى بها الإنسان لصار فيه من أخلاقها وعدوانها وشرها ما يشابهها به فحرم
على الأمة أكلها ولم يحرم عليهم الضبع وإن كان ذا ناب فإنه ليس من السباع عند أحد من
الأمم والتحرير إنما كان لما تضمن الوصفين أن يكون ذا ناب وأن يكون من السباع ولا يقال
هذا ينتقض بالسبع إذا لم يكن له ناب لأن هذا لم يوجد أبداً فضلوات الله وسلامه على من
أوتي جوامع الحكم فأوضح الأحكام وبين الحلال والحرام . فانظر حكمة الله عز وجل في
خلقه وأمره فيما خلقه وفما شرعه تجد مصدر ذلك كله الحكمة البالغة التي لا يخلل نظامها ولا ينخرم
أبداً ولا يخلل أصلاً ومن الناس من يكون حظه من مشاهدة حكمة الأمر أعظم من مشاهدة
حكمة الخلق وهؤلاء خواص العباد الذين عقلوا عن الله أمره ودينه وعرفوا حكمته فيما
أحكمه وشهدت لظنهم وعقولهم أن مصدر ذلك حكمة بالغة واحسان ومصالحة أريدت
بالعباد في معاشهم ومعادهم وهم في ذلك درجات لا يمحسها إلا الله ومنهم من يكون حظه من
مشاهدة حكمة الخلق أوفر من حظه من حكمة الأمر وهم أكثر الأطباء الذين صرفوا
أفكارهم إلى استخراج منافع النبات والحيوان وقواها وما تصلح له مفردة ومركبة وليس
لهم نصيب في حكمة الأمر إلا كما للفقهاء من حكمة الخلق بل أقل من ذلك ومنهم من فتح
عليه بمشاهدة الخلق والأمر بحسب استعداده وقوته فرأى الحكمة الباهرة التي بهرت العقول
في هذا وهذا فاذا نظر إلى خلقه وما فيه من الحكم ازداد إيماناً ومعرفة وتصديقاً بما جاءت

به الرسل وإذا نظر إلى أمره وما تضمنته من الحكم الباهرة ازداد إيمانا ويقينا وتسليما لا يكن حجب بالصنعة عن الصانع وبالكواكب عن مكوكبها فعمى بصره وغلظ عن الله حجابها ولو أعطى علمه حقه لكان من أقوى الناس إيمانا لأنه أطلع من حكمة الله وباهر آياته وعجائب صنعته الدالة عليه وعلى علمه وقدرته وحكمته على ما خفي عن غيره ولكن من حكمة الله أيضاً أن سلب كثيراً من عقول هؤلاء خاصيتها وحجبها عن معرفته وأوقفها عند ظاهر من العلم بالحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون لدناعتها وخستها وحقارتها وعدم أهليتها لمعرفة ومعرفة أسمائه وصفاته وأسرار دينه وشرعه والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم . وهذا باب لا يطلع الخلق منه على ماله نسبة إلى الخافي عنهم منه أبداً بل علم الأولين والآخرين منه كنقرة المصفور من البحر ومع هذا فليس ذلك بموجب للاعراض عنه واليأس منه بل يستدل العاقل بما ظهر له منه على ما وراه .

فصل

ثم تأمل أولاً ذوات الأربع من الحيوان كيف تراها تتبع أمهاتها مستقلة بأنفسها فلا تحتاج إلى الحمل والتربية كما يحتاج إليه أولاد الإنس فن أجل أنه ليس عند أمهاتها ما عند أمهات البشر من التربية والملاطفة والرفق والآلات المتصلة والمنفصلة أعطاها اللطيف الخبير النهوض والاستقلال بأنفسها على قرب العهد بالولادة ولذلك ترى أفراس كثير من الطير كالديجاج والدجاج والفتخ يدرج ويلقط حين يخرج من البيضة وما كان منها ضعيف النهوض كفراخ الحمام واليمام أعطى سبحانه أمهاتها من فضله العطف والشفقة والحنان ما تمج به الطعم في أفواه الفراخ من حواصلها فتخبأه في أعز مكان فيها ثم تسوقه من فيها إلى أفواه الفراخ ولا تزال بها كذلك حتى يتعض الفرخ ويستقل بنفسه وذلك كله من حظها وقسمها الذي وصل إليها من الرحمة الواحدة من المائة فإذا استقل بنفسه وأمكته الطيران لم يزل به الأبوان يعالجهان آتم معالجة وألطفها حتى يطير من وكره ويسترزق لنفسه ويأكل من حيث يأكلان وكأنهما لم يعرفاه ولا عرفهما قط بل يطردها عن الوكر ولا يدعاهن وأقواتهما وبينهما بل يقولان له بلسان يفهمه اتخذ لك وكرأ وقوتنا فلا وكر لك عندنا ولا قوت فسل المعطل أهذا كله عن إهمال ومن الذي ألهمها ذلك ومن الذي عطفها على الفراخ وهي صغار أحوج ما كانت إليها ثم سلب ذلك عنها إذا استغنت الفراخ رحمة بالأمهات تسمى في مصالحتها إذ لودام لها ذلك لاضربها وشغلها عن معاشها لا سيما مع كثرة ما يحتاج إليه أولادها من الغذاء فوضع فيها الرحمة والإيثار

والحنان رحمة بالفراخ وسلبها إياها عند استغنائها رحمة بالامهات أفيجوز أن يكون هذا كله بلا تدبير مدبر حكيم ولا عناية ولا لطف منه سبحانه وتعالى لقد قامت أدلة ربوبيته وبراهين إلهيته وشواهد حكمته وآيات قدرته فلا يستطيع العقل لها وجوداً إن هي إلا مكابرة باللسان من كل جحود كفور (أفي الله شك فاطر السموات والأرض) وإنما يكون الشك فيما نخفي أدلته وتشكل براهينه فاما من له في كل شيء محسوس أو معقول آية بل آيات مؤدية عنه شاهدة له بأنه الله الذي لا اله إلا هو رب العالمين فكيف يكون فيه شك .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في قوائم الحيوان كيف اقتضت أن يكون زوجا لا فرداً إما اثنتين وإما أربعاً ليتيأ له المشي والسعي وتم بذلك مصلحته إذ لو كانت فرداً لم يصلح لذلك لأن الماشي ينتقل ببعض قوائمه ويعتمد على بعض فذو القوائم ينقل واحدة ويعتمد على الأخرى وذو الأربع ينقل اثنتين ويعتمد على اثنتين وذلك من خلاف لأنه لو كان ينقل قائمتين من جانب ويعتمد على قائمتين من الجانب الآخر لم يثبت على الأرض حال نقله قوائمه ولكان مشيه فقرا كفقير الطائر وذلك مما يؤديه ويتعبه لنقل بدنه بخلاف الطائر ولهذا إذا مشى الإنسان كذلك قليلاً أجهده وشق عليه بخلاف مشية الطبيعي الذي هو له فاقضت الحكمة تقديم نقل اليمنى من يديه مع اليسرى من رجلية وقرار يسرى اليدين ويعنى الرجلين ثم نقل الأخرين كذلك وهذا أسهل ما يكون من المشي وأخفه على الحيوان .

فصل

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل ظهور الدواب مبسوطة كأنها سقف على عمد القوائم ليتيأ ركوبها وتستقر الحموله عليها ثم خولف هذا في الإبل لجعل ظهورها مسنمة معقودة كالتقبو لما خصت به من فضل القوة وعظم ما تحمله والأقباء تحمل أكثر مما تحمل السقوف حتى قيل إن عقد الأقباء إنما أخذ من ظهور الإبل . وتأمل كيف لما طول قوائم البعير طول عنقه ليتناول المرعى من قيام فلو قصرت عنقه لم يمكنه ذلك مع طول قوائمه وليكون أيضاً طول عنقه موازناً للحمل على ظهره إذا استقل به كما ترى طول قصبه القبان حتى قيل إن القبان إنما عمل من خلقة الجمل من طول عنقه وثقل ما يحمله ولهذا تراه يمد عنقه إذا استقل بالحمل كأنه يوازنه موازنة .

فصل

ثم تأمل الحكمة في كون فرج الدابة جعل بارزاً من ورائها ليتمكن الفحل من ضرابها

ولو جعل في أسفل بطنها كما جعل للمرأة لم يتمكن الفحل من ضرابها إلا على الوجه الذي تجامع به المرأة وقد ذكر في كتب الحيوان أن فروج الفيلة في أسفل بطنها فإذا كان وقت الضراب ارتفع ونشز وبرز للفحل فيتمكن من ضرابها فلما جعل في الفيلة على خلاف ما هو في سائر البهائم خصت بهذه الخاصية عنها ليتبها الأمر الذي به دوام النسل .

فصل

ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمة هذه الكسوة من الشعر والوبر والصوف وكسيت الطيور الريش وكسي بمض الدواب من الجلد ما هو في غاية الصلابة والقوة كالسلفاء وبمعضها من الريش ما هو كالأسنة كل ذلك بحسب حاجاتها إلى الوقاية من الحر والبرد والعدو الذي يريد أذاها فإنها لما لم يكن لها سبيل إلى اتخاذ الملابس واصطناع الكسوة وآلات الحرب أعينت بملابس وكسوة لا تفارقها وآلات وأسلحة تدفع بها عن نفسها وأعينت باظلاف واخفاف وحرافر لما عدت الاحذية والنعال فعبها حذاؤها وسقاؤها وخص الفرس والبغل والحمار بالخوافر لما خلق للرخص والشد والجري وجعل لها ذلك أيضاً سلاحاً عندنا تنصافها من خصمها عوضاً عن الصياصي والنخاب والأنياب والبرائن فتأمل هذا اللطف والحكمة فإنها لما كانت بهائم خرساً لا عقول لها ولا أكف ولا أصابع مبيأة للانتفاع والدفاع ولاحظ لها فيما يتصرف فيه الآدميون من التسج والغزل ولطف الحيلة جعلت كسوتها من خلقتها باقية عليها ما بقيت لا تحتاج إلى الاستبدال بها وأعطيت آلات وأسلحة تحفظ بها أنفسها كل ذلك لثم الحكمة التي أرادت بها ومنها وأما الإنسان فإنه ذو حيلة وكف مهيئة للعمل فهي تغزل وتسج ويتخذ لنفسه الكسوة ويستبدل بها حالاً بعد حال وله في ذلك صلاح من جهات عديدة . منها أن يستريح إذا خلع كسوته إذا شاء ويلبسها إذا شاء ليس كالمضطر إلى حمل كسوة . ومنها أنه يتخذ لنفسه ضروباً من الكسوة للصيف وضروباً للشتاء فإن كسوة الصيف لا تليق بالشتاء وكسوة الشتاء لا تليق بالصيف فيتخذ لنفسه في كل فصل كسوة موافقة . ومنها أنه يجعلها تابعة لشهوته وإرادته . ومنها أنه يتلذذ بأنواع الملابس كما يتلذذ بأنواع المطاعم فجعلت كسوته متنوعة تابعة لاختياره كما جعلت مطاعمه كذلك فهو يكتسى ما يشاء من أنواع الملابس المتخذة من الثبات تارة كالقطن والكتان ومن الحيوان تارة كالوبر والصوف والشعر ومن الدود تارة كالحرير والإبريسم ومن المعادن تارة كالذهب والفضة فجعلت كسوته متنوعة لثمة لذته وسروره وابتهاجه وزينته بها ولذلك كانت كسوة أهل الجنة منفصلة عنهم كما هي في الدنيا ليست مخلوقة من أجسامهم كالحيوان فدل على أن ذلك أكل وأجل وأبلغ في النعمة . ومنها إرادة تمييزه عن الحيوان في ملبسه كما

ميزه عنه في مطعمه ومسكنه وبيانه وعقله وقبمه . ومنها اختلاف الكسوة واللباس وتباينه بحسب تباين أحواله وصنائه وجره وسله وطاقته وإقامته وصحته ومرضه ونومه ويقظته ورفاهيته فالكل حال من هذه الأحوال لباس وكسوة تخصصها لا تليق إلا بها فلم يجعل كسوته في هذه الأحوال كلها واحدة لا سبيل إلى الاستبدال بها فهذا من تكريمه وتفصيله على سائر الحيوان .

فصل

ثم تأمل حكمة عجيبة جعلت للبهائم والوحوش والسباع والدواب على كثرتها لا يرى منها شيء وليست شيئاً قليلاً فتخفي لقلتها بل قد قيل أنها أكثر من الناس واعتبر ذلك بما تراه في الصحارى من أسراب الظباء والبقر والوعول والذئاب والنور وضروب الهوام على اختلافها وسائر دواب الأرض وأنواع الطيور التي هي أضعاف أضعاف بني آدم لا تكاد ترى منها شيئاً ميثاً لا في كتابه ولا في أوكاره ولا في مساقطه ولا في مراعيه بطرقه وموارده ومناوله ومعاقله ومعاصبه إلا ما عدا عليه عاد إما افترسه سبع أو رماه صائد أو عدا عليه عاد أشغله وأشغل بني جنسه عن احراز جسمه وإخفاء جيفته فدل ذلك على أنها إذا أحست بالموت ولم تغلب على أنفسها كمنت حيث لا يوصل إلى أجسامها وقبرت جيفها قبل نزول البين بها ولولا ذلك لامتلات الصحارى بجيفها وأفسدت الهواء بروائحها فعاد ضرر ذلك بالناس وكان سبيلاً إلى وقوع الوباء وقد دل على هذا قوله تعالى في قصة ابني آدم (فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سواة أخيه قال يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سواة أخى فأصبح من النادمين) وأما ما جعل عيشه بين الناس كالأنعام والدواب فلقدرة الانسان على نقله واحتيااله في دفع أذيته منع مما جعل في الوحوش كالسباع فتأمل هذا الذي حار بنو آدم فيه وفيما يفعلون به كيف جعل طبعاً في البهائم وكيف تعلموه من الطير . وتأمل الحكمة في إرسال الله تعالى لابن آدم الغراب المؤذن اسمه بغربة القاتل من أخيه وغرته هو من رحمة الله تعالى وغرته من أبيه وأهله واستبحاشه منهم واستبحاشهم منه وهو من الطيور التي تنفر منها الأنس ومن نعيمها وتستوحش بها فأرسل اليه مثل هذا الطائر حتى صار كالمعلم والاستاذ وصار بمنزلة المنعم والمستند ولا تنكر حكمة هذا الباب وارتباط المسميات فيه بأسمائها فقد قال النبي ﷺ إذا بعثتم إلى بريدا فابشوه حسن الاسم حسن الوجه وكان يسأل عن اسم الأرض إذا نزلها واسم الرسول إذا جاء اليه ولما جاءهم سهيل ابن عمرو يوم الحديدية قال قد سهل أمركم ولما أراد تغيير اسم حزن بسهل قال لم يزل معنى اسمه فيه وفي زريته ولما سأل عمر بن الخطاب الرجل عن اسمه واسم أبيه وداره ومنزله فأخبره

أه جمر بن شهاب وأن داره بالحرقه وأن مسكنه منها ذات لظى قال له أدرك بيتك فقد احترق
فكان كما قال . وشواهد هذا الباب أكثر من أن تذكرها هنا وهذا باب لطيف المزع شديد
الناسبة بين الأسماء والمسميات وكثيرا ما أولع الناس قديما وحديثا بنعيق الغراب واستدلوا
به على البين والاعتراب وينسبونه إلى القوم ويتفرون منه وينفر منهم فكان جديرا أن
يرسل هذا الطائر إلى القائل من ابني آدم دون غيره من الطيور فكأنه صورة طائره الذي
أزمه في عنقه وطار عنه من عمله ولا نظن أن ارسال الغراب وقع اتفاقا خاليا من الحكمة
فإنك إذا خفي عليك وجه الحكمة فلا تسكرها واعلم أن خفاءها من لطفها وشرها رقة تعالى
فيما يخفي وجه الحكمة فيه على البشر الحكم الباهرة المتضمنة للغايات المحموده .

فصل

ثم تأمل الحكمة الباهرة في وجه الدابة كيف هو فانك ترى العينين فيه شاخصتين أمامها لتبصر
ما بين يديها أتم من بصر غيرها لأنها تحرس نفسها وراكبها فتتقى أن تصدم حائطا أو تردى
في حفرة فجعلت عينها كميني المنتصب القائمة لأنها طليعة وجعل فورها مشقوقا في أسفل الخطم
لتتمكن من العض والقبض على العلف إذ لو كان فوقه في مقدم الخطم كأنه من الإنسان في مقدم
الذقن لما استطاعت أن تتناول به شيئا من الأرض ألا ترى الإنسان لا يتناول الطعام بفيه لكن بيده
فلما تكن الدابة تتناول طعامها يدها جعل خطمها مشقوقا من أسفل لتضعه على العلف ثم تقضمه
وأعينت بالجمجمة وهي لها كالشفة للإنسان لتلتقم بها ما قرب منها وما بعد وقد أشكلت منفعة الذنب
على بعض الناس ولم يهتد إليها وفيه منافع عديدة فنحنها انه بمنزلة الطبق على الدبر والغطاء على حياها
يواريها ويسترها ومنها أن بين الدبر ومراق البطن من الدابة له وضر يجتمع عليه الذباب
والبعوض فيؤذي الدابة لجمال أذناها كالذباب لها والمراد تطرد به ذلك ومنها أن الدابة
نستريح إلى تحريكه وتصريفه بمنة ويسرة فانه لما كان قيامها على الأربع بكل جسمها وشغلها
قساما يحمل البدن عن التصرف والتقلب كان لها في تحريك الذنب راحة وعسى أن يكون
فيها حكم آخر تقصر عنها افهام الخلق ويزدريها السامع إذا عرضت عليه فانه لا يعرف
موقعها إلا في وقت الحاجة فن ذلك أن الدابة تربض في الوحل فلا يكون شيء أعون على
رفعها من الأخذ بذنبها.

فصل

ثم تأمل شفر الفيل وما فيه من الحكم الباهرة فانه يقوم له مقام اليد في تناول العلف

والماء وإيرادها إلى جوفه ولولا ذلك ما استطاع أن يتناول شيئاً من الأشياء من الأرض لأنه ليست له عنق يمدّها كسائر الأنعام فلما عدم العنق أخلف عليه مكانه الخراطوم الطويل ليسد مسده وجعل قادراً على سده ورفعته وثنيه والتصرف به كيف شاء وجعل وعاء أجوف لين الملمس فهو يتناول به حاجته ويحمّله ما أراد إلى جوفه ويحبس فيه ما يريد ويكيد به إذا شاء ويعطى ويتناول إذا أراد فسل المعطل من الذى عوضه ومن أخلف عليه مكان العضو الذى منعه ما يقوم له مقامه وينوب منابه غير الرؤوف الرحيم بخنقه المتكفل بمصالحهم اللطيف بهم وكيف يتأذى ذلك مع الإهال وخلو العالم عن قيمه وبارئته ومبدعه وفاطره لا إله إلا هو العزيز الحكيم . (فإن قلت) فما باله لم يخلق ذا عنق كسائر الأنعام وما الحكمة و ذلك . قيل والله أعلم بحكمته فى مصنوعاته لأن رأسه وأذنيه أمر هائل عظيم وحمل ثقيل فلو كان ذا عنق كسائر الأعناق لانهدت رقبته بثقله ووهنت بحمله فجعل رأسه منصقاً بجسمه لئلا يناله منه شيء من الثقل والمؤنة وخلق له مكان العنق هذا المشفر الطويل يتناول به غذاءه ولما طالت عنق البعير للحكمة فى ذلك صغر رأسه بالنسبة إلى عظم جسده لئلا يؤذيه ثقله ويوهن عنقه فسيحان من فانت حكمه عد العادين وحصر الحاصرين .

فصل

ثم تأمل خلق الزرافة واختلاف أعضائها وشبهها بأعضاء جميع الحيوان فرأسها رأس فرس وعنقها عنق بعير وأظلافها أظلاف بقرة وجلدها جلد نمر حتى زعم بعض الناس أن لقاحها من فحول شتى وذكروا أن أصنافاً من حيوان البر إذا وردت الماء ينزو بعضها على بعض فتنزو المسترحشة على السائمة فتنتج مثل هذا الشخص الذى هو كالملتقط من أناس شتى وما أرى هذا القائل إلا كاذباً عليها وعلى الخنقة إذ ليس فى الحيوان صنف يلقح صنفاً آخر فلا الجمل يلقح البقر ولا الثور يلقح الناقة ولا الفرس يلقحهما ولا يلقحانه ولا الوحوش يلقح بعضها بعضاً ولا الطيور وإنما يقع هذا نادراً فيما يتقارب كالبقر الوحشى والأهلى والضأن والمعز والفرس والحمار والذئب والضبغ فيتولد من ذلك البغل والسمع والعسبار وقول الفقهاء هل تجب الزكاة فى المتولد من الوحشى والأهلى فيه وجهان هذا إنما يتصور فى واحد واثنين وثلاثة يكمل بها النصاب فأما نصاب كله متولد من الوحشى والأهلى فلا وجود لذلك والأحكام المتعلقة بهذه المتولدات تذكر فى الزكاة وجزاء الصيد والأضاحى والأحوط يتغلب فى كل باب فى الأضاحى يتغلب عدم الأجزاء وفى الإحرام والحرم يتغلب وجوب الأجزاء وفى الأضاحى يتغلب جانب التحريم وفى الزكاة اختلاف مشهور . وسئل شيخنا أبو (١٦ - مفتاح ١)

العباس بن تيمية قدس الله روحه عن حمار نزا على فرس فأحبها فهل يكون ابن الفرس حلالاً أو حراماً . فأجاب بأنه حلال ولا حكم للفحل في اللبن في هذا الموضوع بخلاف الاناسي لأن ابن الفرس حادث من العلف فهو تابع للحمها ولم يسر وطىء الفحل إلى هذا اللبن فإنه لا حرمة هناك تنتشر بخلاف ابن الفحل في الاناسي فإنه تنتشر به حرمة الرضاع ولا حرمة هنا تنتشر من جهة الفحل لا إلى الولد خاصة فإنه يتكون منه ومن الأم فغلب عليه التحريم وأما اللبن فلم يتكون بوطئه وإنما يتكون من العلف فلم يكن حراماً هذا بسط كلامه وتقريره والمقصود ابطال زعم أن هذه الحيوانات المختلفة ياتقح بعضها بعضها عند الموارد فتكون الزرافة وإنه كاذب عليها وعلى الإبداع والذي يدل على كذبه أنه ليس الخارج من بين ما ذكرنا من الفرس والحمار والذئب والضبع والضأن والمعز عضو من كل واحد من أبيه وأمه كما يكون للزرافة عضو من الفرس وعضو من الجمل بل يكون كالتوسط بينهما الممتزج منهما كما نشاهده في البغل فإنك ترى رأسه وأذنيه وكفله وحوافره وسطاً بين أعضاء أبيه وأمه مشتقة منهما حتى تجد سجيحه كالمترج من صهيل الفرس ونهيق الحمار فهذا يدل على أن الزرافة ليست بنتاج آباء مختلفة كما زعم هذا الزاعم بل من خلق عجيب ووضع بديع من خلق الله الذي أبدعه آية ودلالة على قدرته وحكمته التي لا يعجزها شيء . ليرى عباده أنه خالق أصناف الحيوان كلها كما يشاء وفي أي لون شاء . فمنها المتشابهة الخلقة المتناسب الأعضاء . ومنها المختلف التركيب والشكل والصورة كما يرى عباده قدرته التامة في خلقه لنوع الإنسان على الأقسام الأربعة الدالة على أنه مخلوق بقدرته ومشيبته تابع لها فمنه ما خلق من غير أب ولا أم وهو أبو النوع الإنساني . ومنه ما خلق من ذكر بلا أنثى وهي أمهم التي خلقت من ضلع آدم . ومنه ما خلق من أنثى بلا ذكر وهو المسيح ابن مريم : ومنه ما خلق من ذكر وأنثى وهو سائر النوع الإنساني فيرى عباده آياته ويتعرف إليهم بآلائه وقدرته وأنه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . وأما طول عنق الزرافة وما لها فيه من المصلحة فلأن منشأها ومرعاها كما ذكر الممتنون بحالها ومساكنها في غياض ذوات أشجار شاهقة ذاهبة طولاً فأعينت بطول العنق لتتناول أطراف الشجر الذي هناك وثمارها وهذا ما وصلت إليه معرفتهم وحكمة اللطيف الخبير فوق ذلك وأجل منه .

فصل

ثم تأمل هذه النملة الضعيفة وما أعطيته من القطة او الحيلة في جمع القوت وادخاره وحفظه ودفع الآفة عنه فإنك ترى في ذلك عبراً وآيات فترى جماعة النمل إذا أرادت إحراز

القوت خرجت من أسرابها طالبة له فإذا ظفرت به أخذت طريقاً من أسرابها إليه وشرعت في نقله فتراها رفقتين رقيقة حاملة تحمله إلى بيوتها سراباً ذاهباً ورفقة خارجة من بيوتها إليه للاختلاط تلك في طريقها بل هما كالحيطين بمنزلة جماعة الناس الذاهبين في طريق وجماعة الراجعين من جانبهم فإذا ثقل عليها حمل الشيء من تلك اجتمعت عليه جماعة من النمل وتساعدت على حمله بمنزلة الحشبة والحجر الذي تساعد القملة من الناس عليه فإذا كان الذي ظفر به منهن واحدة ساعدها رفقتها عليه إلى بيتها وخلوا بينها وبينه وإن كان الذي صادفه جماعة تساعدن عليه ثم تقاسمنه على باب البيت . ولقد أخبر بعض العارفين أنه شاهد منهن يوماً عجباً . قال رأيت نملة جاءت إلى شق جرادة فراولته فلم تطلق حمله من الأرض فذهبت غير بعيد ثم جاءت معها بجماعة من النمل قال فرفقت ذلك الشق من الأرض فلما وصلت النملة برفقتها إلى مكانه دارت حوله ودرن معها فلم يجدن شيئاً فرجعن فوضعتن ثم جاءت فصادقته فراولته فلم تطلق رفعه فذهبت غير بعيد ثم جاءت بهن فرفعتن فدرن حول مكانه فلم يجدن شيئاً فذهبن فوضعتن فمادت لجمات بهن فرفعتن فدرن حول المكان فلما لم يجدن شيئاً تحلفن حلقة وجعلن تلك النملة في وسطها ثم تحاملن عليها فقطعن عضواً عضواً وأنا أنظر . ومن عجيب أمر القملة فيها إذا نقلت الحب إلى مساكنها كسرتة لثلاث نبت فإن كان مما نبت الفلقتان منه كسرتة أربعا فإذا أصابه نداء وبلل وخافت عليه الفساد أخرجه للشمس ثم ترده إلى بيوتها ولهذا ترى في بعض الأحيان حبا كثيراً على أبواب مساكنها مكسراً ثم تعود عن قريب فلا ترى منه واحدة ومن فطنتها أنها لا تتخذ قريتها إلا على نشر من الأرض لثلاث بفيض عليها السيل فيغرقها فلا ترى قرية نمل في بطن واد ولكن في أعلاه وما ارتفع عن السيل منه ويكنى في فطنتها ما نص الله عز وجل في كتابه من قولها بجماعة النمل وقد رأت سليمان عليه الصلاة والسلام وجنوده (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) فتكلمت بعشرة أنواع من الخطاب في هذه النصيحة . النداء . والتنبيه . والتسمية . والأمر . والنص . والتحذير . والتخصيص . والتفهم . والتعظيم . والاعتذار فاشتملت نصيحتهن مع الاختصار على هذه الأنواع العشرة . ولذلك أعجب سليمان قولها وتبسم ضاحكاً منه وسأل الله أن يوزعه شكر نعمته عليه لما سمع كلامها ولا تستبعد هذه القملة من أمة من الأمم تسبح بحمد ربها كما في الصحيح عن النبي ﷺ قال نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة فأمر بجهازه فأخرج ثم أحرق قرية النمل فأوحى الله إليه . من أجل أن لدغتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح فهلا نملة واحدة .

فصل

ومن عجيب الفطنة في الحيوان أن الثعلب إذا أعوزه الطعام ولم يجد صيداً تماوت وقفخ بطنه حتى يجسه الطير ميتاً فيقع عليه لياً كل منه فيثب عليه الثعلب فيأخذه . ومن عجيب الفطنة في هذه الذبابة الكبيرة التي تسمى أسد الذباب فانك تراه حين يحس بالذباب قد وقع قريباً منه يسكن ملياً حتى كأنه موات لا حراك فيه فإذا رأى الذباب قد اطمان وغفل عنه دب دبيباً ورفيقاً حتى يكون منه بحيث يناله ثم يثب عليه فيأخذه . ومن عجيب حيل العنكبوت أنه ينسج تلك الشبكة شركاً للصيد ثم يكمن في جوفها فإذا نشب فيها البرغش والذباب وثب عليه وامتنص دمه فهذا يحكى صيد الأشراك والشباك والأول يحكى صيد السكلاب والفهود ولا تزددين العبرة بالشيء الحقير من الذرة والبعوض فإن المعنى النفيس يقتبس من الشيء الحقير والازدراء بذلك ميراث من الذين استنكرت عقولهم ضرب الله تعالى في كتابه المثل بالذباب والعنكبوت والكلب والحمار فأمر الله تعالى (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعبوسة فافوقها) فأغزر الحكم وأكثرها في هذه الحيوانات التي تزدريها وتحتقرها وكم من دلالة فيها على الخالق ولطفه ورحمته وحكمته فسل المعطل من أهمها هذه الحيل والتلطف في اقتناص صيدها الذي جعل قوتها ومن جعل هذه الحيل فيها بدل ما سلبها من القوة والقدرة فأغناها ما أعطاها من الحيلة عما سلبها من القوة والقدرة سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر بأن يكون طائراً في الجو خفف جسمه وأدخج خلقته واقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ومن مخرج البول والزبل على واحد يجمعهما جميعاً ثم خلق ذا جو جؤ محدود ليسهل عليه اختراق الهواء كيف توجه فيه كما يجعل صدر السفينة بهذه الهيئة ليشق الماء بسرعة وتنفذ فيه وجعل في جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض به الطيران وكسى جسمه كله الريش ليتداخله الهواء فيحمه ولما قدر أن يكون طعامه اللحم والحب يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب يتناول به طعامه فلا يتفسخ من لقط الحب ولا يتعقف من نهش اللحم ولما عدم الأسنان وكان يزدرد الحب صحيحاً واللحم غريصاً أعين بفضل حرارة في الجوف تطحن الحب وتطبخ اللحم فاستغنى عن المضغ والذي يدل على قوة الحرارة التي أعين بها أنك ترى عجم الزبيب وأمثاله يخرج من بطن الإنسان صحيحاً وينطبخ في جوف الطائر حتى لا يرى له أثر . ثم اقتضت الحكمة أن جعل يبيض بيضاً ولا يلد ولادة لئلا يتقل عن

الطيران فإنه لو كان مما يحمل ويمكح حمله في جوفه حتى يستحكم ويثقل لانتقله وعاقه عن النهوض والطيران . وتأمل الحكمة في كون الطائر المرسل السائح في الجو يلهم صبر نفسه أسبوعاً أو أسبوعين باختياره قاعداً على بيضه حاضناً له ويحتمل مشقة الحبس ثم إذا خرج فراخه تحمل مشقة الكسب وجمع الحب في حوصلة ويزق فراخه وليس بذى روية ولا فكرة في عاقبة أمره ولا يؤمل في فراخه ما يؤمل الإنسان في ولده من العون والرشد وبقاء الذكر . فهذا من فعله يشهد بأنه معطوف على فراخه لعله لا يعلمها هو ولا يفكر فيها من دوام النسل وبقائه .

فصل

ثم تأمل خلقة البيضة وما فيها من المنخ الأصفر الخائر والماء الأبيض الرقيق فبعضه ينشأ منه الفرخ وبعضه يعتدى منه إلى أن يخرج من البيضة وما في ذلك من الحكمة فإنه لما كان نشو الفرخ في تلك البشرة المنخفضة التي لا نفاذ فيها للواصل من خارج جعل معه في جوف البيضة من الغذاء ما يكفي به إلى خروجه .

فصل

وتأمل الحكمة في حوصلة الطائر وما قدرت له فإن في مسلك الطعام إلى القابضة ضيق لا ينفذ فيه الطعام إلا قليلاً فلو كان الطائر لا يلتقط حبة ثانية حتى تصل الأولى إلى جوفه لاطال ذلك عليه فتي كان يستوفى طعامه وإنما يختلسه اختلاساً لشدة الحذر فجعلت له الحوصلة كالخلعة المعلقة أمامه ليوعى فيها ما زرد من الطعام بسرعة ثم ينقل إلى القابضة على مهل وفي الحوصلة أيضاً خصلة أخرى فإن من الطير ما يحتاج إلى أن يزق فراخه فيكون رده الطعام من قرب ليسهل عليه .

فصل

ثم تأمل هذه الألوان والأصباغ والشى التي تراها في كثير من الطير كالطاووس والدرج وغيرهما التي لو خطت بدقيق الأقلام ووشيت بالأيدي لم يكن هذا فمن أين في الطبيعة المجردة هذا التشكيل والتخطيط والتلون والصنع العجيب البسيط والمركب الذي لو اجتمعت الخليفة على أن يحاكيه لعمد عليهم فأمل ريش الطاووس كيف هو فإنك تراه كنسج الثوب الرفيع من خيوط رفيع جداً قد ألف بعضها إلى بعض كتأليف الخياط إلى الخيط بل الشعرة إلى الشعرة ثم ترى النسج إذا مددته يفتح قليلاً قليلاً ولا ينشق ليتداخله الهواء فينقل الطائر إذا طار فترى في وسط الريشة عموداً غليظاً متيناً قد نسج عليه ذلك الثوب التي كهيئة الشعر

ليسكه بصلابته وهو القصبه التي تكون في وسط الريشة وهو مع ذلك أجوف يشتمل على الهواء فيحمل الطائر فأى طبيعة فيها هذه الحكمة والخبرة واللفظ ثم لو كان ذلك في الطبيعة كما يقولون لكانت من أدل الدلائل وأعظم البراهين على قدرة مبدعها ومنشئها وعلمه وحكمته فإنه لم يكن ذلك لها من نفسها بل إنما هو لها عن خلقها وأبداعها فأ كذبه المعطل هو أحد البراهين والآيات التي على مثلها يرداد إيمان المؤمنين وهكذا آيات الله يضل بها من يشاء ويهدى من يشاء .

فصل

تأمل هذا الطائر الطويل الساقين وأعرف المنفعة في طول ساقيه فإنه يرى أكثر مرعاه في ضحضاح الماء فتراه يركز على ساقيه كأنه دست فوق مركب ويتأمل ما دب في الماء فإذا رأى شيئاً من حاجته خطا خطوا رفيقا حتى يتناوله ولو كان قصير القامتين كان إذا خط نحو الصيد ليأخذه لصق بطنه بالماء فيثيره ويذهر الصيد منه فيقر يخلق له ذلك العمودان ليسدرك بهما حاجته ولا يفسد عليه مطلبه وكل طائر فله نصيب من طول الساقين والعنق ليتمكن تناول الطعام من الأرض ولوطال ساقاه وقصرت عنقه لم يتمكن أن يتناول شيئاً من الأرض وربما أعين مع عنقه بطول المناقير ليزداد مطلبه سهولة عليه وامكانا . . . ثم تأمل هذه العصافير كيف تطلب أكلها بالنهار كله فلا هي تفقده ولا هي تجده مجموعاً معداً بل تتاله بالحركة والطلب في الجهات والنواحي فسبحان الذي قدره ويسره كيف لم يجعله مما يتعذر عليها إذا التمسته ويفوتها إذا قعدت عنه وجعلها قادرة عليه في كل حين وأوان بكل أرض ومكان حتى من الجدران والأسطحة والسقوف تناوله بالهويناء من السعى فلا يشاركها فيه غير بني جنسها من الطير ولو كان ما تقتات به يوجد معداً مجموعاً كله كانت الطير تشاركها فيه وتغلبها عليه وكذلك لو وجدته معداً مجموعاً لا كبت عليه بحرص ورغبة فلا تقلع عنه وإن شبعت حتى تبشم وتهلك وكذلك الناس لو جعل طعامهم معداً لهم بغير سعى ولا تعب أدى ذلك إلى الشره والبطنة ولكثر الفساد وعمت الفواحش والبغى في الأرض فسبحان الخبير الذي لم يخلق شيئاً سبى ولا عبثاً (وانظر) في هذه الطيور التي لا تخرج إلا بالليل كالبيوم والحمام والخفاش فإن أقواتها هيئت لها في الجو لا من الحب ولا من اللحم بل من البعوض والفراس وأشباههما بما تلقطه من الجو فتأخذ منه بقدر الحاجة ثم تأوى إلى بيوتها فلا تخرج إلى مثل ذلك الوقت بالليل وذلك أن هذه الضروب من البعوض والفراس وأشباههما مبشوة في الجو لا يكاد يخلو منها موضع منه واعتبر ذلك بأن نضع سراجاً بالليل في سطح أو عرضه الدار فيجتمع عليه من هذا

الضرب شيء كثير وهذا الضرب من الفراش ونحوها ناقص الفطنة ضعيف الخيلة ليس في الطير أضعف منه ولا أجهل وفيما يرى من تهافته في النار وأنت تطرده عنها حتى يحرق نفسه دليل على ذلك لجعل معاش هذه الطيور التي تخرج بالليل من هذا الضرب فتقتات منه فإذا أتى النهار انقطعت إلى أوكارها فالليل لها بمنزلة النهار لغيرها من الطير ونهارها بمنزلة ليل غيرها ومع ذلك فساق لها الذي تكمل بأرزاق الخلق رزقها وخلقه لها في الجو ولم يدعها بلا رزق مع ضعفها وعجزها وهذه إحدى الحكم والفوائد في خلق هذه الفراش والجنادب والبعوض فكيف فيها من رزق لامة تسبح بحمد ربها ولولا ذلك لانتشرت وكثرت حتى أضرت بالناس ومنعتهم الفرار فانظر إلى عجيب تقدير الله وتدييره كيف اضطر العقول إلى أن شهدت بربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وأن ذلك الذي تشاهده ليس باتفاق ولا بإهمال من سائر وجوه الأدلة التي لا تتمكن الفطر من جحدها أصلاً وإذ قد جرى الكلام إلى الخفاش فهو من الحيوانات العجيبة الخلق بين خلقه الطيور وذوات الأربع وهو إلى ذوات الأربع أقرب فإنه ذو أذنين ناشزتين وأسنان ودبر وهو يلد ولدا ويرضع ويمشي على أربع وكل هذه صفة ذوات الأربع وله جناحان يطير بهما مع الطيور ولما كان بصره يضعف عن نور الشمس كان نهاره كليل غيره فإذا غابت الشمس انتشر ومن ذلك سمى ضعيف البصر أخفش والخفش ضعف البصر ولما كان كذلك جعل قوته من هذه الطيور الضعاف التي لا تطير إلا بالليل . وقد زعم بعض من تكلم في الحيوان أنه ليس يطعم شيئاً وإنما غذاؤه من النسيم البارد فقط وهذا كذب عليه وعلى الخلق لأنه يبول وقد تكلم الفقهاء في بوله هل هو نجس لأنه بول غير مأكول أو نجس معفو عن يسيره لمشقة التحرز منه على قوانين همارايتان عن أحد وبعض الفقهاء لا ينجس بوله بحال وهذا أقيس الأقوال إذ لا نص فيه ولا يصح قياسه على الأبوال النجسة لعدم الجامع المؤثر ووضوح الفرق وليس هذا موضع استيفاء الحجج في هذه المسئلة من الجانبين . والمقصود أنه لو كان لا يأكل شيئاً لم يكن له أسنان إذ لا معنى للأسنان في حق من لا يأكل شيئاً ولهذا لما عدم الطفل الرضيع الأكل لم يعط الأسنان فلما كبر واحتاج للغذاء أعين عليه بالأسنان التي تقطعه والأضراس التي تطحنه وليس في الخليفة شيء مهمل ولا عن الحكمة بمعطل ولا شيء لا معنى له وأما الحكم والمنافع في خلق الخفاش فقد ذكر منها الأطباء في كتبهم ما انتهت إليه معرفتهم حتى أن بوله يدخل في بعض الأحكال فإذا كان بوله الذي لا يخطر بالبال فيه منفعة البتة فما الظن بجملته ولقد أخبر بعض من أشهد بصدقه أنه رأى رخلا وهو طائر معروف قد عشش في شجرة فنظر إلى حية عظيمة قد أقبلت نحو عشه

فانتحة فاما لتبتلمه فينخامو يضطرب في حيلة النجاة منها إذ وجد حسكة في العش لخملا فألقاها في فم الحية فلم تزل تتلوى حتى ماتت .

فصل

ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات فانظر إليها وإلى اجتماعها في صفة العسل وبنائها البيوت المسدسة التي هي من أتم الأشكال وأحسنها استدارة وأحكمها صنعا فإذا انضم بعضها إلى بعض لم يكن بينها فرجة ولا خلل كل هذا بغير مقياس ولا آلة ولا بيكار وتلك من أثر صنع الله وإلهامه إياها وإيحائه إليها كما قال تعالى (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا) إلى قوله (لآيات لقوم يتفكرون) فتأمل كمال طاعتها وحسن اتتمارها لأمر ربها اتخذت بيوتها في هذه الامكنة الثلاثة في الجبال الشقفان وفي الشجر وفي بيوت الناس حيث يعرشون أى يبنون العروش وهي البيوت فلا يرى للنحل بيت غير هذه الثلاثة البتة . وتأمل كيف أكثر بيوتها في الجبال والشقفان وهو البيت المقدم في الآية ثم في الأشجار وهي من أكثر بيوتها وبما يعرش الناس وأقل بيوتها بينهم حيث يعرشون وأما في الجبال والشجر فبيوت عظيمة يؤخذ منها من العسل الكثير جدا وتأمل كيف أداها حسن الامثال إلى أن اتخذت البيوت أولا فإذا استقر لها بيت خرجت منه فرعت وأكلت من الثمار ثم آوت إلى بيوتها لأن ربها سبحانه أمرها باتخاذ البيوت أولا ثم بالأكل بعد ذلك ثم إذا أكلت سلكت سبل ربها مدللة لا يستوعز عليها شيء ترعى ثم تعود ومن عجيب شأنها أن لها أميراً يسمى اليعسوب لا يتم لها رواح ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلا به فهي مؤتمرة لأمره سامعة له مطيعة وله عليها تكليف وأمر ونهى وهي رعية له منذادة لأمره متبعة لرأيه يدبرها كما يدبر الملك أمر رعيته حتى انها إذا آوت إلا بيوتها وقف على باب البيت فلا بدع واحدة تراحم الأخرى ولا تتقدم عليها في العبور بل تعبر بيوتها واحدة بعد واحدة بغير تراحم ولا تصادم ولا تراحم كما يفعل الأمير إذا انتهى بعسكره إلى معبر ضيق لا يجوزه الا واحد واحد ومن تدبر أحوالها وسياساتها وهدايتها واجتماع شملها وانتظام أمرها وتدبير ملكها وتفويض كل عمل إلى واحد منها يتمعجب منها كل العجب ويعلم أن هذا ليس في مقدورها ولا هو من ذاتها فإن هذه أعمال محكمة متقنة في غاية الاحكام والإتقان فإذا نظرت إلى العامل رأيت من أضعف خلقى الله وأجهل بنفسه وبحاله وأعجزه عن القيام بمصلحته فضلا عما يصدر عنه من الأمور العجيبة . ومن عجيب أمرها أن فيها أميرين لا يجتمعان في بيت واحد ولا يتأمران على جمع واحد بل إذا اجتمع منها جندان وأميران قتلوا أحداً الأميرين وقطعوه وانفقوا على الأمير الواحد

عن غير معاداة بينهم ولا أذى من بعضهم لبعض بل يصيرون يداً واحدة وجنوداً واحداً .

فصل

ومن أعجب أمرها ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه وهو التاج الذى يكون لها هل هو على وجه الولادة والتوالد أو الاستحالة فقل من يعرف ذلك أو يفطن له وليس تاجها على واحد من هذين الوجهين وإنما تاجها بأمر من أعجب العجيب فإنها إذا ذهبت إلى المرعى أخذت تلك الأجزاء الصافية التى على الورق من الورد والزهر والحشيش وغيره وهى الطل فتمصها وذلك مادة العسل ثم انها تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتنعقدها على رجلها كالعنسة فتملاً بها المسدسات الفارغة من العسل ثم يقوم بعسوبها على يته مبتدئاً منه فينفخ فيه ثم يطوف على تلك البيوت بيتاً بيتاً وينفخ فيها كلها فتذب فيها الحياة بإذن الله عز وجل فتتحرك وتخرج طيوراً بإذن الله وتلك إحدى الآيات والمعجائب التى قل من يفطن لها وهذا كله من ثمرة ذلك الوحي الإلهى أفادها وأكسبها هذا التدبير والسفر والمعاش والبناء والتاج فسل المعطل من الذى أوحى إليها أمرها وجعل ما جعل فى طباعها ومن الذى سهل لها سبله ذللاً منقاداً لا تستعصى عليها ولا تستوعرها ولا تنضل عنها على بعدها ومن الذى هداها لثأنها ومن الذى أنزل لها من الطل ما إذا جنته ردهه عسلاً صافياً مختلفاً ألوانه فى غاية الحلاوة واللذاعة والمنفعة من بين أبيض يرى فيه الوجه أعظم من رؤيته فى المرأة وسماه لى من جاء به وقال هذا أغر ما يعرف الناس من العسل وأصفاه وأطيبه فإذا طعمه الذشىء يكون من الحلوى ومن بين أحمر وأخضر ومورد وأسود وأشقر وغير ذلك من الألوان والطعوم المختلفة فيه بحسب مراعيه ومادتها وإذا تأملت ما فيه من المنافع والشفاء ودخوله فى غالب الأدوية حتى كان المتقدمون لا يعرفون السكر ولا هو مذكور فى كتبهم أصلاً وإنما كان الذى يستعملونه فى الأدوية هو العسل وهو المذكور فى كتب القوم ولعمرك الله انه لا نفع من السكر وأجدى وأجلى للاخلاط وأقع لها وأذهب لضررها وأقوى للعدة وأشد تفرحاً للنفس وتقوية للأرواح وتنفيذاً للدواء وإعانة له على استخراج الداء من أعماق البدن ولهذا لم يجيء فى شيء من الحديث قط ذكر السكر ولا كانوا يعرفونه أصلاً ولو عدم من العالم لما احتاج اليه ولو عدم العسل لاشتدت الحاجة إليه وإنما غلب على بعض المدن استعمال السكر حتى هجروا العسل واستطابوه عليه ورأوه أقل حدة وحرارة منه ولم يعلوا أن من منافع العسل ما فيه من الحدة والحرارة فإذا لم يوافق من يستعمله كسرهما بمقابلها فيصير أنفع له من السكر وسنفرده إن شاء الله مقالة نبين فيها فضل العسل على

السكر من طرق عديدة لا يمتنع وبراهين كثيرة لا تدفع ومتى رأيت السكر يجلو بلغمًا ويذيب
خلطًا أو يشفي من داءٍ وإنما غاية بعض التنفيذ للدواء إلى العروق للطافته وحلاوته وأما
الشفاء الحاصل من العسل فقد حرمة الله كثيرًا من الناس حتى صاروا يذمون ويحشون غائلته
من حرارته وحدته ولا ريب أن كونه شفاءً وكون القرآن شفاءً والصلاة شفاءً وذكر الله
والإقبال عليه شفاءً أمر لا يعم الطبائع والأفئدة فهذا كتاب الله هو الشفاء النافع وهو أعظم
الشفاء وما أقل المستكشفين به بل لا يزيد الطبائع الرديئة إلا رداءً ولا يزيد الظالمين إلا خساراً
وكذلك ذكر الله والإقبال عليه والانتابة إليه والفزع إلى الصلاة كم قد شفى به من عليلٍ وم
قد عوفى به من مريضٍ ومقام كثير من الأدوية التي لا تبلغ قريباً من مبلغه في الشفاء
وأنت ترى كثيراً من الناس تل أكثرهم لانصيب لهم من الشفاء بذلك أصلاً ولقد رأيت
في بعض كتب الأطباء المسلمين في ذكر الأدوية المفردة ذكر الصلاة ذكرها في باب الصاد
وذكر من منافعها في البدن التي توجب الشفاء وجوها عديدة ومن منافعها في الروح والقلب .
وسمعت شيخنا أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول وقد عرض له بعض الأئم فقال له
الطبيب أضر ما عليك الكلام في العلم والفكر فيه والتوجه والذكر فقال أستم تزعمون
أن النفس إذا قويت وفرحت أوجب فرحها لها قوة تعين بها الطبيعة على دفع العارض
فإنه عدوها فإذا قويت عليه فهرته فقال له الطبيب بلى فقال إذا اشغلت نفسى بالتوجه
والذكر والكلام في العلم وظهرت بما يشكل عليها منه فرحت به وقويت فأوجب ذلك
دفع العارض هذا أو نحوه من الكلام . والمقصود أن ترك كثير من الناس الاستشفاء
بالعسل لا يخرجهم عن كونه شفاءً كما أن ترك أكثرهم الاستشفاء بالقرآن من أمراض القلوب
لا يخرجهم عن كونه شفاءً لها وهو شفاء لما في الصدور وإن لم يستشف به أكثر المرضى كما
قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة
للؤمنين) فعم بالموعظة والشفاء وخص بالهدى والمعركة فهو نفسه شفاء استشفى به أولم
يستشف به ولم يصف الله في كتابه بالشفاء إلا القرآن والعسل فهما الشفاء أن هذا شفاء
القلوب من أمراض غيبها وضلها وأدواء شبهاتها وشهواتها وهذا شفاء للأبدان من كثير
من أسقامها وأخلطها وآفاتنا . ولقد أصابني أيام مقامى بمكة أسقام مختلفة ولا طبيب
هناك ولا أدوية كما في غيرها من المدن فكنت أستشفى بالعسل وماء زمزم ورأيت فيهما من
الشفاء أمراً عجيباً وتأمل أخباره سبحانه وتعالى عن القرآن بأنه نفسه شفاء وقال عن
العسل (فيه شفاء للناس) وما كان نفسه شفاءً أبليغ مما جعل فيه شفاء وليس هذا موضع
استقصاء فوائد العسل ومنافعه .

فصل

ثم تأمل العبرة التي ذكرها الله عز وجل في الأنعام وماسقانا من بطونها من اللبن الخالص. السائغ الهنيء المرىء الخارج من بين الفرت والدم فتأمل كيف ينزل الغذاء من أفواهها إلى المعدة فينقلب بعضه دماً بإذن الله وما يسرى في عروقها وأعضائها وشورها ولحومها فإذا أرسلته العروق في مجاريها إلى جملة الأجزاء قبه كل عضو أو عصب وغضروف وشعر وظفر وحافر إلى طبيعته ثم يبقى الدم في تلك الخزائن التي له إذ به قوام الحيوان ثم ينصب ثقله إلى السكرش فيصير زبلاً ثم ينقلب باقيه لبناً صافياً أبيض سائغاً للشاربين فيخرج من بين الفرت والدم حتى إذا أنهكت الشاة أو غيرها حلباً خرج الدم مشوباً بحمرة فضنى الله سبحانه الألف من الثفل بالطبخ الأول فانفصل إلى السكبد وصار دماً وكان مخلوطاً بالأخلاق الأربعة فأذهب الله عز وجل كل خياط منها إلى مقره وخزائنه المهمة له من الحرارة والطحال والسكية وباقي الدم الخالص يدخل في أوردة السكبد فينصب من تلك العروق إلى الصرع فيقبله الله تبارك وتعالى من صورة الدم وطبعه وطعمه إلى صورة اللبن وطبعه وطعمه فاستخرج من الفرت والدم فسل المعطل الجاحد من الذي دبر هذا التدبير وقدر هذا التقدير وأتقن هذا الصنع ولطف هذا اللطف سوى اللطيف الخبير .

فصل

ثم تأمل العبرة في السمك وكيفية خلقته وأنه خلق غير ذى قوائم لأنه لا يحتاج إلى المشى إذ كان مسكنه الماء ولم يخلق له رئة لأن منفعة الرئة التنفس والسمك لم يحتاج إليه لأنه ينغمس في الماء وخلقت له عوض القوائم أجنحة شداد يقذف بها من جابه كما يقذف صاحب المركب بالمقاذيف من جانبي السفينة وكسى جلده قشوراً متداخلة كتداخل الجوشن ليقيه من الآفات وأعين بقوة الشم لأن بصره ضعيف والماء يحجبه فصار يشم الطعام من بعد فية صده وقد ذكر في بعض كتب الحيوان أن من فيه إلى صماخه منافذ فهو يصب الماء فيها بفيه ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك كما يأخذ الحيوان النسيم البارد بأنفه ثم يرسله ليتروح به فإن الماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البرى فهما بجران أحدهما أطف من الآخر بجر هواء يسبح فيه حيوان البر وبحر ماء يسبح فيه حيوان البحر فلو فارق كل من الصنفين بجره إلى البحر الآخر مات فدما يمتنع الحيوان البرى في الماء يمتنع الحيوان البحري في الهواء فسبحان من لا يحصى العادون آياته ولا يحيطون بتفصيل آية منها على الانفراد بل أن علموا فيها وجهاً جعلوا منها وجهاً . فتأمل الحكمة البالغة في كون السمك أكثر الحيوان نسلًا . ولهذا ترى في جوف السمكة الواحدة من البيض ما لا يحصى كثرة (وحكمة ذلك) أن يتسع لما

يفتدى به من أصناف الحيوان فإن أكثرها يأكل السمك حتى السباع لأنها في حافات الاجام
جائمة تمكف على الماء الصافي فإذا تعذر عليها صيد البر رصدت السمك فاخطفته فلما كانت
السباع تأكل السمك والطير تأكله والناس تأكله والسمك الكبار تأكله ودواب البر تأكله
وقد جعله الله سبحانه غذاء لهذه الأصناف اقتضت حكمته أن يكون بهذه الكثرة ولو رأى
العبد مافي البحر من ضروب الحيوانات والجواهر والأصناف التي لا يحصيها إلا الله ولا
يعرف الناس منها إلا الشيء القليل الذي لا نسبة له أصلاً إلى ما غاب عنهم لرأى العجب
ولعلم سعة ملك الله وكثرة جنوده التي لا يعلمها إلا هو (وهذا الجراد) ثرة حوت (١) من
حيتان البحر ينثره من منخره وهو جند من جنود الله ضعيف الحلقة عجيب التركيب فيه
خلق سبع حيوانات فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جنداً لا مرد له ولا يحصى منه
عدد ولا عدة فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك فانظر كيف
ينساب على الأرض كالسيل فيغشي السهل والجبل والبدو والحضر حتى يستر نور الشمس بكثرتة ويسد
وجه السماء بأجنحته ويبلغ من الجوارح حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه فسل الممطل
من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيواناً رام أخذه بلية
على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه بل ينظرون
إليه يستبد بأقواتهم دونهم ويمزقها كل ممزق وينذر الأرض فقراً منها وهم لا يستطيعون أن
يردوه ولا يحولوا بينه وبينها وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا
مؤنة له على القوى فينتقم به منه وينزل به ما كان يحذره منه حتى لا يستطيع لذلك رداً ولا صرفاً
قال الله تعالى (وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين
ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) فواحسرتاه
على استقامة مع الله وإيثار لمرضاته في كل حال يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى
من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل
الظالم الباغي ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغى عليه فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في
حق ظالمه كما أن المسؤل إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه ولو صدق السائل لما أفلح من رده
وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها ولو أدوا الله عليهم
فيها لحفظها الله عليهم وهذا أيضاً باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار
التقدير وتسلط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبعاة فسبحان من له في كل شيء حكمة

(١) - (قوله ثرة حوت الخ) في هامش الأصل بخط بعض الفضلاء ما نصه ليس كذلك بل المراد من
كونه ثرة حوت اتحاد حكمها في حل أكل ميتتها كما صرخ بذلك شراح الحديث اه وهو مقبول اه صححه.

بالفة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تهيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولذلك لم يسلط عليهم منها شيء . ولعل هذا الفصل الاستطراذى أرفع لمنأمله من كثير من الفصول المتقدمة فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدا والله الموفق ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيمه على أنه خالص فأرسل الله عليه سيلا فذهب بالغنم فجعل يعجب فأنى في منامه فقيل له أنعجب من أخذ النسل غنمك أنه تلك القطرات التي شبت بها اللبن اجتمعت وصارت سيلا فقس على هذه الحكاية ماتراه في نفسك وفي غيرك . تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط وأنه قائم على كل نفس بما كسبت وأنه لا يظلم مثقال ذرة . والآثر الإسرائيلى معروف أن رجلا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به فركب البحر ومعه قرد له فلما نام أخذ القرد الكيس وصعد به إلى أعلى المركب ثم فتحه فجعل يلقىه دينارا في الماء ودينارا في المركب كما أنه يقول له بلسان الحال ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك . وتأمل حكمة الله عز وجل في حبس الغيث عن عباده وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين كيف جوزوا على منع ما للساكين قبلهم من القوت بمنح الله مادة القوت والرزق وحبسها عنهم فقال لهم بلسان الحال منعم الحق فنعمت الغيث فهلا استنزتموه ببذل ما لله قبلكم . وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه فصددهم عنه كما صدوا عباده صادا بصد ومنعاً يمنع . وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسيط المتلفات عليها كما فعلوا بأموال الناس ومحقها عليهم وألقوها بالربا جوزوا إتلافاً باتلاف فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة . وتأمل حكمته تعالى في تسيط العدو على العباد إذا جار قويمهم على ضعيفهم ولم يؤخذ للظلم حقه من ظالمه كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعالهم برعاياهم وضعفائهم سواء وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها . وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم بل كأن أعمالهم ظهرت في صور وولاتهم وملوكهم فان استقاموا استقامت ملوكهم وإن عدلوا عدلت عليهم وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق وبخلوا بها عليهم وإن أخذوا ممن يستضعفونه ما لا يستحقونه في معاملتهم أخذت منهم الملوك ما لا يستحقونه وضربت عليهم المكوس والوظائف وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم وليس في الحكمة الألفية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يسكون من جنسهم ولما كان الصدر الأول خيار

القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك فلما شابوا شابت لهم الولاية فحكمة الله تأتي أن يولى علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز فضلاً عن مثل أبي بكر وعمر بل ولاتنا على قدرنا وولاية من قبلنا على قدرهم وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها ومن له قطنه إذا سافر يفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر ظاهرة وباطنة فيه كما في الخلق والأمر سواء فأياك أن تظن بظنك الفاسدان شيئاً من أفضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة بل جميع أفضيته تعالى وأقداره واقعة على آتم وجوه الحكمة والصواب وإسكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت ونطقت وقالت كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار .

خفافيش أعشاها النهار بضوته ولازمها قطع من الليل مظلم

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم كما قال تعالى ﴿ وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم د إلى قوله يظلمون ﴾ وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة واعتبر هذا بمن مسخوا قرده وخنائير كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم كيف تراها بادية عليها وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية فاقرأ نسخة القرده من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرأ وخداعاً وفسقاً فإن لم تقرأ نسخة القرده من وجوههم فلسست من المتوسمين وقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولا سيما أعداء خيار خلق الله بمد الرسل وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب وهي تظهر وتختفي بحسب خنزيرية القلب وخبثه فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردوها طباعاً ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها ويقوم الإنسان عن رجيعة فيبادر إليه فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقاً عليهم فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين فاستمأنوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشركين والكفار وصرحوا بأنهم خير منهم فأى شبهة ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير فإن لم تقرأ هذه

النسخة من وجوههم فليست من المتوسمين . وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسوخ من مسوخ منهم عند الموت خزيراً فأكثر من أن تذكرها هنا وقد أفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسي كتاباً وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعماراً وأعظم قوى وأعتى على الله وعلى رسوله فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين فكانت الحكمة في كل واحد من الأمرين ما اقتضته في وقته وتأمل حكمته تبارك وتعالى في إرسال الرسل في الأمم واحداً بعد واحد كلما مات واحد خلفه آخر ل حاجتها إلى تتابع الرسل والأنبياء لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق فلما انتهت النبوة إلى محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلى أكل الأمم عقولاً ومعارف وأصحابها أذهاناً وأغزرها علومها وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلى حين مبعثه فأغنى الله لامة بكال رسولها وكال شريعته وكال عقولها وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته ووكلمهم بها حتى يؤدوها إلى نظرائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم فلم يحتاجوا معه إلى رسول آخر ولا نبي ولا محدث ولهذا قال صلى الله عليه وسلم أنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر لجزم بوجود المحدثين في الأمم وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط وليس هذا بنقصان في الأمة على من قبلهم بل هذا من كمال أمته على من قبلها فإنها لكالها وكال نبيها وكال شريعته لا تحتاج إلى محدث بل إن وجد فهو صالح للتابعة والاستشهاد لأنه عمدة لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو إلهام أو تحديث وأما من قبلها فللحاجة إلى ذلك جعل فيهم المحدثون . ولا تقطن أن تخصيص عمر رضى الله عنه بهذا تفضيل له على أبي بكر الصديق بل هذا من أقوى مناقب الصديق فإنه لكال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدى الرسالة استغنى بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره فالذى يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذى يتلقاه عمر من التحديث فتأمل هذا الموضوع وأعطه حقه من المعرفة وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أكل خلقه وأكلهم شريعة وإن أمته أكل الأمم وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال ولقد فتح الله الكريم فيه الباب وأرشد فيه إلى الصواب وهو المرجو لتام نعمته ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فصل

فأعد الآن النظر فيك وفي نفسك مرة ثانية من الذى دبرك بالطف

التدبير وأنت جنين في بطن أمك في موضع لا يد تنالك ولا بصر يدركك. ولا حيلة لك في التماس الغذاء ولا في دفع الضرر فن الذي أجرى إليك من دم الأم ما يغذوك كما يغذو الماء النبات وقلب ذلك الدم لبنا ولم يزل يغذيك به في أضيق المواضع وأبعدها من حيلة التمسك والطلب حتى إذا كمل خلقك واستحكمت وقوى أديمك على مباشرة الهواء وبصرك على ملاقاته الضياء وصلبت عظامك على مباشرة الأبدى والتقلب على الغبراء هاج الطلق بأملك فازعجك إلى الخروج أيما ازعاج إلى عالم الابتلاء فركضك الرحم ركضة من مكانك كأنه لم يضمك قط ولم يشتمل عليك فيما بعد ما بين ذلك القبول والاشتغال حين وضعت نطفة وبين هذا الدفع والطرود والإخراج وكان مبهتجا بحملك فصار يستغيث ويعج إلى ربك من ثقلك فن الذي فتح لك بابه حتى ولجت ثم ضمه عليك حتى حفظت وكنلت ثم فتح لك ذلك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلبح البصر لم يخفقك ضيقه ولم تحبسك صعوبة طريقك فيه فلو تأملت حالك في دخولك من ذلك الباب وخروجك منه لذهب بك العجب كل مذهب فن الذي أوحى إليه أن يتضايق عليك وأنت نطفة حتى لا تفسد هناك وأوحى إليه أن يتسع لك وينفسح حتى تخرج منه سليماً إلى أن خرجت فريداً وحيداً ضميماً لا قشرة ولا لباس ولا متاع ولا مال أحوج خلق الله وأضعفهم وأفقرهم فصرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتين معلقتين على صدرها تحمل غذاءك على صدرها كما حملتك في بطنها ثم ساقه إلى تينك الخزانتين ألطف سوق على مجار وطرق قد تهأت له فلا يزال واقفاً في طرقة ومجار به حتى تستوفى ما في الخزانة فيجري وينساق إليك فهو بئر لا تنقطع مادتها ولا تنسد طرقها يسوقها إليك في طرق لا يهتدى إليها الطواف ولا يساكنها الرجال فن رقه لك وصفاء وأطاب طعمه وحسن لونه وأحكم طبخه أعدل لإحكامه لا بالخار المؤذى ولا بالبارد الردي ولا المر ولا المالح ولا الكريه الرائحة بل قلبه إلى ضرب آخر من التغذية والمنفعة خلاف ما كان في البطن فوافقك في أشد أوقات الحاجة إليه على حين ظمأ شديد وجوع مفرط جمع لك فيه بين الشراب والغذاء فحين تولد قد تلظت وحركت شفيتك للرضاع فتجد الثدي المعلق كالإداة قد تدلى إليك وأقبل بدره عليك ثم جعل في رأسه تلك الحلة التي هي بمقدار صغرك فلا يضيق عنها ولا تتعب بالتقامها ثم نصب لك في رأسها نقياً لطيفاً بحسب احتمالك ولم يوسعه فنتحنت باللبن ولم يضيقه فتمصه بكلفة بل جعله بقدر اقتضته حكمته ومصالحتك فن عطف عليك قلب الأم ووضع فيه الحنان العجيب والرحمة الباهرة حتى تكون في أنها ما يكون من شأنها وراحتها ومقبلها فإذا أحست منك بأدنى صوت أو بكاء قامت إليك وآثرتك على نفسها على عدد الأنفس منقادة إليك بغير قائد ولا سائق إلا قائد الرحمة وسائق

الحنان تود لو أن كل ما يؤلمك بجسمها وأنه لم يطرقك منه شيء وأن حياتها تزداد في حياتك
فن الذى وضع ذلك في قلبها حتى إذا قوى بدنك واتسعت أعضائك وخشنت عظامك
واحتجت إلى غذاء أصلب من غذائك ليشتد به عظمك ويقوى عليه لحمك . وضع في فيك
آله القطع والطحن فنصب لك أسنانا تقطع بها الطعام وطواحين تطحن بها فن الذى حبسها
عنك أيام رضاعتك رحمة بأمك ولطفا بها ثم أعطاكها أيام أكلك رحمة بك وإحسانا إليك
ولطفا بك فلو أنك خرجت من البطن ذا سن وناب وناجذ وضرر كيف كان حال
أمك بك ولو أنك منعها وقت الحاجة إليها كيف كان حالك بهذه الأظعمة التي لا تسيغها
إلا بعد تقطيعها وطحنها وكلما ازدادت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل المطاعم المختلفة
زيد لك في تلك الآلات حتى تنتهى إلى النواجذ فتطبق نهش اللحم وقطع الخبز وكسر
الصلب ثم إذا ازدادت قوة زيد لك فيها حتى تنتهى إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس .
فن الذى ساعدك بهذه الآلات وأنجدك بها ومكنك بها من ضروب الغذاء ؟ ثم أنه اقتضت
حكمته أن أخرجك من بطن أمك لا تعلم شيئا بل غيبا لا عقل ولا فهم ولا علم وذلك
من رحمته بك فإنك على ضعفك لا تحتمل العقل والفهم والمعرفة بل كنت تتمزق وتتصدع
بل جعل ذلك ينتقل فيك بالتدريج شيئا فشيئا فلا يصادفك ذلك وهلة واحدة بل
يصادفك يسيرا يسيرا حتى يتكامل فيك . واعتبر ذلك بأن الطفل إذا سبي صغيرا من بلده
ومن بين أبويه ولا عقل له فانه لا يؤلمه ذلك وكلما كان أقرب إلى العقل كان أشق عليه
وأصعب حتى إذا كان عاقلا فلا يراه إلا كالواله الحيران ثم لو ولدت عاقلا فيها كحالك
في كبرك تنفصت عليك حياتك أعظم تنغيص وتنكدت أعظم تنكيد لأنك ترى نفسك
محولا رضعا معصبا بالخرق مربطا بالقمط مسجوناً في المهدي عاجزا ضعيفا عما يحاوله
الكبير فكيف كان يكون عيشك مع تعلقك التام في هذه الحالة ثم لم يكن يوجد لك
من الحلاوة واللطافة والوقع في القلب والرحمة بك ما يوجد للولود الطفل بل تكون
أنك خلق الله وأنفلمهم وأعنتهم وأكثرهم فضولا وكان دخولك هذا العالم وأنت غبي
لا تعقل شيئا ولا تعلم ما فيه أهله محض الحكمة والرحمة بك والتدبير فتلقى الأشياء
بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد فيك العقل والمعرفة شيئا فشيئا حتى
تألف الأشياء وتتمرن عليها وتخرج من التأمل لها والخيرة فيها وتستقبلها بحسن التصرف
فيها والتدبير لها والإلتقان لها . وفي ذلك وجوه أخر من الحكمة غير ما ذكرناه . فن
هذا الذى هو قيم عليك بالمرصاد يرصدك حتى يوافيك بكل شيء من المنافع والآراب
والآلات في وقت حاجتك لا يقدمها عن وقتها ولا يؤخرها عنه ثم أنه أعطاك الأظفار

وقت حاجتك إليها لمنافع شتى فإنها تعين الأصابع وتقويها فإن أكثر العمل لما كان
برؤس الأصابع وعليها الاعتماد أعيئت بالأظفار قوة لها مع ما فيها من منفعة حك الجسم
وقنط الأذى الذى لا يخرج باللحم عنه إلى غير ذلك من فوائدها ثم جعلك بالشعر على
الرأس زينة ووقاية وصيانة من الحر والبرد إذ هو يجمع الحواس ومعدن الفكر
والذكر وثمره العقل تنتهى إليه ثم خص الذكريان بجمال وجهه باللحية وتوابعها وقارا
وهيبة له وجمالا وفصله عن سن الصبا وفرقا بينه وبين الإناث وبقيت الأثى على
حالتها لما خلقت له من استمتاع الذكر بها فبقى وجهها على حاله ونضارته ليكون أهيب للرجل
على الشهوة وأكمل للذة الاستمتاع فالما واحد والجوهر واحد والوعاء واحد والفتاح واحد
فمن الذى أعطى الذكر الذكورية والآثى الأنوثة. ولا تلتفت إلى ما يقوله الجهلة من الطبايعيين
فى سبب الإذكار والإيناث وإحالة ذلك على الامور الطبيعية التى لا تنكاد تصدق فى هذا الموضوع
إلا اتفاقا وكذبها أكثر من صدقها وليس استناد الإذكار والإيناث إلا إلى محض الرسوم
الإلهى الذى يلقى به إلى ملك التصوير حين يقول يارب ذكر أم آثى شتى أم سعيد فما الرزق
فما الأجل فيوحى ربك ما يشاء. ويكتب الملك فإذا كان للطبيعة تأثيراً فى الإذكار والإيناث
فلهما تأثير فى الرزق والأجل والشقاوة والسعادة وإلا فلا إذ مخرج الجميع ما بوحى الله إلى
الملك ونحن لا ننكر ان لذلك أسبابا أخر ولكن تلك من الأسباب التى استأثر الله بها دون
البشر قال الله تعالى (الله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن
يشاء الذكور) إلى قوله قدير. فذكر أصناف النساء الأربعة مع الرجال أحدها من تلد الإناث
فقط. الثانية من تلد الذكور فقط. الثالثة من تلد الزوجين الذكر والآثى وهو معنى التزويج
هنا أن يجعل ما يهب له زوجين ذكراً وأنثى. الرابعة العقيم التى لا تلد أصلاً. وبما يدل على أن
سبب الإذكار والإيناث لا يعلمه البشر ولا يدرك بالقياس والفكر وإنما يعلم بالوحى ماروى
مسلم فى صحيحه من حديث ثوبان قال كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء جبر من أحبار
اليهود فقال السلام عليك يا محمد فدفعته دفعة كاد يصرع منها فقال لم تدفعنى فقلت ألا تقول
يا رسول الله فقال اليهودى إنما ندعوه باسمه الذى سماه به أهله فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم إن اسمى محمد الذى سماه به أهلى قال اليهودى جئت أسألك فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم أينفعلك شيء إن حدثتكم قال أسمع بأذنى فنهكت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعود معه فقال سل
فقال اليهودى أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم هم فى الظلمة دون الجسر قال فمن أول الناس إجازة قال فقراء المهاجرين قال اليهودى فما
تحفتهم حين يدخلون الجنة فقال زيادة كبد حوت ذى النون قال فما غناؤهم على أثرها قال

ينحرف لهم نور الجنة الذي يأكل من أطرافها قال فما شراهم عليه قال من عين تسمى
سلسيلا قال صدقت وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه إلا نبي أو رجل أو رجلان
قال ينفعك إن حدثت قال أسمع بأذني قال جئت أسألك عن الولد قال ماء الرجل أبيض وماء
المرأة أصفر فإذا اجتمعا فعلا مني الرجل مني المرأة أذكر ياذن الله وإن علامني المرأة مني
الرجل أني ياذن الله قال اليهودي لقد صدقت وإنك لنبى ثم انصرف فقال رسول الله صلى
الله عليه وسلم لقد سألتني عن هذا الذى سألتني عنه ومالى علم به حتى أتاني الله به والذي دله
عليه العقل والنقل أن الجنين يتخلق من الماين جميعاً فالذكر يقذف مائه في رحم الأنثى
وكذلك هي تنزل مائها إلى حيث ينتهى مائه فيلتقى الماين على أمر قد قدره الله وشاءه
فيخلق الولد بينهما جميعاً وأيهما غلب كان الشبه له كما في صحيح البخارى عن حميد عن أنس
قال بلغ عبد الله بن سلام قدوم النبي ﷺ فأتاه فقال إني سألتك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي
قال ما أول أشرط الساعة وما أول طعام يأكله أهل الجنة ومن أى شيء ينزع الولد إلى
أبيه ومن أى شيء ينزع إلى أخواله فقال رسول الله ﷺ أخبرني بهن أنا جبريل فقال
عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ أما أول أشرط الساعة فنار
تخشر الناس من المشرق إلى المغرب وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت وأما
الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشى المرأة وسبقها مائه كان الشبه له وإن سبقت كان الشبه لها فقال
أشهد أنك رسول الله وذكر الحديث وفي الصحيحين عن أم سلمة قالت يا رسول الله إن الله لا يستحي
من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت قال نعم إذا رأت الماء الأصفر فضحكت أم سلمة
فقال وتحتلم المرأة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فم يشبهها الولد فهذه الأحاديث الثلاثة تدل
على أن الولد يتخلق من الماين وأن الإذكار والإينات يكون بغلبة أحد الماين وقهره الآخر
وعلوه عليه وإن الشبه يكون بالسبق فمن سبق مائه إلى الرحم كان الشبه له وهذه أمور ليس
عند أهل الطبيعة ما يدل عليها ولا تعلم إلا بالوحى وإيس في صناعتهم أيضاً ما ينافيها على أن
في النفس من حديث ثوبان ما فيها وأنه يخاف أن لا يكون أحد رواه حفظة كما ينبغي وأن
يكون السؤال إنما وقع فيه عن الشبه لا عن الإذكار والإينات كما سأل عنه عبد الله بن
سلام ولذلك لم يخرج البخارى وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن أبي بكر عن أنس عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال إن الله وكل بالرحم ملكاً فيقول يارب نطفة يارب علقة يارب
مضغة فإذا أراد أن يخلقها قال يارب أذكر أم أنثى شق أم سعيد فما الرزق فما الأجل فيكتب
كذلك في بطن أمه أفلا ترى كيف أحال بالإذكار والإينات على مجرد المشيئة وقرنه بما لا تأثير للطبيعة
فيه من الشقاوة والسعادة والرزق والأجل ولم يتعرض الملك لكتبه الذى للطبيعة فيه مدخل ولا ترى
عبد الله بن سلام لم يسأل إلا عن الشبه الذى يمكن الجواب عنه ولم يسأل عن الإذكار والإينات

مع أنه أبلغ من الشبه وافته أعلم وإن كان رسول الله ﷺ قد قاله فهو عين الحق وعلى كل تقدير فهو يطل ما زعمه بعض الطبايعيين من معرفة أسباب الإذكار والإيثار والله أعلم.

فصل

فانظر كيف جعلت آلات الجماع في الذكور والأنثى جميعاً على وفق الحكمة فجعلت في حق الذكر آلة ناشرة تمتد حتى توصل المني إلى قعر الرحم بمنزلة من يتناول غيره شيئاً فهو يمد يده إليه حتى يوصله لإياه ولأنه يحتاج إلى أن يقذف ماءه في قعر الرحم وأما الأنثى فجعل لها وعاء مجوف لأنها تحتاج إلى أن تقبل ماء الرجل وتمسكه وتشتمل عليه فأعطيت آلة تليق بها ثم لما كان ماء الرجل ينحدر من أجزاء الجسد رقيقاً ضعيفاً لا يخلق منه الولد جعل له الأنثيان وعاء يطبخ فيهما ويحكم إفضاجه ليشدد وينعقد ويصير قابلاً لأن يكون مبدأ للتخليق ولم تحتاج المرأة إلى ذلك لأن رقة مائها ولطافته إذا مازج غلظ ماء الرجل وشدته قوى به واستحکم ولو كان الماء رقيقاً ضعيفاً لم يتكون الولد منهما وخص الرجل بالآلة النضج والطبخ لحكم منها أن حرارته أقوى والأنثى باردة فلو أعطيت تلك الآلة لم يستحکم طبخ الماء وإفضاجه فيها ومنها أن ماءها لا يخرج عن محله بل ينزل من بين ترائبها إلى محله . ومنها أنها لما كانت محلاً للجماع أعطيت من الآلة ما يليق بها فلو أعطيت آلة الرجل لم تحصل لها اللذة والاستمتاع ولكانت تلك الآلة معطلة بغير منفعة فالحكمة التامة فيما وجدت خلقة كل منهما عليه .

فصل

فارجع الآن إلى نفسك وكرر النظر فيك فهو يكفيك وتأمل أعضائك وتقدير كل عضو منها للأرب والمنفعة المهيأ لها فاليدان للعلاج والبطش والأخذ والإعطاء والمحاربة والدفع . والرجلان لخل البدن والسمي والركوب وانتصاف القامة والعينان للاهتمام والجمال والزينة والملاحة ورؤية مافي السموات والأرض وآياتها ومعجزاتهما . والشم للذواء والكلام والجمال وغير ذلك . والآنق للنفس وإخراج فضلات الدماغ وزينة للوجه . واللسان للبيان والترجمة عنك . والأذان صاحبتا الأخبار وتوديانها إليك . واللسان يبلغ عنك . والمعدة خزانة يستقر فيها الغذاء فتضججه وتطبخه وتصلحه إصلاحاً آخر وطبخاً آخر غير الإصلاح والطبخ الذي توليته من خارج فأنت تعاني إفضاجه وطبخه وإصلاحه حتى تظن أنه قد كمل وأنه قد استغنى عن طبخ آخر وإفضاج آخر وطباخه الداخل ومنضجه يعانى من فضجه وطبخه مالا تهتدى إليه ولا تقدر عليه فهو يوقد عليه نيراناً تذيب المحصى وتذيب مالا تذيبه النار وهي في أطف موضع منك لا تحرقك ولا تلتهب وهي أشد حرارة من النار وإلا فأيذيب هذه الأطعمة الغليظة الشديدة جداً حتى يجعلها ماء ذاتياً وجعل الكبد للتخليص وأخذ صفو الغذاء وألطفه ثم رتب منها مجارى

وطرقا يسوق بها الغذاء إلى كل عضو وعظم وعصب ولحم وشعر وظفر وجعل المنازل
 والابواب لإدخال ما ينفعك وإخراج ما يضرك وجعل الأوعية المختلفة خزائن تحفظ مادة
 حياتك فهذه خزانه للطعام وهذه خزانه للحرارة وهذه خزائن للدم وجعل منها خزائن مؤديات
 لئلا تختلط بالخرائن الأخر فجعل خزائن للحرارة السوداء وأخرى للبرودة الصفراء وأخرى للبول
 وأخرى للدمي فتأمل حال الطعام في وصوله إلى المعدة وكيف يسرى منها في البدن فإنه إذا استقر فيها
 اشتملت عليه وانضمت ففتطبخه وتجيد صنعته ثم يعمته إلى الكبد في مجار دقاق وقد جعل بين الكبد
 وبين تلك المجارى غشاء رقيقا كالمصفاة الأبخاش تصفيه فلا يصل إلى الكبد منه شيء
 غليظ خشن فينكسرها لأن الكبد رقيقة لا تحمل الغليظ فإذا قبلته الكبد أنفذته إلى البدن
 كله في مجار مياؤه بمنزلة المجارى المعدة للماء ليسلك في الأرض فيعمها بالسقى ثم يبعث ما بقى من
 الخبث والفضول إلى مغايرض وبصارف قد أعدت لها فما كان من مرة صفراء بعثت به إلى المرارة
 وما كان من مرة سوداء بعثت به إلى الطحال وما كان من الرطوبة المائية بعثت به إلى المثانة فمن
 ذا الذي تولى ذلك كله وأحكمه ودبره وقدره أحسن تقدير وكأني بك أيها المسكين تقول هذا
 كله من فعل الطبيعة وفي الطبيعة عجائب وأسرار فلو أراد الله أن يهدبك لسألت نفسك بنفسك
 وقت أخبريني عن هذه الطبيعة أهى ذات قائمة بنفسها لها علم وقدرة على هذه الأفعال العجيبة
 أم ليست كذلك بل عرض وصفة قائمة بالمطبوع تابعة له محمولة فيه فإن قالت لك بل هي ذات
 قائمة بنفسها لها العلم التام والقدرة والإرادة والحكمة فقل لها هذا هو الخالق البارئ المصور
 فلم تسمينه طبيعية وبالله من ذكر الطبايع ومن يرغب فيها فهلا سميته بما سمي به نفسه على السن
 رسله ودخلت في جملة العقلاء والسمعاء فإن هذا الذي وصفت به الطبيعة صفته تعالى وإن قالت
 تلك بل الطبيعة عرض محمول مفتقر إلى حامل وهذا كله فعلها بغير علم منها ولا إرادة ولا قدرة
 ولا شعور أصلا وقد شوهد من آثارها ما شوهد فقل لها هذا ما لا يصدق ذو عقل سليم كيف
 تصدر هذه الأفعال العجيبة والحكم الدقيقة التي تعجز عقول العقلاء عن معرفتها وعن القدرة
 عليها بمن لا عقل له ولا قدرة ولا حكمة ولا شعور وهل التصديق بمثل هذا الإدخول في سلك
 المجانين والمبرسمين ثم قل لها بعد ولو ثبت لك ما أدعيت فمعلوم أن مثل هذه الصفة ليست بخالقة
 لنفسها ولا مبدعة لذاتها فمن ربهها ومبدعها وخالقها ومن طبعها وجعلها تفعل ذلك فهي إذا من أدل
 الدلائل على بارئها وفاطرها وكال قدرته وعلمه وحكمته فلم يجد عليك تمطيلك رب العالم وجحدك
 لصفاته وأفعاله إلا غفلتك العقل والفطرة ولو حاكنتك إلى الطبيعة لرأيتك أنك خارج عن
 موجبها فلا أنت مع موجب العقل ولا الفطرة ولا الطبيعة ولا الإنسانية أصلا وكفى بذلك
 جهلا وضلالا فإن رجعت إلى العقل وقلت لا يوجد حكمة إلا من حكيم قادر عليم ولا تدير

متقن إلا من صانع قادر مختار مدبر عليم بما يريد قادر عليه لا يعجزه ولا يؤوده قبل لك فإذا
أقرت ويحك بالخالق العظيم الذي لا إله غيره ولا رب سواه فدع تسميته طبيعة أو عقلا
فعالا أو موجبا بذاته وقل هذا هو الله الخالق البارئ المصور رب العالمين وقيوم السموات
والأرضين ورب المشارق والمغارب الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن ما صنع فإلك جحدت
أسماءه وصفاته وذاته وأضفت صنيعه إلى غيره وخلقته إلى سواه مع أنك مضطر إلى الإقرار
به وإضافة الإبداع والخلق والربوبية والتدبير إليه ولا بد والحمد لله رب العالمين على أنك لو
تأملت قولك طبيعة ومعنى هذه اللفظة لذلك على الخالق البارئ لفظها كما دل العقول عليه
معناها لأن طبيعة فعيلة بمعنى مفعولة أى مطبوعة ولا يحتمل غير هذا البتة لأنها على بناء
الغرائز التي ركبت في الجسم ووضعت فيه كالسجية والغريزة والبحيرة والسليقة والطبيعة فهي
التي طبع عليها الحيوان وطبعت فيه ومعلوم أن طبيعة من غير طابع لها محال فقد دل لفظ
الطبيعة على البارئ تعالى كما دل معناها عليه والمسلمون يقولون إن الطبيعة خلق من خلق الله
مسخر مربوب وهي سنته في خليقته التي أجزاها عليه ثم أنه يتصرف فيها كيف شاء وكما شاء
فيسلبها تأثيرها إذا أراد ويقلب تأثيرها إلى ضده إذا شاء ليرى عباده أنه وحده الخالق البارئ
المصور وأنه يخلق ما يشاء كما يشاء (وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وإن
الطبيعة التي انتهى نظر الخفافيش إليها إنما هي خلق من خلقه بمنزلة سائر مخلوقاته فكيف
يحسن بمن له حظ من إنسانية أو عقل أن ينسب من طبعها وخلقها ويحيل الصنع والإبداع عليها
ولم يزل الله سبحانه يسلبها قوتها ويحيلها ويقلبها إلى ضد ما جعلت له حتى يرى عباده أنها
خلقته وصنعه مسخرة بأمره (أله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين)

فصل

فأعد النظر في نفسك وتأمل حكمة اللطيف الخبير في تركيب البدن ووضع هذه الأعضاء
مواضعها منه وإعدادها لما أعدت له وإعداد هذه الأوعية المعدة لحمل الفضلات وجمعها لكيلا
تنتشر في البدن فتفسده ثم تأمل الحكمة البالغة في تنميتك وكثرة أجزائك من غير تفكيك
ولا تفصيل ولو أن صائفا أخذ تمثالا من ذهب أو فضة أو نحاس فأراد أن يجعله أكبر مما
هو هل كان يمكنه ذلك إلا بعد أن يكسره ويصوغه صياغة أخرى والرب تعالى ينسج جسم الطفل
وأعضائه الظاهرة والباطنة وجميع أجزائه وهو باق ثابت على شكله وهيئته لا يترايل ولا
يتفك ولا ينقص . وأعجب من هذا كله تصويره في الرحم حيث لا تراه العيون ولا تلمسه
الأيدي ولا تنصل إليه الآلات فيخرج بشراً سوياً مستوفياً لكل ما فيه مصلحته وقوامه

من عضو وحاسة وآلة من الأحشاء والجوارح والحوامل والأعصاب والرباطات والأغشية والعظام المختلفة الشكل والقدر والمنفعة والموضع إلى غير ذلك من اللحم والشحم والمخ وما في ذلك من دقيق التركيب ولطيف الخلقه وخبى الحكمة وبديع الصنعة كل هذا صنع الله أحسن الخالقين في قطرة من ماء مهين وما كرر عليك في كتابه مبدأ خلقك وإعادته ودعاك إلى التفكير فيه إلا لما بك من العبرة والمعركة ولا تستظل هذا الفصل وما فيه من نوع تكرار يشتمل على مزيد فائدة فإن الحاجة إليه ماسة والمنفعة عظيمة فانظر إلى بعض ما خصك به وفضلك به على البهائم المهملة إذ خلقك على هيئة تنتصب قائماً وتستوى جالساً وتستقبل الأشياء بيدك وتقبل عليها بجملك فيمكنك العمل والصلاح والتدبير ولو كنت كذوات الأربع المكبوبة على وجهها لم يظهر لك فضيلة تمييز واختصاص ولم يتهاى منك ما يتهاى من هذه النسبة.

فصل

قال الله تعالى (ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم الآية) فسبحان من ألبسه خلع الكرامة كلها من العقل والعلم والبيان والنطق والشكل والصورة الحسنة والهيئة الشريفة والقدر الممتد والاكساب العلوم بالاستدلال والفكر واقتناص الأخلاق الشريفة الفاضلة من البر والطاعة والانقياد فكم بين حاله وهو نطفة في داخل الرحم مستودع هناك وبين حاله والملك يدخل عليه في جنات عدن (فتبارك الله أحسن الخالقين) فالديار قرية والمؤمن رئيسها والكل مشغول به ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمته وجوانبه فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله يستغفرون له والملائكة الموكلون به يحفظونه والموكلون بالقطر والنبات يسعون في رزقه ويعملون فيه والأفلاك سخرت منقادة دائرة بما فيه مصالحه والشمس والقمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب أزمته وأوقاته وإصلاح روائب أقرانه والعالم الجوى مسخر له برياحه وهوائه وسحابه وطيره وما أودع فيه والعالم السفلى كله مسخر له مخلوق لمصالحه أرضه وجباله وبحاره وأنهاره وأشجاره ونمسه ونباته وحيوانه وكل ما فيه كما قال تعالى (الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره) إلى قوله يتفكرون وقال تعالى (الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) إلى قوله كفار فالسائر في معرفة آلاء الله وتأمل حكمته وبديع صفاته أطول باعاً وأملأ صواعاً من اللصيق بمكانه المقيم في بلد عادته وطبعه راضياً بعيش بنى جنسه لا يرضى لنفسه إلا أن يكون واحداً منهم يقول لى أسوة بهم وهى

أنا إلا من ربيعة أو مضره وليست نفائس البضائع إلا لمن امتطى غارب الاغتراب وطوف في الآفاق حتى رضى من الغنيمة بالإياب فاستلان ما استوعره البطالون وأنس بما استوحش منه الجاهلون .

فصل

فأعد النظر في نفسك وحكمة الخلاق العليم في خلقك وانظر إلى الحواس التي منها تشرف على الأشياء كيف جعلها الله في الرأس كالمصباح فوق المنارة لتمكن بها من مطالعة الأشياء ولم تجعل في الأعضاء التي تتمتع كاليدين والرجلين فتعرض للآفات بمباشرة الأعمال والحركات ولا جعلها في الأعضاء التي في وسط البدن كالبطن والظهر فيعسر عليك التلفت والاطلاع على الأشياء فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع كان الرأس أليق المواضع بها وأجملها فالرأس صومعة الحواس . ثم تأمل الحكمة في أن جعل الحواس خمسا في مقابلة المحسوسات الخمس ليلقى خمسا بخمس كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة لجعل البصر في مقابلة المبصرات والسمع في مقابلة الأصوات والشم في مقابلة أنواع الروائح المختلفة والذوق في مقابلة الكيفيات المنوقات واللس في مقابلة الملووسات فأى محسوس بقى بلا حاسة ولو كان في المحسوسات شيء غير هذه لأعطاك له حاسة سادسة ولما كان ماعداها إنما يدرك بالباطن أعطاك الحواس الباطنة وهي هذه الأخماس التي جرت عليها السنة العامة والخاصة حيث يقولون في المفكر المتأمل . ضرب أخماسه في أسداسه فأخماسه حواسه الخمس وأسداسه جهاته الست وأرادوا بذلك أنه جذبه القلب وسار به في الأقطار والجهات حتى قلب حواسه الخمس في جهاته الست وضربها فيها لشدة فكره .

فصل

ثم أعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر منفصلة عنها تكون واسطة في إحساسها فأعينت حاسة البصر بالضياء والشعاع فلولاها لم ينتفع الناظر ببصره فلو منع الضياء والشعاع لم تنتفع العين شيئا . وأعينت حاسة السمع بالهواء يحمل الأصوات في الجو ثم يلقها إلى الأذن فتجوبه ثم تقلبه إلى القوة السامعة ولولا الهواء لم يسمع الرجل شيئا . وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف يحمل الرائحة ثم يودبها إليها فتدركها فلولا هو لم تشم شيئا . وأعينت حاسة الذوق بالريق المنحلل في الفم تدرك القوة الزائقة به طعوم الأشياء ولهذا لم يكن له طعم لا حلو ولا حامض ولا مالح ولا حريف لأنه كان يحيل تلك الطعوم إلى طعمه ولا يحصل به مقصوده . وأعينت حاسة اللمس بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملووسات ولم تحتج إلى شيء

من خارج بخلاف غيرها من الحواس بل تدرك الملموسات بلا واسطة بينها وبينها لأنها إنما تدركها بالاجتماع والملاسة فلم تحتاج إلى واسطة .

فصل

ثم تأمل حال من عدم البصر وما يتأله من الخلل في أموره فإنه لا يعرف موضع قدمه ولا يبصر ما بين يديه ولا يفرق بين الألوان والمناظر الحسنة من القبيحة ولا يتمكن من الاستفادة علم من كتاب يقرأه ولا يتبها له الاعتبار والنظر في مجانب ملك الله هذا مع أنه لا يشعر بكثير من مصلحه ومضاره فلا يشعر بحفرة يهوى فيها ولا بحيوان يقصده كالسمع فيتحرز له ولا بعدو يهوى نحوه ليقته ولا يتمكن من هرب إن طلب بل هو ملق السلم لمن رامه بأذى ولو لا حفظ خاص من الله له قريب من حفظ الوليد وكلاءته لكان عطفه أقرب من سلامته فإنه بمنزلة لحم على وضم ولذلك جعل الله نوابه إذا صبر واحتسب الجنة ومن كمال لطفه أن عكس نور بصره إلى بصيرته فهو أقوى الناس بصيرة وحذساً وجمع عليه همه فقلبه بمجموع عليه غير مشقت ليهنأ له العيش وتم مصلحته ولا يظن أنه مغموم حزين متأسف . هذا حكم من ولد أعمى فأما من أصيب بعينه بعد البصر فهو بمنزلة سائر أهل البلاء المتقلين من العافية إلى البلية فالحنه عليه شديدة لأنه قد حيل بينه وبين ما ألقه من المرأتى والصور ووجوه الارتفاع يبصره فهذا له حكم آخر . وكذلك من عدم السمع فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاوره وبعدم لذة المذاكرة ونغمه الأصوات الشجية وتعظم المؤنة على الناس في خطابهم ويتبرمون به ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم فهو بينهم شاهد كغائب وحى كبيت وقريب كبعيد . وقد اختلفت النظائر في أيهما أقرب إلى الكمال وأقل اختلالاً لأموره الضيرير أو الأطرش وذكروا في ذلك وجوهاً وهذا مبنى على أصل آخر وهو أى الصفتين أكمل صفة السمع أو صفة البصر وقد ذكرنا الخلاف فيما تقدم من هذا الكتاب وذكرنا أقوال الناس وأداتهم والتحقيق في ذلك فأى الصفتين كانت أكمل فالضرر بدمها أقوى . والذي يليق بهذا الموضوع أن يقال عادم البصر أشدهم ضرراً وأسلمهم ديناً وأحدهما عاقبة وعادم السمع أقلهما ضرراً في دنياه وأجهلها بديته وأسوأ عاقبة فإنه إذا عدم السمع عدم المواعظ والنصائح وانسدت عليه أبواب العلوم النافعة وانفتح له طرق الشهوات التي يدركها البصر ولا يتأله من العلم ما يكفه عنها فضرره في دينه أكثر وضرر الأعمى في دنياه أكثر ولهذا لم يكن في الصحابة أطرش وكان فيهم جماعة أضراء وقل أن يتبلى الله أربلاءه بالطرش ويتبلى كثير منهم بالعمى . فهذا فصل الخطاب في هذه المسئلة فضره الطرش في الدين ومضرة العمى في الدنيا والمعاني من عاقبه الله منهما ومنعه يسعته وبصره وجعلها الواوئين منه .

فصل

وأما من عدم اتبيانين بيان القلب وبيان اللسان فذلك بمنزلة الحيوانات البهيمية بل هي أحسن حالا منه فإن فيها ما خلقت له من المنافع والمصالح التي تستعمل فيها وهذا يجعل كثيرا مما تهتدى إليه البهائم ويلقى نفسه فيما تكف البهائم أنفسها عنه وأن عدم بيان اللسان دون بيان القلب ومن عدم خاصة الإنسان وهي النطق اشتدت المؤنة به وعليه وعظمت حسرته وطال تأسفه على رد الجواب ورجع الخطاب فهو كالمقعد الذي يرى ما هو محتاج إليه ولا يمتد إليه يده ولا رجله فكفم الله على عبده من نعمة سابقة في هذه الأعضاء والجوارح والقوى والمنافع التي فيه فهو لا يلتفت إليها ولا يشكر الله عليها ولو فقد شيئاً منها لتفتى أنه له بالدنيا وما عليها فهو يتقلب في نعم الله بسلامة أعضائه وجوارحه وقواه وهو عار من شكرها ولو عرست عليه الدنيا بما فيها بزوال واحدة منها لأبى المعاضة وعلم أنها معاوضة غبن (إن الإنسان لظلوم كفور).

فصل

ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك آحادا ومثنى وثلاث ورباع وما في ذلك من الحكم البالغة فالرأس واللسان والأنف والذكر خلق كل منهما واحدا فقط إذ لا مصلحة في كونه أكثر من ذلك ألا ترى أنه لو أضيف إلى الرأس رأس آخر لانتقل بدنه من غير حاجة إليه لأن جميع الحواس التي يحتاج إليها مجتمع في رأس واحد ثم أن الإنسان كان ينقسم برأسه قسمين فإن تكلم من أحدهما وسمع به وأبصر وشم وذاق بقى الآخر معطلا لا أرب فيه وإن تكلم وأبصر وسمع بهما معا كلاما واحدا وشمما واحدا وبهرا واحدا كان الآخر فضلا لا فائدة فيه وإن اختلف إدراكهما اختلفت عليه أحواله وإدراكاته وكذلك لو كان له لسانان في فم واحد فإن تكلم بهما كلاما واحدا كان أحدهما ضائعا وإن تكلم بأحدهما دون الآخر فكذلك وإن تكلم بهما معا كلامين مختلفين خلط على السامع ولم يدرك أي الكلامين يأخذ وكذلك لو كان له هنوان وفان لكان مع قبح الحلقة أحدهما فضلا لا منفعة فيه وهذا بخلاف الأعضاء التي خلقت مثنى كالعينين والأذنين والشفتين واليدين والرجلين والساقين والفخذين والوركين والتدين فإن الحكمة فيها ظاهرة والمصلحة بيّنة والجمال والريفة عليها بادية فلو كان الإنسان بعين واحدة لكان مشوه الحلقة ناقصا وكذلك الحاجبان وأما اليدين والرجلان والساقان والفخذان فتعددهما ضروري للإنسان لاتهم مصلحته إلا بذلك ألا ترى من قطعت إحدى يديه أو رجله كيف تبنى حاله وعجزه فلو أن النجار والحيياط والحداد والحجاز والبناء وأصحاب الصنائع التي لا تأتي إلا باليدين شلت يد أحدهما لتعطلت عليه صنعته فاقضت الحكمة

أن أعطى من هذا الضرب من الجوارح والأعضاء اثنين اثنين وكذلك أعطى شفتين لأنه لا تكمل مصلحته إلا بهما وفيهما ضروب عديدة من المنافع ومن الكلام والذوق وغطاء الفم والجمال والزينة والقبلة وغير ذلك وأما الأعضاء الثلاثة فهي جوانب أنفه وحيطاناه وقد ذكرنا حكمة ذلك فيما تقدم وأما الأعضاء الرباعية فالكمام الأربعة التي هي يجمع القدمين والممسكة لهما وبهما قوة القدمين وحر كتهما وفيهما منافع الساقين وكذلك أجناف العينين فيها من الحكم والمنافع أنها غطاء للعينين ووقاية لهما وجمال وزينة وغير ذلك من الحكم فاقضت الحكمة البالغة أن جمعت الأعضاء على ما هي عليه من العدد والشكل والهيئة فلوزادت أو نقصت لكان نقصا في الخلق ولهذا يوجد في النوع الإنساني من زائد في الخلق ونقص منها ما يدل على حكمة الرب تعالى وأنه لو شاء لجعل خلقه كلهم هكذا وليعلم الكامل الخلقه تمام النعمة عليه وأنه خلق خلقا سويا معتدلا لم يزد في خلقه ما لا يحتاج إليه ولم ينقص منه ما يحتاج إليه كما يراه في غيره فهو أجدر أن لم يزد شكرا وهدى لربه ويعلم أن ذلك ليس من صنع الطبيعة وإنما ذلك صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه وأنه يخلق ما يشاء .

فصل

من أين للطبيعة هذا الاختلاف والفرق الحاصل في النوع الإنسان بين صورهم فقل أن يرى إثنان متشابهان من كل وجه وذلك من أندر ما في العالم بخلاف أصناف الحيوان كالنعم والوحوش والطيور وسائر الدواب فإنك ترى السرب من الطيأ والثلة من الغنم والذود من الإبل والصور من البقر تتشابه حتى لا يفرق بين واحد منها وبين الآخر إلا بعد طول تأمل أو بعلامة ظاهرة والناس مختلفة صورهم وخلقهم فلا يكاد اثنان منهم يجتمعان في صفة واحدة وخلقهم واحدة بل ولا صوت واحد وحينجرة واحدة والحكمة البالغة في ذلك أن الناس يحتاجون إلى أن يتعارفوا بأعينهم وحلامهم لما يجري بينهم من المعاملات فلولا الفرق والاختلاف في الصور لفسدت أحوالهم وتشت نظامهم ولم يعرف الشاهد من المشهود عليه ولا المدين من رب الدين ولا البائع من المشتري ولا كان الرجل يعرف عرسه من غيرها للاختلاط ولا هي تعرف بعلمها من غيره وفي ذلك أعظم الفساد والخلل فن الذي ميز بين حلامهم وصورهم وأصواتهم وفرق بينها بفروق لا تتأهل العبارة ولا يدركها الوصف فسل المعطل أهذا فعل الطبيعة وهل في الطبيعة اقتضاء هذا الاختلاف والافتراق في النوع وأين قول الطبايعيين أن فعلها متشابه لأنها واحدة في نفسها لا تفعل بإرادة ولا مشيئة فلا يمكن اختلاف أفعالها فكيف يجمع المعطل بين هذا وهذا فانها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور وربما وقع في النوع الإنساني تشابه بين اثنين لا يكاد يميز بينهما فتعظم عليهم المؤنة في

معاملتها وتشتد الحاجة إلى تمييز المستحق منهما والمؤاخذ بذنبه ومن عليه الحق وإذا كان هذا يمرض في التشابه في الأسماء كثيرا ويلقى الشاهد والحاكم من ذلك ما يلقي فا الظن لو وضع التشابه في الخاتمة والصورة. ولما كان الحيوان البهيم والطير والوحوش لا يضرها هذا التشابه شيئا لم تدع الحكمة إلى الفرق بين كل زوجين منها. فتبارك الله أحسن الخالقين الذي وسعت حكمته كل شيء.

فصل

ثم تأمل لم صارت المرأة والرجل إذا أدركا اشتراكا في نبات العانة ثم ينفرد الرجل عن المرأة بالحية فإن الله عز وجل لما جعل الرجل قيبا على المرأة وجعلها كالحول له والعاني في يديه ميزه عليها بما فيه له المهابة والمز والوقار والجلالة لكامله وحاجته إلى ذلك ومنعتها المرأة لكامل الاستمتاع بها والتلذذ لتبقى نضارة وجهها وحسنه لا يشينه الشعر واشتراكا في سائر الشعور للحكمة والمنفعة التي فيها.

فصل

ثم تأمل هذا الصوت الخارج من الحلق وتهيئة آلاته والسكلام وانتظامه والحروف ومخارجها وأدواتها ومقاطعها وأجراسها تجد الحكمة الباهرة في هواء ساذج يخرج من الجوف فيسلك في أنبوبة الخنجرة حتى ينتهي إلى الحلق واللسان والشفيتين والأسنان فيحدث له هناك مقاطع ونهايات وأجراس يسمع له عند كل مقطع ونهاية جرس مبین منفصل عن الآخر يحدث بسببه الحرف فهو صوت واحد ساذج يجرى في قصبة واحدة حتى ينتهي إلى مقاطع وحدود تسمع له منها تسعة وعشرين حرفا يدور عليها السكلام كله أمره ونهيه وخبره واستخباره ونظمه ونثرة وخطبه ومواعظه وفضوله فنه المضحك ومنه المبكي ومنه المؤيس ومنه المطمع ومنه المخوف ومنه المرجى والمسلى والمحزن والقابض للنفس والجوارح والمذشط لها والذي يسقم الصبيح ويبرى. السقيم ومنه ما يزيل النعم ويحل النقم ومنه ما يستدفع به البلاء ويستجلب به النعماء وتستمال به القلوب ويؤلف به بين المتباغضين ويوالي به بين المتعادين ومنه ما هو بصد ذلك ومنه الكلمة التي لا يلقي لها صاحبها بالأيوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب والكلمة التي لا يلقي لها بالاصحابها يركض بها في أعلا عليمين في جوار رب العالمين فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج يخرج من الصدر لا يدري ما يراد به ولا أين ينتهي ولا أين مستقره هذا إلى ما في ذلك من اختلاف الألسنة واللغات التي لا يحصيها إلا الله فيجتمع الجمع من الناس من بلاد شتى فيتكلم كل منهم بلقته

تسمع لغات مختلفة ، كالأصوات منتظما مؤلفا ولا يدري كل منهم مايقول الآخرواللسان الذى هو جارحة واحد فى الشكل والمنظر وكذلك الحلق والأضراس والشفتان والكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت فالآية فى ذلك كالآية فى الأرض التى تسقى بماء واحد وتخرج مع ذلك من أنواع الثبات والأزهار والحبوب والثمار تلك الأنواع المختلفة المتباينة ولهذا أخبر الله سبحانه فى كتابه أن فى كل منهما آيات فقال (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين) وقال (وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد) الآية فانظر الآن فى الحنجرة كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت واللسان والشفتان والأسنان لصياغة الحروف والنفثات ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان ومن سقطت شفته كيف لم يقم الراء واللام ومن عرضت له آفة فى حلقة كيف لم يتمكن من الحروف الحلقيه . وقد شبه أصحاب التشریح مخرج الصوت بالمزمار والرثة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه والفضلات التى تقبض على الرثة ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق حتى يخرج الهواء فى القصب والشفتين والأسنان التى تصوغ الصوت حروفا ونقا بالأصابع التى تختلف على المزمار فتصوغه الحان والمقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالإبغاش التى فى القصبه حتى قيل إن المزمار إنما اتخذ على مثال ذلك من الإنسان فإذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس حتى تخرج منها تلك الأصوات فما أحرك بطول التعجب من الصناعة الإلهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق والمظام ويأبعد ما بينهما ولكن المؤلف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب فإذا رأت مالا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى وعندها من آياته العجيبة الباهرة ما هو أعظم من ذلك مما لا يدركه القياس ثم تأمل اختلاف هذه النفثات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر والحلوق والألسنة والشفة والأسنان فمن الذى ميز بينها أم تمييز مع تشابه عالها سوى الخلاق العليم .

فصل

وفى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام فى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع وفى اللسان منفعة الذوق فتذوق به الطعوم وتدرك لذتها ويميز به بينها فيعرف حقيقة كل واحد منها وفيه مع ذلك معونة على إساعة الطعام وأن يلوكه ويقبله حتى يسهل مسلكه فى الحلق وفى الأسنان من المنافع ما هو معلوم من تقطيع الطعام كما تقدم وفيها إسناد الشفتين وامساكهما

عن الاسترخاء وتشويه الصورة ولهذا ترى من سقطت أسنانه كيف تسترخى شفتاه وفي الشفتين
منافع عديدة يرشف بها الشراب حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر فلا يشرق به الشارب
ثم هما باب مفلق على الفم الذي إليه ينتهي إليه ما يخرج من الجوف ومنه ينتدى ما يلج فيه
فهما عطاء وطابق عليه يفتحهما البواب متى شاء ويغلقهما إذا شاء وهما أيضا جمال وزينة للوجه
وفيها منافع أخرى سوى ذلك وانظر إلى من سقطت شفتاه ما أشوه منظره وقد بان أن
كل واحد من هذه الأعضاء يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع والمآرب والمصالح كما تتصرف
الأداة الواحدة في أعمال شتى هذا ولو رأيت الدماغ وكشف لك عن تركيبه وخلقه لرأيت
العجب العجيب وتكشف لك عن تركيب يحار فيه العقل قد لف بحجب وأغشية بعضها فوق
بعض لتصونه عن الأعراض وتحفظه عن الاضطراب ثم أطبقت عليه الجمجمة بمنزلة الخوذة
وبيضة الحديد لتقيه حد الصدمة والسقطة والضربة التي تصل إليه فتلتقاها تلك البيضة عنه
بمنزلة الخوذة التي على رأس المحارب ثم جللت تلك الجمجمة بالجلد الذي هو فروة الرأس بستر العظم
من البروز للمؤذيات ثم كسيت تلك الفروة حلة من الشعر الوافر وقاية لها وسترا من الحر والبرد
والأذى وجمالاً وزينة له فسل المعطل من الذي حصن الدماغ هذا التحصين وقدره هذا التقدير
وجعله خزائن أودع فيها من المنافع والقوى والعجائب ما أودعه ثم أحكم سد تلك الخزائن
وحصنها أتم تحصين وصانها أعظم صيانتها وجمعها معدن الحواس والادراكات ومن الذي جعل
الأجفان على العينين كالغشاء والاشفار كالأشراج والأهداب كالرفوف عليها إذا فتحت ومن
الذي ركب طبقاتها المختلفة طبقة فوق طبقة حتى بلغت عدد السموات سبماً وجعل لكل طبقة
منفعة وفائدة فلو اختلت طبقة منها لاختل البصر ومن شقهما في الوجه أحسن شق وأعظما
أحسن شكل وأودع الملاحظة فيهما وجمعهما مرآة للقلب وطلية وحارسا للبدن ورائداً يرسله
كالجند في مهماته فلا يتعب ولا يعبأ على كثرة ظمئه وطول سفره ومن أودع النور الباصر فيه
في قدر جرم العدسة فيرى فيه السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والبحار والعجائب
من داخل سبع طبقات وجمعهما في أعلا الوجه بمنزلة الحارس على الرابية العالية ريبة للبدن
ومن حجب الملك في الصدر وأجلسه هناك على كرسي المملكة وأقام جند الجوارح والأعضاء والقوى
الباطنة والظاهرة في خدمته وذلك لئلا يهتدى في مؤتمرة إذا أمرها منتهية إذا نهاها سامعة له مطيعة تكسح
وتسعى في مرضاته فلا تستطيع منه خلاصاً ولا خروجاً عن أمره فتهارسوله ومنها بريد ومنها
ترجمانه ومنها أعوانه وكل منها على عمل لا يتعداه ولا يتصرف في غير عمله حتى إذا أراد
الراحة أو عز إليها بالهدوء والسكون ليأخذ الملك راحته فإذا استيقظ من منامه قامت جنوده

بين يديه على أعمالها وذهبت حيث وجهها دائبة لانفتق فلو شاهدته في محل ملكه والأشغال والمراسيم صادرة عنه وواردة والعساكر في خدمته والبرد تتردد بينه وبين جنده ورعيته لرأيت له شأنا عجيبا فماذا فات الجاهل الغافل من العجائب والمعارف والعبر التي لا يحتاج فيها إلى طول الأسفار وركوب القفار قال تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) فدعا عباده إلى التفكير في أنفسهم والاستدلال بها على فاطرها وباريها ولولا هذا لم توسع الكلام في هذا الباب ولأطلنا النفس إلى هذه الغاية ولكن العبرة بذلك حاصلة والمنفعة عظيمة والفكرة فيه مما يزيد المؤمن إيمانا فكم دون القلب من حرس وكم له من خادم وكم له من عبيد ولا يشعر به والله ما خلق له وهياً له وأريد منه وأعد له من الكرامة والنعيم أو الهوان والعذاب فأما على سرير الملك في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظر إلى وجه ربه ويسمع خطابه وإما أسير في السجن الأعظم بين أطباق النيران في العذاب الآليم فلو عقل هذا السلطان ماهياً له لظن بما سكه وأسعى في الملك الذي لا ينقطع ولا يبديد ولا يكتمه ضربت عليه حجب الغفلة ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

فصل

ومن جعل في الحلق منفذين ه أحدهما للصوت والنفس الواصل إلى الرئة . والآخر للطعام والشراب وهو المريء الواصل إلى المعدة وجعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما في طريق الآخر فلو وصل الطعام من منفذ النفس إلى الرئة لأهلك الحيوان ومن جعل الرئة مروحة للقلب تروح عليه لاتنى ولا تفتقر لكيلا تنحصر الحرارة فيه فيهلك . ومن جعل المنافذ لفضلات الغذاء وجعل لها أشراجاً تقبضها لكيلا تجرى جرياً دائماً فتفسد على الإنسان عيشه ويجمع الناس من مجالسة بعضهم بعضاً . ومن جعل المعدة كأشد ما يكون من العصب لأنها هيئت لطبخ الأطعمة وإنضاجها فلو كانت لهما غصناً لا تطبخت هي ونضجت فجعلت كالعصب الشديد لتقوى على الطبخ والإنضاج ولا تنهكها النار التي تحتها . ومن جعل الكبد رقيقة ناعمة لأنها هيئت لقبول الصفو اللطيف من الغذاء والهضم وعمل هو أطف من عمل المعدة . ومن حصن المنخ اللطيف الرقيق في أنابيب صلبة من العظام ليحفظها ويصونها فلا تفسد ولانذوب . ومن جعل الدم السيلان محبوساً محصوراً في العروق بمنزلة الماء في الوعاء ليضبط فلا يجرى . ومن جعل الأظفار على أطراف الأصابع وقاية لها وصيانة من الأعمال والصناعات . ومن جعل داخل الأذن مستويا كهيئة الكوكب ليترد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع الداخل وقد انكسرت حدة الهواء فلا ينكوهه وليتعدز على الهوام النفوذ إليه قبل أن يمسك ويمسك

ما عساه أن ينشأها من القذى والوسخ ولنير ذلك من الحكم ومن جعل على الفخذين والوركين من اللحم أكثر مما على سائر الأعضاء ليقبها من الأرض فلا تألم عظامها من كثرة الجلوس كما يألم من قد نحل جسمه وقل لحمه من طول الجلوس حيث لم يحل بينه وبين الأرض حائل . ومن جعل ماء العينين ملحاً يحفظها من الذوبان وماء الأذن مرا يحفظها من الذباب والهوام والبعوض وماء الفم عذبا يدرك به طعوم الأشياء فلا يخالطها طعم غيرها . ومن جعل باب الخلاء في الإنسان في أستر موضع كما أن البناء الحكيم يجعل موضع التخل في أستر موضع في الدار وهكذا منفذ الخلاء من الإنسان في أستر موضع ليس بارزاً من خلفه ولا ناشراً بين يديه بل مغيب في موضع غامض من البدن يلتقى عليه الفخذان بما عليهما من اللحم متوارياً فإذا جاء وقت الحاجة وجلس الإنسان لها برز ذلك المخرج للأرض . ومن جعل الأسنان حداداً لقطع الطعام وتفصيله والأضراس عراضاً لرضه وطحنه . ومن سلب الإحساس الحيواني الشعور والأظفار التي في الآدمي لأنها قد تطول وتمتد وتدعو الحاجة إلى أخذها وتخفيفها فلو أعطاهما الحس لآلمته وشق عليه أخذ ما شاء منها ولو كانت تحس لوقع الإنسان منها في إحدى البليتين أما تركها حتى تطول وتفحش وتثقل عليه وأما مقياسة الألم والوجع عند أخذها . ومن جعل باطن الكف غير قابل لإنبات الشعر لأنه لو أشعر لتعذر على الإنسان صحة اللبس ولشق عليه كثير من الأعمال التي تباشر بالكف وهذه الحكمة لم يكن من الرجل قابلاً لإنباته لأنه يمنعه من الجماع . ولما كانت المادة تقتضي إنباته هناك نبت حول من الرجل والمرأة وهذه الحكمة سلبت عن الشفتين وكذا باطن الفم وكذا أيضاً القدم أخصها وظاهرها لأنها تلاقى التراب والوسخ والطين والشوك فلو كان هناك شعر لآذى الإنسان جداً وحمل من الأرض كل وقت ما يثقل الإنسان وليس هذا الإنسان وحده بل ترى البهائم قد جللتها الشعر كلها وأخلت هذه المواضع منه لهذه الحكمة أفلا ترى الصنعة الإلهية كيف سلبت وجوه الخطأ والمضرة وجاءت بكل صواب وكل منفعة وكل مصلحة ولما اجتهد الطاعنون في الحكمة العائنون للخلفة فيما يطعونون به عابوا الشعور تحت الآباط وشعر العانة وشعر باطن الأتف وشعر الركبتين وقالوا أي حكمة فيها وأي فائدة . وهذا من فوط جهلهم وسخافة عقولهم فإن الحكمة لا يجب أن تكون بأسرها معلومة للبشر ولا أكثرها بل لا نسبة لما علوه إلى ما جهلوه فيها لو قيست علوم الخلائق كلهم بوجوه حكمة الله تعالى في خلقه وأمره إلى ما خلق عنهم منها كانت كتفيرة عصفور في البحر وحسب الفطن اللبيب أن يستدل بما عرف منها على ما لم يعرف ويعلم الحكمة فيما جهله منها مثلاً فيماعله بل أعظم وأدق وما مثل هؤلاء الحمقى النوكي إلا كمثل رجل لا علمه بدقائق الصنائع

والعلوم من البناء والهندسة والطب بل والحياكة والحياطة والنجارة إذا رام الاعتراض بعقله الفاسد على أربابها في شيء من آلاتهم وصنائعهم وترتيب صناعتهم تخفيت عليه فجعل كل ما خفي عليه منها شيء. قال هذا لا فائدة فيه وأى حكمة تقتضيه هذا مع أن أرباب الصنائع بشر مثله يمكنه أن يشاركهم في صنائعهم ويفوقهم فيها فالظن بمن بهرت حكمته العقول الذي لا يشاركه مشارك في حكمته كما لا يشاركه في خلقه فلا شريك له بوجه فن ظن أن يكتال حكمته بمكيال عقله أو يجعل عقله عياراً عليها فما أدركه أقربه وما لم يدركه نفاه فهو من أجهل الجاهلين والله في كل ما خفي على الناس وجه الحكمة فيه حكم عديدة لا تدفع ولا تنكر. فاعلم الآن أن تحت منابت هذه الشعور من الحرارة والرطوبة ما اقتضت الطبيعة إخراج هذه الشعور عليها ألا ترى أن العشب ينبت في مستنقع المياه بعد نضوب الماء عنها لما خصت به من الرطوبة ولهذا كانت هذه المواضع من أرطب مواضع البدن وهي أقبل لنبات الشعر وأهياً فدفعت الطبيعة تلك الفضلات والرطوبات إلى خارج فصارت شعراً ولو حبست في داخل البدن لأضرته وأذت باطنه وغرورها عين مصلحة الحيوان واحتباسها إنما يكون لنقص وآفة فيه وهذا كخروج دم الحيض من المرأة فإنه عين مصلحتها وكالها ولهذا يكون احتباسه لفساد في الطبيعة ونقص فيها. ألا ترى أن من احتبس عنه شعر الرأس واللحية بعد إبانته كيف تراه ناقص الطبيعة ناقص الحلقة ضعيف التركيب فإذا شاهدت ذلك في الشعر الذي عرفت بعض حكمته فمالك لا تعتبره في الشعر الذي خفيت عليك حكمته. ومن جعل الريق يجري دائماً إلى الفم لا ينتطح عنه ليبل الحلق واللوات ويسهل الكلام ويسبغ الطعام. قال بقراط الرطوبة في الفم مطية الغذاء فتأمل حالك عند ما يجف ريقك ببعض الجفاف ويقل ينبوع هذه العين التي لا يستغنى عنه.

فصل

ثم تأمل حكمة الله تعالى في كثرة بكاء الأطفال وما لهم فيه من المنفعة فإن الأطباء والطبائعيين شهدوا منفعة ذلك وحكمته وقالوا في أدمغة الأطفال رطوبة لو بقيت في أدمغتهم لأحدثت أحداثاً عظيمة فالبكاء يسيل ذلك ويمحده من أدمغتهم فتقوى أدمغتهم وتصح. وأيضاً فإن البكاء والعياط يوسع عليه مجاري النفس ويفتح العروق ويصاحبها ويقوى الأعصاب وكل للطفل من منفعة ومصلحة فيما تسمعه من بكائه وصراخه فإذا كانت هذه الحكمة في البكاء الذي سببه ورود الألم المؤذي وأنت لا تعرفها ولا تكاد تحظر بيالك فهكذا إيلام الأطفال فيه وفي أسبابه وعواقبه الحميدة من الحكيم ما قد خفي على أكثر الناس واضطرب عليهم الكلام في حكمه اضطراب الأرضية وسلوكوا في هذا الباب مسالك. فقالت (١٨ - مفتاح ١)

طائفة ليس إلا محض المشيئة العارية عن الحكمة والغاية المطلوبة وسدوا على أنفسهم هذا الباب جملة وكلما سئلوا عن شيء أجابوا بلا يسأل عما يفعل وهذا من أصدق الكلام وليس المراد به نفي حكمته تعالى وعواقب أفعاله الحميدة وغاياتها المطلوبة منها وإنما المراد بالآية إفرادها بالإلهية والربوبية وإنه لكالم حكمته لامعقب لحكمه ولا يعترض عليه بالسؤال لأنه لا يفعل شيئاً سدى ولا خلق شيئاً عبثاً وإنما يسأل عن فعله من خرج عن الصواب ولم يكن فيه منفعة ولا فائدة ألا ترى إلى قوله (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) كيف ساق الآية في الإنكار على من اتخذ من دونه آلهة لاتساربه فسواها به مع أعظم الفرق فقوله لا يسأل عما يفعل إثبات لحقيقة الإلهية وإفراده بالربوبية والإلهية وقوله وهم يسألون في صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية فإنها مسئولة مربوبة مدبرة فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان فهذا الذي سبق له الكلام لجعلها الجبرية ملجأ ومعقلا في إنكار حكمته وتعليل أفعاله بغاياتها المحمودة وعواقبها السديدة والله الموفق للصواب . وقالت طائفة الحكمة في ابتلائهم تمويضهم في الآخرة بالثواب التام فقبل لهم قد كان يمكن إيصال الثواب إليهم بدون هذا الإيلاء فأجابوا بأن توسط الإيلاء في حقهم كتوسط التكليف في حق المكلفين فقبل لهم فهذا ينتقض عليكم بإيلاء الكفار فأجابوا بأننا لا نقول أنهم في النار كما قاله من قاله من الناس والنار لا يدخلها أحد إلا بذنب وهؤلاء لا ذنب لهم وكذا الكلام معهم في مسألة الأبطال والحجاج فيها من الجانبيين بما ليس هذا موضعه فأورد عليهم مالا جواب لهم عنه وهو إيلاء أطفالهم الذين قدر بلوغهم وموتهم على الكفر فإن هذا لانعويض فيه قطعاً ولا هو عقوبة على الكفر فإن العقوبة لا تكون سلفاً وتعجيلاً لحاروا في هذا الموضوع واضطربت أصولهم ولم يأتوا بما يقبله العقل . وقالت طائفة ثالثة هذا السؤال لو تأمله مورده لعلم أنه ساقط وإن تكلف الجواب عنه إزام مالا يلزم فإن هذه الآلام وتوابعها وأسبابها من لوازم النشأة الإنسانية التي لم يخلق منفكاً عنها فهي كالحر والبرد والجوع والعطش والتعب والنصب والهم والضعف والمجز فالسؤال عن حكم الحاجة إلى الأكل عند الجوع والحاجة إلى الشرب عند اللظماً وإلى النوم والراحة عند التعب فإن هذه الآلام هي من لوازم النشأة الإنسانية التي لا ينفك عنها الإنسان ولا الحيوان فلو تجرد عنها لم يكن إنساناً بل كان ملكاً أو خلقاً آخر وليست آلام الأطفال بأصعب من آلام البالغين لكن لما صارت لهم عادة سهل موقعها عندهم وكم بين ما يقاسيه الطفل ويعانيه البالغ العاقل وكل ذلك من مقتضى الإنسانية وموجب الحلقة فلوم يخلق كذلك لكان خلقاً آخر فيرى

أن الطفل إذا جاع أو عطش أو برد أو تعب قد خص من ذلك بما لم يمتحن به الكبير فأيلامه
بغير ذلك من الأوجاع والأسقام كإيلامه بالجوع والعطش والبرد والحردون ذلك أو فوقه وما خلق
الإنسان بل الحيوان إلا على هذه النشأة . قالوا فإن سأل سائل وقال فلم خلق كذلك وهلا
خلق خلقه غير قابلة للألم فهذا سؤال فاسد فإن الله تعالى خلقه في عالم الابتلاء والامتحان من
مادة ضعيفة فهي عرضة للأفات وركبه تركيباً معرضاً للأنواع من الآلام وجعل فيه الأخطا
الأربعة التي لا قوام له إلا بها ولا يكون إلا عليها وهي لا محالة توجب امتزاجاً واختلاطاً
وتفاعلاً يبني بعضها على بعض بكيفيته تارة وبكميته تارة وبهما تارة وذلك موجب للآلام
قطعاً ووجود الملزوم بدون لازمه محال ثم أنه سبحانه ركب فيه من القوى والشهوة والإرادة
ما يوجب حركته الدائبة وسعيه في طلب ما يصلحه ودفع ما يضره بنفسه تارة وبمن يعينه تارة
فأحوج النوع بعضه إلى بعض فحدث من ذلك الاختلاط بينهم وبني بعضهم على بعض فحدث من
ذلك الآلام والشورر بنحو ما يحدث من امتزاج أخلاطه واختلاطها وبني بعضها على بعض
والآلام لا تتخلف عن هذا الامتزاج أبداً إلا في دار البقاء والنعيم المقيم لافي دار الابتلاء
والامتحان فمن ظن أن الحكمة في أن تجعل خصائص تلك الدار في هذه فقد ظن
باطلاً بل الحكمة التامة البالغة إقتضت أن تكون هذه الدار بمزوجة عافيتها بيلاتها وراحتها
بمناحتها ولذتها بآلامها وصحتها بسقمها وفرحها بغمها فهي دار ابتلاء تدفع بعض آفاتها ببعض
كما قال القائل :

أصبحت في دار بليات أدفع آفات آفات

ولقد صدق فإنك إذا فكرت في الأكل والشرب واللباس والجماع والراحة وسائر
ما يستلذ به رأيت يدفع بها ما قابله من الآلام والبليات أفلا تراك تدفع بالأكل ألم الجوع
وبالشرب ألم العطش وباللباس ألم الحر والبرد وكذا سائرهما ومن هنا قال بعض العقلاء
إن لذاتها لنا هي دفع الآلام لا غير فأما اللذات الحقيقية فلها دار أخرى ومحل آخر
غير هذه فوجود هذه الآلام واللذات الممتزجة المختلطة من الأدلة على المعاد وأن
الحكمة التي إقتضت ذلك هي أولى باقتضاء دارين دار خالصة للذات لا يشوبها ألم ما ودار
خالصة للآلام لا يشوبها لذة ما والدار الأولى الجنة والدار الثانية النار أفلا ترى كيف ذلك
ذلك مع ما أنت مجبول عليه في هذه النشأة من اللذة والألم على الجنة والنار ورأيت
شواهدهما وأدلة وجودهما من نفسك حتى كأنك تعانينهما عياناً وانظر كيف دل العيان
والحس والوجود على حكمة الرب تعالى وعلى صدق رسله فيما أخبروا به من الجنة والنار
فأمل كيف قاد النظر في حكمة الله إلى شهادة العقول والفطر بصدق رسله وما أخبروا

به تفصيلا يدل عليه العقل بجملا فإن هذا من مقام من أداءه عليه إلى المعارضة بين ما جاءت به الرسل وبين شواهد العقل وأدته ولكن تلك العقول كادها باريها ووكها إلى أنفسها فحلت بها عساكر الخذلان من كل جانب وحسبك بهذا الفصل وعظيم منفته من هذا الكتاب والله المحمود المسؤول تمام نعمته فهذه كلمات مختصرة نافعة في مسألة إيلاء الأطفال لملك لا تظفر بها في أكثر الكتب . فارجع الآن إلى نفسك وفكر في هذه الأفعال الطبيعية التي جعلت في الإنسان وما فيها من الحكمة والمنفعة وما جعل لكل واحد منها في الطبع المجرد والداعي الذي يقتضيه ويستحثه فالجوع يستحث الأكل ويطلبه لما فيه من قوام البدن وحياته ومماته والكرى يقتضى النوم ويستحثه لما فيه من راحة البدن والأعضاء واجام القوى وعودها إلى قوتها جديدة غير كالة والشبق يقتضى الجماع الذي به دوام النسل وقضاء الوطر وتام اللذة فتجد هذه الدواعي تستحث الإنسان لهذه الأمور وتفاضها منه بغير اختياره وذلك عين الحكمة فإنه لو كان الإنسان إنما يستدعى هذه المستحثات إذا أراد لأوشك أن يشتغل عنها بما يعروه من العوارض مدة فينحل بدنه ويهلك ويترامى إلى الفساد وهو لا يشعر كما إذا احتاج بدنه إلى شيء من الدواء والصلاح فدافه وأعرض عنه حتى إذا استحك به الداء أهلكه فاقضت حكمة الطيف الخبير أن جعلت فيه بواعث ومستحثات تؤزه أزا إلى ما فيه قوامه وبقاؤه ومصالحته وترد عليه بغير اختياره ولا استدعائه فجعل لكل واحد من هذه الأفعال محرك من نفس الطبيعة يحركه ويحدوه عليه . ثم أنظر إلى ما يعطيه من القوى المختلفة التي بها قوامه فأعطى القوة الجاذبة الطالبة المستحثة التي تقتضى معلوما من الغذاء فتأخذه ويورده على الأعضاء بحسب قبولها ثم أعطى القوة المسكة التي تمسك الطعام وتحبسه ريثما تتضجعه الطبيعة وتحكم طبخه وتميؤه لمصارفه وتبعثه لمستحقه ثم أعطى القوة الهاضمة التي تصرفه في البدن وتمضمه عن المعدة ثم أعطى القوة الدافعة وهي التي تدفع ثقله ومالا منفعة فيه فتدفعه وتخرجه عن البدن لئلا يؤذيه وينهك فن أعطاك هذه القوة عند شدة حاجتك إليها ومن جعلها خادماً لك ومن أعطاهما أفعالها واستعمل كل واحد منها على غير عمل الآخر ومن ألف بينها على تباينها حتى اجتمعت في شخص واحد ومحل واحد ولو عادي بينها كان بعضها ينهب بعضها فن كان يحول بينه وبين ذلك فلولا القوة الجاذبة كيف كنت متحركاً لطلب الغذاء الذي به قوام البدن ولولا المسكة كيف كان الطعام ينهب في الجوف حتى تمضمه المعدة ولولا الهاضمة كيف كان يطبخ حتى يخلص منه الصفو إلى سائر أجزاء البدن وأعماله ولولا الدافعة كيف كان الثقل المؤذي القاتل لو انعيس يخرج أولاً فلولا فيستريح البدن فيتحف

وينشط . فتأمل كيف وكلت هذه القرة بك والقيام بمصالحك فالبدن كدار للملك فيها حشمه وخدمه قد وكل بتلك الدار أقواماً يقومون بمصالحها فبعضهم لاقتضاء حوائجها وإيرادها عليها وبعضهم لقبض الوارد وحفظه وخزونه الى أن يهياً ويصلح وبعضهم يقبضه فيسيئوه ويصلحه ويدفعه الى أهل الدار ويفرغه عليهم بحسب حاجاتهم وبعضهم لمسح الدار وتنظيفها وكفنها من المزابيل والأقذار فالملك هو الملك الحق المبين جل جلاله والدار أنت والحشم والخدم الأعضاء والجوارح والقوام عليها هذه القوى التي ذكرناها .
(تنبيه) فرق بين نظر الطبيب والطبايعي في هذه الأمور فنظرهما فيها مقصور على النظر في حفظ الصحة ودفع السقم فهو ينظر فيها من هذه الجهة فقط وبين نظر المؤمن العارف فيها فهو ينظر فيها من جهة دلالتها على خالقها وباريها وماله فيها من الحكم الباطنة والنعم السابقة والآلاء التي دعا العباد إلى شكرها وذكرها .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة الله عز وجل في الحفظ والنسيان الذي خص به نوع الإنسان وماله فيهما من الحكم ومال العبد فيهما من المصالح فإنه لولا القرة الحافظة التي خص بها لدخل عليه الخلل في أموره كلها ولم يعرف ماله وما عليه ولا ما أخذ ولا ما أعطى ولا ما سمع ورأى ولا ما قال ولا ما قيل له ولا ذكر من أحسن إليه ولا من أساء إليه ولا من عامله ولا من تقعه فيقرب منه ولا من ضره فينأى عنه ثم كان لا يهتدى إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مرارا ولا يعرف علماً ولو درسه عمره ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان خليقاً أن ينسخ من الإنسانية أصلاً فتأمل عظيم المنفعة عليك في هذه الخلال وموقع الواحدة منها فضلاً عن جميعهن ومن أعجب للنعم عليه نعمة النسيان فإنه لولا النسيان لما سلا شيئاً ولا انتقضت له حسرة ولا تعزى عن مصيبة ولا مات له حزن ولا بطل له حقد ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ولا رجا غفلة عدو ولا تقمة من حاسد فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادها وجملها في كل واحد منهما ضرباً من المصلحة .

(تنبيه) ثم تأمل هذا الخلق الذي خص به الإنسان دون جميع الحيوان وهو خلق الحياء للذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها وأعظمها قدراً وأكثرها نفعا بل هو خاصة الإنسانية فمن لحياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة كما أنه ليس معه من الخير شيء ولولا هذا الخلق لم يقر الضيف ولم يوف بالوعد ولم يؤد أمانة ولم يقض لأحد حاجة ولا تحرى الرجل الجميل قآثره والقيح فتجنبه ولا ستر له عورة ولا امتنع من فاحشة وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئاً من الأمور المفترضة عليه ولم يرع لخلق

حقاً ولم يصل له رحماً ولا بر له والدأ فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني وهو رجاء عاقبتها الحميدة وإما دنيوي علوي وهو حياء فاعلمها من الخلق قد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلاق لم يفعلها صاحبها . وفي الترمذي وغيره مرفوعاً استحوا من الله حق الحياء قالوا وما حق الحياء قال أن تحفظ الرأس وما سوى البطن وما وعى وتذكر المقابر والبلى وقال صلى الله عليه وسلم إذالم تستح فاصنع ما شئت وأصح القولين فيه قول أبي عبيد والأكثرين أنه تهديد كقوله تعالى (إعملوا ما شئتم) وقوله (كلوا وتمتعوا قليلاً) وقالت طائفة هو إذن وإباحة والمعنى إنك إذا أردت أن تفعل فعلا فانظر قبل فعله فإن كان مما يستحيا فيه من الله ومن الناس فلا تفعله وإن كان مما لا يستحيا منه فافعله فإنه ليس بقبيح . وعندى أن هذا الكلام صورته صورة الطلب ومعناه معنى الخبر وهو في قوة قولهم من لا يستحي صنع ما يشتهى فليس يأذن ولا هو مجرد تهديد وإنما هو في معنى الخبر . والمعنى أن الرادع عن القبيح إنما هو الحياء إن لم يستح فإنه يصنع ما شاء وإخراج هذا المعنى في صيغة الطلب لتسكتة بديمة جداً وهي أن للإنسان أمرين وزاجرين أمر وزاجر من جهة الحياء فإذا أطاعه امتنع من فعل كل ما يشتهى وله أمر وزاجر من جهة الهوى والطبيعة فلم يطع أمر الحياء وزاجره أطاع أمر الهوى والشهوة ولا بد لإخراج الكلام في قالب الطلب يتضمن هذا المعنى دون أن يقال من لا يستحي صنع ما يشتهى .

(تنبيه) ثم نامل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي والبيان الخطي وقد اعتد بهما سبحانه في جملة من اعتد به من نعمه على العبد فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة ومن شهوده مما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقه وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالغبار أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقه فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقه ثم ذكر ثالثاً التعلّم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده إذ به تتخذ العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تنقيد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين ولولا الكتابة لا تقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ودرست السنن وتخبّطت الأحكام ولم يعرف

الخلف مذاهب السلف وكان معظم الخلل الداخلى على الناس فى دينهم ودينهم إنما يعترهم من النسبىان الذى يمحو صور العلم من قلوبهم لجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التى تحفظ الأمتة من الذهاب والبطلان فتممة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم والتعليم به وإن كان مما يخص إليه الإنسان باقطة والحيلة فإنه الذى بلغ به ذلك وأرسله إليه عطية وهبها الله منه وفضل أعطاه الله إياه وزيادة فى خلقه وفضله فهو الذى علمه الكتابة وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذى علم بالقلم فإن علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم . هذا ومن أعطاه الذهن الذى يعى به واللسان الذى يترجم به والبنان الذى يخط به ومن هياً ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات ومن الذى أنطق لسانه وحرك بنانه ومن الذى دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد فمك الله من آية نحن غافلون عنها فى التعليم بالقلم فقف وقفة فى حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جمادى وضعت على القرطاس وهو جمادى فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل فن الذى أجرى فلك المعانى على قلبك ورسمها فى ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيباً معناه أعجب من صورته فتقضى به مآربك وتبلغ به حاجة فى صدرك وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك ويجدى عليك ما لا يجدى من ترسله سوى من علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة مرتبة الوجود الذهبى والوجود اللفظى والوجود الرسمى فقد دل التعاليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطى لهذه المراتب ودل قوله خلق على أنه يعطى الوجود العيني فدلته هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقا وتعلما وذكر خلقين وتعليمين خلقا عاما وخلقاً خاصا وتعلما خاصا وتعلما عاما وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذى فيه كل خير وكل كمال فله كل كمال وصفاً ومنه كل خير فعلا فهو الأكرم فى ذاته وأوصافه وأفعاله وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه لا من حاجة دعتة إلى ذلك وهو الغنى الحميد وقوله تعالى (الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها فقوله خلق الإنسان إخبار عن الإيجاد الخارجى العينى وخص الإنسان بالخلق لما تقدم . وقوله علم القرآن إخبار عن إعطاء الوجود العلمى الذهبى وإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه كما أنه إنما صار إنساناً بخلقه فهو الذى خلقه وعلمه . ثم قال علمه البيان والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثة كل منها يسمى بياناً . أحدها البيان الذهبى الذى يميز فيه بين المعلومات . الثانى البيان

اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره . الثالث البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين الناظر معانيها كما يتبين السامع معاني الألفاظ فهذا بيان للعين وذلك بيان للسمع والأول بيان للقلب وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله (أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مستولاً) وقوله (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والافئدة لعلكم تشكرون) ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله (صم بكم عمي) وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) وقد تقدم بسط هذا الكلام .

(تنبيه) ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير فيما أعطى الإنسان عليه بما فيه صلاح معاشه ومعاذه ومنع عنه علم مالا حاجة له به فجعله به لا يضر وعلمه به لا ينفع به انتفاعاً طائلاً ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم آتم تيسير وكذا كانت حاجته إليه من العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه آتم فأعطاه معرفة خالقه وبارئه ومبدعه سبحانه والإقرار به ويسر عليه طرق هذه المعرفة فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة وليس في طرق العلوم التي تتالها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكيف تراه بينك أو تسمعه بأذنك أو تعقله بقلبك وكذا يخطر ببالك وكذا نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالاصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجل منها وكل ما استدل به على الصانع فالعلم بوجوده أظهر من دلالته ولهذا قالت الرسل لأمتهم أفي الله شك فخطبهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك مافي وجود الله سبحانه ونصب من الأدلة على وجوده ووحدانيته وصفات كاله الأدلة على اختلاف أنواعها ولا يطبق حصرها إلا الله ثم ركز ذلك في الفطرة ووضع في العقل جملة ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى (فذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين) وقوله (فذكر إن نعمت الذكري) وقوله (إنما أنت مذكر) وقوله (فالهم عن التذكرة معرضين) وهو كثير في القرآن . ومفصلين (١) لما في الفطرة والعقل العلم به جملة فانظر كيف وجد الإقرار به وبتوحيده وصفات كاله ونعوت جلاله وحكمته في خلقه وأمره المقتضية إثبات رسالة رسله وبجازات المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته مودعاً في الفطرة مركزاً فيها فلو خلقت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحوّلها ويغيرها عما فطرت عليه ولأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته وبصفاته وحكمته في أفعاله وبالثواب والعقاب ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت

(١) - قوله ومفصلين - مطوف على قوله مذكرين من قوله ثم بعث الرسل مذكرين ٥١ .

عليه أنكرت ما أنكرت وجحدت ماجحدت فبعث الله رسله مذكرين لأصحاب الفطر
الصحيحة السليمة فانقادوا طوعاً واختياراً ومحبة وإذعاناً بما جعل من شواهد ذلك في
قلوبهم حتى أن منهم من لم يسأل عن المعجزة والخارق بل علم صحة الدعوة من ذاتها وعلم أنها
دعوة حق برهانها فيها ومعذرين (١) ومقيمين البينة على أصحاب الفطر الفاسدة لئلا نحتاج على
الله بأنه ما أرشدها ولاهداها فيحق القول عليها بإقامة الحججة فلا يكون سبحانه ظالماً لها
بتعذيبها وأشقاؤها وقد بين ذلك سبحانه في قوله (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان
حيأ ويحق القول على الكافرين) فتأمل كيف ظهرت معرفة الله والشهادة له بالتوحيد واثبات
أسمائه وصفاته ورسالة رسله والبعث للجزاء مسطورة مثبتة في الفطر ولم يكن ليعرف بها أنها
ثابتة في فطرته فلما ذكرته الرسل ونهته رأى ما أخبروه به مستقراً في فطرته شاهداً به عقله
بل وجوارحه ولسان حاله وهذا أعظم ما يكون من الإيمان وهو الذي كتبه سبحانه في
قلوب أوليائه وغاصته فقال (أوأنتك كُتبت في قلوبهم الإيمان) فتدبر هذا الفصل
فإنه من الكنوز في هذا الكتاب وهو حقيق بأن تثني عليه الخناصر والله الجود والمنة
والمقصود أن الله سبحانه أعطى العبد من هذه المعارف وطرقها ويسرها عليه ما لم
يعطه من غيرها لعظم حاجته في معاشه ومعاده إليها ثم وضع في العقل من الإقرار بحسن
شرعه ودينه الذي هو ظله في أرضه وعدله بين عباده ونوره في العالم ما لو اجتمعت عقول
العالمين كلهم فكانوا على عقل أعقل رجل واحد منهم لما أمكنهم أن يقترحوا شيئاً أحسن منه
ولا أعدل ولا أصلح ولا أنفع للخلقة في معاشها ومعادها فهو أعظم آياته وأوضح بيناته وأظهر
حججه على أنه الله الذي لا إله إلا هو وإنه المتصف بكل كمال المنزه عن كل عيب ومثال فضلاً
عن أن يحتاج إلى إقامة شاهد من خارج عليه بالأدلة والشواهد لتكثير طرق الهدى وقطع
المعذرة وإزاحة العلة والشبهة (ايهلك من هلك عن بينة ويحيها من حي عن بينة وإن الله لسميع
عليم) فأثبت في الفطرة حسن العدل والإنصاف والصدق والبر والإحسان والوفاء بالعهد
والنصيحة للخلق ورحمة المسكين ونصر المظلوم ومواساة أهل الحاجة والفاقة وأداء الأمانات
ومقابلة الإحسان بالإحسان والإساءة بالعفو والصفح والصبر في مواطن الصبر والبذل في
مواطن البذل والانتقام في موضع الانتقام والحلم في موضع الحلم والسكينة والوقار والراقة
والرفق والتؤدة وحسن الأخلاق وجميل المعاشرة مع الأقارب والأباعد وستر العورات
وإقالة العثرات والإيثار عند الحاجات وإغاثة اللمهات وتفريج الكربات والتعاون على أنواع

(١) — قوله ومعذرين — عطف على مذكرين أيضاً اهـ .

الخير والبر والشجاعة والسماحة والبصيرة والثبات والعزيمة والقوة في الحق واللين لأهلها الشدة على أهل الباطل والغلظة عليهم والإصلاح بين الناس والسعي في إصلاح ذات البين وتعظيم من يستحق التعظيم وإهانة من يستحق الإهانة وتزليل الناس منازلهم وإعطاء كل ذي حق حقه وأخذ ماسهل عليهم وطوعت به أنفسهم من الأعمال والأموال والأخلاق ولأرشاد ضالهم وتعليم جاهلهم واحتمال جفوتهم واستواء قريهم وبميدهم في الحق فأقربهم إليه أولاهم بالحق وإن كان بعيداً وأبعدهم عنه أبعدهم من الحق وإن كان حبيباً قريباً إلى غير ذلك من معرفة العقل الذي وضعه بينهم في المعاملات والمناكحات والجنايات وما أودع في فطرتهم من حسن شكره وعبادته وحده لا شريك له وإن نعمه عليهم توجب بذل قدرتهم وطاقتهم في شكره والتقرب إليه وإيثاره على ماسواه وأثبت في الفطر عليها بقبیح اضداد ذلك ثم بعث رسله في الأمر بما أنبت في الفطر حسنه وكماله والنهي عما أنبت فيها قبحه وعيبه وذمه فطابقت الشريعة المنزلة للفطرة المكتملة مطابقة التفصيل بجملة وقامت شواهد دينه في الفطرة تنادى للإيمان حتى على الفلاح وصدعت تلك الشواهد والآيات دياجي ظلم الإباء كما صدع الليل ضوء الصباح وقبل حاكم الشريعة شهادة العقل والفطرة لما كان الشاهد غير متمم ولا معرض للجراح .

فصل

وكذلك أعظام من العلوم المتعاقبة بصلاح معاشهم ودينام بقدر حاجاتهم كعلم الطب والحساب وعلم الزراعة والفراس وضروب الصنائع واستنباط المياه وعقد الابنية وصناعة السفن واستخراج المعادن وتهيئتها لما يراد منها وتركيب الأدوية وصناعة الأظعمة ومعرفة ضروب الخيل في صيد الوحش والطير ودواب الماء والتصرف في وجوه التجارات ومعرفة وجوه المكاسب وغير ذلك مما فيه قيام معاشهم ثم منهم سبحانه علم ماسوى ذلك مما ليس في شأنهم ولا فيه مصلحة لهم ولا نشأتهم قابلة له كعلم الغيب وعلم ما كان وكل ما يكون والعلم بعدد القطر وأمواج البحر وذرات الرمال ومسافات الأوراق وعدد الكواكب ومقاديرها وعلم ما فوق السموات وما تحت الثرى وما في لجج البحار وأقطار العالم وما يكتنه الناس في صدورهم وما تحمل كل أنثى وما تفيض الأرحام وما تزداد إلى سائر ما عذب عنهم علمه فمن تكلف معرفة ذلك فقد ظلم نفسه وبخس من التوفيق حظه ولم يحصل إلا على الجهل المركب والخيال الفاسد في أكثر أمره ووجرت سنة الله وحكمته أن هذا الضرب من الناس أجهلهم بالعلم النافع وأقلهم صواباً فترى عند من لا يرفعون به رأساً من الحكم والعلم الحق النافع ما لا يخطر ببالهم أصلاً وذلك من حكمة الله في خلقه وهو العزيز الحكيم ولا يعرف هذا إلا من اطلع على ما عند القوم من أنواع الخيال

وضروب المحال وفنون الوسوس والهوى والهوس والخبط وهم يحسبون أنهم على شيء إلا
إنهم الكاذبون فالحمد لله الذى من على المؤمنين (إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم
آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين) .

فصل

ومن حكمته سبحانه ما منهم من العلم علم الساعة ومعرفة آجالهم وفى ذلك من الحكمة البالغة
ملا يحتاج إلى نظر فلو عرف الإنسان مقدار عمره فإن كان قصير العمر لم يتنأ بالعيش وكيف
يتنأ به وهو يترقب الموت فى ذلك الوقت فلولا طول الأمل لحربت الدنيا وانما عمارتها
بالآمال وإن كان طويل العمر وقد تحقق ذلك فهو واثق بالبقاء فلا يبالي بالانهاك فى الشهوات
والمعاصى وأنواع الفساد ويقول إذا قرب الوقت أحدثت توبة وهذا مذهب لا يرتضيه الله
تعالى عز وجل من عباده ولا يقبله منهم ولا تصلح عليه أحوال العالم ولا يصلح العالم إلا على
هذا الذى اقتضته حكمته وسبق فى علمه فلو أن عبداً من عبيدك عمل على أن يسخطك أعماً ثم
يرضيك ساعة واحدة إذا نيقن أنه صائر إليك تقبل منه ولم يفزلدك بما يفوز به من همم رضاك
وكذا سنة الله عز وجل أن العبد إذا عاين الانتقال إلى الله تعالى لم ينفعه توبة ولا اقلاع قال
تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن)
وقوله (فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم
إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى خلقت فى عباده) والله تعالى إنما يغفر للعبد إذا كان وقوع
الذنب منه على وجه غلبة الشهوة وقوة الطبيعة فيواقع الذنب مع كراهته له من غير إصرار فى
نفسه فهذا أرجى له مغفرة الله وصفحه وعفوه لعله تعالى بضعفه وغلبة شهوته له وأنه يرى
كل وقت مالا صبر له عليه فهو إذا واقع الذنب واقع موافقة ذليل خاضع لربه خائف محتاج
فى صدره شهوة النفس الذنب وكراهة الإيمان له فهو يجيب داعى النفس تاره وداعى الإيمان
تارات فأما من بنى أمره على أن لا يقف عن ذنب ولا يقدم خوفا ولا يدع لله شهوة وهو فرح
مسرور يضحك ظهرا لبطن إذ ظفر بالذنب فهذا الذى يخاف عليه أن يحال بينه وبين التوبة
ولا يوفق لها فإنه من معاصيه وقبائح على نقد عاجل يتقاضاه سلباً وتعجلاً ومن توبته وإياه
ورجوعه إلى الله على دين مؤجل إلى انقضاء الأجل وإنما كان هذا الضرب من الناس يحال
بينهم وبين التوبة غالباً لأن النزوع عن اللذات والشهوات إلى مخالفة الطبع والنفس والاستمرار
على ذلك شديد على النفس صعب عليها أثقل من الجبال ولا سيما إذا انضاف إلى ذلك ضعف
البصيرة وقلة النصيب من الإيمان فنفسه لا تطوع له أن يبيع نقداً بنسيئة ولا عاجلاً بأجل
كما قال بعض هؤلاء وقد سئل أيما أحب إليك درهم اليوم أو دينار غدا فقال لا هذا ولا هذا
ولكن ربع درهم من أول أمس حرام على هؤلاء أن يوفقوا للتوبة إلا أن يشاء الله فإذا بلغ

العبد حد الكبر وضعفت بصيرته ووهت قواه وقد أوجبت له تلك الأعمال قوة في غيه وضعفا في إيمانه صارت كالمملكة له بحيث لا يتمكن من تركها فإن كثرة المزاوالت تعطى المملكات فتبقى للنفس هيئة راسخة ومملكة ثابتة في الغي والمعاصي وكلما صدر عنه واحد منها أثر أثارا زائدا على أثر ما قبله فيقوى الأثران وهلم جرا فيهجم عليه الضعف والكبر ووهن القوة على هذه الحال فينتقل إلى الله بنجاسته وأوساخه وأدراجه لم يتطهر للقدوم على الله فما ظنه بربه ولو أنه تاب وأتاب وقت القدرة والامكان لقبلت توبته وبحيت سيئاته ولكن حيل بينهم وبين ما يشتهون ولا شيء أشبه لمن انتقل إلى الله على هذه الحال من التوبة ولكن فرط في أداء الدين حتى نفذ المال ولو أداءه وقت الامكان انقبله ربه وسيعلم المسرف والمفرط أي ديان أدان وأي غريم يتقاضاه يوم يكون الوفاء من الحسنات فإن فذبت فيحمل السيئات . فبان أن من حكمة الله ونعمه على عباده أن ستر عنهم مقادير آجالهم ومبلغ أعمارهم فلا يزال الكيس يترقب الموت وقد وضعه بين عينيه فيسكف عما يضره في معاده ويجتهد فيما ينفعه ويسر به عند القدوم . فإن قلت فيها هو مع كونه قد غيب عنه مقدار أجله وهو يترقب الموت في كل ساعة ومع ذلك يقارف الفواحش وينتهك المحارم فأى فائدة وحكمة حصلت بستر أجله عنه . قيل لعمر الله أن الأمر كذلك وهو الموضوع الذي حير الالباب والعقلاء وافترق الناس لأجله فرقا شتى ففرقة أنكرت الحكمة وتعليل أفعال الرب جملة وقالوا بالجبر المحض وسدوا على أنفسهم الباب وقالوا لا تعلل أفعال الرب تعالى ولا هي مقصود بها مصالح العباد وإنما مصدرها محض المشيئة . وصرف الإرادة فأنكروا حكمة الله في أمره ونهيه . وفرقة نفت لأجله القدر جملة وزعموا أن أفعال العباد غير مخلوقة لله حتى يطلب لها وجوه الحكمة وإنما هي خلقهم وابداعهم فهي واقعة بحسب جهلهم وظلمهم وضعفهم فلا يقع على السداد والصواب إلا أقل القليل منها فإن الطائفتان متقابلتان أعظم تقابل فالأولى غلت في الجبر وانكار الحكم المقصودة في أفعال الله . والثانية غلت في القدر وأخرجت كثيرا من الحوادث بل أكثرها عن ملك الرب وقدرته وهدى الله أهل السنة الوسط لما اختلفوا فيه من الحق باذنه فأثبتوا لله عز وجل عموم القدرة والمشية وأنه تعالى أن يكون في مملكة مالا يشاء أو يشاء مالا يكون وأن أهل سمواته وأرضه أعجز وأضعف من أن يخلقوا مالا يخلقه الله أو يحدنوا مالا يشاء بل ما شاء الله كان ووجد وجوده بمشيئته ومالم يشأ لم يكن وامتنع وجوده لعدم المشيئة له وأنه لا حول ولا قوة الا به ولا تتحرك في العالم العلوي والسفلي ذرة الا بإذنه ومع ذلك فله في كل ما خلق وقضى وقدر وشرع من الحكم البالغة والعواقب الحميدة ما اقتضاه كمال حكمته وعلوه وهو العليم الحكيم فاخلق شيئا ولا قضاءه ولا شرعه الا لحكمة بالغة وإن تقاصرت عنها عقول البشر فهو الحكيم القدير فلا تجحد حكمته كما لا تجحد قدرته

والطائفة الأولى جمعدت الحكمة والثانية جمعدت القدرة والأمة الوسط أثبتت له كمال الحكمة وكال القدرة فالفرقة الأولى تشهد في المعصية مجرد المشيئة والخلق العارى عن الحكمة وربما شهدت الجبر وأن حركاتهم بمنزلة حركات الأشجار ونحوها * والفرقة الثانية تشهد في المعصية مجرد كونها فاعلة محدثة مختارة هي التي شامت ذلك بدون مشيئة الله والأمة الوسط تشهد عن الربوبية وقهر المشيئة ونفوذها في كل شيء وتشهد مع ذلك فعلها وكسبها واختيارها وإيثارها شهواتها على مرضات ربها فيوجب الشهود الأول لها سؤال ربها والنذال والتضرع له أن يوفقها لطاعته ويجول بينها وبين معصيته وأن يثبتها على دينه ويعصمها بطواعيته ويوجب الشهود الثاني لها اعترافها بالذنب وإقرارها به على نفسها وأنها هي الظالمة المستحقة للعقوبة وتزيه ربها عن الظلم وأن يعذبها بغير استحقاق منها أو يعذبها على ما لم تعمله فيجتمع لها من الشهودين شهود التوحيد والشرع والعدل والحكمة * وقد ذكرنا في الفتوحات القدسية مشاهد الخلق في مواضع الذنب وأنها تنهى إلى ثمانية مشاهد . أحدها المشهد الحيواني البهيمى الذى شهود صاحبه مقصور على شهوات لذته به فقط وهو في هذا المشهد مشارك لجميع الحيوانات وربما يزيد عليها في اللذة وكثرة التمتع . والثانى مشهد الجبر وأن الفاعل فيه سواء والمحرك له غيره ولا ذنب له هو وهذا مشهد المشركين وأعداء الرسل . الثالث مشهد القدر وهو أنه هو الخالق لفعله المحدث له بدون مشيئة الله وخلقته وهذا مشهد القدرية المجوسية . الرابع مشهد أهل العلم والإيمان وهو مشهد القدر والشرع يشهد فعله وقضاء الله وقدره كما تقدم . الخامس مشهد الفقر والفاقة والعجز والضعف وأنه إن لم يعنه الله ويثبته ويفقه فهو هالك والفرق بين مشهد هذا ومشهد الجبرية ظاهر . السادس مشهد التوحيد وهو الذى يشهد فيه إنفراد الله عز وجل بالخلق والإبداع ونفوذ المشيئة وأن الخلق أعجز من أن يعصوه بغير مشيئته والفرق بين هذا المشهد وبين المشهد الخامس أن صاحبه شاهد لكامل فقره وضعفه وحاجته وهذا شاهد لتفرد الله بالخلق والإبداع وأنه لا حول ولا قوة إلا به . السابع مشهد الحكمة وهو أن يشهد حكمة الله عز وجل في قضائه وتخليته بين العبد والذنب والله في ذلك حكم تعجز العقول عن الإحاطة بها وذكرنا منها في ذلك الكتاب قريباً من أربعين حكمة وقد تقدم في أول هذا الكتاب التنبية على بعضها . الثامن مشهد الأسماء والصفات وهو أن يشهد ارتباط الخلق والأمر والقضاء والقدر بأسمائه تعالى وصفاته وأن ذلك موجهها ومقتضاها فأسماؤه الحسنى اقتضت ما اقتضته من التخلية بين العبد وبين الذنب فإنه الغفار التواب العفو الحليم وهذه أسماء تطلب آثارها وموجباتها ولا بد فلوم تذبوا لذنب الله بكم ولجاء بقوم يذبون فيستغفرون فيغفر لهم وهذا المشهد الذى قبله أجل هذه المشاهد وأشرفها وأرفعها قدراً

وهما لخواص الخليفة فتأمل بعد ما بينهما وبين المشهد الأول وهذان المشهدان يطرحان العبد على باب المحبة ويفتحن له من المعارف والمعلوم أموراً لا يعبر عنها وهذا باب عظيم من أبواب المعرفة قل من استفتحته من الناس وهو شهود الحكمة البالغة في قضاء السيئات وتقدير المعاصي وإنما استفتح الناس باب الحكم في الأوامر والنواهي وخاضوا فيها وأتوا بما وصلت إليه علومهم واستفتحوا أيضاً بابها في المخلوقات كما قدمناه وأتوا فيه بما وصلت إليه قوام وأما هذا الباب فمكاريت كلامهم فيه فقل أن ترى لأحدهم فيه ما يشفى أو يلم وكيف يطلع على حكمة هذا الباب من عنده أن أعمال العباد ليست مخلوقة لله ولا داخلة تحت مشيئته أصلاً وكيف يتطلب لها حكمة أو يشبها أم كيف يطلع عليها من يقول هي خلق الله ولكن أفعاله غير معلة بالحكم ولا يدخلها لام تعليل أصلاً وإن جاء شيء من ذلك صرف إلى لام العاقبة لا إلى لام العلة والغاية فأما إذا جاءت الباء في أفعاله صرفت إلى باء المصاحبة لا إلى باء السببية وإذا كان المتكلمون عند الناس هم هؤلاء الطائفتان فإنهم لا يرون الحق خارجاً عنهما ثم كثير من الفضلاء يتحير إذا رأى بعض أقوالهم الفاسدة ولا يدري أين يذهب . ولما عربت كتب الفلاسفة صار كثير من الناس إذا رأى أقوال المتكلمين الضعيفة وقد قالوا إن هذا هو الذي جاء به الرسول قطع القنطرة وعدى إلى ذلك البر وكل ذلك من الجهل الفبيح والظن الفاسد أن الحق لا يخرج عن أقوالهم فأكثر خروج الحق عن أقوالهم وما أكثر ما يذهبون في المسائل التي هي حق وصواب إلى خلاف الصواب . والمقصود أن المتكلمين لو أجمعوا على شيء لم يكن إجماعهم حجة عند أحد من العلماء فكيف إذا اختلفوا والمقصود أن مشاهدة حكمة الله في أفضيته وأقداره التي يجربها على عباده باختياراتهم وإراداتهم هي من اللطف ما تكلم فيه الناس وأدقه وأنغمسه وفي ذلك حكم لا يعلمها إلا الحكيم العليم سبحانه ونحن نشير إلى بعضها . فمنها أنه سبحانه يحب التوابين حتى أنه من محبته لهم يفرح بتوبة أحدهم أعظم من فرح الواحد براحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض الدورية المهلكة إذا فقدوا وأيس منها وليس في أنواع الفرح أكل ولا أعظم من هذا الفرح كما سنوضح ذلك ونزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله . ولولا المحبة التامة للتوبة ولأهلها لم يحصل هذا الفرح . ومن المعلوم أن وجود المسبب بدون سببه تمتع وهل يوجد ملزوم بدون لازمه أو غاية بدون وسيلتها وهذا معنى قول بعض العارفين ولولم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم المخلوقات عليه فالتوبة هي غاية كمال كل آدمي وإنما كان كمال أبيهم بها فكم بين حاله وقد قيل له إن لك الاتجوع فيها ولا تعرى وأنت لا تظلم فيها ولا تضحي وبين قوله ثم اجتبه به فتاب عليه وهدى فالحال الأولى حال أكل وشرب

وتمتع والحال الأخرى حال اجتناب واصطفاء وهداية فيا بعد ما بينهما ولما كان كماله بالتوبة كان كماله عليه أيضاً بها كما قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) فكمال الآدمي في هذه الدار بالتوبة النصوح وفي الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة وهذا الكمال مرتب على كماله الأول . والمقصود أنه سبحانه لمحبة التوبة وفرحة بها يقتضى على عبده بالذنب ثم إن كان ممن سبقت له الحسنى قضى له بالتوبة وإن كان ممن غلبت عليه شقاوته أقام عليه حجة عدله وعاقبه بذنبه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يجب أن يتفضل عليهم ويتم عليهم نعمه ويربهم مواقع بره وكرمه فلمحبه الأفضال والأنعام ينوعه عليهم أعظم الأنواع وأكثرها في سائر الوجوه الظاهرة والباطنة ومن أعظم أنواع الإحسان والبر أن يحسن إلى من أساء ويعفو عن ظلمه ويغفر لمن أذنب ويتوب على من تاب إليه ويقبل عذره من اعتذر إليه وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة والأفعال الحميدة وهو أولى بها منهم وأحق وكان له في تقدير أسبابها من الحكم والعواقب الحميدة ما يبهر العقول فسبحانه وبحمده . وحكى بعض العارفين أنه قال طفت في ليله مطيرة شديدة الظلمة وقد خلا الطواف وطابت نفسي فوقفت عند الملزم ودعوت الله فقلت اللهم اعصمني حتى لأعصيك فهتفت بي هاتفت أنت تسألني العصمة وكل عبادي يسألوني العصمة فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل ولئن أغفر قال فبقيت ليلتي إلى الصباح أستغفر الله حياء منه . هذا ولو شاء الله عز وجل أن لا يعصى في الأرض طرفة عين لم يعص ولكن اقتضت مشيئته ما هو موجب حكمته سبحانه فمن أجل بالله ممن يقول أنه يعصى قسراً بغير اختياره ومشيئته سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً

فصل

ومنها أنه سبحانه له الأسماء الحسنى ولكل اسم من أسمائه أثر من الآثار في الخلق والأمر لا بد من ترتيبه عليه كترتيب المرزوق والرزق على الرازق وترتيب المرحوم وأسباب الرحمة على الراحم وترتيب المراثيات والمسموعات على السميع والبصير ونظائر ذلك في جميع الأسماء فلولا يكن في عبادة من يخطئ به ويذنب ليتوب عليه ويغفر له ويعفو عنه لم يظهر أثر أسمائه الغفور والعفو والحليم والتواب وما جرى مجراها وظهور أثر هذه الأسماء ومتعلقاتها في الخلق كظهور آثار سائر الأسماء الحسنى ومتعلقاتها فكأن اسم الخالق يقتضى مخلوقاً والبارى يقتضى مبروراً والمصور يقتضى مصوراً ولا بد فأسماؤه الغفار التواب تقتضى مغفوراً له ما يغفره له وكذلك من يتوب

عليه وأموراً يتوب عليه من أجلها ومن يحكم عنه ويعفو عنه وما يكون متعلق
الحلم والعفو فإن هذه الأمور متعلقة بالغير وممانها مستلزمة لمعلقاتها . وهذا باب أوسع
من أن يدرك والليبي يكتبني منه باليسير وغليظ الحجاب في واد ونحن في واد .

وان كان أهل الواد يجمع بيننا فقير خفي شيجه من خزامه

تأمل ظهور هذين الإسمين اسم الرزاق واسم الغفار في الخليفة ترى وما يعجب العقول وتأمل
آثارها حق التأمل في أعظم مجامع الخليفة وانظر كيف وسعهم رزقه ومغفرته ولولا ذلك لما
كان له من قيام أصلاً فلكل منهم نصيب من الرزق والمغفرة فأما متصلاً بنشأته الثانية وإما
مختصاً بهذه النشأة .

فصل

ومنه أنه سبحانه يعرف عباده عزه في قضاائه وقدره ونفوذ مشيئته وجريان حكمته وأنه
لا يحصي العبد عما قضاه عليه ولا مفر له منه بل هو في قبضة ماله وسيدته وأنه عبده وابن
عبده وابن أمته ناصيته بيده ماض فيه حكمه عدل فيه قضاؤه .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد حاجته إلى حفظه له ومعونته وصيائته وأنه كالوليد الطفل في حاجته
إلى من يحفظه ويصونه فإن لم يحفظه مولاه الحق ويصونه ويعينه فهو هالك ولا بد وقد مدت
الشياطين أيديها إليه من كل جانب تريد تمزيق حاله كله إفساد شأنه كله وإن مولاه وسيدته
إن وكله إلى نفسه وكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة وتفريط فهلاكه أذن إليه من شرك
نعله . فقد أجمع العلماء بالله على أن التوفيق أن لا يكمل الله العبد إلى نفسه وأجمعوا على أن الخذلان
أن يخلى بينه وبين نفسه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستجلب من عبده بذلك ما هو من أعظم أسباب السعادة له من استعاذته
واستعانته به من شر نفسه وكيد عدوه ومن أنواع النقاء والتضرع والابتهال والإناابة
والفاقة والمحبة والرجاء والخوف وأنواع من كالات العبد تبلغ نحو المائة ومنها ما لا تدرکه
العبرة وإنما يدرك بوجوده فيحصل للروح بذلك قرب خاص لم يكن يحصل بدون هذه
الأسباب ويجد العبد من نفسه كأنه ملق على باب مولاه بعد أن كان نائماً عنه وهذا الذي
أمر له أن الله يحب التوابين وهو ثمرة لله أفرح بتوبة عبده وأسرار هذا الوجه يضيق عنها

القلب واللسان وعسى أن يجيئك في القسم الثاني من الكتاب ما تقر به عينك إن شاء الله تعالى فكم بين عبادة يدل صاحبها على ربه بعبادته شاخ بأفقه كلما طلب منه أو صاف العبد قامت صور تلك الأعمال في نفسه فحجته عن معبوده واله وبين عبادة من قد كسر الذل قلبه كل الكسر وأحرق ما فيه من الرغونات والحماقات والخيالات فهو لا يرى نفسه إلا مسيئاً كما لا يرى ربه إلا محسناً فهو لا يرضى أن يرى نفسه طرفة عين قد كسر ازدراؤه على نفسه قلبه وذلك لسانه وجوارحه وطأطأ منه ما ارتفع من غيره فقلبه واقف بين يدي ربه وقوف ناكس الرأس خاشع خاضع غاض البصر خاشع الصوت هادئ الحركات قد سجد بين يديه سجدة إلى الممات فلو لم يكن من ثمرة ذلك القضاء والقدر إلا هذا وحده لكني به حكمة والله المستعان .

فصل

ومنها أنه سبحانه يستخرج بذلك من عبده تمام عبوديته فإن تمام العبودية هو بتكامل مقام الذل والانقياد وأكل الخلق عبودية أكملهم ذلاً لله وانقياداً وطاعة والعبد ذليل لمولاه الحق بكل وجه من وجوه الذل فهو ذليل لعزه وذليل لقهره وذليل لربوبيته فهو تصرفه وذليل لإحسانه إليه وانعامه عليه فان من أحسن اليك فقد استمبك وصار قبلك ممهداً وذليلاً تبع له حاجته إليه على مدى الأنفاس في جلب كل ما ينفعه ودفع كل ما يضره . وهنا نوعان من أنواع التذلل والتعبد لهما أثر عجيب يقتضيان من صاحبهما من الطاعة والفوز مالا يقتضيه غيرهما أحدهما ذل المحبة وهذا نوع آخر غير ما تقدم وهو خاصة المحبة ولها بل روحها وقوامها وحقيقتها وهو المراد على الحقيقة من العبد لفظاً وهذا يستخرج من قلب المحب من أنواع التقرب والتودد والملتق والايثار والرضا والحمد والشكر والصبر والتقدم وتحمل العظام مالا يستخرجه الخوف وحده ولا الرجاء وحده كما قال بعض الصحابة إنه ليستخرج محبته من قلبي من طاعته مالا يستخرجه خوفه أو كما قال فهذا ذل المحبين . الثاني ذل المعصية فإذا انضاف هذا إلى هذا هناك فثبت الرسوم وتلاشى الأنفس واضمحلت القوى وبطلت الدعاوى جملة ، وذهبت الرغونات وطاحت الشطحانات وعي من القلب واللسان أنا وأنا واستراح المسكين من شكاوى الصدود والإعراض والمهجر وتجرد الشهودان فلم يبق إلا الشهود العز والجلال الشهود المحض الذي تفرد به ذوا الجلال والإكرام الذي لا يشاركه أحد من خلقه في ذرة من ذراته وشهود الذل والفقر المحض من جميع الوجوه بكل اعتبار فيشهد غاية ذله وانكساره وعزة محبوه وجلاله وعظمته وقدرته وغناه فإذا تجرد له هذان الشهودان ولم يبق ذرة من ذرات الذل والفقر والضرورة إلى ربه إلا شاهداً فيه بالفعل وقد شهد مقابلهما هناك فله أي مقام أقيم فيه هذا القلب إذا ذك وأى قرب حظي به وأى نعم أدركه وأى روح باشره فتأمل الآن موقع الكسرة التي حصلت له بالمعصية في هذا (١٩ - مفتاح ١)

الموطن ما أعجبها وما أعظم موقعها كيف جاءت فحققت من نفسه الدعوى والرعونات وأنواع الأمانى الباطلة ثم أوجبت له الحياء والحجل من صالح ما عمل ثم أوجبت له استكثار قليل ما يرد عليه من ربه لعله بأن قدره أصغر من ذلك وأنه لا يستحقه واستقلال أمثال الجبال من عمله الصالح بأن سيئاته وذنوبه تحتاج من المكفرات والمأخيات إلى أعظم من هذا فهو لا يزال محسناً وعند نفسه المسمى المذنب متكسراً ذللاً خاضعاً لا يرتفع له رأس ولا ينتقام له صدر وإنما ساقه إلى هذا الذل والذي أورثه إياه مباشرة الذائب فأى شيء أنفع له من هذا الدواء ..

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل ونكتة هذا الوجه أن العبد متى شهد صلاحه واستقامته شخخ بأنفه وتعاظمت نفسه ووطن أنه وأنه أى عظيماً فإذا ابتلى بالذنب تصاعرت إليه نفسه وذل وخضع وتيقن أنه وأنه أى عبداً ذليلاً .

فصل

ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه وأنها الظالمة وأن ما صدر منها من شر فقد صدر من أهله ومعدنه إذ الجهل والظلم منبع الشر كله وأن كل ما فيها من خير وعلم وهدى وإنابة وتقوى فهو من ربها تعالى هو الذى زكاهم به وأعطاهم إياه لا منها فأذلم يشأ تزكية العبد تركه مع دواعي ظلمه وجهله فهو تعالى الذى يزكى من يشاء من النفوس فتزكو وتأتى بأنواع الخير والبر ويترك تزكية من يشاء منها فتأتى بأنواع الشر والحجث . وكان من دعاء النبي ﷺ : اللهم أت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكها أنت وليها ومولاها . فإذا ابتلى الله العبد بالذنب عرف نفسه ونقصها فرتبه على ذلك التعريف حكم ومصالح عديدة . منها أنه يأنف من نقصها ويجتهد فى كمالها ومنها أنه يعلم فقرها دائماً إلى من يتولاها ويحفظها . ومنها أنه يستريح ويريح العباد من الرعونات والحماقات التى ادعاهم أهل الجهل فى أنفسهم من قدم أو اتصال بالقديم أو اتحاد به أو حلول فيه أو غير ذلك من المحالات فلولا أن هؤلاء غاب عنهم شهودهم لنقص أنفسهم وحقيقتها لم يقوموا فيها وقموا فيه .

فصل

ومنها تعريفه سبحانه عبده سعة حله وكرمه فى ستره عليه وأنه لو شاء لما جعله على الذنب ولما شك بين عباده فلم يطلب له معهم عيش أبداً ولكن جعله بستره وغشاه بحلوه وقبض له من يحفظه وهو فى حالته تلك بل كان شاهداً وهو يبارزه بالمعاصى والآثام وهو مع ذلك يحرسه بعينه اتق لا تنام وقد جاء فى بعض الآثار يقول الله تعالى : أنا الجواد الكريم من أعظم منى جوداً وكرم مآبى يبارزونى

بالمعظائم وأنا أكلوهم في منازلهم . فأى حلم أعظم من هذا الحلم وأى كرم أوسع من هذا الكرم فلولا حلمه وكرمه ومغفرته لما استقرت السموات والأرض في أما كتبها وتأمل قوله تعالى (أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا وأن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) الآية هذه الآية تقتضى الحلم والمغفرة فلولا حلمه ومغفرته لزالتا عن أما كتبها ومن هذا قوله (لا تكاد السموات يتفطرن منه وتنفق الأرض وتخز الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا) .

فصل

ومنها تعريفه عبده أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بعفوه ومغفرته وأنه رهين بحقه فإن لم يتزهد بعفوه ومغفرته وإلا فهو من الهالكين لا محالة فليس أحد من خلقه إلا وهو محتاج إلى عفوهِ ومغفرته كما هو محتاج إلى فضله ورحمته .

فصل

ومنها تعريفه عبده كرمه سبحانه في قبول توبته ومغفرته له على ظلمه وإساءته فهو الذى جاد عليه بأن وفقه للتوبة وألمه إياها ثم قبلها منه فتاب عليه أولاً وآخرأ فتوبة العبد محفوفة بتوبة قبلها عليه من الله إذنا وتوفيقاً وتوبة ثانية منه عليه قبولاً ورضاً فله الفضل في التوبة والكرم أولاً وآخرأ لا إله إلا هو .

فصل

ومنها إقامة حجة عدله على عبده ليعلم العبد أن الله عليه الحجة البالغة فإذا أصابه ما أصابه من المكروه فلا يقال من أين هذا ولا من أين أتيت ولا بأى ذنب أصبت فما أصاب العبد من مصيبة قط دقيقة ولا جلييلة إلا بما كسبت يده وما يعفو الله عنه أكثر وما نزل بلاء قط إلا بذنب ولا رفع بلاء إلا بتوبة ولهذا وضع الله المصائب والبلايا والمحن رحمة بين عباده يكفر بها من خطاياهم فهي من أعظم نعمه عليهم وإن كرهتها أنفسهم ولا يدرى العبد أى النعمتين عليه أعظم نعمته عليه فيما يكره أو نعمته عليه فيما يحب وما يصيب المؤمن من هم ولا وصب ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها وإذا كان للذنوب عقوبات ولا بد فكما عوقب به العبد من ذلك قبل الموت خير له مما بعده وأيسر وأسهل بكثير .

فصل

ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يجب أن يعامله الله به في إساءته وزلاته وذنوبه فإن الجزء من جنس العمل فن عفا عن الله عنه ومن سآخ أخاه في إساءته إليه سآخه الله في سيئاته ومن أغضى وتجاوز تجاوز الله عنه ومن استقصى استقصى عليه

ولا نفس حال الذي قبضت الملائكة روحه فقيل له هل عملت خيراً هل عملت حسنة قال ما أعله قيل تذكر قال كنت أبايع الناس فكنت أنظر المومنين وأتجاوز عن المعسر أو قال كنت أمر قتياني أن يتجاوزوا في السكة فقال الله نحن أحق بذلك منك وتجاوز الله عنه فآله عز وجل يعامل العبد في ذنوبه بمثل ما يعامل به العبد الناس في ذنوبهم فإذا عرف العبد ذلك كان في ابتلائه بالذنوب من الحكم والفوائد ما هو أرفع الأشياء له .

فصل

ومنها أنه إذا عرف هذا فأحسن إلى من أساء إليه ولم يقابله بإساءته إساءة مثلها تعرض بذلك لمثلها من ربه تعالى وأنه سبحانه يقال أساءته وذنوبه بأحسانه كما كان هو يقابل بذلك إساءة الخلق إليه والله أوسع فضلاً وأكرم وأجزل عطاء فمن أحب أن يقابل الله إساءته بالأحسان فيقابل هو إساءة الناس إليه بالأحسان ومن علم أن الذنوب والإساءة لازمة للإنسان لم تعظم عنده إساءة الناس إليه فليأمل هو حاله مع الله كيف هي مع فرط إحسانه إليه وحاجته هو إلى ربه وهو هكذا له فإذا كان العبد هكذا لربه فكيف يتكران يكون الناس له بتلك المنزلة . ومنها أنه يقيم معاذير الخلاق وتتسع رحمة لهم ويتفرج بطانه ويذول عنه ذلك الحصر والضيق والانحراف واكل بعضه بعضاً ويستريح العصاة من دعائه عليهم وقنوطه منهم وسؤال الله أن يخفف بهم الأرض ويسلط عليهم البلاء فإنه حينئذ يرى نفسه واحداً منهم فهو يسأل الله لهم ما يسأله لنفسه وإذا دعا لنفسه بالتوبة والمغفرة أدخلهم معه فيرجو لهم فوق ما يرجو لنفسه ويخاف على نفسه أكثر مما يخاف عليهم فأين هذا من حاله الأولى وهو ناظر إليهم بعين الاحتقار والأزدراء لا يجد في قلبه رحمة لهم ولا دعوة ولا يرجو لهم نجاة فالذنب في حق مثل هذا من أعظم أسباب رحمة ومع هذا فيقيم أمر الله فيهم طاعة لله ورحمة بهم وإحساناً إليهم إذ هو عين مصلحتهم لا غلظة ولا قوة ولا فظاظة .

فصل

ومنها أن يخلع صولة الطاعة من قلبه ويترج عنه رداء الكبر والعظمة الذي ليس له ويلبس رداء الذل والانكسار والفقر والفاقة فلو دامت تلك الصولة والعزة في قلبه لحيف عليه ما هو من أعظم الآفات كما في الحديث لو لم تذبوا لحقت عليكم ما هو أشد من ذلك العجب أو كما قال صلى الله عليه وسلم فكم بين آثار العجب والكبر وصولة الطاعة وبين آثار الذل والانكسار كما قيل يا آدم لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كيسك فقد استخرج منك داء العجب وألبست رداء العبودية يا آدم لا تجزع من قولى لك أخرج منها

فلك خلقها ولكن انزل إلى دار المجاهدة وابنز بذر العبودية فإذا كمل الزرع واستحصد
فتمال فاستوفه .

لا يوحشك ذلك العتب أن له لطفاً يريك الرضا في حالة الغضب
فبينما هو لإبس ثوب الاذلال الذي لا يليق بمثله تداركه به برحمته فتزعه عنه وألبسه ثوب
الذل الذي لا يليق بالعبد غيره فإلبس العبد ثوباً أكمل عليه ولا أحسن ولا أهي من
ثوب العبودية وهو ثوب المذلة الذي لا عز له بغيره .

فصل

ومنها أن الله عز وجل على القلوب أنواعاً من العبودية من الخشية والخوف والإشفاق
وتوابعها من المحبة والآنابة وابتغاء الوسيلة إليه وتوابعها وهذه العبوديات لها أسباب
تبيحها وتبعت عليها فكلما قبضه الرب تعالى لعبده من الأسباب الباعثة على ذلك المبيحة له فهو
من أسباب رحمة له ورب ذنب قدماج لصاحبه من الخوف والإشفاق والوجل والآنابة والمحبة
والإيثار والفرار إلى الله ما لا يبيحه له كثير من الطاعات وكم من ذنب كان سبباً لاستقامة العبد
وفراره إلى الله وبعده عن طرق النفي وهو بمنزلة من خلط فأحس بسوء مزاجه وكان عنده
أخلاق مزمنة قاتلة وهو لا يشعر بها فشرب دواء أزال تلك الأخلاط العفنة التي لو دامت
لترامت به إلى الفساد والعطب وأن من تبلغ رحمة وطفه وبره بعبده هذا المبلغ وما هو أعجب
والطف منه لحقيق بأن يكون الحب كله له والطاعات كلها له وأن يذكر فلا ينسى ويطاع فلا
يعصى ويشكر فلا يكفر .

فصل

ومنها أنه يعرف العبد مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه له وحفظه إياه فانه من تربي في
العافية لا يعلم ما يقاسيه المبلى ولا يعرف مقدار النعمة فلو عرف أهل طاعة الله أنهم هم المنعم
عليهم في الحقيقة وإن الله عليهم من الشكر أضعاف ما على غيرهم وإن توحدوا التراب ومضغوا
الحصى فهم أهل النعمة المطلقة وإن من خلق الله بينه وبين معاصيه فسد سقط من عينه وهان عليه
وإن ذلك ليس من كرامته على ربه وإن وسع الله عليه في الدنيا ومد له من أسبابها فإنهم أهل
الإبتلاء على الحقيقة فإذا طالبت العبد نفسه بما تطالبه من الحظوظ والأقسام وأرته أنه في بلية
وضائقة تداركه الله برحمته وابتلاه ببعض الذنوب فرأى ما كان فيه من المعافاة والنعمة وأنه لا
نسبة لما كان فيه من النعم إلى ما طلبته نفسه من الحظوظ فحينئذ يكون أكثر أمانيه وآماله العود
إلى حاله وأن يتمتع الله بعافيته .

فصل

ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة من المقامات التي لا تحصل بدونها فتوجب له من المحبة والرفة والالطف وشكر الله وحده والرضا عنه عبوديات أخر فإنه إذا تاب إلى الله تقبل الله توبته فرتب له على ذلك القبول أنواعا من النعم لا يهتدى العبد لتفاصيلها بل يزال يتقلب في بركتها وآثارها ما لم ينقضها ويفسدها .

فصل

ومنها أن الله سبحانه يحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح وقد تقرر أن الجزاء من جنس العمل فلا ينسى الفرحة التي يظفر بها عند التوبة النصوح وتأمل كيف تجدد القلب برقص فرحا وأنت لا تدري بسبب ذلك الفرح ما هو وهذا أمر لا يحس به إلا حي القلب وأما ميت القلب فإنما يجد الفرح عند ظفره بالذنب ولا يعرف فرحاً غيره فوازن إذا بين هذين الفرحين وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالذنب من أنواع الأحزان والهموم والغوم والمصائب فمن يشتري فرحة ساعة بغم الأبد وانظر ما يعقبه فرح الظفر بالطاعة والتوبة النصوح من الانسراح الدائم والتعيم وطيب العيش ووازن بين هذا وهذا ثم اختر ما يليق بك ويناسبك وكل يعمل على شاكلته وكل امرئ يصبو إلى ما يناسبه .

فصل

ومنها أنه إذا شهد ذنوبه ومعاصيه وتفريطه في حق ربه استكثر الثقليل من نعم ربه عليه ولا قليل منه لعله أن الواصل إليه فيها كثير على مسمى مثله واستقل الكثير من عمله لعله بأن الذي ينبغي أن يغسل به نجاسته وأوضاره وأوساخه أضعاف ما أتى به فهو دائما مستقل لعله كائنا ما كان مستكثر لنعمة الله عليه وإن دقت وقد تقدم التنبيه على هذا الوجه وهو من الالطف الوجوه فمليك بمراعاته فله تأثير عجيب ولولم يكن في فوائد الذنب إلا هذا لكتفى به فأين حال هذا من حال من لا يرى لله عليه نعمة إلا ويرى أنه كان ينبغي أن يعطى ما هو فوقها وأجل منها وأنه لا يقدر أن يتكلم وكيف يعاند القدر وهو مظلوم مع الرب لا ينصفه ولا يعطيه مرتبته بل هو مغرى بمعاذته لفضله وكالمؤمن أنه كان ينبغي له أن ينال الثريا ويأبى بأخصه هنالك ولكنه مظلوم مبخوس الحظ وهذا الضرب من أبغض الخلق إلى الله وأشدهم مقنا عنده وحكمة الله تقتضى أنهم لا يزالون في سفال فهم بين عتب على الخالق وشكوى له وذل خلقه وحاجة إليهم وخدمة لهم أشغل الناس قلوبا بأرباب الولايات والمناصب ينتظرون ما يقذفون به إليهم من عظامهم وغسالة أيديهم وأوانيهم وأفرغ الناس قلوبا عن معاملة الله والاتقطاع إليه والتلذذ بمناجاته والطمأنينة بذكره وقررة العين بخشيته والرضا به فعياذا بالله من زوال نعمته وتحول عافيته

ولجأة نغمته ومن جميع سخطه .

فصل

ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التقيظ والتحرز من مصائد عدوه ومكائنه ومن أين يدخل عليه اللصوص والقطاع ومكائنه ومن أين يخرجون عليه وفي أي وقت يخرجون فهو قد استعد لهم وتأهب وعرف بماذا يستدفع شرم وكيدهم فلو أنه مر عليهم على غرة وطماً نينه لم يأمن أن يظفروا به ويحتاوه جملة .

فصل

ومنها أن القلب يكون ذاهلاً عن عدوه معرضاً عنه مشتغلاً ببعض مهماته فإذا أصابه سهم من عدوه استجمعت له قوته وحاسته وحميته وطلب بثاره إن كان قلبه حراً كريماً كالرجل الشجاع إذا جرح فإنه لا يقوم له شيء بل تراه بعدها هائجاً طالباً مقداماً والقلب الجبان المهين إذا جرح كالرجل الضعيف المهين إذا جرح ولى هارباً والجراحات في أكتافه وكذلك الأسد إذا جرح فإنه لا يطاق فلاخير فيمن لا مروءة له يطلب أخذ ثاره من أعدى عدوه فما شيء أشقى للقلب من أخذه بثاره من عدوه ولا عدو أعدى له من الشيطان فإن كان قلبه من قلوب الرجال المتسابقين في حلبة المجد جد في أخذ الثأر وغاظ عدوه كل النعيط وأضناه كما جاء عن بعض السلف أن المؤمن لينضى شيطانه كما ينضى أحدكم بعيره في سفره .

فصل

ومنها أن مثل هذا يصير كالطيب ينتفع به المرضى في علاجهم ودوائهم والطيب الذي عرف المرض مباشرة وعرف دواءه وعلاجه أحذق وأخبر من الطيب الذي إنما عرفه وصفاً هذا في أمراض الأبدان وكذلك في أمراض القلوب وأدوائها وهذا معنى قول بعض الصوفية أعرف الناس بالآفات أكثرهم آفات وقال عمر بن الخطاب إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ولهذا كان الصحابة أعرف الأمة بالإسلام وتفاسيله وأبوابه وطرقه وأشد الناس رغبة فيه ومحبة له وجهاداً لأعدائه وتكلماً باعلامه وتحذيراً من خلافه لكمال عليهم بضده لجأهم الإسلام وكل خصلة منه مضادة لكل خصلة بما كانوا عليه فازدادوا له معرفة وحبا وفيه جهاداً بمعرفتهم بضده وذلك بمنزلة من كان في حصر شديد وضيق ومرض وفقر وخوف ووحشة فقيض الله له من نقله منه إلى فضاء وسعة وأمن وعافية وغنى وبهجة وسرور فإنه يزداد سروره وغبطته ومحبة بما نقل إليه بحسب معرفته بما كان فيه وليس حال هذا كمن ولد في الأمن والعافية والغنى والسرور فإنه لم يشعر بغيره وربما قيضت له أسباب تخرجه عن

ذلك إلى ضده وهو لا يشعر وربما ظن أن كثيراً من أسباب الهلاك والموت تفضى به إلى السلامة والأمن والعافية فيكون هلاكه على يدي نفسه وهو لا يشعر وما أكثر هذا الضرب من الناس فإذا عرف الضدين وعلم مباينة الطرفين وعرف أسباب الهلاك على التفصيل كان أحرى أن تدوم له النعمة ما لم يؤثر أسباب زوالها على علم وفي مثل هذا قال القائل .
عرفت الشر لا الشر لكن لتوقيه ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه
وهذه حال المؤمن يكون فطنا حاذقا أعرف الناس بالشر وأبعدم منه فإذا تكلم في الشر وأسبابه ظننته من شر الناس فإذا خالطته وعرفت طويته رأيت من أبر الناس والمقصود أن من يلبى بالآفات صار من أعرف الناس بطرقها وأمكنه أن يسدها على نفسه وعلى من استنصحه من الناس ومن لم يستنصحه .

فصل

ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه والعبء وزوال ذلك الإنس والقرب للتمتع بعبده فإن أقام على الرضا بهذه الحال ولم يجد نفسه تطالبه بحالها الأول مع الله بل اطمأنت وسكنت إلى غيره علم أنه لا يصلح فوضعه في مرتبة التي تليق به وإن استغاث استغاثة الملهم وتقلق وتقلق المكروب ودعا دعاء المضطر وعلم أنه قد فاتته حياته حقاً فهو يهتف بره أن يرد عليه حياته ويعيد عليه مالا حياة له بدونه علم أنه موضع لما أهل له فرد عليه أحوج ما هو إليه فعظمت به فرحته وكملت به لذته وتمت به نعمته واتصل به سروره وعلم حينئذ مقداره فعرض عليه بالتواجد وثني عليه الخناصر وكان حاله كحال ذلك الفاعل لراحته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا وجدها بعد معاينة الهلاك فما أعظم موقع ذلك الوجدان عنده وقه أسرار وحكم ومنبهات وتعريفات لاتألفها عقول البشر .

قل لتليط القلب ويحك ليس ذا بعشك فادرج طالبا عشك البالي
ولا تك بمن ند باعا إلى جنا فقصر عنه قال ذا ليس بالحالي

فالعبء إذا بلى بعد الإنس بالوخشة وبعد القرب بنار البعاد اشتاقت نفسه إلى لذة تلك المعاملة لحنّت وأنت تصدعت وتمرضت لتفحات من ليس لها منه عوض أبدا ولا سيما إذا تذكرت بره ولطفه وحنانه وقربه فإن هذه الذكري تمنمها القرار وتهيج منها البلابل كما قال القائل وقد فاتته طواف الوادع فركب الأخطار ورجع إليه .

ولما تذكرت المنازل بالحي ولم يقض لي تسليمه المتزود

تيقنت أن العيش ليس بنافعي إذا أنا لم أنظر إليها بموعد

وإن استمر أعراضها ولم تمنحني إلى معيها الأول ولم تحس بفاقتها الشديدة وضرورتها

إلى مراجعة قريبا من ربه ففى من إذا غاب لم يطلب وإذا أبى لم يسترجع وإذا جنى لم يستعذب وهذه هى النفوس التى لم تؤهل لها هنالك وبحسب المعترض هذا الحرمان فإنه يكفيه وذلك ذنب عقابه فيه .

فصل

ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب فى الإنسان وهاتان القوتان فيه بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما وبهما وقعت المحنة والابتلاء وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى والهبوط إلى أسفل سافلين فهاتان القوتان لا يدعان العبد حتى يفيلا به منازل الأبرار أو يضعانه تحت أقدام الأشرار ولن يجعل الله من شهوته مصروقة إلى ما أعد له فى دار التعميم وغضبه حية لله ولكتابته ولرسوله ولدينه كمن جعل شهوته مصروقة فى هواه وأمانيه العاجلة وغضبه مقصور على حفظه ولو انتهكت عارم الله وحدوده وعطلت شرائعه وسننه بعد أن يكون هو ملحوظا بعين الاحترام والتعظيم والتوقير وتقوى السكامة وهذه حال أكثر الرؤساء أعاذنا الله منها فلن يجعله الله هذين الصنفين فى دار واحدة فهذا صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين وهذا هوى بهما إلى أسفل سافلين . والمقصود أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد أن يقتضى كل واحد من القوتين أثره فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصى فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ولو لم يخلق فى الإنسان لم يكن إنسانا بل كان ملكا فالترتب من موجبات الإنسانية كما قال النبي صلى الله عليه وسلم كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون فأما من اكتشفته العصمة وضربت عليه سرادقات الحفظ فهم أقل أفراد النوع الإنسانى وهم خلاصته ولبه .

فصل

ومنها أن الله سبحانه إذا أراد بعبد خيرا أنساه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه فإذا ابتلى بالذنب جعله نصب عينيه ونسى طاعاته وجعل همه كله بذنبه فلا يزال ذنبه إمامه أن قام أو قعد أو غدا أو راح فيكون هذا عين الرحمة فى حقه كما قال بعض السلف أن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة ويعمل الحسنة فيدخل بها النار قالوا وكيف ذلك قال يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرع وأتاب إلى الله وذلك له وانكسر وعمل لها أعمالا فتكون سبب الرحمة فى حقه ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمن بها ويراهها ويعتدبها على ربه وعلى الخلق ويتكبر بها ويتمجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها فلا تزال هذه الأمور به حتى

تقوى عليه آثارها فتدخله النار فعلامة السعادة أن تكون حسنات العبد خلف ظهره وسيئاته نصب عينيه وعلامة الشقاوة أن يجعل حسناته نصب عينيه وسيئاته خلف ظهره والله المستعان .

فصل

ومنها أن شهود العبد ذنوبه وخطاياها موجب له أن لا يرى لنفسه على أحد فضلاً ولاله على أحد حقاً فإنه يشهد عيوب نفسه وذنوبه فلا يظن أنه خير من مسلم يؤمن بالله ورسوله ويحرم ما حرم الله ورسوله وإذا شهد ذلك من نفسه لم ير لها على الناس حقوقاً من الإكرام يتقاضاهم أياها ويذمهم على ترك القيام بها فإنه عنده أحسن قدراً وأقل قيمة من أن يكون له بها على عباد الله حقوق يجب عليهم مراعاتها أوله عليهم فضل يستحق أن يكرم ويمظم ويقدم لأجلها فيرى أن من سلم عليه أو لقيه بوجه منبسط فقد أحسن إليه وبذل له ما لا يستحقه فاستراح هذا في نفسه وأراح الناس من شكايته وغضبه على الوجود وأهله فأطيب عيشه وما أنعم بالله وما أقر عينه وأين هذا ممن لا يزال عاتباً على الخلق شاكياً ترك قيامهم بحقه ساخطاً عليهم وهم عليه أسخط .

فصل

ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس والفكر فيها فإنه في شغل بعيب نفسه فطوى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وويل لمن نسى عيبه وتفرغ لعيوب الناس هذا من علامة الشقاوة كما أن الأول من أمارات السعادة .

ومنها أنه إذا وقع في الذنب شهد نفسه مثل إخوانه الخطائين وشهد أن المصيبة واحدة والجميع مشتركون في الحاجة بل في الضرورة إلى مغفرة الله وعفوه ورحمته فكما يجب أن يستغفر له أخوه المسلم كذلك هو أيضاً ينبغي أن يستغفر لأخيه المسلم فيصير هجيراه رب اغفر لي ولوالدي وللسلمين والمسلمات وللمؤمنين والمؤمنات وقد كان بعض السلف يستحب لكل أحد أن يداوم على هذا الدعاء كل يوم سبعين مرة فيجعل له منه ورداً لا يخل به وسمعت شيخنا يذكره وذكر فيه فضلاً عظيماً لا أحفظه وربما كان من جملة أوراده التي لا يخل بها وسمعت يقول أن جملة بين السجدين جائر فإذا شهد العبد أن إخوانه مصابون بمثل ما أصيب به محتاجون إلى ما هو محتاج إليه لم يمتنع من مساعدتهم إلا لفرط جهل بمغفرة الله وفضله وحقيق بهذا أن لا يساعد فإن الجزء من جنس العمل وقد قال بعض السلف إن الله لما عتب على الملائكة بسبب قولهم (أنجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) وامتنح هاروت وماروت بما امتحنهما به جعلت الملائكة بعد ذلك تستغفر لبي آدم وتدعو الله لهم .

فصل

ومنها أنه إذا شهد نفسه مع ربه مسيئراً خاطئاً مفراطاً مع فرط إحسان الله إليه في كل
طرفة عين وبره به ودفعه عنه وشدة حاجته إلى ربه وعدم استغناؤه عنه نفساً واحداً وهذه
حاله معه فكيف يطمع أن يكون الناس معه كما يحب وأن يعاملوه بمحض الإحسان وهو
لم يعامل ربه بتلك المعاملة وكيف يطمع أن يطعمه بملوكه وولده وزوجته في كل ما يريد
ولا يصونه ولا يخلون بمحقوقه وهو مع ربه ليس كذلك وهذا يوجب له أن يستغفر
لمسيئتهم ويعفو عنه ويسامحه ويفضى عن الاستقصاء في طلب حقه فهذه الأثمار ونحوها متى
اجتتاها العبد من الذنب فهي علامة كونه رحمة في حقه ومن اجتنى منه أضرارها وأوجبت
له خلاف ما ذكرناه فهي والله علامة الشقاوة وأنه من هوانه على الله وسقوطه من عينه
خلى بينه وبين معاصيه ليقم عليه حجة عدله فيعاقبه باستحقاقه وتتداعى السيئات في حق
مثل هذا وتتألف فيتولد من الذنب الواحد ما شاء الله من المتالف والمعاطب التي يهوى
بها في دركات العذاب والمصيبة كل المصيبة الذي يتولد من الذنب ثم يتولد من الإثنين
ثالث ثم تقوى الثلاثة فتوجب رابعا وهلم جرا ومن لم يكن له فقه نفس في هذا الباب هلك
من حيث لا يشعر فالحسنات والسيئات آخذ بعضها برقاب بعض يتلو بعضها بعضا ويشمر
بعضها بعض قال بعض السلف إن من ثواب الحسنة الحسننة بعدها وإن من عقاب السيئة السيئة
بعدها وهذا أظهر عند الناس من أن تضرب له الأمثال وتطلب له الشواهد والله المستعان .

فصل

وإذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات
وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك
الجسر لسكاله كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه وكان ذلك الابتلاء
والامتحان عين المنهج في حقهم والكرامة فصورته صورة ابتلاء وامتحان وباطنه
فيه الرحمة والنعمة فكلم الله من نعمة جسيمة ومنه عظمة تجنى من قطوف الابتلاء
والامتحان . فتأمل حال آيينا آدم وما آلت إليه محنته من الاصطفاة والاجتباء والتوبة
والهداية ورفعة المنزلة ولولا تلك المحنة التي جرت عليه وهي إخراجها من الجنة وتوابع ذلك لما
وصل إلى ما وصل إليه فكلم بين حاله الأولى وحالته الثانية في نهايته . وتأمل حال آيينا الثاني
نوح عليه السلام وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه وأغرق أهل
الأرض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته وجعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل
الرسول وأمر رسوله ونبيه محمداً عليه السلام أن يصبر كصبره وأثنى عليه بالشكر فقال (أنه كان عبداً

شكورا) فوصفه بكمال الصبر والشكر. ثم تأمل حال أينا الثالث إبراهيم عليه السلام إمام الخفاء وشيخ الأنبياء وعمود العالم وخليل رب العالمين من بني آدم وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذته الله خليلا لنفسه وأمر رسوله وخطيله محمداً عليه السلام أن يتبع منته. وأنبئك على خصلة واحدة بما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده فإن الله تبارك وتعالى جازاه على تسليمه ولده لأمر الله بأن يبارك في نسله وكثره حتى ملأ السبل والجبل فإن الله تبارك وتعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الأكرمين فمن ترك لوجهه أمراً أو حمله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة وجزاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله ووافق عليه الولد أباه رضا منهما وتسليماً وعلم الله منهما الصدق والوفاء فداءً بذبح عظيم وأعطاهما ما أعطاهما من فضله وكان من بعض عطاياه أن يبارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية ولهذا قال إبراهيم (رب هب لي من الصالحين) وقال (رب اجعلني مقيم الصلاة. من زريق) فغاية ما كان يحضر ويخشى من ذبح ولده اقطع نسله فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل وبارك فيه وكثر حتى ملؤا الدنيا وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة وأخرج منهم محمداً عليه السلام. وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نعبا وعرفاه وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم فكشوا مدة لا يقدر على ذلك فأوحى الله إلى داود أن قد علمت أني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده فبادر إلى طاعة أمري أن أبارك له في ذريته حتى يصيروا في عدد النجوم وأجعلهم بحيث لا يحصى عددهم وقد أردت أن يحصى عدداً قدرت أنه لا يحصى وذكر باقي الحديث فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصى عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل هذا سوى ما أكرمه الله به من رفع الذكر والثناء الجليل على السنة جميع الأمم وفي السموات بين الملائكة فهذا من بعض ثمره معاملته تقياً لمن عرفه ثم عامل غيره ما أخصر صفته وما أعظم حسرته..

فصل

ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وقوته من أول ولادته إلى منتهى أمره حتى كلمه الله تكليماً وقربه منه وكتب له التوراة بيده ورفعته إلى أعلى السموات واحتمل له ما لا يحتمل لغيره فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت وأخذ بلحية نبي الله هارون وجرحه إليه ولطم وجهه ملك الموت ففأ عينه وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن

رسول الله ﷺ وربه يحبه على ذلك كله ولا سقط شيء منه من عينه ولا سقطت منزلة عنده بل هو الوجيه عند الله القريب ولولا ما تقدم له من السوابق وتحمل الشدائد والمحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بنى إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم الله لم يكن ذلك . ثم تأمل حال المسيح ﷺ وصبره على قومه واحتماله في الله وما تحمله منهم حتى وفقه الله إليه وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق وسلبهم ملكهم وغرهم إلى آخر الدهر .

فصل

فإذا جمعت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة في وطنه وظمن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أودى ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرقع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاهاراً وأسمهم عنده شفاعاً وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهى ممازاده الله بها شرفاً وفضلاً وساقه بها إلى أعلأ المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعت له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغداً ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يتمتن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله سرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضى من رضى وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وأن تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فله سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسوله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات الحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء .

كذا المعالي إذا مارمت ندرتها فاعبر إليها على جسر من التعب والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

فصل

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا

تعال العيادة كالمها ولا يدرك الوصف حسننها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على
أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة أن أدركت حسننها وشهدت بفضنها
وأنة ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحيجة
والمحتج له والدعوى والبرهان ولولم يأت الرسول ببرهان عليها لكني بها برهانا وآية وشاهدا
على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكال العلم وكال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان
والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التي أنعم بها
على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هدام لها وجعلهم من أهلها ومن ارتضاهم لها
فلهذا امتن على عباده بأن هدام لها قال تعالى (لقد من آفة على المؤمنين إذ بعث
فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من
قبل لئى ضلال مبين) وقال معرقا لعباده ومذكرهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره
على أن جعلهم من أهلها (اليوم أكملت لكم دينكم الآية) وتأمل كيف وصف الدين الذي
اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم باتمام إيدانها في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب
ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة
باتمام إيدانها بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إياها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام
في هذه الدار وفي دار القرار وتأمل حسن اقتران التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين
وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليه إذ هو وليها ومسديها
والمتمم بها عليهم فهي نعمته حقا وهم قابلوها وأنى في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه
شيء خصوا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتغال والاحاطة لجاء
أتممت في مقابلة أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده
تقريراً وكالاً وإتماماً للنعمة بقوله (ورضيت لكم الإسلام ديناً) . وكان بعض السلف الصالح
يقول ياله من دين لو أن له رجالا وقد ذكرنا فصلا مختصراً في دلالة خلقه على وحدانيته
وصفات كاله ونعوت جلاله وأسماؤه الحسنى وأردنا أن نختم به القسم الأول من الكتاب ثم
رأينا أن تتبعه فصلا في دلالة دينه وشرعه على وحدانيته وعلمه وحكمته ورحمته وسائر صفات
كاله إذ هذا من أشرف العلوم التي يكتسبها العبد في هذه الدار ويدخل بها إلى الدار الآخرة
وقد كان الأولى بنا الإمساك عن ذلك لأن ما يصفه الواصفون منه وتنتهى إليه علومهم هو
كما يدخل الرجل أصبعه في اليم ثم يزعها فهو يصف البحر بما يعلق على إصبعه من الببل وأين
ذلك من البحر فيظن السامع أن تلك الصفة أحاطت بالبحر وإنما هي صفة ما علق بالإصبع
منه وإلا فالأمر أجل وأعظم وأوسع من أن تحيط عقول البشر بأدنى جزء منه وماذا عسى

أن يصف به الناظر إلى قرص الشمس من ضوئها وقدرها وحسنها وعجائب صنع الله فيها ولكن قد رضى الله من عباده بالثناء عليه وذكر آياته وأسماؤه وصفاته وحكمته وجلاله مع أنه لا يحصى ثناء عليه أبداً بل هو كما أتى على نفسه فلا يبلغ مخلوق ثناء عليه تبارك وتعالى ولا وصف كتابه ودينه بما ينبغي له بل لا يبلغ أحد من الأمة ثناء على رسوله كما هو أهل أن يثنى عليه بل هو فوق ما يثنون به عليه ومع هذا أن الله تعالى يحب أن يحمده ويثنى عليه وعلى كتابه ودينه ورسوله فهذه مقدمة اعتذار بين يدي القصور والتقصير من ركب هذا البحر الأعظم والله عليم بمقاصد العباد ودياناتهم وهو أولى بالعدز والتجاوز .

فصل

وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام . أحدها من عدم بصيرة الإيمان جملة فهو لا يرى من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد والبرق فهو يجعل أصبعيه في أذنه من الصواعق ويده على عينه من البرق خشية أن يخطف بصره ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأساً ولم يقبل هدى الله الذي هدى به عباده ولو جاءته كل آية لأنه من سبقت له الشقاوة وحقت عليه الكلمة ففائدة إنذار هذا إقامة الحجية عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه . القسم الثاني أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلى هذا النور كنسبة أبصار الخفاش إلى جرم الشمس فهم تبع آباتهم وأسلافهم دينهم دين العادة والمنشأ وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين على بن أبي طالب أو منقادا للحق لا بصيرة له في إصابة فهو لاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولا ريب فهم على أسبيل نجاة القسم الثالث وهو خلاصة الوجود ولباب بني آدم وهم أولو البصائر النافذة الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين فكانوا منه على بصيرة ويقين ومشاهدة لحسنه وكماله بحيث لو عرض على عقولهم ضده لرأوه كالليل اليهم الأسود وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرب بهم كما قال فيهم على بن أبي طالب أتباع كل ناعق يميلون مع كل صائح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق هذا علامة من عدم البصيرة فإنك تراه يستحسن الشيء وضده ويمدح الشيء ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيماً مخالفته ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفياً لما أنبته ومعاداة للقاتمين بسنته وهذا من عدم البصيرة فهذا القسم الثالث إنما علمهم على البصائر وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين فقال إنما كانوا يعملون على البصائر وما أوق أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل قال تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسماعيل

واسحق ويعقوب أولى الأيدي والأبصار) قال ابن عباس أولى القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله وقال قتادة ومجاهد أعطوا قوة في العبادة وبصرا في الدين وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس وإن كان مقصراً في العمل وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصى مقادير تفاوتها إلا الله إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب ولا يزداد به إلا ضلالة والقسم الثاني ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده والقسم الثالث وإليهم هذا الحديث يساق وهم أولو الأبواب الذين يخضهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة قال تعالى (وما يتذكر إلا أولو الأبواب).

فصل

قد شهدت الفطر والعقول بأن للعالم ربا قادراً حليماً عليماً رحيماً كاملاً في ذاته وصفاته لا يكون إلا مريداً للخير لعباده مجرباً لهم على الشريعة والسنة الغاضلة العائدة باستصلاحهم الموافقة لما ركب في عقولهم من استحسان الحسن واستقباح القبيح وما جبل طباعهم عليه من إثبات النافع لهم المصلح لشأنهم وترك الضار المفسد لهم وشهدت هذه الشريعة له بأنه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأنه المحيط بكل شيء علماً وإذا عرف ذلك فليس من الحكمة الإلهية بل ولا الحكمة في ملوك العالم أنهم يسوون بين من هو تحت تدبيرهم في تعريفهم كل ما يعرفه الملوك وإعلامهم جميع ما يعلونه وإطلاعهم على كل ما يجرون عليه سياساتهم في أنفسهم وفي منازلهم حتى لا يقيموا في بلد فيها إلا أخبروا من تحت أيديهم بالسبب في ذلك والمعنى الذي قصدوه منه ولا يأمرهم رعيتهم بأمر ولا يضربون عليهم بهتاً ولا يسوونهم سياسة إلا أخبرهم بوجه ذلك وسببه وغايته ومدته بل لا تنصرف بهم الأحوال في مطاعهم وملابسهم ومراكبهم إلا أوقفهم على أغراضهم فيه ولا شك أن هذا مناف للحكمة والمصلحة بين المخلوقين فكيف بشأن رب العالمين وأحكم الحاكمين الذي لا يشاركه في علمه ولا حكمته أحد أبداً فحسب العقول الكاملة أن تستدل بما عرفت من حكمته على ما غاب عنها وتعلم أن له حكمة في كل ما خلقه وأمر به وشرعه وهل تقتضي الحكمة أن يخبر الله تعالى كل عبد من عباده بكل ما يفعله ويوقفهم على وجه تدبيره في كل ما يريد وعلى حكمته في صغير ما ذرأ وبرأ من خلقته وهل في قوى المخلوقات ذلك بل طوى سبحانه كثيراً من صنعه وأمره عن جميع خلقه فلم يطلع على ذلك ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلًا والمُدبر الحكيم من البشر إذا ثبتت حكمته وابتغاؤه الصلاح لمن تحت تدبيره وسياسته كفا في ذلك تتبع مقاصده فيمن يولى ويعزل وفي جنس ما يأمر به وينهى عنه وفي تدبيره لرعيته

وسياسته لهم دون تفاصيل كل فعل من أفعاله اللهم إلا أن يبلغ الأمر في ذلك مبلغاً لا يوجد فعله منفرد ومساع في المصلحة أصلاً حينئذ يخرج بذلك عن استحقاق اسم الحكيم ولن يجد أحد في خلق الله ولا في أمره ولا واحداً من هذا الضرب بل غاية ما تخرجه نفس المتعنت أمور يعجز العقل عن معرفة وجوهها وحكمتها وأما أن يتق ذلك عنها فعاذ الله إلا أن يكون ما أخرجه كذب على الخلق الأمر فلم يخلق الله ذلك ولا شرعه. وإذا عرف هذا فقد علم أن رب العالمين أحكم الحاكمين والعالم بكل شيء والغنى عن كل شيء والقادر على كل شيء ومن هذا شأنه لم تخرج أفعاله وأوامره قط عن الحكمة والرحمة والمصلحة وما يخفى على العباد من معاني حكمته في صنعه وإبداعه وأمره وشرعه فيكفيهم فيه معرفته بالوجه العام أن تضمنته حكمة بالغة وإن لم يعرفوا تفصيلها وأن ذلك من علم الغيب الذي استأثر الله به فيكفيهم في ذلك الإسناد إلى الحكمة البالغة العامة الشاملة التي علموا ماخفي منها بما ظهر لهم هذا وأن الله تعالى بنى أمور عباده على أن عرفهم معاني جلائل خلقه وأمره دون دقائقها وتفصيلها وهذا مطرد في الأشياء أصولها وفروعها فأنت إذا رأيت الرجلين مثلاً أحدهما أكثر شعراً من الآخر أو أشد بياضاً أو أحد ذهناً لا يمكنك أن تعرف من جهة السبب الذي أجرى الله عليه سنة الخلقية وجه اختصاص كل واحد منهما بما اختص به وهكذا في اختلاف الصور والأشكال ولكن لو أردت أن تعرف ماذا كان شعر هذا مثلاً يزيد على شعر الآخر بمدد معين أو المعنى الذي فضله به في القدر المخصوص والتشكيل المخصوص ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت وسببه لما أمكن ذلك أصلاً وقس على هذا جميع المخلوقات من الرمال والجبال والأشجار ومقادير الكواكب وهيئاتها وإذا كان لا سبيل إلى معرفة

هذا في الخلق بل يكفي فيه الغلة العامة والحكمة الشاملة

فهي كذا في الأمر يعلم أن جميع ما أمر به متضمن

لحكمة بالغة وأما تفاصيل أسرار المأمورات

والمنهيات فلا سبيل إلى علم البشر به

ولكن يطلع الله من شاء من خلقه

على ما شاء منه فاعتصم

بـ هذا الأصل

(تم الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة وبابه الجزء الثاني)

(وأوله فصل حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية)

فهرس

الجزء الأول من كتاب مفتاح دار السعادة

	صفحة
خطبة الكتاب	٢
بحث جليل في أسرار الله تعالى في إهياط آدم إلى الأرض بعد إخراجهم من الجنة	٣
مطلب في بيان الجنة التي أسكنها الله آدم ثم أخرجه منها وذكر أقاويل العلماء في ذلك وبيان الحق منها	١٠
فصل في بيان أن آدم أعطى وذريته بعد إخراجهم من الجنة أفضل مما منعه وهو العبد	٣٢
فصل وهذان الضلالان أعنى الضلال والشقاء يذكرهما سبحانه كثيراً في كلامه ويخبر أنهما حظ أعدائه	٣٧
فصل في بيان من توجه إليه الخطاب في قوله تعالى (فإما يأتينكم مني هدى)	٣٧
فصل في بيان المراد من اتباع هدى الله في قوله (فمن تبع هداي)	٤٠
فصل في تعريف القلب السليم الذي ينجو من عذاب الله	٤١
فصل وهذه المتابعة التي أتى الله على أهلها في كثير من آي القرآن	٤٢
فصل في بيان الإعراض عن الذكر في قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكري)	٤٢
فصل في تفسير الضنك المذكور في قوله تعالى (فإن له معيشة ضنكا)	٤٣
فصل في تفسير العمى في قوله تعالى (ونحشره يوم القيامة أعمى)	٤٤
فصل في العلم والإرادة ومكانهما من السعادة	٤٦
الأصل الأول في العلم وفضله وشرفه وبيان عموم الحاجة إليه وتوقف كمال العبد عليه	٤٨
مطلب في أن العلم أفضل من المال من وجود	١٢٨
بحث في علم المنطق وبيان اختلاف العلماء فيه	١٥٧
فصل وهذا الحديث (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) روى من عدة طرق	١٦٣
فصل وإذا تأملت مادعى الله سبحانه إلى التفكر فيه أو قعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله الخ	١٨٧
مطلب خلق الإنسان وما فيه من الآثار وبديع الصنع والكلام على أعضاء الإنسان عضواً عضواً وبيان ما في كل واحد منها من الحكم	١٨٧

- صيفة
١٩٦ فصل فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أو لا وما صارت إليه ثانياً وفيه الكلام
على الأجرام الفلكية والكواكب وبيان ما فيها من الأسرار والحكم
١٩٩ فصل في أن النظر في آيات الله نوعان نظر بالبصر وهذا يشارك فيه الإنسان
سائر الحيوان والثاني بالبصيرة وهذا هو الذي ندب الله إليه
١٩٩ فصل في السلام على الأرض وبيان ما في خلقها من الأسرار والحكم
٢٠٠ مطلب في السلام على الهواء وحاجة العالم إليه
٢٠٣ فصل في عجائب الليل والنهار وما فيهما من الأسرار ✓
٢٠٦ د في الكلام على العالم جملة وار تباط علويه بسفليه وكل جزء منه ببقية الأجزاء
٢٠٧ د في عجائب خلق السماء
٢٠٧ د في عجائب خلق الشمس والقمر
٢٠٨ د ثم تأمل بعد ذلك حال الشمس في ارتفاعها وانخفاضها
٢٠٩ د ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أودعاه من الاضاءة والنور ✓
٢٠٩ د في بيان الحكمة في اختلاف مقادير الليل والنهار
٢٠٩ د ثم تأمل الحكمة في مقادير الليل والنهار ✓
٢١٠ د ثم تأمل لإضاءة القمر والكواكب في ظلة الليل ✓
٢١٠ د ثم تأمل حكمته تعالى في هذه النجوم وكثرتها
٢١١ د في اختلاف سير الكواكب وما في ذلك من العجائب
٢١٢ د ثم تأمل هذا الفلك الدوار بشمسه وقمره ونجومه وبروجه
٢١٤ د في استنباط دليل من الكون على وجود الصانع القديم
٢١٥ د في إمساك السموات والأرض وبيان المسك لهما أن تقعا
٢١٥ د ثم تأمل الحكمة البالغة في الحر والبرد وقيام الحيوان والنبات عليهما
٢١٥ د في بيان الحكمة في خلق النار وبيان ما فيها من الأسرار
٢١٦ د في بيان حكمة اختصاص الإنسان بالنار دون سائر الحيوان
٢١٦ د في الكلام على الهواء وتفصيل ما فيه من المصلح والمرافق
٢١٧ د في الكلام على خلق الأرض وأنها ساكنة غير متحركة
٢١٨ د ثم تأمل الحكمة في أن جعل مهب الشمال على الأرض أرفع من مهب الجنوب
٢١٨ د ثم تأمل الحكمة العجيبة في الجبال التي يظل الجبال أنما فضلة لا حاجة إليها

- صحيفة
- ٢٢١ فصل في حكمة خلق الأرض ذات سهل وجبل وحزن ووعر
- ٢٢١ د في الكلام على الزلازل وشرح أسباب حدوثها
- ٢٢١ د في الكلام على التقديرين الذهب والفضة وما فيهما من الأسرار
- ٢٢٢ د في بيان الحكمة في تيسيره تعالى على العباد ما تشهد حاجتهم إليه وتوسيعه
- ٢٢٣ د ومن ذلك سعة الأرض وامتدادها .
- ٢٢٣ د في المطر وبيان ما فيه من المصالح
- ٢٢٤ د ثم تأمل الحكمة البالغة في إنزاله المطر بقدر الحاجة
- ٢٢٤ د في حكمة إخراج الأقوات والثمار والحبوب والقواكه
- ٢٢٥ د ثم تأمل في تشبيه خلق الأشجار والنبات بالانفساط والحيمة
- ٢٢٥ د في حكمة خلق الورق للشجر
- ٢٢٦ د ثم تأمل الحكمة في كونها جعلت زينة للشجر وسترا ولباسا للشجرة
- ٢٢٧ د في إبداع المعجم والنوى وما في خلقهما من الأسرار
- ٢٢٧ د في خلق الرمان وما فيه من البدائع
- ٢٢٨ د ثم تأمل هذا الربيع والنماء الذي جعله الله في الزرع
- ٢٢٨ د ثم تأمل الحكمة في الحبوب
- ٢٢٨ د ثم تأمل هذه الحكمة البارعة في هذه الأشجار
- ٢٢٩ د في خلق البطيخ واليقطين والجزر
- ٢٣٠ د في حكمة موافاة أصناف الفواكه في الأوقات المناسبة لها
- ٢٣٠ د في الكلام على خلق النخلة وما فيها من المعجائب
- ٢٣٣ د في الكلام على العقاقير والأدوية التي يخرجها الله من الأرض
- ٢٣٤ د في إعطائه سبحانه هبمة الانعام الاسماع والابصار
- ٢٣٥ د في حكمة خلق آلات البطش في الحيوان من الإنسان وغيره
- ٢٣٥ د في حكمة تفريقه سبحانه خلق الحيوان واعطاء كل نوع منها ما لا بدله منه
- ٢٣٦ د ثم تأمل ذوات الأربع من الحيوان
- ٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في قوائم الحيوان
- ٢٣٧ د ثم تأمل الحكمة في جعل ظهور الدواب مبدوطة
- ٢٣٧ د في حكمة خلق فرج البهيمة بارزا من ورائها
- ٢٣٨ د ثم تأمل كيف كسيت أجسام الحيوان البهيمي هذه الكسوة من الشعر وغيرها

- صحيفة
- ٢٣٩ فصل في أن الوحوش والبهائم لا يرى إلا القليل منها على أنها أكثر من الإنسان
- ٢٤٠ د في حكمة خلق وجه الدابة على ما يشاهد منها
- ٢٤٠ د في شفر الفيل وما فيه من الحكم والأسرار
- ٢٤١ د في خلق الزرافة واختلاف أعضائها
- ٢٤٢ د في خلق النملة وما فيها من الأسرار وشرح طرف من آثارها
- ٢٤٤ د في عجيب فطنة الثعلب واحتياله في معاشه
- ٢٤٤ د في جسم الطائر وخلقته وما خلق له من الآلات التي يتمكن بها من الطيران
- ٢٤٥ د في خلق البيضة
- ٢٤٥ د في حوصلة الطائر وما فدرت له
- ٢٤٥ د في الكلام على الألوان والأصباغ والوشى التي ترى في كثير من الحيوانات
- ٢٤٦ د ثم تأمل هذا الطائر الطويل الساقين واعرف المنفعة في طول ساقيه
- ٢٤٨ د ثم تأمل أحوال النحل وما فيها من العبر والآيات
- ٢٤٩ د ومن أعجب أمر النحل ما لا يهتدى له أكثر الناس ولا يعرفونه
- ٢٥١ د في حكمة ما يخرج من بطون الأنعام من اللبن
- ٢٥١ د في عجائب خلق السمك وكيفية خلقه
- ٢٥٥ بحث في تنويهه تعالى عقوبات الأمم الخالية وبيان حكمته في ذلك
- ٢٥٥ فصل فأعد الآن النظر في نفسك مرة ثانية
- ٢٦٠ د في الكلام على آلات التناسل وما في خلقها من الحكم
- ٢٦٠ د فأعد النظر في نفسك وتأمل في وضع هذه الأعضاء مواضعها
- ٢٦٢ د في بيان تركيب البدن ورضع الأعضاء مواضعها وإعدادها لما أعدت له
- ٢٦٣ د في بيان ما اختص الله به الإنسان من أنواع البر وصفوف الكرامات
- ٢٦٤ د في الكلام على الحواس التي في الإنسان
- ٢٦٤ د في أن الحواس أعينت بمخلوقات منفصلة عنها تعينها على الإحساس
- ٢٦٥ د ثم تأمل حال فاقد البصر وما يقع في أموره من الخلل
- ٢٦٦ د في أن من عدم بيان القلب وبيان اللسان كان كالحیوانات العجماء
- ٢٦٦ د ثم تأمل حكمته في الأعضاء التي خلقت فيك أحاداً ومثنى وثلاث
- ٢٦٧ د في أن اختلاف صور الإنسان من أقوى الدلائل على نفي الطبيعة
- ٢٦٨ د في حكمة اشتراك الرجل والمرأة في العانة وانقرا دل الرجل باللحية

حيفة

- ٢٦٨ فصل في الكلام على الصوت وبيان ما فيه من الأسرار
٢٦٩ د في أن الأعضاء التي يكون بواسطتها الصوت لها منافع أخر غير وجود الصوت
٢٧١ د في بيان الحكمة في كثير من أعضاء الحيوان
٢٧٣ د في بيان الحكمة في كثرة بكاء الأطفال وما لهم في ذلك من المصالح
٢٧٧ تفييه الفرق بين نظر الطبيب والطبايعي في هذه الأشياء
٢٧٧ د ثم تأمل حكمة الله تعالى في الحفظ والنسيان اللذين خص بهما الإنسان
٢٧٧ فصل في الكلام على خلق الحياء الذي خص به الإنسان
٢٧٨ د في الكلام على نعمتي البيان النطقي والبيان الخطي
٢٨٠ د في حكمة إعطاء الإنسان علم ما لا بد له منه وحججه عماله غنى عنه
٢٨٢ فصل وكذلك أعطاه العلوم المتعلقة بصلاح دنياهم ومعاشهم كالطب ونحوه
٢٨٢ د في حكمة حجب الباري جل شأنه عباده عن علم قيام الساعة ومقادير آجالهم
٢٨٥ د ومنها أنه سبحانه يحب أن يتفضل على خلقه
٢٨٦ د في أنه سبحانه له الأسماء وأن لكل اسم منها أثر من الآثار في الخلق والأمر
٢٨٧ د لأنها أنه سبحانه يعرف عباده عزته في قضائه وقدره
٢٨٨ د ومنها أنه سبحانه يستجلب من عباده ما هو من أعظم أسباب السعادة
٢٩٠ د ومنها أن العبد يعرف حقيقة نفسه
٢٩٠ د ومنها تعريفه عبده سعة حله
٢٩١ د ومنها تعريفه العبد أنه لا سبيل له إلى النجاة إلا بهفوه
٢٩١ د ومنها تعريفه العبد كرمه بقبوله توبته
٢٩١ د ومنها إقامة حجة عدله على عبده
٢٩١ د ومنها أن يعامل العبد بنى جنسه في إساءتهم له بما يجب أن يعامله الله
٢٩٢ د ومنها إذا عرف هذا أحسن إلى من أساء إليه
٢٩٢ د ومنها أن يطلع صولة الطاعة من قلبه
٢٩٣ د ومنها أن الله عز وجل على القلوب أنواعا من العبودية
٢٩٣ د ومنها أن يعرف العبد مقدار نعمة معافاته
٢٩٤ د ومنها أن التوبة توجب للتائب آثارا عجيبة
٢٩٤ د ومنها أن الله يفرح بتوبة عبده أعظم فرح
٢٩٤ د ومنها أنه إذا شهد ذنوبه استكثر القليل من نعم ربه عليه

- ٢٩٥ فصل ومنها أن الذنب يوجب لصاحبه التيقظ
د ومنها أن القلب يكون ذاهلا عن عدوه
د ومنها أن مثل هذا يكون كالطيب
د ومنها أنه سبحانه يذيق عبده ألم الحجاب عنه
د ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة
د ومنها أنه سبحانه إذا أراد بعبده خيرا أنساه رؤية طاعاته
د ومنها أن شهود العبد ذنوبه يوجب أن لا يرى لنفسه على أحد فضلا
د ومنها أنه يوجب له الإمساك عن عيوب الناس
د ومنها أنه إذا وقع في الذنب شعر نفسه كغيره من المذنبين
د ومنها إذا شهد نفسه مع ربه مذنباً الخ
د فيما في ابتلاء العبد من الحكم والمصالح
د ثم تأمل في حال السكيم
د في الأمر بالنظر في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام
د في ذكر طرف من محاسن الدين الإسلامي الحنيف
د وبصائر الناس في هذا تنقسم إلى ثلاثة أقسام
د في بيان أن الفطرة والعقل يشهدان برب خالق قديم

(تم فهرس الجزء الأول من كتاب المفتاح)